المدخل إلى التاريخ العام للقانون

جزيرة العرب

مهد الحضارة الإنسانية

مهد نشأة فكرة الحق والقانون



الدكتور معروف الدواليبي

دار الشواف

جزيرة العرب

مَهْد نشأة فكرة الحق والقانون

المدخل إلى التاريخ العام للقانون

جزيرة العرب

مهد الحضارة الإنسانية

مهد نشأة فكرة الحق والقانون

الدكتور معروف الدواليبي

دار الشواف

*** د. معروف الدواليبي : المدخل إلى التاريخ العام للقانون**
جزيرة العرب
مهد الحضارة الإنسانية
مهد نشأة فكرة الحق والقانون

*** الطبعة الثالثة، ١٩٩٥ م / ١٤١٥ هـ**

* **الناشر** : دار الشوَّاف للنشر والتوزيع.
ص.ب ٤٣٣٠٧ الرياض ١١٥٦١
هاتف ٤٦٢٢٦٣٠ ـ ٤٦٢٢٦٦٧
تلكس ٤٠١٢٤٩ إس. جي/ فاكس ٤٦٢٢٨٦٦
شارع الثلاثين العليا ـ الرياض
المملكة العربية السعودية



مقدمة الطبعة الثالثة

لقد ظهر هذا الكتاب في طبعتيه السابقتين عام ١٩٦١ وعام ١٩٦٣ تحت اسم «المدخل إلى التاريخ العام للقانون»، وذلك التزاماً مني باسم هذه المادة المقررة في برامج «كليات الحقوق» في جامعات العالم حين عهد إليّ تدريس هذه المادة في «كلية الحقوق» في «جامعة دمشق». وتعني هذه المادة بذلك: «**تاريخ نشأة فكرة الحق والقانون وتطورها لدى الإنسان**» في مختلف حضاراته لدى الأمم وفي الأزمان. . .

غير أن جامعات الغرب التي كانت قُدْوتنا في تدريس هذه المادة، قد وقفت حينذاك عند حضارتي الغرب القديمتين: اليونانية والرومانية، وجعلتهما المصدر لكل شيء حتى قال «سير هنري مين Sir Henri Maine» في الحضارة اليونانية: «إذا استثنينا قوى الطبيعة العمياء، لم نجد شيئاً يتحرك في هذا العالم إلا وهو يوناني». . . وفي قول آخر له: «أخذت روح اليونان منذ ميلاد العقل الأوروبي للمرة الثانية تسري في الثقافة الحديثة سرياناً بلغ من قوته: أن جميع الأمم المتحضرة اليوم مستعمرات لهلاس ـ بلاد اليونان ـ في كل ما يتصل بالنشاط الذهني»!!!.

ويرى المؤرخون بعد ذلك: أن حضارة الرومان فرع من الحضارة اليونانية. . . وأن الثقافة الرومانية قد تميزت عن الثقافة اليونانية بأمور، وأهمها الشريعة والقانون. . . وهكذا، فقد أصبحت الشريعة الرومانية هي وحدها المنشأ اليوم للفكر التشريعي وتطوره في الغرب. . .

ولكن مؤلف كتاب «قصة الحضارة» في أجزائها الثلاثين: «ول ديورانت» يرد على ذلك كله، ويقول: «إن قصة الحضارة تبدأ في الشرق. . . وكم مما لدينا من علوم

وآداب وفلسفة ودين يرتد إلى مصر والشرق... وأن مدنيات الشرق قد كوّنت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية، التي ظن «هنري مين» خطأ أنها المصدر الوحيد الذي استقى منه العقل الحديث... وأن القول بذلك لم يعد مجرد غلطة علمية، بل إخفاقاً ذريعاً، ونقصاناً في ذكائنا»...

بل إن جورج سارتون أحد المؤرخين المحدثين، ومؤلف كتاب «تاريخ العلم» قال في صدد كلامه عن العرب: «لقد سبق لهم أن قادوا العالم في مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الإنساني طوال ألفي سنة على الأقل قبل أيام اليونان، ثم في العصور الوسطى مدة أربعة قرون تقريبا... وليس ثمة ما يمنع هذه الشعوب من أن تقود العالم ثالثة في المستقبل القريب أو البعيد»...

ولذلك كله، وعلى ضوء المكتشفات والدراسات الحديثة، فقد وضعت هذا الكتاب الجامعي لطلاب الحقوق حينذاك لاستدراك ذلك الخطأ في كتبنا، وذلك:

- على أساس تخطيط جديد مبتكر لتاريخ نشأة فكرة الحق والقانون...

- وعلى أساس أن «جزيرة العرب، مهد الحضارات الإنسانية الأولى التي قد أجمع عليها العلماء، هي المهد الأول لتاريخ نشأة فكرة الحق والقانون»...

وقدمت لذلك مصادر هذه الدراسات العلمية، وكلها تقوم على تحقيقات البحّاثين وكبار العلماء في الغرب...

وهذا ما دعاني اليوم لتغيير اسم الكتاب من: **«المدخل إلى التاريخ العام للقانون»**. الذي لا يدلُّ اسمه على أهمية محتوى الكتاب من الدراسات العلمية الهامة. إلى اسم آخر هو: **«جزيرة العرب هي المهد الأول لتاريخ نشأة فكرة الحق والقانون»**. وذلك لإشعار القارىء الكريم، بدءاً من الاسم وحده، بمحتويات هذا الكتاب الذي لا يستغني عنه اليوم طالب علم، أو باحث، ولا يمل منه قارىء...

هذا، وبناء على إلحاح الكثير من محبي العلم ومطالبتهم لي بتجديد طبع هذا الكتاب، أقدمه اليوم في طبعته الثالثة، وباسمه الجديد... ولله سبحانه وتعالى الحمد والشكر، وهو المستعان.

محمد معروف الدواليبي

الفصل الأول
معلومات وبحوث تمهيدية

أ ـ اضطراب حدود هذه المادة في جامعاتنا العربية

ب ـ حدود هذا العلم

ج ـ ما يعنينا في هذا العلم من نقاط وأبحاث

د ـ فوائد هذا العلم

هـ ـ تحديد الحق وشروطه

أ ـ اضطراب حدود هذه المادة في جامعاتنا العربية

اختلاف أشكال هذه المادة في كليتنا.

١ ـ لقد دُرِّست هذه المادة في كليتنا في أشكال مختلفة: ومنها منذ بضع سنوات ما كان في شكل تاريخ **لأصول الحكم في الإسلام** وعبقرية المسلمين فيها؛

إحدى هذه الأشكال «عبقرية الإسلام في أصول الحكم».

وكان من نتاج هذه الخطة أن ظفرت مكتبة جامعتنا بكتاب عظيم لمؤلفه الدكتور منير العجلاني، الذي وضع في ذلك منذ عشر سنوات كتابه «عبقرية الإسلام في أُصول الحكم»، وبحث فيه تاريخ الحكومة الإسلامية من عهد الرسول ﷺ إلى آخر العهد العباسي، متناولاً أهم مؤسسات الحكومة الإسلامية، ومستعرضاً أحياناً وبإيجاز الوضع الاجتماعي والإدارة الحكومية عند العرب في الجاهلية قبل الإسلام، ثم الحكومة الإسلامية ومقوماتها، والخلافة وأَحوالها وما يتعلق بها: من وزارة وإِمارة، وشرطة وجيش، ودواوين المظالم والقضاء والعقوبات، معدداً مآثر العرب والإسلام في الإدارة والحكم، والقضاء والعدل.

مطالبة مجلس الكلية بالتوفيق بين محتويات الكتاب السابق وبين مضمون التاريخ العام للقانون مع بيان نصيب

٢ ـ فكان كتاب «عبقرية الإسلام في أُصول الحكم» عظيماً في موضوعه، وبحثاً طريفاً جامعاً في ذلك.

ولم يمنع إِبداع مؤلفه فيه من مطالبة مجلس كلية الحقوق له بإعادة النظر في محتوياته:

الشعوب العربية القديمة قبل الإسلام وفقاً للاكتشافات الأثرية.

ـ **للتوفيق** فيما بين محتويات هذا الكتاب القيم وبين مضمون ما يجب أن يحتويه موضوع التاريخ العام للقانون، هذا من جهة؛

ـ ومن جهة ثانية **للمطالبة** ببيان ما في التاريخ العام للقانون من **نصيب للشعوب العربية القديمة** في حضاراتها الأولى قبل الإسلام، وقبل الرومان واليونان، وخاصة بعد الاكتشافات الكثيرة منذ مطالع هذا العصر العشرين بعد الميلاد حول الكثير من الشرائع القديمة **ذات الأصول العربية** فيما بين وادي النيل في مصر إلى الرافدين في العراق، ومن أبرزها شريعة حمورابي الكنعاني البابلي التي يعود تاريخها في أقل تقدير إلى أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد.

شكل آخر لهذه المادة إثر مطالبة مجلس الكلية بإعادة النظر.

٣ ـ وكان من أثر قرار مجلس الكلية بإعادة النظر لتحديد موضوع مادة **(التاريخ العام للقانون)** أن أقدم زميلنا الكريم الدكتور عدنان القوتلي على تدريس هذه المادة في شكل آخر، وبدأ يضع فيها «محاضرات مستعجلة في تاريخ القانون»، وذلك في سنة ١٩٥٥.

شكوى الدكتور القوتلي من عدم تحديد مضمون هذه المادة، وتناوله إيّاها في شكل تاريخ الحقوق وأطوارها في القديم والحديث لا سيما في سوريا.

٤ ـ وشكا زميلنا الأستاذ القوتلي في توطئة للكتاب من عدم تحديد مضمون هذه المادة في كليتنا، وتعيينه تعييناً واضحاً.

وأخذ على نفسه أن يتناول في محاضراته هذه: «تاريخ الحقوق وأطوارها، في القديم والحديث، وتطورها على الزمن لا سيما في سورية».

وقد أنجز من كتابه القيّم نحواً من مئتي صفحة، وكنا جميعاً في انتظار كتابه الجليل ليُضَمَّ إِلى ثروة مكتبتنا الجامعية.

إيقاف تدريس هذه المادة وتأليف لجنة لتجديد موضوعها.

٥ ـ ولكن مجلس كلية الحقوق تدخل مرة ثانية، وأوقف تدريس هذه المادة إلى أن يُتفَق على وضع منهاج لها؛ وأُلِّفَ لهذا الغرض لجنة في سنة ١٩٥٩ كنت في عدادها.

انتقال هذه المادة إليّ في ظل التنظيمات الجديدة، وحرماننا من تتمة جهد الدكتور القوتلي.

٦ ـ ولم يمض أسابيع على تأليف تلك اللجنة حتى صدرت تعديلات أساسية في أنظمة جامعتنا على إثر وحدة سورية مع مصر في ظل الجمهورية العربية المتحدة، وجمعت هذه المادة مع مادة القانون الروماني في كرسي جامعي واحد وأُسند إِليَّ، واستأثر كرسي القانون المدني بالزميل الكريم الدكتور عدنان القوتلي، وحُرِمنا من تتمة جهده الذي بدأ به.

هذا الخلاف في حدود هذه المادة في دمشق موجود مثله في مصر.

٧ ـ وهذا الاختلاف الذي عرضته في حدود هذه المادة في كليتنا في دمشق ما بين أستاذ وآخر، لم ينج منه أيضاً زملاؤنا في الكليات المصرية:

ـ فبين يديَّ الآن كتاب «أبحاث التاريخ العام للقانون» لواضعه الأستاذ السيد علي بدوي، وقد طُبع في سنة ١٩٤٧؛

ـ وكذلك كتاب آخر «التاريخ العام للقانون في مصر القديمة والحديثة» لمؤلفه الأستاذ شفيق شحاته من أساتذة كلية الحقوق في جامعة عين شمس، وقد طبع في سنة ١٩٥٨.

اختلاف محتويات كتاب البدوي عنها في كتاب شحاتة: محتويات كتاب البدوي.

٨ ـ فالكتاب الأول يختلف في محتوياته تمام الاختلاف عن محتويات الكتاب الثاني:

ـ ففي الكتاب الأول للأستاذ علي بدوي أُعطى الاهتمام في أول الأمر إلى البحث المقارن في تكوين الشرائع القديمة

ووسائل تطورها؛ **ثم ركز** اهتمامه على الشرائع اللاتينية والانكلوسكسونية، أي القانون الروماني وانتشاره في أوروبا، ونشأة القانون الإنكليزي ثم تطوره وانتقاله إلى أمريكا، **وبعد ذلك** أبحاث ثانوية عن ظهور الشريعة الإسلامية وانتشارها؛ **ثم أبحاث** أخرى كما جاءت في تخطيط الكتاب عن تاريخ القانون المصري في العصور السابقة وفي العصر الحالي؛

محتويات كتاب شحاتة.

ـ أما في الكتاب الثاني للأستاذ شفيق شحاته فقد اقتصر التخطيط على دراسة تاريخ القانون في مصر القديمة والحديثة **دون التعرض** لما جاء في كتاب الأستاذ علي بدوي من دراسة تطور القانون في عصر ما قبل التاريخ؛ **وكذلك** لم يتعرض للتشريعات القديمة في غير مصر كتشريع حمورابي أو غيره؛ **وكذلك لم يتعرض البتة للشرائع اللاتينية والانكلوسكسونية لأن كل ذلك ليس له صلة بالقانون المصري**[1].

الواجب الأول عليَّ بيان حدود هذا العلم لنتجنب كل لبس.

٩ ـ إن هذا الاضطراب في حدود هذه المادة في جامعاتنا، أو الاختلاف في عرض موضوعاتها بأشكال مختلفة، **أوجب عليَّ** عندما أُسندت هذه المادة إليَّ: أن أبدأ في أول ما أبدأ به **ببيان حدود** هذا العلم الحديث، أو هذه المادة في التاريخ العام للقانون، كي أسير في خطواتي على هدى، وأُجنب القارىء كل لبس وغموض؛

وهذا ما أوجب عليَّ أن أقدم في سبيل ذلك بعض **التمهيدات التالية**، حتى لا يدخل في هذا العلم ما ليس منه، ولا يخرج منه ما هو منه.

---

(١) الصفحة: ٥.

ب ـ حدود هذا العلم

لكل دولة معاصرة شرائع خاصة بها.

١ ـ لكل دولة من الأمم المعاصرة شرائع خاصة بها تسوس حركة أبنائها، وقوانين تتولاهم بأحكامها.

ولكل من هذه الشرائع الخاصة تاريخ خاص في صدورها وبيان أسسها.

٢ ـ ولكل من هذه الشرائع والقوانين الخاصة قصة **وتاريخ خاص**:

ـ **يشرح لنا أولاً** متى صدر هذا القانون، **ويبيِّن لنا مَنْ** الذين قاموا عليه فوضعوه، **ويذكر لنا** أصحاب السلطة الفعلية الذين أصدروه، ويعدد لنا العوامل التي دعت إليه وساهمت فيه، **ونحو ذلك** مما هو جزء من تاريخ ذلك القانون، ولكنه **خارج** عن صلب القانون ومبناه؛

ـ **ثم يفصّل لنا ثانياً** الأسس والقواعد التي بُني عليها، **ونحو ذلك** مما يتمم تاريخ ذلك القانون، ولكنه **من صلبه** ومبناه.

التاريخ الخاص بقانون شعب معاصر ليس غرضنا في هذا التاريخ العام للقانون، وذلك مثل تاريخ القانون المدني السوري.

٣ ـ غير أن هذا **التاريخ الخاص** بقانون أُمة من الأمم **المعاصرة**، أو شعب من شعوبها، النافذ في أراضيها، والمنظِّم لأوضاعها، ليس هو غرضنا في هذا **التاريخ العام للقانون**، وذلك مثل تاريخ القانون المدني في سوريا الذي يرجع بنا إلى **معرفة تاريخ** وضعه في سنة ١٩٤٩، **ومعرفة** الذين قاموا على تهيئته وتقديمه من اللجان، **ومعرفة** صاحب السلطة الذي أصدره

حينذاك وهو زعيم الانقلاب الأول حسني الزعيم؛ وكل ذلك كما ترون لا يعرِّفنا بشيء من التاريخ العام للحقوق والقانون.

ومثل السوري تاريخ القانون المدني المصري.

٤ ـ ومثل تاريخ القانون المدني في سوريا تاريخ القانون المدني في مصر النافذ فيها، ولكنه يرجع إلى تاريخ أسبق بقليل وهو أصل القانون المدني السوري، كما يرجع في وضعه إلى لجان أُخرى، وإلى سلطة هي السلطة التشريعية النيابية حينذاك في مصر، وهو كذلك لا يعرِّفنا بشيء من **التاريخ العام للقانون**.

ومثلهما تاريخ القانون المدني الفرنسي.

٥ ـ **وكذلك تاريخ** القانون المدني الفرنسي النافذ في فرنسا، وهو من أصول القانونين السابقين، ولكنه يرجع في تاريخه إلى نحو من عصرين، وفي وضعه إلى لجان وضعته حينذاك، وإلى سلطة هي السلطة التي كانت في يد نابوليون بونابرت إمبراطور فرنسا في ذلك الوقت، وهو كذلك لا يعرِّفنا بشيء من **التاريخ العام للقانون**.

تاريخ هذه القوانين تاريخ خاص وليس عاماً للقانون لدى البشرية.

٦ ـ ونحن نرى في كلٍّ مما ذكرنا من الأمثلة على القوانين النافذة: من تاريخ القانون المدني السوري، والقانون المدني المصري، والقانون المدني الفرنسي، **تاريخاً خاصاً** بالقانون في دولة من الدول، أو أُمة من الأمم، وليس **بتاريخ عام** للقانون لدى البشرية منذ أَقدم عصورها حتى الآن.

بعبارة أوضح: تاريخ هذه القوانين المعاصرة يعرِّفنا بالحلقة الأخيرة من التاريخ الخاص لا بنشأة فكرة القانون لدى البشرية.

٧ ـ وبعبارة أوضح إِن كلاً من تاريخ القانون المدني المعاصر النافذ في سوريا وفي مصر وفي فرنسا إنما **يقود** القارىء ليضع اصبعه على «الحلقة الأخيرة» من حلقات **التاريخ الخاص** بالقانون لدى دولة أو أُمة معاصرة ليتعرَّف على

القانون لدى تلك الدولة ولدى تلك الأمة المعاصرة **بخصوصها**، وليس ليتعرَّف على **نشأة فكرة الحق والقانون لدى البشرية في أقدم العصور والشعوب ومتابعة تطور ذلك خلال الأمم والأزمان، وهذا هو فقط موضوع التاريخ العام للقانون.**

موضوع التاريخ العام للقانون نشأة الحلقة الأولى لفكرة القانون لدى البشرية فما بعدها اتصالاً وانقطاعاً.

٨ ـ ولعلنا نستطيع الآن أن نقول بوضوح: **أن موضوع التاريخ العام** للقانون:

ـ إنما هو البحث عن **نشأة الحلقة الأولى** في أقدم عصور البشرية؛

ـ ثم ننزل في التاريخ متابعين البحث عن **الحلقات التالية** التي وصلت إلينا: سواء اتصلت هذه الحلقات الأخيرة بتلك الحلقات الأولى وانفصلت عنها، أو لم تتصل، وذلك للتعرُّف على سائر الحلقات، وعلى مقدار الصلة أو الانقطاع فيما بينها، ومكان التقليد أو الابتكار، مع التعمق في معرفة أُسس كل ذلك، وما فيه من مباني وعوامل؛

موضوع التاريخ الخاص للقانون نشأة الحلقة الأخيرة للقانون المعاصر لا نشأة الحلقة الأولى لدى البشرية.

وذلك كله على خلاف «التاريخ الخاص» بالقانون لدى دولة من الدول، أو أمة من الأمم، مما يقوم موضوعه على البحث:

ـ **في نشأة الحلقة الأخيرة فقط** للقانون لديهم مع بيان ما يتعلَّق بتلك الحلقة من وقائع تاريخية ومصادر أساسية،

ـ لا على البحث في **نشأة الحلقة الأولى** للقانون في **أقدم عصور البشرية فما يليها**.

بهذا البيان يندفع اللبس فيما بين التاريخ العام للقانون والتاريخ الخاص.

٩ ـ وعلى ضوء هذا البيان يندفع ذلك اللبس، ويزول ذلك الغموض المحيط بهذا العلم الحديث **للتاريخ العام للقانون**، ويُميَّز فيما بينه وبين **التاريخ الخاص بالقانون** لدى دولة من الدول أو أمة من الأمم.

١٠ - وإن ذلك اللبس وذلك الغموض هما اللذان كانا سبب التردد في تدريس هذه المادة في كليتنا بضع سنين: تارة بالبدء بها، وتارة بتوقيف تدريسها وإعادة النظر في محتوياتها، وتارة بالتنادي للعمل على تحديد موضوعها.

ذلك اللبس والغموض كانا سبباً للتردد في تدريس هذه المادة في كليتنا والتداعي لتحديد موضوعها.

١١ - هذا ولا يفوتنا أن نلفت النظر إلى أن كل **بحث تاريخي خاص** بقانون من القوانين النافذة لدى إحدى الدول أو الأمم **المعاصرة قد يصبح** فيما بعد إحدى حلقات التاريخ العام للقانون، إذا وجد سبيلاً إليها، ولكنه ما دام بحثاً مستقلاً وقاصراً على قانون أُمة معينة لاستجلاء تاريخه فيها، فهو **تاريخ خاص** للقانون وليس **بتاريخ عام**.

قد يصبح التاريخ الخاص إحدى حلقات التاريخ العام للقانون إذا وجد سبيلاً إليها.

١٢ - وهكذا فالبحث مثلاً عن **تاريخ التشريع الإسلامي** وحده في البلاد التي ساد فيها سوف **يظل تاريخاً خاصاً** بالقانون في هذه البلاد، ما لم نربطه بدراسة عامة لتاريخ القانون مبتدئين بدراسة **الحلقة الأولى** من نشأة فكرة الحق والقانون في أقدم العصور والأمم حتى نصل نزولاً في التاريخ إلى **الحلقة الإسلامية** في التشريع، لنعرف مقدار صلتها بالماضي وأثرها في المستقبل.

تاريخ التشريع الإسلامي مثلاً سيظل تاريخاً خاصاً ما لم نربطه بدراسة عن نشأة فكرة الحق قديماً حتى نصل إلى الحلقة الإسلامية ونعرف صلتها بالماضي وأثرها في المستقبل.

١٣ - وكذلك البحث في **تاريخ القانون المدني الفرنسي** وحده في فرنسا، سوف يظل **تاريخاً خاصاً** أيضاً بالقانون في هذه البلاد، ما لم نربطه بدراسة عامة لتاريخ القانون مبتدئين بدراسة **الحلقة الأولى** أيضاً منذ نشوء البشرية الأولى حتى نصل نزولاً في التاريخ إلى **الحلقة الفرنسية** في التشريع، لنعرف كذلك مقدار صلتها بالماضي وأثرها في المستقبل.

ومثل تاريخ التشريع الإسلامي تاريخ القانون المدني الفرنسي في الخصوص والعموم.

١٤ - بل ومثل ذلك كل بحث خاص في أي تاريخ قانوني

وكذلك كل بحث خاص

غابر كالبحث في تاريخ **القانون الروماني** وحده في الإمبراطورية الرومانية **الغابرة**، سوف يظل أيضاً **تاريخاً خاصاً** بالقانون في هذه البلاد، ما لم نربطه بدراسة عامة لتاريخ القانون مبتدئين بدراسة الحلقة الأولى أيضاً منذ نشوء البشرية الأولى حتى نصل نزولاً في التاريخ إلى **الحلقة الرومانية** في التشريع، لنعرف كذلك مقدار صلتها بالماضي وأثرها في المستقبل.

في أي قانون غابر.

١٥ ـ هذا وللمؤرخ للقانون بصورة عامة أن يعتبر القانون الروماني **الحلقة الأولى** المعروفة منذ نشوء البشرية، كما اعتقد ذلك الكثيرون من العلماء في القرون الوسطى، وأن يتابع عندئذ دراسته نزولاً في التاريخ حتى يعرف أثره في المستقبل في جميع الشرائع الأوروبية اللاتينية والانكلوسكسونية وغيرها؛ وتعتبر عندئذ مثل هذه الدراسة دراسة داخلة في التاريخ العام للقانون.

لمؤرخ القانون بصورة عامة أن يعتبر القانون الروماني الحلقة الأولى وأن يتابع تأثيرها فيما بعدها.

١٦ ـ غير أن هذا الاعتبار والاعتقاد بالقانون الروماني على أنه **الحلقة الأولى** التي عرفتها البشرية، إذا كان مُغتفَراً فيما مضى من القرون، فإنه في هذا العصر وبعد اكتشاف الشرائع فيما بين وادي النيل في مصر إلى الرافدين في العراق لم يعد البدء به كحلقة أولى مُغتفَراً أمام حقائق العلم والتاريخ: إِذ إن الشرائع التي أشرنا إِليها فيما بين النيل إلى الرافدين هي أعرق منه في القدم، وألصق بالحضارة التي سبقت حضارة الرومان واليونان بما لم يمكن بعد تحديده من الأزمان.

غير أن هذا الاعتبار للقانون الروماني بأنه الحلقة الأولى لدى البشرية لم يعد مغتفراً اليوم إِثر الاكتشافات الأثرية من مصر إلى العراق.

١٧ ـ لذلك كان من المحتوم عليّ في كتابي هذا عن التاريخ العام للقانون:

ـ **أن أتجاوز** ذلك الإطار التقليدي الذي ابتدأ فيه الكثيرون

لذلك وجب عليَّ أن أصعد في التاريخ إلى ما قبل الرومان كلما أسعفتني الوثائق وأن أبدأ

بشرائع الشعوب فيما بين النيل إلى العراق وهي كلها عربية.

بالحلقة القانونية الرومانية، مع أنها في نشأتها لا تتجاوز منتصف القرن الثامن قبل الميلاد؛

ـ **وأن أصعد** في التاريخ ما استطعت الصعود، وكلما أسعفتني الوثائق والآثار؛

ـ **وأن أبدأ الحلقة الأولى التاريخية** بالشرائع التي ظهرتَ فيما بين النيل إلى الرافدين، والتي يرجع عهد وثائقها إلى الألف الثالثة قبل الميلاد على الأقل، وهي مما يشرّفنا كما سوف نرى أنها جميعها عربية ومن أُصول عربية، ومن أقدم الشرائع البشرية التي وصلت إِلينا.

مثل واحد يكفي لبيان خطأ مَنْ اعتبر الحلقة الرومانية هي الحلقة الأولى لدى البشرية.

١٨ ـ ولعلَّ مثلاً واحداً في هذا التمهيد السريع يكفي للتدليل على خطأ مَنْ وقف من مؤرخي هذا العصر في تاريخ **نشأة الفكر القانوني** لدى البشر **على الحلقة القانونية الرومانية** ليبدأ بها عوضاً عن أن يبدأ بما تقدمها كثيراً من الحلقات القانونية التي تمَّ اكتشافها، وذلك مثل شريعة حمورابي بكاملها، ومثل شرائع الآشوريين، ومثل ما ظهر حتى الآن من شرائع مصر القديمة.

ذلك المثل هو شخصية الرقيق في كل من القانونين الحمورابي والروماني.

١٩ ـ ونكتفي هنا، للمقارنة فيما بين الفكر القانوني الروماني وبين الفكر القانوني الحمورابي السابق بنحو ألفين من السنين على الفكر القانوني الروماني، بضرب مَثَلٍ واحد في شخصية الرقيق في كل من القانونين.

فقدان الشخصية الحقوقية للرقيق في جميع أدوار

٢٠ ـ ففي القانون الروماني ظلَّ **الرقيق** رغم شخصه الإنساني **شيئاً من الأشياء** لا يُعترَف له بشيء من الشخصية الحقوقية في الألواح الاثني عشر وفيما قبلها من الأعراف الرومانية السائدة منذ منتصف القرن الثامن قبل الميلاد؛

واستمرّ الأمر كذلك في أَلصق شيء بإنسانيته حتى دخل تشريع جوستينيان في منتصف القرن السادس بعد الميلاد، وذلك فيما يتعلق بحرمان الرقيق من الزواج بالمرأة الحرة.

الحقوق الرومانية وخاصة في الزواج بالحرة.

٢١ ـ بل كان الوطني الروماني الحر إذا وقع في الرق بسبب عقوبة قُضي بها عليه فُسِخَ زواجه! وظلَّ الأمر كذلك إلى أن جاء جوستينيان في منتصف القرن السادس بعد الميلاد وأصدر مرسومه الجديد ذا الرقم «٢٢» فقال فيه: «إن الحكم بالشغل في المعادن كان يستتبع وقوع المحكوم عليه في الرق، ويترتب على هذا فسخ زواجه ما دام هو أصبح عبد العقوبة! ولكن هذه صرامة بدا لنا أن نخفف منها، فنحن نأمر بأن هذا المحكوم عليه يحتفظ بحريته حتى لا يسري أثر حكم القضاء إلى زواجه فيفسخه»[١].

فسخ زواج الوطني الروماني عند الحكم عليه بالرق عقوبة وتعديله في عهد جوستينيان فقط.

٢٢ ـ وإذا رجعنا في هذا المقام إلى شريعة حمورابي لنتعرَّف على شخصية الرقيق فيها قبل أكثر من ألفين وخمسمئة سنة من جوستينيان لرأينا للرقيق شخصية حقوقية تليق بإنسانيته مما لم يستطع التشريع الروماني أن يتفهمه حتى في أرقى مراحله.

للرقيق في قانون حمورابي شخصية حقوقية في الزواج تسمح له بالزواج بالحرة وبالملكية.

لقد جاء في المادة «١٧٦» من شريعة حمورابي «إذا تزوج عبد مملوك لبيت عظيم، أو عبد لأحد من عامة الشعب، من ابنة رجل حر، وأتت إلى بيت الرجل العظيم، أو إلى بيت الرجل من العامة ببائنتها dot من بيت أبيها، ثم أن الزوجين سكنا في بيت تَمَلَّكاه من مالهما: فإذا مات الرجل

---

(١) **مدونة جوستينيان في الفقه الروماني**، ترجمة عبد العزيز فهمي، الصفحة: ٢٩، الحاشية ١، طبع دار الكاتب المصري سنة ١٩٤٦ القاهرة.

المملوك، سواء أكان مملوكاً للبيت العظيم أم لرجل من عامة الشعب، فلزوجته أن تأخذ بائنتها ونصف البيت الذي تَمَلَّكاه حصة لأولادها، والنصف الثاني يعود إلى صاحب العبد»[١].

بين القانونين في شخصية الرقيق بون شاسع.

٢٣ - وهكذا نجد البون الشاسع في شخصية الرقيق ما بين الشريعتين الحمورابية والرومانية:

- فهي في الأولى شخصية حقوقية تملك وتتزوج من الأحرار وتورِّث،

- بينما هي في الثانية شخصية معدومة وشيء فقط من الأشياء.

في هذا المثل يوضح لنا مقدار تقصيرنا في حق العلم إذا ظللنا نعتبر روما منشأ للفكر القانوني لدى البشرية ونهمل سبق شعوبنا العربية القديمة لها.

٢٤ - ويتضح لنا من ذلك كم نكون مقصِّرين في حق العلم فضلاً عن حق العرب القدماء إذا ظللنا نتابع تثقيف جيلنا في ناحية نشأة الفكر القانوني لدى البشرية مبتدئين به من روما المتأخرة في ظهورها عن ركب البشرية، عوضاً عن البدء به لدى موجاتنا العربية قبل آلاف من السنين، وفي صفحته المشرقة النيِّرة.

---

(١) **شريعة حمورابي**، ترجمة الدكتور عبد الرحمن الكيالي، الصفحة ٧٨، مطبعة الضاد، حلب، سنة ١٩٥٨.

ج ـ ما يعنينا في هذا العلم من نقاط وأبحاث

أوضحنا فيما سبق حدود التاريخ العام للقانون وحدود التاريخ الخاص.

١ ـ لقد أوضحنا في الصفحات السابقة **الحدود** التي يقع فيها علم التاريخ العام للقانون، وميَّزنا فيما بينه وبين التاريخ الخاص للقانون، كي لا يدخل في التاريخ العام للقانون ما ليس منه، ولا يخرج منه ما هو منه.

قلنا إِن التاريخ الخاص للقانون هو قصة التشريع لدى أمةٍ ما دون البحث عن صلته بنشأة فكرة القانون لدى البشرية الأولى.

٢ ـ وقلنا في **التاريخ الخاص للقانون: إنه القصة الخاصة بتشريع كل أمة على حدة:**

ـ فيما يتعلق بزمن صدوره وبواضعيه ومُصْدِرِيه وبالعوامل التي دعت إِليه وساهمت فيه، وفيما يتعلَّق بأسسه وبمبانيه،

ـ دون البحث عن صلته **بنشأة فكرة الحق** والقانون لدى البشرية في أقدم عصورها؛

وقلنا إِن هذا ليس غرضنا في هذا الكتاب.

وقلنا إِن التاريخ العام للقانون هو البحث في نشأة فكرة القانون لدى البشرية الأولى فما بعد.

٣ ـ وقلنا في **التاريخ العام للقانون**:

ـ إِنه الذي يبحث في **نشأة فكرة الحق والقانون** لدى البشرية في أقدم العصور والشعوب،

ـ ثم يتابع تطور ذلك خلال الأمم والأزمان؛

وقلنا: إِن هذا هو موضوعنا في هذا الكتاب.

يجب الإلحاح الآن في ذلك بتعيين النقاط الكبرى وبإبراز ما يعنينا منها.

٤ - ويتوجب علينا أن نلحَّ الآن في ذلك أيضاً، ولكن من ناحية ثانية بالإضافة إلى ما سبق، زيادةً في إِيضاح حدود هذا العلم، ومبالغة في بيان ما تشتمل عليه هذه الحدود من أبحاث أساسية، وذلك بتعيين النقاط الكبرى التي يقصد إِليها ذلك العلم، وبإبراز ما يعنينا منها بكل صراحة ووضوح.

هل يمكن معرفة تاريخ نشأة البشرية وأوضاعها حينذاك؟.

٥ - وإِذا كان التاريخ العام للقانون كما قلنا: هو الذي يبحث في نشأة فكرة الحق والقانون لدى البشرية في أقدم العصور والشعوب:

- فهل من الممكن أولاً معرفة تاريخ **نشأة البشرية**؟

- وبالتالي هل من الممكن معرفة تاريخ **أوضاع البشرية** حينذاك؟

نشأة الأرض أقدم من نشأة البشرية بكثير.

٦ - من الثابت لدى العلماء:

- أن تاريخ **نشأة الأرض** أقدم من تاريخ **نشأة البشرية** بكثير جداً،

ونشأة البشرية ترجع إلى آخر الأزمنة الثالثة أو مطالع الرابعة من تكوين الأرض.

- وأن تاريخ **نشأة البشرية** على الأرض يرجع إلى آخر مرحلة الأزمنة الثالثة L'Ere Tertiaire من مراحل الأزمنة الجيولوجية في تكوين الأرض[1]، أو إلى مطالع الأزمنة

---

(١) تاريخ الأرض كتاريخ الإنسانية ينقسم إلى عدد من المراحل الكبرى التي ينفصل بعضها عن بعض بحوادث جسيمة، ويقال لهذه المراحل الكبرى **الأزمنة الجيولوجية**؛ وهذه الأزمنة هي **الأزمنة الأولى** أولاً ويقدر لها نحو من أربع وسبعين مليون وخمسمئة ألف سنة، **والثانية** ويقدر لها خمسة عشر مليون سنة، **والأزمنة الثالثة** ويقدر لها عشرة ملايين سنة، **والأزمنة الرابعة** الأخيرة وهي التي ظهر فيها الإنسان ويقدر لها في أقل تقدير خمسون ألف سنة - عن كتاب الزميل الأستاذ عمر الحكيم **في علم الجغرافيا**، الجزء الأول، الصفحات ٢٤-٣٠، طبعة ثالثة، دمشق، مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٨.

الرابعة L'Ere Quaternaire[1].

أقوال العلماء المختلفة في بدء الأزمنة الرابعة.

٧ ـ يقول الأستاذ هانري دوكوجي H. Decugis في كتابه مراحل الحق[2]:

ـ «تبتدىء الأزمنة الرابعة في قول بعض العلماء منذ نحو مئة وخمسة وعشرين ألف سنة على الأقل ـ١٢٥,٠٠٠ـ،

ـ وفي قول بعض آخر منذ نحو خمسمئة ألف سنة إلى ستمئة ألف سنة،

ـ وفي قول جيكي Geikie منذ ٦٢٠,٠٠٠ على الأقل،

ـ وفي قول بينك Pink ٥٠٠,٠٠٠ إلى مليون سنة،

ـ وفي قول بيلكريم Pilgrim منذ ١,٦٢٠,٠٠٠!

ـ وينقل الأستاذ عمر الحكيم في كتابه «تمهيد في علم الجغرافيا» عن بعض آخر من العلماء: أن الأزمنة الرابعة تبتدىء منذ خمسين ألف سنة[3]، وهي أقل مدة تُذْكَر لعمر الإنسان على هذه الأرض.

القول بنشأة أصول الحق والقانون في مطلع الأزمنة التاريخية فقط خطأ كبير.

٨ ـ ويقول الأستاذ دوكوجي في كتابه «مراحل الحق» السابق[4]: «إنه ليرتكب خطيئة كبيرة جداً ذلك الذي يردُّ نشأة أصول الحق والقانون إلى مطلع الأزمنة التاريخية[5]،

---

(١) مراحل الحق: Les Etapes du Droit هانري دوكوجي Decugis، الجزء الأول، الصفحة ١٨، مكتبة سيري Sirey، باريس سنة ١٩٤٢.

(٢) الصفحة ١٨، الجزء الأول.

(٣) الجزء الأول، الصفحة ٣٠، طبعة ثالثة، سنة ١٩٥٨، دمشق، مطبعة الجامعة السورية.

(٤) الجزء الأول، الصفحة: ١٧.

(٥) الأزمنة التاريخية لعمر الإنسان تبتدىء منذ عرف الإنسان الكتابة ويرجع ذلك إلى نحو من أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، أما ما =

أي إلى سبعة آلاف سنة أو ستة آلاف سنة بالنسبة للبلاد الشرقية على بحر الأبيض المتوسط، وإلى ألفين أو ثلاثة آلاف سنة بالنسبة لأوروبا الغربية».

الجزء الأهم من تاريخ التطور البشري فقدناه نهائياً.

٩ ـ ويتابع دوكوجي فيقول: «وفي الحقيقة نحن لا نعرف إلاَّ جزءاً صغيراً جداً من التطور البشري؛ وإن الجزء الأهم بكثير قد فقدناه تماماً، وسيبقى مفقوداً بلا شك إلى الأبد: لأنه تغيَّب دون أن يترك لنا أثراً من الآثار».

إن الحق قد نشأ قطعاً قبل استخدام البشرية للكتابة.

١٠ ـ ثم يضيف دوكوجي قائلاً: «إن الحق قد نشأ قطعاً قبل أن تعلَّمت البشرية استخدام الكتابة، وأن الكتابة في أقدم استعمالها لا ترجع إلا إلى ستة آلاف سنة أو سبعة آلاف سنة تقريباً. . .».

الأزمنة التاريخية تؤلف جزءاً من مئة بالنسبة لأزمنة ما قبل التاريخ.

١١ ـ وبعد ذلك يقول: «يجب علينا أن نكون قادرين على الغوص إلى آخر غور من أعماق **أزمنة ما قبل التاريخ** كي نعرف الصفحات الأولى من تطور النظم الإنسانية التي لا يؤلف ما كان منها في **الأزمنة التاريخية** إلاَّ جزءاً من مئة جزء»[١].

بفقدان صفحات التطور فيما قبل الأزمنة التاريخية

١٢ ـ **فإذا كان** ذلك الغوص إلى تلك الأعماق السحيقة من عمر الإنسانية قد أصبح متعذراً، بل مستحيلاً،

= قبل ذلك من عمر الإنسان فتُعرَف بأزمنة ما قبل التاريخ وتُقسَم إلى ثلاثة أدوار: الدور الحجري القديم Période Paléolithique، والدور الحجري الجديد Néolithique، والدور المعدني Periode des métaux؛ أما الأزمنة التاريخية فتقسم أيضاً إلى ثلاثة أدوار: القرون الأولى وتبدأ باختراع الإنسان للكتابة وتنتهي بسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ ب.م.؛ ثم القرون الوسطى وتمتد من ٤٧٦ إلى سقوط الإمبراطورية الشرقية وفتح المسلمين للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ م.؛ ثم القرون الحديثة وتمتد من سنة ١٤٥٣ حتى يومنا هذا.

(١) الصفحة ١٨ من الجزء الأول من **مراحل الحق**.

لا سبيل إلى معرفة نشأة القانون لدى البشرية في أقدم عصورها.

وإذا كانت صفحات التطور البشري في تلك العهود **فيما قبل الأزمنة التاريخية** قد فقدناها إلى الأبد دون أي أمل في العثور عليها، وتغيَّبت في بطون الدهر دون أن تترك لنا أثراً من الآثار،

فكيف السبيل إلى دراسة نشأة الحق والقانون لدى البشرية في أقدم العصور والشعوب؟؟

بسبب فقدان صفحات التطور فيما قبل الأزمنة التاريخية استعضنا عنها بدراسة نظرية بحتة وهي النقطة الأولى التي تعنينا في كتابنا.

١٣ ـ على ضوء هذه الوقائع والأسئلة، اضطر العلماء في هذه الحقبة من عمر الإنسان، الأطول في عمرها، والأعظم في قدرها، والمفقودة نهائياً من حياة البشرية، أن يعمدوا إلى الاستعاضة عنها **بدراسة نظرية** بحتة حول نشأة فكرة الحق والقانون في تلك الحقبة الطويلة المجهولة؛ وهذه هي **النقطة الأولى** من النقاط التي تعنينا من التاريخ العام للقانون، وتؤلف القسم الأول من مخطط كتابنا.

النقطة الثانية هي تقصي أول حلقة من تاريخ القانون في الأزمنة التاريخية فيما يليها حتى اليوم،

١٤ ـ **أما النقطة الثانية فهي:**

أولاً ـ **تقصّي أخبار أول حلقة** من حلقات التاريخ العام للقانون التي أمكن الوصول إليها في **أعلى الأزمنة التاريخية**، أي البدء بعرض أخبار أول شريعة وصلت إلينا للتعرُّف على عهدها ورجالها وكيفية صدورها؛

ثانياً ـ **متابعة ما يليها** من الحلقات حتى اليوم: سواء اتصلت بها أو لم تتصل، لمعرفة أخبارها أيضاً، ثم للتعرُّف على مقدار الصلة أو الانقطاع، ومكان التقليد أو الابتكار.

١٥ ـ **أما النقطة الثالثة فهي:**

النقطة الثالثة هي الاهتمام

أولاً ـ **الاهتمام** بعرض ما اشتملت عليه كل شريعة في ذاتها من **مجمل النظم** التي وضعت لتسوس حياة الإنسان فيها:

بعرض مجمل النظم في كل شريعة،

كالأحوال الشخصية، والملكية، والعقود والالتزامات، والعقوبات، والنظام القضائي، وغير ذلك من مجمل النظم؛

ثانياً - **معرفة ما هو موجود** ومعروف في الجملة من هذه النظم في كل شريعة، **وما هو مفقود** وغير معروف فيها.

النقطة الرابعة هي التعرف على الأسس التي قامت عليها تلك النظم مع تطورات تلك الأسس.

١٦ - وأمَّا **النقطة الرابعة** والأخيرة فهي **التعمق في كل نظام** من نظم الشريعة المعروضة من أحوال شخصية، وملكية والتزامات وغيرها، وذلك:

- **للتعرّف على الأُسس** والمبادىء التي قام عليها ذلك النظام،

- **ولمعرفة العوامل** والأسباب التي فرضت تلك الأسس والمبادىء،

- **ثم متابعة تطورات تلك الأُسس** مع الأزمان إن كانت هنالك تطورات، ومعرفة دواعيها؛

وذلك كمعرفة **أُسس الشخصية الحقوقية** وشروطها في نظام الأحوال الشخصية مثلاً، ومعرفة **أُسس الملكية** وقواعدها في نظام ملكية الأشياء، ومعرفة **الأُسس** والمبادىء التي تُشترَط **في العقود** والالتزامات، وكذلك **معرفة قواعد الدفاع عن الحق** وشروطه في نظام الادعاء والقضاء، دون التعرض إلى الأحكام التفصيلية في كل من نُظُم الأحوال الشخصية والملكية والالتزامات والقضاء.

مشتملات كتابنا: دراسة نظرية عن نشأة فكرة الحق فيما قبل الأزمنة التاريخية، ثم أخبار حلقات القانون في الأزمنة التاريخية، ثم

١٧ - وبعد فهذه هي في الجملة بكل وضوح مشتملات موضوع كتابنا:

أولاً - **دراسة نظرية بحتة** عن نشأة فكرة الحق والقانون لدى البشرية **في أزمنة ما قبل التاريخ**، تلك الأزمنة المجهولة وقائعها لدينا جهلاً تاماً؛

ثانياً ـ **تقصي أخبار حلقات التاريخ العام للقانون في الأزمنة التاريخية**، مبتدئين بأول حلقة وشريعة وصلت إلينا من أعلى الأزمنة التاريخية، ثم مواصلة أخبار ما يليها من الحلقات والشرائع حتى يومنا هذا؛

استعراض مجمل النظم في كل قانون، ثم التعرف على أسس تلك النظم.

ثالثاً ـ **عرض ما اشتملت** عليه كل شريعة في ذاتها من مجمل النظم التي وضعت لتسوس حياة الإنسان فيها،

رابعاً ـ وأخيراً **معرفة ما بني عليه** كل نظام عند وجوده: من **أسس وقواعد** قد تميزه عما عداه في شريعة أخرى أو تشركه فيها، دون التعرض إلى الأحكام التفصيلية في كل من النظم المعروضة.

١٨ ـ ومن هذا العرض السريع لمخطط كتابنا يتضح لنا أن موضوعه خطير واسع الأطراف وكثير الذيول:

مخطط كتابنا موضوعه خطير وحديث: يصلنا بأصول المجتمعات البشرية ثم يطوف بنا في عهودها حتى زمننا الحاضر.

ـ **فهو يصلنا** من ناحية بأصول المجتمعات البشرية في عهودها السحيقة المترامية الأطراف والمتلاطمة الأمواج؛

ـ **ثم لا يزال يطوف بنا** في عهود البشرية وأطوارها بما فيها من ظلمات ونور حتى يختم بنا المطاف في الزمن الذي نعيش فيه ونحيا؛

ـ **وفوق ذلك** فهو علم حديث لا تجد فيه كتاباً جامعاً، ولا نظرة شاملة؛ ولا بدَّ فيه من قراءة كل ما كُتِب عنه، مع الحاجة إلى كثير من الملاحظات، وتجنب الكثير من التقليد.

١٩ ـ وإنني إذ أعرض إلى خطر هذا الموضوع، وأشير إلى أهميته وعظمته وبُعْدِ أغواره وترامي أطرافه، أريد أن ألفت نظر القارىء الكريم منذ الآن إلى أنه لن يكون في

عظمة هذا الموضوع لا تتفق مع الوقت القصير

إمكاني في هذه المحاضرات المخصص لإلقائها على طلابنا نصف سنة مدرسية أي أربعة أشهر تقريباً، أن أقدم لهم موسوعة عامة في تاريخ نشأة القانون وتطوراته لدى البشرية في مختلف العهود والشعوب.

المخصص لتاريخ القانون.

٢٠ ـ وإذا كانت **الشرائع** صورة لا شك فيها عن المجتمع الذي نشأت فيه بأجمعه، فإن التاريخ العام للقانون **هو موسوعة** لا شك فيها عن أعظم ناحية من نواحي حياة المجتمعات البشرية في كل الأزمان وفي مختلف الأقطار: وهي الناحية الحقوقية.

لما كانت الشريعة صورة عن مجتمعها، فالتاريخ العام للقانون، موسوعة عن أعظم نواحي البشرية في مختلف الأزمان والأقطار.

٢١ ـ لذلك لن يكون كتابي هذا الذي أقدمت على إعداده لا عَلى مثال سابق، وصوَّرت بأمانة مخططاته، وأحطت وجوباً بعرض موضوعاته، **إلاَّ مدخلاً**. كما سميته. على التاريخ العام للقانون، وفهرساً موجِّهاً لمَنْ شاء التوسع فيما فيه من مسائل وفنون.

هذا الكتاب لن يكون في موضوعه إلا مدخلاً وفهرساً موجّهاً لمَنْ شاء التوسع.

٢٢ ـ وهو كما أشرت إلى موضوعاته الخطيرة ومخططاته الفسيحة أجدر بأن يتوفر عليه عدد من أصحاب الاختصاص؛

المخططات الفسيحة لهذا الكتاب تتطلب عدداً من أصحاب الاختصاص.

وإِلا فكيف يتيسَّر لي وحدي وقد شئت أن أرقى في حلقاته إلى ما فرضته علينا الاكتشافات الأثرية:

ـ لأجمع بين دفتيه أخبار ما قام من شرائع أولى فيما بين وادي النيل في مصر إلى الرافدين في العراق،

ـ **ثم أُتبعه** بما يليه من حلقات في الشرائع والقوانين لدى اليونان والرومان، والهند والصين والإسلام،

ـ ثم أتابع السير إلى أن أصل إلى الشرائع الحديثة ومصادرها؟.

الشرائع من وادي النيل إلى العراق سبقت جميع الحضارات البشرية، وهي عربية، ويجب الكشف عن وجهها العربي.

٢٣ ـ هذا، وإن ما كان من هذه الشرائع خاصة في وادي النيل إلى الرافدين في العراق، تلك الشرائع التي أصبحنا اليوم نعرف الكثير من أخبارها في مطالع الأزمنة التاريخية، وقد قامت في بلاد كانت حضاراتها بإجماع العلماء متقدمة في التاريخ على جميع الحضارات البشرية، سوف نرى أنها جميعها ترجع إلى **أصول ومدوجات عربية** لا شك فيها.

لذلك فإن الواجب يقتضينا، وخاصة في هذه الظروف من تاريخنا القومي، أن نكشف عن حقيقة **وجهها العربي** من مصر إلى العراق، ومنذ فجر التاريخ حتى اليوم، وأن ندعوها جميعها باسمها العربي الصريح.

هذه الشرائع من مصر إلى بابل يجب أن يتفرَّغ لكل منها أستاذ فضلاً عن أن يكتب فيها جميعها أستاذ واحد.

٢٤ ـ وإن كلاً من هذه الشرائع في مصر القديمة إلى بلاد بابل وكنعان ـ سورية اليوم ـ وآشور وآرام، ليستحق أن يتفرغ له أستاذ وأعوان، فضلاً عن أن يجمع في الكتابة عنها جميعها أستاذ واحد من غير معين.

ما أشرت إليه من سعة الموضوع هو عذر لي في تقديمها في صورة مدخل.

٢٥ ـ وهذا كله أقدمه أيضاً عذراً لي وشافعاً في عرض هذا الكتاب في صورة **مدخل إلى التاريخ العام للقانون، لا في كتاب جامع** شامل مما أترك أمره إلى مستقبل الأيام، إذا ساعدت الظروف والأحوال، وهو سبحانه وتعالى المستعان به على كل حال.

د ـ فوائد هذا العلم

إذا كان القانون صورة عن المجتمع، فتاريخه العام موسوعة عن أعظم نواحي المجتمعات البشرية.

١ ـ إذا كانت الشرائع والقوانين كما قلنا من قبل **صورة** لا شك فيها **عن المجتمع** الذي نشأت فيه بأجمعه فإن التاريخ العام للقانون هو **موسوعة تاريخية علمية** لا شك فيها عن أعظم ناحية من نواحي حياة المجتمعات البشرية في كل الأزمان وفي مختلف الأقطار.

لدراسة هذا العلم فوائد تاريخية وفوائد علمية حقوقية.

٢ ـ لذلك كان لدراسة التاريخ العام للقانون:

ـ فوائد **ثقافية عامة** ذات صفة تاريخية،

ـ وفوائد **علمية خاصة** ذات صفة حقوقية،

ـ وبعبارة أخرى فإن لهذه الدراسة فوائد:

أولاً ـ **تاريخية**، تعود على التاريخ بصورة عامة،

ثانياً ـ **علمية**، تعود على علم الحقوق بصورة خاصة.

الفوائد التاريخية ثلاث.

٣ ـ أما **الفوائد التاريخية** فترجع في الجملة إلى ثلاث فوائد:

نشأة فكرة الحق.

أولاً ـ التعريف بنشأة **فكرة الحق** لدى البشرية في أقدم عصور الإنسانية، **وبصور مراحلها** (آلهية، تقاليد، قوانين مكتوبة)؛

نشأة كل شريعة.

ثانياً ـ **التعريف بأخبار نشأة كل شريعة** من الشرائع القديمة التي وصلت إلينا، وما في ذلك من وقائع ومعلومات تلقي أضواءها على تلك الشرائع **والقوانين القديمة**،

ثالثاً ـ الاطلاع ما أمكن على ما يحيط بتلك الشرائع من أوضاع أهلها الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، هذه الأوضاع التي انبثقت عنها تلك الشرائع والقوانين، وكانت صورة كاملة عن تلك الأوضاع من غير شك.

ما يحيط كل شريعة من أوضاع.

٤ ـ أما الفوائد العلمية فترجع إلى تعريفنا:

الفوائد العلمية اثنتان.

أولاً ـ بمقدار صلة تلك الشرائع بعضها ببعض حتى وصلت إلينا، أو بمقدار انقطاعها عن بعضها ببعض؛

ثانياً ـ بعرض مواقع تلك الصلات أو الانقطاع، وتحديد مكان التقليد أو الابتكار؛

وما في ذلك من بحوث ومعرفة قد تلقي أيضاً أضواءها ولكن على شرائعنا الحديثة، وتعرّفنا بمقدار صلة الحاضر بالماضي.

٥ ـ وخلاصة القول في فوائد هذا العلم:

خلاصة القول في فوائد هذا العلم.

ـ أنه يكشف لنا أولاً عن أصول القانون وأسسه لدى البشرية في أقدم عصورها،

ـ ويعيننا ثانياً على فهم حاضر الإنسان في القانون، وكيف وصل إلى ما هو عليه.

ولذلك تكون دراسة تاريخ القانون ضرورة لازمة لفهم سابق الإنسان وحاضره في القانون.

٦ ـ وفي هذا الذي أشرنا إليه من الفوائد التاريخية والعلمية ثقافة عامة لطالب علم الحقوق لا يمكن تحديد أثرها العظيم:

في الفوائد التاريخية والعلمية ثقافة عامة لها

ـ في معلوماته الحقوقية،

أثرها وخاصة في تصحيح الأخطاء التاريخية السابقة.

- وفي وقائعه العملية اليومية،

- بل وخاصة **في تصحيح الكثير** من الأخطاء التاريخية والعلمية التي سادت في القرون السابقة من النهضة الحديثة، ولا نزال نقرأ بعض آثارها في هذا القرن أيضاً، تلك الأخطاء التي جعلت كل شيء يبدأ من اليونان، ولا شيء قبل حضارة اليونان! وتناست حضارة العرب القدماء من وادي النيل في مصر إلى الرافدين في العراق، وما قد كان لتلك الحضارات العربية القديمة من آثار فيما تلتها من حضارات يونانية ورومانية وغيرها حتى اليوم.

الزعم بأنه لا شيء في هذا العالم إلاّ وأصله يوناني أو مدين لليونان.

٧ - فقد كان سير هنري مين Sir Henri Maine يقول: «إذا استثنينا قوى الطبيعة العمياء لم نجد شيئاً يتحرك في هذا العالم إلاّ وهو يوناني في أصله»[(١)]؛

وفي قول آخر: «أخذت روح اليونان منذ ميلاد العقل الأوروبي للمرة الثانية تسري في الثقافة الحديثة سرياناً بلغ من قوته أن جميع الأمم المتحضرة أضحت اليوم مستعمرات لهلاس (بلاد اليونان) في كل ما يتصل بالنشاط الذهني!»[(٢)].

الردُّ على ذلك بما وصلنا

٨ - ولكن مؤلف كتاب «قصة الحضارة» ول ديورانت يعلّق على ذلك ويقول: «إن ازدياد معلوماتنا عن الحضارتين

---

(١) **قصة الحضارة**، ترجمة عربية للكتاب The Story of Civilisation لمؤلفه ول ديورانت Will Durant، الجزء الثالث من المجلد الثاني، الصفحة ٢٠٦، الحاشية (*)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٩٥٤.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة: ٢٠٦.

المصرية والآسيوية ليضطرنا إلى تعديل كبير في قول سير هنري مين المأثور والمبالغ فيه كثيراً»[1].

عن حضارات مصر وآسيا.

٩ ـ وفي مكان آخر من كتاب قصة الحضارة[2] يقول أيضاً ول ديورانت: «إن قصتنا ـ قصة الحضارة ـ تبدأ في الشرق، لا لأن آسيا كانت مسرحاً لأقدم مدنية معروفة لنا فحسب، بل كذلك لأن تلك المدنيات **كوّنت البطانة والأساس** للثقافة اليونانية والرومانية التي ظن «سير هنري مين» خطأً أنها المصدر الوحيد الذي استقى منه العقل الحديث!».

قصة الحضارة بدأت في الشرق وكوّنت الأساس لليونان والرومان.

١٠ ـ ثم يتابع ول ديورانت ويقول: «فسيدهشنا أن نعلم كم مُخْتَرعاً من ألزم مخترعاتنا لحياتنا، وكم من نظامنا الاقتصادي والسياسي ومما لدينا من علوم وآداب، وما لنا من فلسفة ودين، **يرتدُّ إلى مصر والشرق**».

الكثير من أسس حضارتنا اليوم يرتدُّ إلى مصر والشرق.

١١ ـ وأخيراً يقول نفس المؤلف متابعاً التعليق على هنري مين: «وفي هذه اللحظة التاريخية ـ حيث تسرع السيادة الأوروبية نحو الانهيار، وحيث تنتعش آسيا بما يبعث فيها الحياة، وحيث الاتجاه كله في القرن العشرين يبدو كأنما هو صراع شامل بين الشرق والغرب ـ في هذه اللحظة نرى أن **التعصب الإقليمي الذي ساد كتابتنا التقليدية للتاريخ**، التي تبدأ رواية التاريخ من اليونان، وتلخّص آسيا كلها في سطر واحد، لم يعد مجرد **غلطة علمية**، بل ربما كان إخفاقاً ذريعاً في تصور الواقع، ونقصاناً فاضحاً في ذكائنا!».

البدء برواية التاريخ في هذا اليوم من اليونان غلطة علمية وخلاف للواقع.

---

(١) نفس المرجع السابق، الحاشية (*).

(٢) الجزء الأول، الصفحة ط، القاهرة، نفس المطبعة السابقة، سنة ١٩٤٩.

هذا الكتاب سيرينا مقدار الخطأ الفاحش ببدء تاريخ القانون من أثينا وروما قبل العرب الأقدمين.

١٢ ـ وسوف نرى في كتابنا هذا، وهو مدخل خاص بالتاريخ العام للقانون، مقدار الخطأ الفاحش أمام التاريخ والعلم، إذا ابتدأنا تاريخ نشأة القانون من أثينا وروما كما جرت العادة من قبل، وأهملنا مصر وبابل وكنعان، وآشور وبلاد آرام، مما هو عربي لا شك في أصوله، وفوق اليونان والرومان في إبداعه وابتكاره.

هـ ـ تحديد الحق وشروطه

موضوعنا وهو نشأة فكرة الحق يوجب علينا تحديد مفهوم الحق أولاً.

١ ـ لقد تقدم معنا فيما سبق وقلنا في تحديد موضوعنا في هذا الكتاب: إنه الذي يبحث في **نشأة فكرة الحق والقانون**.

لذلك يتوجب علينا الآن أن نحدد **مفهوم الحق** أولاً، قبل أن نخوض في موضوعنا مع ترك الأساس الذي بُني عليه القانون غامضاً في مفهومه، ومتموجاً في حدوده.

تعريف الحق بصورة عامة: مجموعة للأحكام.

٢ ـ يقول الأستاذ هانري دوكوجي Henri Decugis في كتابه «مراحل الحق Les Etapes de Droit»[١]:

«يُعرّف الحق بصورة عامة بالقول: إنه مجموعة الأحكام التي تسوس مسلك الناس العائشين في جماعة مشتركة».

الملاحظة على هذا التعريف: جمعه بين الأخلاق والحقوق.

٣ ـ إن هذا التعريف على إطلاقه يشمل كما نرى مجموعة **الأحكام الأخلاقية** إلى جانب مجموعة **الأحكام الحقوقية**، لأن كلاً من الأخلاق والحقوق يدخل في هذا التعريف للحق بصورة مطلقة، ويسوس مسلك الناس العائشين في جماعة مشتركة.

التمييز بين دائرتي الأخلاق والحقوق.

٤ ـ ولكن **من المُسَلَّم به** لدى علماء الحقوق: أن دائرة أحكام الأخلاق ليست بالدائرة التي يُبحَث فيها عن أحكام الحقوق:

---

(١) الجزء الأول، الصفحة ٩، طبع مكتبة سيري Sirey، باريس، سنة ١٩٤٢.

ـ **لأن الضامن لأحكام الأخلاق** إنما هو ذمة الشخص وضميره مما هو صادر عن نفسه وعن إرادته،

ـ بينما **الضامن لأحكام الحقوق** إنما هو صاحب السلطان من فرد أو جماعة مما هوخارج عن نفس الشخص وعن إرادته.

ذلك التعريف للحق ناقص.

٥ ـ **لهذا كان** ذلك التعريف للحق بصورة مطلقة على نحو ما رأينا **ناقصاً غير كامل**، وفاتحاً بسبب هذا النقص الباب للمزج فيما بين الأخلاق والحقوق، فضلاً عن أنه غير مُعَرِّفٍ للحق التعريف الكامل.

ذلك التعريف للحق تنقصه فكرة القسر الملزم وهي أساسية في فكرة الحق.

٦ ـ وكذلك يرى الأستاذ دوكوجي الذي أشرنا إليه أعلاه: أن هذا التعريف للحق غيركاف[١]، لأنه تنقصه **الفكرة الأساسية للحق**؛ وأن تلك الفكرة هي **القسر الملزم** Contrainte:

ـ الصادر عن الجماعة،

ـ أو الناشىء عن الرهبة الدينية،

مما يجبر كل عضو من الجماعة على مراعاة أحكام الحق التي أصبحت بسبب ذلك فرضاً محتوماً.

الحق بدون قوة ملزمة كلمة لا معنى لها.

٧ ـ ويشتد إيهرينك Ihring في هذا المقام كما نقل عنه دوكوجي فيقول[٢]: «إن الحق بدون **قوة ملزمة** هو كلمة لا معنى لها».

هذه القوة لا يُشترَط فيها

٨ ـ ولكن **هذه القوة** التي لا وجود للحق بدونها هل يُشترطَ فيها أن تكون قوة الدولة؟.

---

(١) نفس المرجع السابق الصفحة ٩.

(٢) نفس المرجع السابق.

ـ وإذا كان الأمر كذلك فإن الحق لا وجود له في جميع ما مضى من مراحل حياة الإنسان قبل **نشوء الدولة** وتكوينها!

أن تكون قوة الدولة، وإلاَّ فهو خطأ فاضح.

وهذا خطأ فاضح ظاهر، لأنه لا يلقي بالاً للمنظمات التي تكونت قبل الدولة كالمنظمات القبائلية التي أقامت لأفرادها أحكاماً وحدوداً للحق، وفرضتها عليهم بالقوة والقسر.

٩ ـ ورغم ما في ذلك من خطأ بارز، فقد ذهب هذا المذهب إيهرينك وغيره من فقهاء القرن التاسع عشر، واعتقدوا بأن **هذه القوة** التي لا بد منها لنشأة الحق إنما هي **قوة الدولة**[١]!!

وقوع إيهرينك في ذلك الخطأ الفاضح البارز.

١٠ ـ ولكن الأستاذ دوكوجي في كتابه مراحل الحق يرد على ذلك قائلاً[٢]:

ردود دوكوجي على إيهرينك وأن الحق نشأ قبل نشوء الدولة وذلك في القبيلة ولدى الأشخاص.

«**في الواقع**: إن الحق قد ولد ونشأ قبل ولادة الدولة ونشوئها؛

وأن **القوة القسرية**، والتي تعطي للأحكام **طابعاً حقوقياً** مميزاً لها عما عداها، يمكن أن تصدر:

ـ **عن جماعة** كالأسرة أو القبيلة البديئة (بدائية Primitive) مما لا يمكن أن تسمى بالدولة،

ـ **أو عن شخص أقوى** من الآخر الذي يفرض عليه الأول أحكاماً في السلوك، وذلك مثل الزوج بالنسبة إلى زوجته، والأب بالنسبة إلى أولاده، والسيد بالنسبة إلى أرقائه».

١١ ـ وأخيراً يقول دوكوجي:

الأوامر الدينية الملزمة

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٩.

(٢) نفس المرجع السابق.

تتمتع بطابع حقوقي.

«**إن الأوامر الدينية**، التي غدت **أحكاماً تسرية** خوفاً من العقاب الإلهي، تتمتع لذلك أيضاً **بطابع حقوقي** بصورة لا جدال فيها».

وكل تكتل اجتماعي يقسر أفراده على الامتثال للواجبات له أيضاً طابع حقوقي.

١٢ ـ وفي الواقع أن **كل تكتل اجتماعي**، مهما كان بدئياً (بدائياً rudimentaire)، يتطلب من كل فرد من أفراده أن يمتثل للواجبات المشتركة، **ويقسرهم** عند الحاجة على الامتثال لتلك الواجبات بما لديه من وسائل[1]، وهذا ما يطبع أيضاً تلك الواجبات **بطابع حقوقي** لا شك فيه.

سلطة القسر ملازمة لفكرة الحق، وبفقدانها يُفْقَد الطابع الحقوقي.

١٣ ـ **ويتضح مما سبق** أن سلطة القسر كضامن هي ملازمة لفكرة الحق في معناه الحقوقي؛

وأنه كلما نقد الشخص تلك السلطة القسرية الخارجة عن إرادته فيما يمتثل له من أحكام، **نقد أيضاً** مع فقدان تلك السلطة القسرية **الطابع الحقوقي** لتلك الأحكام.

الأحكام بدون قسر هي عادات صرفة، وأخلاق لا طابع حقوقي لها.

١٤ ـ وبعبارة أخرى: إن تلك الأحكام التي فقدت السلطة القسرية الخارجة عن إرادة الشخص:

ـ غدت **مجردة من الطابع الحقوقي** الخاص،

ـ وأصبحت **عادات صرفة** دون أية صفة إلزامية،

ـ أو أصبحت **أحكاماً أخلاقية صرفة أيضاً**، ينقاد الشخص إليه مختاراً، دون أن يكون لتلك الأحكام ما يلزم بها أيضاً عن طريق القسر.

هذه الأحكام لا ضامن لها ولو أنكرت الجماعة انتهاكها، لذلك ليست

١٥ ـ وإن مثل هذه الأحكام التي فقدت السلطة القسرية **قد يؤدي انتهاكها** إلى إنكار الجماعة أو بعض أعضائها، وشجب منتهكها، ولكنها مع ذلك سوف تظل **مجردة من الضامن** الديني أو الاجتماعي.

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٩.

بقوانين ولا عادات في المعني الحقوقي.

وبناء على ذلك فإن مثل هذه القوانين:

- **ليست قوانين،**

- **وليست بعادات،**

في المعنى الحقوقي لهذه الكلمات.

التعامل الجماعي دون قسر لا يدخل في نطاق الحقوق.

١٦ - ونزيد إيضاحاً في ذلك ونقول **إن التعامل الجماعي المتبع عادة** من قبل أعضاء تكتلٍ من التكتلات الإنسانية، دون أي سلطة قسرية تضمن نفاذ استمرار ذلك **التعامل المتبع المعتاد** لا يكفي، ولن يكفي لإدخال ذلك التعامل في **نطاق الحقوق** بمعناها الخاص.

مثل هذا التعامل لا يدخل في الحقوق إلا إذا قُسِرَ عليه بطريقة ما: دينية أو سلطات عامة.

١٧ - بل إن مثل هذا التعامل **المتبع المعتاد** لن يدخل في نطاق الحقوق ما لم يصبح عند الحاجة ملزماً به **ومقسوراً عليه** بطريقة ما: وذلك عندما تصبح الجماعة قادرة بنفسها أو برئيسها على فرض الامتثال لأحكام ذلك التعامل:

- إِمَّا بطريق الرهبة من العقاب الإلٰهي،

- وإِمَّا بطريق الخوف من السلطات العامة[١].

الامتثال للأحكام المفروضة بطريق قسرية هو مصدر الحق.

١٨ - وهكذا فإن الامتثال للأحكام المفروضة على أعضاء تكتل اجتماعي، والمحتومة بإحدى تلك **الطرق القسرية** التي أشرنا إليها أعلاه، هو دون ريب **مصدر الحق**، وعندئذ فقط يوجد الشرط الضروري والكافي لمفهوم الحق[٢].

إيضاح ذلك بأمثلة: منها

١٩ - ويمكن إيضاح هذه الحقيقة بعرض بعض الأمثلة،

---

(١) دوكوجي H. Decugis، الجزء الأول ص ١٠.

(٢) نفس المصدر السابق.

تقديم الغذاء للمحتاجين ففي أحوال كثيرة هو معونة طوعية.

ومنها أن واجب تقديم الغذاء مثلاً للأشخاص المحتاجين لا يكون له في كثير من الأحوال طابع الإلزام الحقوقي:

- فقد يظل في كثير من الأحوال في **نطاق المعونة الطوعية** L'aide béneévole بصورة صدقة عاطفية واختيارية؛

ولكنه يدخل في الحقوق عندما يقسر عليه القانون المدني أو الديني.

- ولكن ذلك على خلاف ما تقدم يدخل قطعاً في **نطاق الحقوق** منذ اللحظة التي يأتي فيها القانون المدني أو الديني، مكتوباً كان أو لا، **قاسراً** الآباء على تغذية أطفالهم، ومجبراً الأولاد في دورهم إذا ما بلغوا أن يقدموا الغذاء إلى أصولهم عندما يصبح هؤلاء في حاجة.

ومثل ما تقدم جميع أنواع البرّ التعاوني دون قاسر.

٢٠ - ومثل ذلك أيضاً جميع **أنواع البر والإحسان التعاوني** الذي قد تقدمه الجماعات البديئة بمحض إرادتها واختيارها للمحتاجين من أفرادها، من مساكين ومرضى وعاطلين ومصابين ونحوهم من أصحاب الحاجة بسبب ما، دون أن يكون هنالك **قاسر ما** للجماعة على تقديم هذه المعونات غير إرادتهم الذاتية والطوعية:

- فإن ذلك يبقى في **نطاق المعونة الطوعية** بصورة عاطفية واختيارية، دون أن يكون له أية **صفة حقوقية**؛

ولكنه يخرج من نطاق المعونة الطوعية ويدخل

- ولكنه على خلاف ما تقدم، فإن هذه الجماعات إذا ما تقدمت في تنظيمها، وبلغت درجة من الحضارة فرضت فيها هذه المعونة على أفرادها بالقسر تجاه المحتاجين، وتجاه المصابين بمصيبة استثنائية تعويضاً لهم عمّا أصابهم من الأضرار بنتيجة حرب أو فيضان أو هزة أرضية أو جائحة مهلكة، فإن **هذا الإلزام والقسر** في المعونات والتعويضات الاجتماعية يخرج عندئذ تلك المعونات من نطاق **المعونة**

الطوعية والصدقات لتأخذ مكانها بحق في **نطاق الحقوق**، ولتحمل صفة حقوقية لا جدال فيها.

في الحقوق إذا فُرِض بالقسر.

٢١ ـ ومثال أخير على ذلك هو الزواج وما قد مر فيه من مراحل لدى بعض الشعوب والأمم.

وكذلك الزواج.

٢٢ ـ فقد كان الزواج في بعض المراحل ولدى الكثير من الشعوب البديئة (البدائية) كناية عن **صلة صرفة** وطبيعية بسيطة **وعادة متبعة** فيما بين الذكر والأنثى، مثل كل تصرف طبيعي من تصرفات الإنسان في طعامه وشرابه حين الحاجة إليه مما لا يدخل في **نطاق الحقوق** ولا يخضع لشيء من الأحكام.

كان في بعض مراحله البديئة صلة طبيعية صرفة مثل الطعام والشراب.

٢٣ ـ ولكن الزواج لم يلبث لدى هذه الشعوب والجماعات نفسها، حينما بلغت درجة من النظام الاجتماعي ومرحلة من مراحل الحضارة:

ـ **أن خرج** عن كونه صلة طبيعية بسيطة دعت إليها الحاجة الطبيعية،

ـ **واجتاز نطاق العادات** المتبعة دون أي حكم قسري في أشكالها، ليدخل في **نطاق الحقوق**: منذ أن انتهت هذه الصلة فيما بين الذكر والأنثى عن أن تكون محض تعايش موقت ناشىء عن عامل الصدفة أو الغزو، وأخضعت هذه الصلة شيئاً فشيئاً إلى **أحكام قسرية** ضمنت من قبل الجماعة بعقوبات شديدة وقاسية: كالأمر للرجل باختيار زوجته خارج عائلته الخاصة، وتحريم الزواج فيما بين الأقارب القريبين ضمن حدود معينة، ومنع طلاق الرجل لزوجته إلاَّ في حالات محدودة.

ثم دخل في نطاق الحقوق منذ أخضِعَت هذه الصلة إلى أحكام قسرية في التحليل والتحريم.

٢٤ ـ ومن جميع ما تقدم يظهر لنا الآن بكل وضوح أن

مما تقدم يظهر أن الحق

أحكام مضمونة بسلطة قسرية.

الحق إنما هو:

- مجموعة الأحكام التي تسوس مسلك الناس العائشين في جماعة مشتركة

- والمضمونة **بسلطة قسرية** تفرض نفاذ الأحكام، مهددة منتهك تلك الأحكام بعقوبةٍ ما.

الفصل الثاني

في أقدم الأمم في القانون

(وفيه ثلاثة ابواب)

الباب الأول ـ الشعوب العربية القديمة

الباب الثاني ـ الشعوب الشرقية الأخرى

الباب الثالث ـ الشعوب الأوروبية

الباب الأول

الشعوب العربية القديمة

أ ـ المقصود من أقدم الأمم في هذا الفصل

ب ـ أقدم الأمم في الحضارة ومن يليهم

ج ـ شعوب وادي النيل إلى ما بين النهرين

د ـ إسقاط دراسة قوانين بعض سكان هذه البلاد وأسبابها

أ ـ المقصود من أقدم الأمم في هذا الفصل

١ ـ **ليس غرضنا** في هذا المقام أن نشير إلى **أمم بذاتها** من أقدم الأمم في القانون فيما **قبل الأزمنة التاريخية**، لأننا كما قلنا من قبل (المبحث: ج ـ ما يعنينا في هذا العلم من أبحاث ـ الفقرات ٩ . ١١)[1] نحن لا نعرف في الحقيقة إلاّ جزءاً صغيراً جداً من التطور البشري، ويعود هذا الجزء إلى نحو من أربعة آلاف سنة إلى خمسة آلاف سنة قبل السيد المسيح، وهو التاريخ الذي حدد **لمطالع الأزمنة التاريخية**، واستخدام الكتابة من قبل الأجيال البشرية.

ليس الغرض هنا أمماً بذاتها قبل الأزمنة التاريخية لأننا لا نعرفها.

٢ ـ **وإن هذا الجزء** من الأزمنة التاريخية لا يؤلف في الواقع إلاّ جزءاً من مئة جزء من تاريخ البشرية على الأرض، وإن ما بقي منه فيما **قبل الأزمنة التاريخية**، وهو الجزء الأهم بكثير، قد فقدناه تماماً، وسيبقى مفقوداً بلا شك إلى الأبد، لأنه قد تغيَّب دون أن يترك لنا أثراً من الآثار.

الأزمنة التاريخية المعروفة جزء من مئة جزء غير معروف.

٣ ـ **ولكن غرضنا**:

ـ أن نشير إلى أمم بذاتها هي من أقدم مَنْ عرفنا من الأمم في القانون: **ضمن الأزمنة التاريخية**.

ولكن غرضنا أمم بذاتها ضمن الأزمنة التاريخية

(١) الصفحة ٢٤.

تمهيداً لدراسة حقوقها.

ـ وأن نعددها وفقاً للحقائق التاريخية التي انبثقت من الوثائق والآثار الثابتة التي خلّفتها الأمم،

ـ وأن نستعرضها واحدة بعد أخرى تمهيداً لدراسة حقوقها في أسسها وأفكارها الخاصة فيما يأتي بعد ذلك من فصول هذا الكتاب، ضمن الإطار الذي وضعناه لأنفسنا وهو: مدخل إلى التاريخ العام للقانون.

أقدم الأمم في القانون أقدمها في الحضارة.

٤ ـ فمَنْ هي أقدم تلك الأمم في القانون؟

إن أقدم تلك الأمم في القانون هي أقدمها بلا ريب في الحضارة مهما اختلفت درجة تلك الحضارة في بداءتها.

الحضارة أثر الاستقرار، والاستقرار لا يُتصوَّر بدون نظام محمي بالقسر.

٥ ـ وما الحضارة لدى شعب من الشعوب إلاّ أثر الاستقرار،

والاستقرار لدى جماعةٍ ما، مهما كانت بديئة في حياتها، لا يمكن تصور وجوده بدون نظام يقوم على أحكام تحميه، وسلطة ترعاه بالقسر عند الاقتضاء.

إذن معرفة أقدم الأمم في القانون تتوقف على معرفة أقدمها في الحضارة.

٦ ـ وهكذا يتوجَّب علينا إذا أردنا أن نعرف أقدم الأمم في القانون، أن نفتش عن أقدم الأمم في الحضارة.

فمَنْ هي أقدم الأمم في الحضارة؟ ومَنْ هي المصدر في ذلك؟.

ب ـ أقدم الأمم في الحضارة ومن يليهم

قال «مين» لا شيء في العالم إِلاَّ وأصله يوناني.

١ ـ يقول سير هانري مين Sir Henri Maine (كما تقدم معنا: مبحث ـ فوائد هذا العلم ـ الفقرة ٧): «إذا استثنينا قوى الطبيعة العمياء لم نجد شيئاً يتحرك في هذا العالم إِلا وهو يوناني في أصله»!.

وفي قول آخر روح اليونان استعمرت الثقافة الحديثة.

٢ ـ وفي قول آخر: «أخذت روح اليونان منذ ميلاد العقل الأوروبي للمرة الثانية تسري في الثقافة الحديثة سرياناً بلغ من قوته أن جميع الأمم المتحضرة أصبحت اليوم مستعمرات لهلاس (بلاد اليونان) في كل ما يتصل بالنشاط الذهني».

سارتون يرد على ذلك.

٣ ـ غير أن جورج سارتون يردُّ على أمثال هذا الزعم ويقول[1] لم يمضِ وقت طويل على الزمن الذي كان فيه الدارسون يرون:

ـ أن جذور المدنية الغربية كانت في اليونان فيما يتعلق بالعلم،

ـ وفي فلسطين فيما يتعلَّق بالدين؛

---

(١) **العرب تاريخهم بين الوحدة والفرقة**، محمود كامل، القاهرة، المطبعة العالمية، سنة ١٩٥٦ الصفحة ٢١.

ولم يكلِّف الدارسون أنفسهم أن يذهبوا إلى ما وراء ذلك!.

ويقول: اليونان مدينون لمصر وبابل.

٤ ـ ثم يقول سارتون: «ولكننا نحن اليوم نعلم أن اليونان واليهود أنفسهم مدينون بذلك كله للمصريين والبابليين، وربما أيضاً لغيرهم من الأمم التي تقدمتهم».

ويقول: العلوم الغربية ولدت في مصر والعراق.

٥ ـ ويقول سارتون أيضاً: «إن الحقيقة القائلة: أن مهد المدنية الغربية كان ضفاف النيل والفرات ودجلة، لم تكن تُفهَم حق الفهم قبل عصرنا الحاضر!».

«أما الآن فإنها أصبحت واضحة أجلى الوضوح؛ بل نحن اليوم نستطيع أن نجزم بلا تردد بأن العلوم الغربية ولدت في تلك البلاد المحظوظة».

ويقول: الشرق الأوسط هو ملتقى الطرق.

٦ ـ وأخيراً يقول سارتون: «يجب علينا أن ننظر دائماً إلى الشرق الأوسط على أنه أرض تلتقي فيه الطرق وتفترق؛ وقد اتفق لبعض الناس أن ادعوا بلادنا ـ الولايات المتحدة الأمريكية ـ بوتقة، ولكن هذا الوصف ينطبق انطباقاً أشد على الشرق الأوسط مع فارق واحد، ولكنه عظيم جداً، هو أن أمريكا قامت بهذه العملية نحو مئتي عام أو تزيد قليلاً، بينما الشرق الأوسط قد شهد هذا التمازج مدة تزيد على ذلك عشرين ضعفاً».

استقرَّ الرأي العلمي على أن حضارتي مصر

٧ ـ وينقل الأستاذ محمود كامل في كتابه «العرب: تاريخهم بين الوحدة والفرقة»[1] ويقول: «قد استقر الرأي العلمي على حقيقة هي:

(١) الصفحة ١٢، المطبعة العالمية، القاهرة، سنة ١٩٥٦.

- أن الحضارتين المصرية والعراقية هما أقدم حضارات العالم وأهمها:

والعراق أقدم الحضارات.

- وأن ما ظهر من حضارات أو ثقافات أخرى كان أقل منهما شأناً، واعتمد على إحداهما أو على كلتيهما معاً؛

- وأن هاتين الحضارتين كانتا تلتقيان في سوريا، ولذلك جعل مؤرخو تلك الحضارتين لدراسة الآثار السورية أهمية كبرى».

وأن سوريا ملتقى هاتين الحضارتين.

٨ - وأخيراً يقول ول ديورانت[١]: «وقصارى القول إن الآريين لم يشيدوا صرح الحضارة، بل أخذوها عن بابل ومصر، وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه، وكانوا الوارث المدلل المتلاف لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها آلاف من السنين... فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظّمنا شأنه فإنّا بذلك نعترف بما علينا من دين لمَنْ شادوا بحق صرح الحضارة الأوروبية والأمريكية، وهو دين كان يجب أن يُؤدَّى من زمن بعيد».

الآريون واليونان أخذوا حضارتهم عن مصر وبابل وكانوا وارثاً متلافاً.

٩ - وهكذا كان الفتح اليوناني وكذلك الروماني للشرق العربي تجميداً لمدنياته الأصلية عند الحدود التي وصلت إليها، ولم تعد تتابع تطورها وفق مبادئها الخاصة، كما لم يستطع اليونان والرومان متابعة تطويرها فوراً، لأن هذه المدنيات الشرقية كانت غريبة عن أثينة وروما، ولم يقدروا على تمثلها إلاّ تدريجاً وببطء[٢].

كان الفتح اليوناني والروماني للشرق العربي تجميداً لمدنياته.

---

(١) **قصة الحضارة**، الجزء الثاني، صفحة ١٠.

(٢) **روما والشرق الروماني**، سليم عبد الحق، الصفحة ب - ج طبع دمشق سنة ١٩٥٩.

لذلك نبدأ تاريخ القانون لدى الشعوب العربية من مصر إلى العراق.

١٠ ـ وبناء على هذه الحقيقة العلمية أصبح من الواجب علينا أن نبدأ تاريخ القانون **في أقدم عصوره التاريخية**، لا بالبحث عنه أولاً لدى اليونان والرومان، وإنما:

ـ بالبحث عنه أولاً لدى هذه الشعوب التي نشأت في «**مثلث الحضارة القديمة**» كما سماه جورج شفاينفورت George Schweinfurth[(١)] أي مصر واليمن وبابل، وبعبارة أخرى فيما بين وادي النيل في مصر إلى أراضي الرافدين في العراق وما بينهما من اليمن إلى بلاد الشام، وسوف نرى أن هذه الشعوب كلها ترجع إلى أصول عربية لا شك فيها،

ثم نتابع في الهند والصين.

ـ وأن ننزل بعد ذلك في التاريخ لنبحث عن تاريخ القانون في الهند وفي الصين القديمتين،

ثم في اليونان والرومان.

ـ ثم في اليونان وعند الرومان أيضاً،

ثم العرب في فجر الإسلام فمن بعد.

ـ وأخيراً عند العرب في فجر الإسلام،

ـ وأن نتابع البحث بعد ذلك حتى أيامنا هذه تتميماً للبحث التاريخي العام في القانون، كي نتعرف على الحقوق الحديثة فيما ترجع إليه من مصادر تعود إلى غابر الأزمان، وما أحدثت لنا من جديد في الأسس والأحكام.

تاريخ القانون لدى هذه الشعوب والأمم سيظلُّ في هذا الكتاب مخططاً لهذا العلم ومدخلاً على

١١ ـ غير أنني في هذا المدخل إلى التاريخ العام للقانون لن أستطيع أن أوفي هذه الأحقاب من تاريخ القانون ولدى جميع هذه الأمم والشعوب؛ ما تستحقه من بحوث كاملة، واستقصاءات شاملة؛

وإنما **أضع** هذا المدخل في الأصل ليكون مخططاً عاماً

---

(١) **العرب**: محمود كامل، الصفحة ٢٦، القاهرة، سنة ١٩٥٦.

لهذا العلم: **أشير فيه** في هذا المبحث محض إشارة إلى تاريخ القانون لدى الكثير من تلك الأمم، **وأعود بعد ذلك** في بقية الفصول إلى شيء من التفصيل لدى شعوب الشرق الأوسط القديمة التي أنشأت الحضارة الإنسانية، وفتحت أبواب هذه الحضارة للوالجين، وذلك بالنظر لأهميتها في تاريخ القانون أولاً، وبالنظر لصلتنا بها قومياً ثانياً.

أن نعود في بقية فصول الكتاب إلى شيء من التفصيل لدى شعوب الشرق الأوسط.

ج ـ شعوب وادي النيل إلى ما بين النهرين

الحقيقة العلمية التي استقرَّ عليها الرأي في مصر والعراق وسوريا.

١ ـ لقد نقلنا منذ قليل: أن الرأي العلمي استقر على حقيقة هي:

ـ «أن الحضارتين المصرية والعراقية هما أقدم حضارات العالم وأهمها»،

ـ «وأن هاتين الحضارتين كانتا تلتقيان في سوريا، ولذلك جعل مؤرخو تلك الحضارتين لدراسة الآثار السورية أهمية كبرى».

كلامنا عن القانون في هذه الشعوب سيأتي بعد، وهنا تخطيط بسيط وهام.

٢ ـ إننا سوف نتكلم عن القانون وأهله في هذه الشعوب في فصول مستقلة فيما بعد، وسوف نوليه أهمية خاصة؛

ولكننا هنا نقدم له تخطيطاً بسيطاً: يشير إلى أهمية البحث في تاريخ القانون في هذه المنطقة من العالم القديم، كما يشير إلى كثرة تشعباته ودقة أبحاثه.

مصر الفرعونية وإبداعها في الحضارة قبل اليونان والرومان.

٣ ـ ففي مصر قامت دولة راسخة في قدمها، ومبدعة في حضارتها؛ وترجع في ذلك إلى ما قبل الرومان واليونان بآلاف من السنين؛

وعُرِفَ أصحابها وملوكها في التاريخ القديم بالفراعنة؛

ووصل إلينا الكثير من أخبار نظمها وقوانينها؛ وأقدمها ما

عرف منذ الأسرة الفرعونية الثالثة التي تبدأ في سنة ٢٩٨٠ قبل الميلاد، ومن المعروف أن الأسر التي حكمت مصرعلى ما يقول مؤرخو مصر القديمة قد بلغت ثلاثين.

العراق الأكدية والبابلية والآشورية وحضارتها وقانون حمورابي.

٤ ـ **أما في العراق** فقد قامت دول راسخة أيضاً في قدمها، وذات إبداع في حضاراتها وسلطانها؛

وعُرِف أصحابها أخيراً في عهدهم القديم بالسومرين وبالأكديين والبابليين والآشوريين؛

ووصل إلينا عن البابليين أقدم شريعة كاملة في نصوصها، وقد وضعها حمورابي في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد في أقل الفرضيات.

حضارة المعينيين والقتبانيين والحضارمة والسبئيين في اليمن وحضرموت.

٥ ـ **وأما في رأس المثلث** إلى الجنوب في اليمن وحضرموت من شبه جزيرة العرب، فقد مضت دول قديمة أيضاً في تاريخها وحضاراتها، وعُرِف أخيراً بعض أصحابها بالمعينيين، والقتبانيين، والحضرميين، والسبئيين؛

ولم يصلنا بعد من أخبار نظمهم وشرائعهم إلاَّ القليل النادر.

بلاد الشام وحضارات سكانها.

٦ ـ **وأما فيما بين** مصر إلى بابل وآشور من بلاد الشام فقد قامت شعوب ودول عُرِف بعضهم بالعاموريين، وبالكنعانيين والفينيقيين، وبالآراميين والأنباط وغيرهم؛

ولم يصلنا إلا القليل من أخبار شرائعهم.

نرى في هذا التخطيط لمثلث الحضارة أربع مناطق متمايزة.

٧ ـ ويرى القارىء في هذا التخطيط السريع للدول القديمة في مثلث الحضارة من مصر إلى اليمن وبابل وآشور أن هناك أربع مناطق على الأقل متمايزة عن بعضها في مواقعها:

- فهناك مصر في غربي هذا المثل،
- وهناك اليمن وحضرموت في جنوبي هذا المثلث،
- وهناك العراق في الشمال الشرقي،
- وأخيراً هناك بلاد الشام في الشمال.

في كل من المناطق الأربع قامت دول ذات حضارات متعاصرة تستحق جهداً خاصاً لكشف تاريخها وقانونها.

٨ - وفي كل من هذه المناطق الأربع قامت دول كثيرة متتابعة، ذات حضارات متعاصرة، ونظم حقوقية ثابتة؛

وتستحق كل دولة منها، فضلاً عن كل منطقة، جهداً خاصّاً لعرض أخبار تلك الدولة، وتاريخها العنصري، والديني، والسياسي، والاجتماعي، والاقتصادي، **لنخلص من كل ذلك** إلى الكشف عن تاريخ القانون فيها الذي هو من أهم أغراضنا في هذا الكتاب، ولنتعرف من هذه البحوث العميقة على أسس شرائعها، وأحكام نظمها، وخصائص حقوقها.

تاريخ القانون في هذه الدول موسوعة علمية قانونية عالمية.

٩ - ولو أمكن البحث في كتاب واحد عن تاريخ القانون لدى كلٍ من هذه الشعوب والدول على اختلاف أقطارها لأصبحت موسوعة عالمية في تاريخ القانون، لا محاضرات لتلقى في سنة واحدة على طلاب الحقوق.

البحوث العلمية أثبتت وحدة أصول هذه الشعوب ولغاتهم.

١٠ - غير أن البحوث العلمية والمكتشفات الأثرية أثبتت وحدة أصول هذه الشعوب، واتجهت إلى أن مهدها الأساسي هو جنوبي شبه الجزيرة العربية، وأثبتت الكثير من التشابه في أعرافهم وعاداتهم ونظمهم، بل وفي لغاتهم.

سكان مصر القدماء جاءوا

١١ - يقول كوستاف جيكي أستاذ الأثريات المصرية في كتابه «تاريخ المدنية المصرية»[١]: إن سكان مصر القدماء

(١) **الوحدة العربية**، عزة دروزة، الطبعة الأولى، بيروت، سنة ١٩٥٧، الصفحة ٣٦.

جاءوا إليها من جزيرة العرب قبل ستة آلاف سنة، وأن الأُسر الفرعونية الأولى هي من هؤلاء القادمين؛

من جزيرة العرب ومنهم الفراعنة.

وقال مثل هذا هنري بروخ الألماني وهنري جونسون الإنكليزي في كتابيهما «تاريخ مصر» أيضاً.

١٢ - وكذلك قال والسن بدج مؤلف كتاب «سواء السبيل في سكان أرض النيل»[١]: إن الذي حققه العلماء أن الذين ملكوا مصر ووضعوا شرائعها منذ البدء جماعات هاجروا إليها من المشرق منذ بضعة ألوف من السنين قبل التاريخ المسيحي؛ وليس في مشرق مصر إِلاَّ جزيرة العرب من الجنوب والشرق، وسيناء المتصلة بالجزيرة من الشرق الشمالي كما لا يخفى.

حقق العلماء أن الذين ملكوا مصر جاءوا من جزيرة العرب.

١٣ - ويقول العالم الأثري المشهور أحمد كمال كما جاء في كتاب «تاريخ السودان العام» للدكتور حسني كمال: إن أصل اللغة المصرية واللغة العربية واحد، وإن الاختلاف الظاهر بينهما ليس إِلاَّ نتيجة لإسقاط بعض الكلمات في بلاد العرب وبقائها في وادي النيل أو بالعكس، ثم نتيجة لما يعتري الكلمات من القلب والإبدال، وما يطرأ على اللغات من تغير من معاملة الأجانب[٢].

وحدة اللغة المصرية القديمة واللغة العربية.

١٤ - وجاء في كتاب «العرب» للأستاذ محمود كامل[٣] أنه من الثابت علمياً أن هناك وحدة ملحوظة بين العناصر

الوحدة الملحوظة في

---

(١) **تاريخ الجنس العربي**، عزة دروزة، الجزء الثاني، الصفحة ١٠ طبع صيدا سنة ١٩٥٩، المطبعة العصرية.
(٢) نفس المرجع قبله.
(٣) الصفحة ٢٩، المطبعة العالمية، القاهرة سنة ١٩٥٦.

أصول شعوب الشام والعراق وفي لغاتهم.

الإِثنولوجية (المتعلقة بأصول الشعوب) لأقوام فلسطين وما بين النهرين الذين يُسمون عرباً وكنعانيين وفينيقيين وعاموريين وكلدانيين وآشوريين، كما أن هذه الوحدة ملحوظة أيضاً بين لغاتهم.

وحدة أصول سكان مثلث الحضارة ولغاتهم تجيز لنا إيجاز التكلم عنهم كأمة واحدة وقطر واحد إلى أن يكتب عن كل منهم بالتفصيل.

١٥ ـ وهذا ما يجيز لنا في هذا المدخل أن نتكلم بإيجاز عن تاريخ القانون في هذا المثلث من بلاد الحضارة العربية القديمة عندما نصل إليها، كما لو كنا نتكلم عن تاريخ القانون في قطر واحد وأمة واحدة، إلى أن يتيسَّر لنا ولزملائنا في تلك الأقطار الأساسية الأربعة أن يتفرَّغ علماء كل قطر، وخاصة أساتذة الجامعات فيه، لإنجاز تاريخ القانون فيه، كي يتألَّف من مجموع هذه الشُعَبِ الأربع التاريخ العام للقانون في هذا المثلث كما أردناه.

د ـ إسقاط دراسة قوانين بعض سكان هذه البلاد وأسبابها

إسقاط دراسات القانون لدى السومريين والإيرانيين والحثيين.

١ ـ ولا بدَّ لنا من الإشارة منذ الآن إلى أننا سوف نسقط من حساب دراستنا الموجزة هنا عن مثلث الحضارة تلك الدراسات القانونية المتعلقة أيضاً بشعوب ظهرت في هذا المثلث، وهم:

- السومريون في العراق، والذين وراءهم: العيلاميون،
- ثم **الإيرانيون** في العراق أيضاً،
- ثم **الحثيون** في الشمال الغربي من بلاد الشام.

هؤلاء ليسوا من جزيرة العرب وليس ذلك سبب إسقاط دراستهم.

٢ ـ وجميع هذه الشعوب يتجه الرأي العلمي فيهم إلى أنهم ليسوا من جزيرة العرب، وفي النتيجة ليسوا عرباً؛

غير أن هذا الاتجاه ليس هو السبب في إقصائهم عن دراستنا، وإنما هو فيما يتعلق بالسومريين **قوة حضارة الأكديين العرب** المعاصرين للسومريين في نزوحهم إلى العراق، ثم تغلب الأكديين وذباون الآخرين فيهم؛

وأما السبب فيما يتعلق بالآخرين من إيرانيين وحثيين فهو تبعيتهم في الحضارة للبابليين العرب كما سوف نرى.

(السومريون)

السومريون نزحوا إلى

٣ ـ أما السومريون فقد عُرِف أنهم نزحوا إلى العراق في

العراق إلى جانب الأكديين العرب.

أقدم الأزمان جنباً إلى جنب مع **الأكديين**[1]، وأن الأكديين لا يمثلون أول استيطان العرب في العراق، وإنما كان العرب موجودين في العراق منذ أقدم العهود إلى جانب السومريين[2].

الأكديون أقدم الدول العربية في العراق.

٤ - غير أن **الأكديين** أثبت التاريخ عروبتهم، وأنهم من أقدم الدول التي كوَّنها العرب في وادي الرافدين، وأنهم عُرِفوا بالسلالة الأكدية[3]؛

تغلب الأكديين على السومريين في الألف الثالثة ق.م.

وأنهم تغلبوا على جيرانهم السومريين خلال الألف الثالث قبل الميلاد على يد الملك سرجون الأكدي (ولفظه شرو كين أي الملك الصادق) في حدود سنة ٢٣٥٠ قبل الميلاد في رواية مصادر «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة» للسيد طه باقر[4]، أو في حدود سنة ٢٨٥٠ قبل الميلاد في رواية مصادر «العرب تاريخهم بين الوحدة والفرقة» للسيد محمود كامل[5]؛

فني السومريون في الدم العربي واختفوا.

وأنه قد فني السومريون في الدم العربي الجديد واختفوا من التاريخ اختفاءاً تاماً[6].

٥ - ولم يصل إلينا شيء عن القانون لدى السومريين قبل

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الأول الصفحة ٨٩، طبعة ثانية، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، سنة ١٩٥٥.

(٢) نفس المرجع الصفحة ١٢٢.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٢١.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) الصفحة ٣٨، المطبعة العالمية، (القاهرة) سنة ١٩٥٦.

(٦) الصفحة ٤٠ من المرجع قبله.

تغلب الأكديين عليهم لنتخذه صورة عن حضارتهم الخاصة.

لم يصلنا شيء من قانون السومريين.

عهد السلالة الأكدية العربية مثّل عهداً جديداً امتاز بقوة الفن وبالكتابة العربية الأكدية.

٦ ـ وقد لاحظ العلماء أن حكم سرجون الأكدي وعهد السلالة الأكدية ـ وإن لم يمثّلا فتحاً عربياً جديداً في العراق ـ قد مثّلا عهداً جديداً في تاريخ العراق القديم يتميز عما تقدمه بالأمور التالية[١]:

ـ أنه أنشأ روحاً جديدة في الفن تتميز بالقوة والحيوية والحركة كما تدلُّ على ذلك الآثار المنحوتة،

ـ وأنه أصبحت أكثر الكتابات الملكية والوثائق التجارية تُكتَب باللغة العربية الأكدية.

في حضارتي أكد وبابل صورة أصح عن شرائع العراق القديمة تغنينا عن سومر المعاصرة.

٧ ـ وهذا ما يجعلنا نصرف النظر في هذا المدخل عن دراسة القانون لدى السومريين، على أن نستلهم من قوة حضارة معاصريهم الأكديين فالبابليين العرب الصورة الصحيحة عن الشرائع القديمة السائدة في تلك العصور وفي ذلك الموقع من مثلث الحضارة القديمة.

ضرورة الإشارة إلى سلالة أور السومرية على أنقاض الأكديين.

٨ ـ هذا ولا ننسى أن نشير إلى سلالة «أور» الثالثة في العراق، وهي سلالة سومرية تكوَّنت في أثر ثورة على الدولة الأكدية في عهد اضطرابها، وأقامت على أنقاضها إمبراطورية واسعة على طراز الإمبراطورية الأكدية، وعمَّرت نحواً من قرن فقط، ويُعَدُّ زمنها آخر عهود السومريين[٢]، واعتبر مؤسسها الملك «أور ـ نمو».

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة** الموصوفة سابقاً، الجزء الأول الصفحة ١٢٣.

(٢) نفس المرجع قبله، الصفحة ١٣٢.

شريعتا «أور» السومرية و «أشنونا» البابلية.

٩ ـ وقد اكتشف في مطالع هذا العصر لمؤسس هذه السلالة السومرية الأخيرة نسخة من شريعته التي وضعها وعرفت **بشريعة «أور ـ نمو»**؛ وتكون بذلك أقدم من شريعة حمورابي بثلاثة قرون تقريباً[١]، وأسبق من أول شريعة بابلية المعروفة**بشريعة «اشنونا»** بنحو من قرن، وهذه الأخيرة شريعة وضعها البابليون عقب سقوط سلالة أور الثالثة، كما وضعوا بعد شريعة اشنونا بنصف قرن شريعة «لبت عشتار»[٢].

شرائع «أور، وأشنونا، ولبت عشتار» لم يعثر عليها كاملة.

١٠ ـ ومما يؤسف له أن ما عثر عليه من شريعة «أور ـ نمو» ناقص غير كامل، ولم يبق منه سوى المقدمة وبضع مواد قانونية[٣]؛

وكذلك كان شأن شريعتي «اشنونا» و «لبت عشتار» البابليتين حيث لم يُعثَر إلاّ على جزء من الأولى في لوحين من الطين، ويعادل ما فيها ربع ما في شريعة حمورابي[٤]، كما لم يُعثَر إلاّ على خمس وثلاثين مادة من الثانية التي زادت على مئة مادة[٥].

١١ ـ ويتبع السومريين العيلاميون في الشرق من دجلة وهم غير ساميين أيضاً، وقد كان لهم حضارة قديمة، ولكنها في نظر العلماء مشتقة من الحضارة السومرية[٦].

---

(١) نفس المرجع قبله نفس الصفحة، وكذلك الصفحة ٢٨٨.
(٢) المرجع قبله، الصفحة ١٤٤.
(٣) نفس المرجع قبله الصفحة ٢٨٧.
(٤) نفس المرجع قبله، الصفحة ٢٨٨.
(٥) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٩٠.
(٦) انظر الجزء الأول من **«مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة»**، الصفحة ٨١، وكذلك الجزء الثاني الصفحة ٣٨٢.

(الإيرانيون)

الإيرانيون شعب طارىء على العراق ولذا أسقطنا دراستهم.

١٢ ـ أما الإيرانيون، وهم من الشعوب الهندية الآرية، فإننا إنما نسقط دراسة شرائعهم في هذا المدخل لأنهم شعب طارىء على العراق، ولم تستقر قبائلهم في إيران أولاً قبل ٩٠٠ سنة ق.م[١].

هنالك شبه بين أسس قانون الإيرانيين وقانون حمورابي، والاشتغال بما وراءهم في الهند أهم.

١٣ ـ وقد وجد الباحثون في الأسس القانونية لدى الإيرانيين عدداً من أوجه الشبه بينها وبين شريعة حمورابي[٢].

ولذلك كان الاشتغال في هذا المدخل بمَنْ وراء الإيرانيين من الشرائع الهندية أكثر أهمية، وذلك بغية عرض ما هو جديد في تاريخ القانون من أمم أخرى ولو كانت في حضارتها متأخرة عن مثلث الحضارة العربي.

تأخر نشوء الحياة الحضرية في إيران عن العراق لعوامل طبيعية.

١٤ ـ ولا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى تأخر نشوء الحياة الحضرية والحضارة في إيران عن نشوئها في وادي الرافدين لعوامل طبيعية: منها الجفاف النسبي ومحدودية الأرض الزراعية الصالحة للري بالأنهار[٣].

سبب تأخر ظهور الحضارة في إيران أنها كانت هضبة ثلجية حين

١٥ ـ ومن المفيد أيضاً أن نشير هنا إلى ما كانت عليه هضبة إيران في الدورة الجليدية الأخيرة: ففي الوقت الذي كانت فيه جزيرة العرب ذات جو معتدل، وأمطار غزيرة، وأشجار وزروع، كانت هضبة إيران هضبة ثلجية تغطيها

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الثاني، الصفحة ٣٨٩، طبعة ثانية، سنة ١٩٥٦.

(٢) نفس المرجع قبله، الصفحة ٤٣٠.

(٣) نفس المرجع قبله، الجزء الثاني، الصفحة ٣٧٨.

كانت جزيرة العرب معتدلة.

الثلوج التي تحول دون تكوين مَوَاطن صالحة للأحياء[١]، وهذا أيضاً سبب آخر لتأخر سكنها عن سكن جزيرة العرب، وبالتالي تأخر ظهور الحضارة فيها وفيما وراءها من الهند الباردة والصين المكسوة بالجليد.

(الحثيون)

ظهور الحثيين الآريين وإزاحة أسرة بابل العربية الأولى.

١٦ ـ **أما الحثيون**، وهم أيضاً شعوب آرية غير عربية **على ما يظهر**، فقد ظهروا أولاً في الشمال الغربي من بلاد الشام، وهم الذين أزاحوا الأسرة البابلية العربية الأولى حول عام ١٩٢٥ ق.م.

احترام الحثيين لحضارة بابل وبناء حضارتهم عليها، ولذا أسقطنا دراسة قوانينهم في هذا المدخل.

١٧ ـ وقرر مؤرخو الشرق العربي القديم أن الحثيين الآريين **حرصوا** على احترام الحضارة البابلية العربية، **واستعاروا منها** كثيراً من عقائدهم الدينية، وفنونهم، والكتابة التي هي أداة الحضارة الضرورية[٢]، وما حضارتهم في الحقيقة إلاّ «حضارة فرعية من حضارة العراق القديمة الأولى»[٣].

ولذلك أسقطنا أيضاً دراسة قوانينهم في هذا المدخل الوجيز كما فعلنا في الإيرانيين.

أهمية دراسة الشرائع الحثية للتعرُّف على أثر العرب فيهم.

١٨ ـ ولكن من الواجب علينا أن نشير إلى أهمية دراسة الشرائع الحثية التي كانت على صلة بالدول العربية في بلاد الشام القديمة، لنتعرَّف على أثر تلك الدول العربية في الحثيين لا العكس.

---

(١) **تاريخ العرب**، جواد علي، الجزء الأول الصفحة ١٥٩، طبع بغداد سنة ١٩٥٠.

(٢) **العرب**، محمود كامل، الصفحة ٥١، القاهرة، سنة ١٩٥٦.

(٣) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، الجزء الأول الصفحة ٨١، الطبعة الثانية في بغداد سنة ١٩٥٥.

(العبرانيون)

أهمية دراسة الشرائع العبرية للتعرُّف على أثر العرب البابليين فيهم أيضاً.

١٩ ـ وهذا ما سنفعله أيضاً في شرائع العبريين، ولكن لا من حيث إسقاطها، بل من حيث القيام بإلقاء نظرة سريعة حول شرائع التوراة والتلمود، لنرى في تلك الشرائع المتأخرة عن شريعة حمورابي أثر العرب البابليين في العبريين لا العكس.

تاريخ أسفار التوراة والتلمودين الفلسطيني والبابلي.

٢٠ ـ وإن أقدم أسفار التوراة هو سفر «عاموس»، ويظن أنه كتب في حوالي ٧٥٠ قبل الميلاد[١].

وأما التلمود في قسميه الفلسطيني والبابلي فقد بدىء بوضع الأول في منتصف القرن الثالث بعد الميلاد، وبدىء بوضع الثاني في مطالع القرن الخامس بعد الميلاد، وانتهى في صيغته النهائية في مطالع القرن السادس بعد الميلاد[٢].

---

(١) **تاريخ العرب**، الدكتور جواد علي، الجزء الأول، الصفحة ٢٢، طبع بغداد، سنة ١٩٥١.

(٢) نفس المرجع قبله، الصفحة ٢٣.

الباب الثاني
الشعوب الشرقية الأخرى

(وفيه مقدمة ومبحثان)

مقدمة

المبحث الأول . الهند

المبحث الثاني . الصين

المقـدمة

١ ـ وأما الشعوب الأخرى غير العربية التي شاركت في تاريخ القانون بعد شعوب الشرق العربي بكثير فهي:

اليونان والرومان شاركوا بعد الشرق العربي في تاريخ القانون.

أولاً ـ اليونان،

ثانياً ـ الرومان.

٢ ـ وتتميماً للبحث التاريخي في القانون، كان لا بد لنا من الكلام ما أمكن عما عرف قبل اليونان والرومان أيضاً من شرائع في حضارات الشرق الأقصى، ولكنها على كل حال متأخرة عن شرائع الشرق العربي في التاريخ، وهي:

الهند والصين في الشرق الأقصى شاركوا أيضاً بعد العرب وقبل اليونان والرومان.

أولاً ـ في الهند،

ثانياً ـ في الصين.

٣ ـ وسوف نشير في المبحثين التاليين بكثير من الإيجاز إلى جميع هذه الشرائع، وقد نعود إلى التفصيل في بعضها في فصول مستقلة من هذا المدخل إن ساعد الوقت في هذه الطبعة، أو في طبعات أخرى إن شاء الله.

فيما يلي إشارة بإيجاز إلى شرائع هذه الأمم.

المبحث الأول: الهنـد

أ ـ الهند وسكانها

١ ـ ولنبدأ هنا بالهند وبشريعة «مانو» الهندية.

البدء بالهند.

٢ ـ «الهند» لفظة فارسية، وأصلها «سندو»، وهذه لفظة إِقليمية من «السند» إِحدى نواحي الهند.

أصل لفظة الهند ومعناها.

ومعنى «سندو» في اللغة الإِقليمية السندية «نهر» للدلالة على نهر السند الجبار؛

وقد حوَّرها الفرس إلى كلمة «هندو» ثم أطلقوها على الهند الشمالية كلها في كلمتهم «هندوستان» أي «بلاد الأنهار».

ومن هذه الكلمة الفارسية «هندو» نحت الإغريق الغزاة كلمة «الهند» وهي التي بقيت لنا إلى اليوم(١).

٣ ـ والهند في حدودها القديمة (بما فيها الباكستان اليوم) قارة عظيمة يبلغ عدد سكانها اليوم ما يزيد على أربعمئة مليون، وهو يزيد على سكان أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية مجتمعتين.

الهند قارة وسكانها كثيرون.

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الترجمة العربية، الجزء الثالث الصفحة ١٢، القاهرة سنة ١٩٥٠.

الهند لا تؤلف وحدة مثل مصر وبابل وتشبه أوروبا.

٤ ـ والهند بما فيها من كثرة اللغات التي قاربت نحو السبعين، وبما فيها من كثرة السكان، لا تؤلف لدى الناظر أمة واحدة مثل مصر أو بابل، وتشبه القارة الأوروبية بكثرة سكانها واختلاف لغاتها، بل واختلاف أجوائها وآدابها وفلسفاتها وفنونها[١].

معلوماتنا عن الهند قليلة.

٥ ـ ولا تزال معلوماتنا عن الهند القديمة قليلة وناقصة وحديثة[٢]، لأن إخراج ما تحتفظ به الهند في جوفها من الآثار قد بدأ في الأمس القريب[٣].

في علمنا عن الهند فجوة دلّت عليها الآثار.

٦ ـ بل إن في علمنا عن السكان الأقدمين فجوة يدلّنا عليها ذلك الازدهار الذي كشفت عنه الحفريات الحديثة فيما قبل غزو الآريين (١٦٠٠ ق.م[٤]) للهند.

ازدهار لدى الهنود القدماء قبل غزو الآريين.

٧ ـ فقد دلّت آثار السند على وجود ازدهار لدى سكان الهند القدماء **قبل الآريين**[٥]، وهؤلاء السكان هم:

ـ «**الناجا**» الذين يعبدون الثعبان، وقد وجدهم الآريون الغزاة قابضين على المناطق الشمالية؛

ـ و «**الدرافيديون**» في الجنوب، سود البشرة فطس الأنوف.

انهيار حضارة الهند في عهد الآريين.

٨ ـ وقد كان هؤلاء الأقوام من سكان الهند القدماء على شيء من الحضارة حين هبط عليهم الآريون[٦].

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٣.
(٢) نفس المرجع السابق الصفحة ٩.
(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٨.
(٤) **قصة الحضارة**، الجزء الثالث، الصفحة ٥.
(٥) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٩.
(٦) نفس المرجع السابق.

ولكن هذه الحضارة بدأت بالانهيار منذ عهد الآريين، ولا شك أن الآريين هم الذين قضوا عليها[١].

يُرَجَّح تأثر حضارة الهند القديمة بحضارات العراق.

٩ ـ ولا نزال نجهل الشيء الكثير عن هذه الحضارة في الهند لدى سكانها القدماء قبل غزو الآريين من حيث أصولها القديمة.

غير أن الباحثين وجدوا بعض الاتصالات بينها وبين الأطوار الحضارية في العراق، وهذا يرجِّح أنها تأثرت بالحضارة السومرية في نشوئها، ولكنها سارت فيما بعد مستقلة مما يجعلها من الحضارة الأصلية[٢].

الآريون والوطن الآري.

١٠ ـ أما «**الآريون**» فهم أبناء منطقة قزوين من بلاد إيران اليوم على شواطىء بحر قزوين، **وقد كان الفرس** من بني أعمامهم يسمون تلك المنطقة «إيريانا فيجو» ومعناها «الوطن الآري».

الآريون طارئون على الهند بُعَيد عهد حمورابي في بابل.

١١ ـ **فالآريون** إذن هم الطائفة الثانية الطارئة على سكان الهند، وكان دخولهم للهند في نفس الوقت تقريباً الذي كان **الكاسيون الآريون** يكتسحون فيه بابل[٣] عقب موت حمورابي بثمان سنين[٤].

حياة الهنود الآريين الأولى ثم الريفية.

١٢ ـ **وكان هؤلاء** الهنود الآريون يعيشون **بالحرب** والسلب أول الأمر، **ثم بالرعي** والزراعة والصناعة على نمط ريفي كالذي

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات**، طه باقر، الجزء الثاني، الصفحة ٣٣٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الجزء الثالث الصفحة ٢١ طبع القاهرة سنة ١٩٥٠.

(٤) نفس المرجع، الجزء الثاني، الصفحة ١٩٤، القاهرة سنة ١٩٥٠.

ساد أوروبا في العصور الوسطى[١].

الاستقرار في الأرض ونشأة الدويلات القبلية.

١٣ ـ ولما تحوّلوا من الحرب المسلحة إلى زراعة الأرض والاستقرار فيها، طفقت قبائلهم بالتدريج تأتلف **لتكوين دويلات**، كل منها يحكمها ملك يقيده مجلس من المقاتلين.

على رأس القبيلة «راجا» ومجلس.

١٤ ـ وكان على رأس كل قبيلة «راجا» أي رئيس، يقودها، ويحدد قوته مجلس قبلي.

كيان القبيلة ومجلسها.

١٥ ـ وتتألف كل قبيلة من **جماعات قروية** مستقل بعضها عن بعض استقلالاً نسبياً، ويحكم الجماعة القروية **مجلس** من رؤوس العائلات.

مناخ الهند في عهد الجموديات بارد.

١٦ ـ ومن المفيد أن نشير إلى ما كان عليه مناخ الهند في عهد الجموديات عندما كانت هذه منتشرة في الصين: فقد كان المناخ في الهند بارداً[٢].

(١) نفس المرجع، الجزء الثالث الصفحة ٢٥.

(٢) **تمهيد في علم الجغرافيا**، عمر الحكيم، الكتاب الأول، الصفحة ٣٨، دمشق ١٩٥٨.

ب ـ شريعة «مانو»

١ ـ وبعد تقديم تلك المعلومات الوجيزة عن الهند وسكانها ننتقل إلى المقصود منها، وهو تقديم معلومات وجيزة أيضاً عن تاريخ القانون والشريعة في الهند.

الانتقال إلى تاريخ القانون في الهند.

٢ ـ و «مانو» يُطْلَق عند الهنود على كل من الملوك المؤلَّهين السبعة الذين حكموا العالم، كما كان يطلق «فرعون» عند المصريين على ملوك مصر القدماء(١).

مانو في الهند كفرعون في مصر.

٣ ـ وإلى هؤلاء الملوك: المؤلَّهين أوحيت «شريعة مانو» من لدن الإلٰه «براهما» نفسه، ثم أبلغها مانو إلى كبار الكهنة، ثم بقيت محفوظة من عهد إلى عهد حتى وضعت في أسلوبها الشعري الحالي باللغة السنسكريتية، وهي لغة الهنود القدماء، وذلك في ٢٦٨٥ بيتاً من الشعر، وهي تصور مانو ابناً لله يتلقى القوانين من براهما نفسه(٢).

إيحاء شريعة مانو من براهما، ثم وضعها شعراً في السنسكريتية.

٤ ـ وقد ترجمت شريعة مانو في العصور الحديثة إلى بعض اللغات الأوروبية؛ فنقلها إلى الإنكليزية وليام جونز

ترجمة شريعة مانو إلى الإنكليزية والفرنسية.

---

(١) **أبحاث التاريخ العام للقانون**، على بدوي، الجزء الأول الصفحة ٣٦، مطبعة مصر، ١٩٤٧.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ٣٦، **وقصة الحضارة**، ول ديورانت، الترجمة العربية، الجزء الثالث، الصفحة ١٦٣، القاهرة سنة ١٩٥٠.

William Jones، وإلى الفرنسية دي لونكشام Deslongchamps.

شريعة مانو في سلوك: الإنسان دينياً ومدنياً.

٥ ـ وتوصف «شريعة مانو» بأنها كتاب ضخم يشمل كل ما يتصل **بسلوك الإنسان** وحياته من الوجهتين **الدينية والمدنية**؛

ـ **ففيها القواعد** القانونية والمسائل اللاهوتية، والمراسم التي يجب أن يسير عليها المرء في أدوار حياته المختلفة، وواجباته في الدين والعبادة وتقديم القربان والصوم والطهارة؛

ـ **وتحتوي** فوق ذلك على حِكَم أخلاقية وأفكار في الفنون الحربية والسياسية والتجارية؛

ـ **وتبين العقوبات** والكفارات، والجزاءات التي تصيب المذنب بعد الموت، وطرق الوصول إلى السعادة[١].

الاختلاف في تاريخ وضع شريعة مانو.

٦ ـ **أما تاريخ** وضع هذه الشريعة فغير متفق عليه حتى الآن، ولذلك اختلف الباحثون في تاريخ وضعها، وكل منهم يعتمد على التخمين والاستنتاج[٢]:

ـ فمنهم مَنْ يرجعه إلى سنة ١٨٢٠ قبل الميلاد،

ـ ومنهم مَنْ يرجعه إلى ألف سنة قبل الميلاد،

ـ ومنهم مَنْ يرى أنه أحدث من ذلك.

أقرب الآراء أنها وضعت

٧ ـ وربما كان أقرب الآراء إلى الحقيقة ما ذهب إليه المؤرخ الفرنسي «دي لونكشام Deslongchmaps»، وأيَّده فيه

(١) المرجع السابق علي بدوي، الجزء الأول، الصفحة ٣٦.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ٣٧.

بعض زملائه: من أن وضع شريعة مانو كان في خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مستنداً في ذلك إلى نصوص هذا القانون ومبادئه الدينية بالأدلة التالية[١].

في القرن الثالث عشر ق.م. بالأدلة التالية:

٨ ـ يؤخذ من شريعة «مانو» أنها شريعة **كثيرة المراسم والشكليات**، وأنها تفرض على البراهمة إجراءات وأشكالاً خاصة بحياتهم الاجتماعية والدينية في جميع مراحلها، حتى في ألوان أزيائهم وفي إشارات تحياتهم ومقابلاتهم وفي تسمية مواليدهم، **وكانت تسمى البرهمية**.

شريعة مانو كثيرة الشكليات وتُسمَّى البرهمية.

٩ ـ ولمَّا ظهر «**بوذا**» من البراهمة حول ألف سنة قبل الميلاد[٢] قام بحملة موفقة على **الإجراءات الرسمية والشكليات الدقيقة** التي بُني عليها دين البراهمة، وسُميت هذه الدعوة منذ ذلك **بالبوذية**.

ظهور البوذية وفلسفتها وحملتها على الشكليات في البرهمية.

وقد دعا بوذا في ذلك إلى الأخذ بالجوهر دون المظهر، وأنشأ فلسفة دينية جديدة مبناها أن الحياة عذاب، وأن العذاب سببه الشهوة والعاطفة، وأن القضاء على هذا السبب لا يكون إِلاَّ بضبط النفس وإنكار الذات، وبذلك يصل المؤمن إلى سبيل السعادة عند انتهاء حياته الأولى.

١٠ ـ ولمَّا كانت شريعة مانو لا تشير في شيءٍ ما إلى دعوة بوذا، ولا إلى مذهبه المهاجم لشكليات البرهيمة، كان ذلك دليلاً على سبق البرهمية للبوذية في التاريخ؛

شريعة مانو لا ترد على البوذية فهي إذن أسبق من

---

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، الصفحة ٣٧.

(٢) **أبحاث التاريخ العام للقانون**، علي بدوي، الجزء الأول، الصفحة ٣٨؛ وفي قصة الحضارة أن بوذا ظهر في ٥٦٣ـ٤٨٣ ق.م الجزء الثالث، الصفحة ٥، ٦٤.

البوذية التي ظهرت في الألف الأولى ق.م.

ولمَّا كانت دعوة بوذا إنما ظهرت خلال الألف سنة الأولى قبل الميلاد، كان ذلك دليلاً أيضاً على تقدم شريعة مانو في القدم على هذا التاريخ.

البرهمية كانت عقيدة توحيد.

١١ ـ ذلك من جهة؛ ومن جهة ثانية فإن **العقيدة الدينية الأولى** التي يتكلم عنها «قانون مانو» كانت قائمة **على التوحيد**: أي أن إلٰهاً واحداً أبدياً غير محدود هو أصل العالم وروحه، وهو «براهم» أو «الروح الأعظم» خالق هذا الكون وهادمه.

ثم تحوَّلت البرهمية إلى التثليث.

١٢ ـ وظلت **عقيدة التوحيد** الأولى كذلك إلى أن تحولت في عهد لاحق إلى **فكرة التثليث** التي أوحت بأن الروح الأعظم «براهم» تقمَّص في ثلاثة آلهة هم:

ـ براهما،

ـ وفيشنو،

ـ وسيفا.

عقيدة التوحيد فرضها كتاب فيدا في الرابع عشر ق.م.

١٣ ـ **ولما كانت عقيدة التوحيد** الأولى لدى البرهمية هي العقيدة التي يفرضها **كتابهم المقدس فيدا** Veda (ومعناه في الهندية الصلاة أو الأنشودة لحمد الله والثناء عليه[١] أو المعرفة[٢])،

ولما كان هذا الكتاب مما لا خلاف في أنه يرجع إلى نحو القرن الرابع عشر قبل الميلاد،

---

(١) نفس المرجع السابق، علي بدوي، الصفحة ٣٧، الحاشية ٤.

(٢) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الثالث: الهند وجيرانها، الصفحة ٣٨، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٥٠.

لذلك كان هذا دليلاً على أن «قانون مانو» هو معاصر أو تابع لعهد الكتاب المقدس فيدا، ولا يكون بعيداً عن الصواب القول عندئذ: إن ذلك القانون وضع حول القرن الثالث عشر قبل الميلاد[١].

وهذا دليل على معاصرة مانو لفيدا أو بعده في الثالث عشر ق.م.

١٤ ـ ومن الباحثين اليوم مَنْ يردّون هذا القانون إلى القرون الأولى بعد ميلاد السيد المسيح[٢].

ويقال برجوعه إلى ما بعد المسيح.

١٥ ـ ويقول ول ديورانت[٣] Wil Durant إِن القانون في ظل الملوك الهنود كان **مزيجاً مضطرباً**:

قانون مانو مزيج من أوامر ملكية وتقاليد قروية وطبقية.

ـ من الأوامر الملكية،

ـ ومن تقاليد القرى،

ـ ومن قواعد الطبقات.

١٦ ـ وكان التعذيب في العقاب مألوفاً في عهود الأسرات الحاكمة كلها حتى ألغاه في العهد الإسلامي السلطان فيروز شاه (١٣٥١ ـ ١٣٨٨ م)[٤].

التعذيب في عهد الأسرات الهندية وإلغاؤه في الإسلام.

١٧ ـ وكانت ألوان العقاب قاسية: تشمل بين أنواعها بتر الأيدي والأقدام والأنوف والآذان، وفقء الأعين، وصب الرصاص المصهور في الحلوق، وتهشيم عظام الأيدي والأقدام بمطرقة خشبية، وإحراق الجسم بالنار، وإنفاذ المسامير في الكفوف والأقدام والصدور، وقطع أعصاب

ألوان العقاب القاسية.

---

(١) **أبحاث التاريخ العام للقانون**، علي بدوي، الجزء الأول، الصفحة ٣٨.

(٢) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الترجمة العربية، الجزء الثالث الصفحة ١٦٤ القاهرة سنة ١٩٥٠.

(٣) المرجع السابق، الصفحة ١٦٢.

(٤) نفس المرجع، الصفحة ١٦٣.

المفاصل، ونشر الناس بمناشير الخشب، ثم قطع جسومهم أجزاء، وإنفاذ القضبان المسنونة فيهم، وشويهم على النار أحياء، وقذفهم تحت أقدام الفيلة لتدقهم دقاً حتى يموتوا، أو رميهم فريسة للكلاب المتوحشة الجائعة(١).

لم يكن في الهند قبل شريعة مانو غير الأعراف.

١٨ - ويتابع ول ديورانت قائلاً: **لم يكن هناك** (قبل شريعة مانو) تشريع قانوني واحد يشمل الهند بأسرها؛

بل كانت هنالك أعراف في شؤون الحياة اليومية ويسمون تلك الأعراف «**ذارما شاسترا**»، أي النصوص العرفية التي تفصّل **ما للطبقات من نظم وواجبات**.

كتب هذه الأعراف رجال براهمة، وأقدمها شريعة مانو.

١٩ - وقد كتب هذه النصوص العرفية رجال من البراهمة، وكتبوها من وجهة نظر برهمية خالصة.

وأقدم هذه النصوص ما يسمى «**بتشريع مانو**» وهو ذلك السلف الأسطوري الذي تسلسلت عنه جماعة البرهمية، وقد صورته هذه النصوص ابناً لله يتلقى القوانين من براهما نفسه(٢).

كانت شريعة مانو كتاباً صغيراً في السلوك للبرهميين.

٢٠ - وقد أريد لهذا التشريع بادىء الأمر أن يكون بمثابة الدليل والكتاب الصغير الذي يرشد **البرهميين** إلى أوضاع السلوك الصحيح.

ثم تطور وأصبح للمجتمع الهندي كله.

لكنه أخذ على التدريج يتطور حتى أصبح تشريعاً يحدد قواعد السلوك **للمجتمع الهندي** كله، وكان أقرب إلى التشريع

---

(١) نفس المرجع.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٦٣.

الخلقي منه إلى التشريع القانوني لأوضاع الحياة الجارية[1].

٢١ ـ وعلى رغم أنه في العهود الإسلامية لم يعترف به الملوك المسلمون قط، إلاَّ أنه قد اكتسب كل ما للقانون من قوة داخل حدود **نظام الطبقات**، مع الإشادة مرة بعد مرة بطبقة البراهمة في فضلها وحقوقها ونفوذها.

لم يعترف به المسلمون ولكنه كان قانوناً لدى الطبقات وفيه امتيازات طبقة البراهمة.

٢٢ ـ وما نزال نرى وثائق منذ القرن الثاني بعد الميلاد بمنح عظيمة ـ خصوصاً إقطاعيات من الأرض ـ توهب لطبقة البراهمة، وكان شأنها شأن أملاك البراهمة كلها معفاة من الضرائب، لأن تشريع مانو يحذِّر الملك من فرض ضريبة على برهمي، ولو نضبت كل موارد المال الأخرى.

أملاك البراهمة معفاة من الضرائب ولو نضبت موارد الدولة.

٢٣ ـ وينص تشريع مانوعلى أن يكون من حق البرهمي سيادته على سائر الكائنات؛

بل يذهب مانو في ذلك ويقرر أن: **«كل ما هو كائن في الوجود ملك للبراهمة»**[2].

حقوق البرهمي وسيادته على الكائنات لدى مانو.

٢٤ ـ **وليس للبرهمي** أن يتزوج من خارج طبقته[3]؛ **ولم يكن من تقاليدهم** أن يوصوا بشيء من ميراثهم، بل ينتقل بالموت انتقالاً آلياً من **متوفى الذكور** في الأسرة إلى أحيائهم[4].

الزواج والإرث لدى البراهمة.

٢٥ ـ وكلمة أخيرة عن شريعة مانو: أنها أبرزت نظام الطبقات والتمايز فيها بالحقوق، ولا نزال نلمس أثرها حتى اليوم في القسوة على المنبوذين وهي من الطبقة الدنيا!

شريعة مانو أبرزت تمايز الطبقات مع قسوة على الطبقة الدنيا.

---

(١) المرجع السابق، الصفحة ١٦١، ١٦٤.
(٢) نفس المرجع، الصفحة ١٦٧.
(٣) نفس المرجع، الصفحة ١٦٨.
(٤) نفس المرجع، الصفحة ١٦٥.

المبحث الثاني: الصين

أ ـ الصين وعهدها في الحضارة

١ ـ تُسمَّى الصين «جنة المؤرخين»، ذلك أنها ظلت مئات وآلافاً من السنين ذات مؤرخين رسميين يسجلون كل ما يقع فيها، وكثيراً مما لم يقع، ولذلك لا يثق العلماء بأقوالهم عن العهود السابقة لعام ٧٧٦ ق.م؛

الصين ذات مؤرخين رسميين لا يوثق بأقوالهم فيما قبل ٧٧٦ ق.م.

وإذا استمعنا إلى هذه الأقوال الصينية غير الموثوقة نجدهم يحدثوننا أحاديث مفصلة عن تاريخ الصين منذ ٣٠٠٠ سنة ق.م[١].

٢ ـ وليس في الناس مَنْ يعرف من أين جاء الصينيون؟ أو إلى أي جنس ينتسبون؟ أو متى بدأت حضارتهم في الزمن القديم[٢]؟.

لا يعرف أصل الصينيين وبدء حضارتهم.

٣ ـ وتدل كشوف أندرسون Anderson وغيره في هونان ومنشوريا الجنوبية على أن ثقافة تنتسب إلى العصر الحجري الحديث Période néolithique وجدت في تلك البلاد متأخرة ألفي عام عن مثيلها في عصر ما قبل التاريخ في مصر وسومر[٣].

ثقافة الصين الحجرية الحديثة متأخرة ألفي عام عنها في مصر وسومر.

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت الترجمة العربية، الجزء الرابع الصفحة ١٤، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٩٥٠.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٣.

(٣) نفس المرجع قبله، الصفحة ١٣.

بعض صناعاتهم الأولى جاءتهم من بلاد النهرين والتركستان.

٤ ـ ويلوح أن بعض فنونهم وصناعاتهم الأولى جاءتهم من بلاد النهرين والتركستان؛ من ذلك أن خزف هونان المنتمي إلى العصر الحجري الحديث لا يكاد يفترق في شيء عن خزف أنو والسوس[١] (السوس مدينة في الجنوب الشرقي من دجلة).

الصين قديماً منطقة جليدية فتأخر سكناها وكذلك ظهور حضارتها عن مصر والعراق.

٥ ـ ويحسن أيضاً أن نضيف هنا أن الصين في عهود الجموديات كانت في المناطق الجليدية[٢]، وهذا ما يحتم علينا:

ـ أن نعتبر سكناها بالبشر متأخراً عن غيرها،

ـ وأن نعتبر حضارتها كما هو معروف متأخرة أيضاً في الزمن عن حضارات الأمم فيما بين وادي مصر إلى الرافدين في العراق، لأنه لم تتيسر في أية منطقة أخرى الظروف الطبيعية التي ساعدت على تقدم الجماعة الإنسانية إلى الحد الذي تيسّرت به في مصر[٣] وما حولها إلى الرافدين.

---

(١) نفس المرجع قبله، الصفحة ١٤.

(٢) **تمهيد في علم الجغرافيا**، عمر الحكيم، الصفحة ٣٨، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٥٨.

(٣) **العرب**، محمود كامل، الصفحة ١٧، القاهرة سنة ١٩٥٦.

ب ـ سلطان الأخلاق والعادات في الصين

السلطان في الصين للأخلاق والعادات.

١ ـ وإذا رجعنا إلى ما نحن في صدده من تاريخ القانون في هذه البلاد وفي أقدم عهودها نجد أن السلطان فيها كان **للأخلاق والعادات**.

قانون الصين الأخلاقي حكومة خفية في المجتمع.

٢ ـ وقد ظلَّ أبناء البلاد يتوارثون عن الآباء **قانون البلاد الأخلاقي** جيلاً بعد جيل، حتى أصبح هذا القانون هو الحكومة الخفية للمجتمع الصيني، وكان قانوناً قوياً ثابت الدعائم، وبلغ من قوته وثباته أَنْ أمكن المجتمع الصيني من أن يحتفظ بنظامه، رغم ما انتابت الدولة غير المستقرة وما اجتاحها من أعاصير سياسية[١].

خير ما يعرفه الصينيون قانونهم الأخلاقي.

٣ ـ ويقول فلتير في سلطان الأخلاق عند الصينيين: «إن خير ما يعرفه الصينيون، وأكثر ما يغرسونه في نفوس أبنائهم، وما بلغوا به ذروة الكمال، **هو قانونهم الأخلاقي**»؛

ويقول الفيلسوف الصيني كونفوشيوس (٥٥١ . ٤٧٨ ق.م) في هذا المعنى أيضاً: إذا قام البيت على أساس سليم أمن العالم وسلم»[٢].

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الترجمة العربية، الجزء الرابع الصفحة ٢٦٥ القاهرة سنة ١٩٥٠.

(٢) نفس المرجع قبله.

في تاريخ الصين ذكر لدستور جو أقدم مجموعة قانونية فيها.

٤ ـ ومع ذلك فقد جاء في تاريخ الصين القديمة ذكر لأقدم مجموعة في القوانين والشرائع، وقد جمعت في «الجو ـ لي» أي في «دستور جَوْ»؛ وتعزوها الروايات إلى «جو جونج» (١١١٥ ـ ١٠٧٩ ق.م) وهو عم «جو الثاني» وكبير وزرائه[١].

صراع ضد فكرة القوانين في أواخر القرن السادس ق.م.

٥ ـ ولكن من ناحية ثانية يحدِّثنا التاريخ في أواخر القرن السادس قبل الميلاد عن أخبار من الصراع العنيف ضد فكرة القوانين على أثر وضع أسس الشرائع في عهد الإقطاع (٧٧٠ ـ ٢٥٥ ق.م): حيث بدأ نزاع شديد بين **حكم العادات** التي نمت واستحكمت عند عامة الشعب، وبين **حكم القانون** الذي وضعته الدولة[٢]؛

في ذلك دليل جديد على سلطان الأخلاق والعادات.

وفي هذه الأخبار دليل جديد أيضاً على **سلطان الأخلاق** والعادات القديمة المتأصلة في النفوس، تجاه أحكام القوانين الحديثة التي لم تؤمن بها شعوب الصين.

العقائد الفلسفية أيَّدت هذه الثورة.

٦ ـ وقد ثبَّت دعائم هذه الثورة جميع ما ظهر من عقائد وفلسفة في الصين، وخاصة:

ـ الكونفوشيه[٣].

ـ والدَّوية[٤].

(١) نفس المرجع قبله، الصفحة ٢١.

(٢) نفس المرجع قبله الصفحة ٢٠، والصفحة ٥: عصر الإقطاع.

(٣) نسبة إلى كونفوشيوس: ٥٥١ ـ ٤٧٨ ق.م.

(٤) نسبة إلى كتاب الدو ـ دهـ ـ جنج: أي كتاب الطريقة والفضيلة لواضعه فيما يقال الفيلسوف الصيني «لو ـ دزه» المعاصر لكونفوشيوس ـ انظر **قصة الحضارة**، المرجع الأسبق، الصفحة ٣٠ـ٣١، والصفحة ٢٦٠ـ٢٦١.

٧ ـ وها نحن أولئك نجمل فيما يلي بعض الأخبار عن «دستور جو» وعن تلك المذاهب الفلسفية لنأخذ فكرة موجزة وسريعة عن فكرة القانون في الصين.

موجز الأخبار عن دستور جو والفلسفة.

١٠

ج ـ الصين ودستور حَوْ

الصين وولاياتها الكثيرة وقوام الولايات.

١ ـ لقد كانت الصين القديمة تُقسَم إلى ولايات كثيرة؛ وتتكوَّن كل ولاية منها في العادة:

ـ من بلدة مسورة تحيط بها أرض زراعية،

ـ ومن ضواح مسورة أصغر منها يتألف من مجموعها محيط دفاعي واحد[١].

تناقص الولايات إلى خمس وخمسين.

٢ ـ وقد أخذت هذه الولايات التي لا عداد لها يندمج بعضها في بعض على مهل حتى نقص عددها إلى خمس وخمسين ولاية، منها الإقليم الذي يعرف الآن بإقليم «هو نان» وما جاوره من أقاليم شانسي، وشنسي، وشانتونج.

تشي وتشين أهم هذه الولايات.

٣ ـ وكان أهم هذه الولايات الخمس والخمسين هي:

ـ ولاية «تشي» التي وضعت أساس الحكومة الصينية،

ـ وولاية «تشين» التي أخضعت سائر الولايات لحكمها، وأنشأت منها إمبراطورية موحَّدة، وخلعت على بلاد الصين اسمها المعروفة به إِلا فيها نفسها[٢].

---

(١) المرجع السابق، الصفحة ١٩.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ١٩.

٤ ـ وكان السياسي العبقري الذي وضع لولاية «تشي» نظامها هو «جوان جونج» (٦٨٣ ـ ٦٤٠ ق.م) رئيس وزراء «تشي» التي أصبحت في أيام وزارته الطويلة الأجل دولة حسنة النظام: ذات عملة مستقرة، ونظام إداري محكم، وثقافة زاهرة.

جوان جونج واضع نظام تشي في السابع ق.م.

٥ ـ وقال الفيلسوف كونفوشيوس في هذا العبقري: «إن الناس لا يزالون حتى اليوم يستمتعون بالنعم التي أسبغها عليهم؛ ولولا جوان جونج لظللنا حتى اليوم ذوي شعر أشعث»[١].

كلمة كونفوشيوش في ذلك العبقري.

٦ ـ وكذلك كان يسير **التنظيم في الولايات** ويتدرَّج من ذي قبل إلى أن جمعت قواعد هذا التنظيم في «**الجو.لي**» أي دستور جو، وهو مجموعة من الشرائع تعزوها الروايات كما تقدم إلى «جو جونج» (١١١٥ ـ ١٠٧٩ ق.م) عم «جو الثاني» وكبير وزرائه؛ ولكن العقل لا يقبل أن تكون هذه الشرائع من وضع رجل واحد[٢].

قواعد تنظيم الولايات جمعت في دستور جو.

٧ ـ **وقد لمس** الدارسون لهذه المجموعة روح الفيلسوف كونفوشيوس (٥٥١ ـ ٤٧٨ق.م)، **وهذا ما حملهم** على الظن بأن هذه المجموعة إنما وضعت في آخر أيام أسرة «جو» لا في أيامها الأولى[٣]؛ وأنها نبتت في عقل فيلسوف أفلاطوني مجهول ما عرف أعباء الحكم، ولم تنبت من تجارب زعماء دنستهم السلطة الفعلية، وتعاملوا مع خلائق حقيقيين[٤].

دستور جو فيه روح كونفوشيوس مما يدل على تأخر وضعه إلى آخر أسرة جو، لا أولها.

---

(١) المرجع السابق، الصفحة ٢٠.
(٢) المرجع السابق، الصفحة ٢١.
(٣) المرجع السابق.
(٤) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٢.

دستور جو يمثل النظام الحكومي خلال ألفي عام: إمبراطور نائب عن الخالق، وأعيان، وشعب لا رأي له، ومجلس وزارة.

٨ ـ وقد ظلَّت هذه المجموعة من الشرائع خلال ألفي عام تمثل فكرة الصينيين عن النظام الحكومي، وقوامه[١]:

ـ **إمبراطور** يحكم نيابة عن الخالق، وأنه ابن السماء يستمد سلطانه مما يتصف به من الفضيلة والصلاح؛

ـ **وأعيان** ـ بعضهم بحكم مولدهم، وبعضهم بحكم تربيتهم وتدريبهم ـ يصرفون أعمال الدولة؛

ـ **وشعب** يرى أن واجبه فلح الأرض، يعيش في أسرة أبوية، ويتمتع بالحقوق المدنية، ولكنه لا رأي له في تصريف الشؤون العامة؛

ـ **ومجلس من ستة وزراء** كل منهم على ناحية من النواحي الآتية:

ـ وهي حياة الإمبراطور وأعماله،

ـ ورفاهية الشعب وزواج أفراده المبكر،

ـ والمراسيم والتنبؤات الدينية،

ـ والاستعداد للحرب والسير فيها،

ـ وتوزيع العدالة بين السكان،

ـ وتنظيم الأشغال العامة.

القوانين كلها في الجرائم دون المدنيات.

٩ ـ وخلاصة القول فيما جمع من القوانين أنها كلها اقتصرت تقريباً **على الجرائم**، ولم تبذل محاولات جدية لوضع **قانون مدني**[٢].

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢١.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٧٩.

١٠ - وظلت كل ولاية من الولايات الإمبراطورية شبه مستقلة لا تتدخل الحكومة الإمبراطورية في أعمالها، **ولا تفرض عليها شرائعها**، لأن فقدان وسائل الاتصال السهلة بين الولايات جعل الحكومة المركزية **فكرة معنوية** أكثر منها حقيقة واقعية[١].

استقلال الولايات عن بعضها، والحكومة المركزية فكرة لا حقيقة.

١١ - وهذا ما جعل القانون ضعيفاً، بغيضاً، متبايناً في هذا البناء الإمبراطوري غير المحكم، كما جعل الناس يفضِّلون أن تحكمهم عاداتهم وتقاليدهم[٢].

شعد القانون المتباين وتفضيل العادات.

١٢ - ويفسِّر ما جاء في الفقرة السابقة ذلك الصراع العنيف الذي تحدِّثنا به بعض أخبار الصين القديمة في أواخر القرن السادس قبل الميلاد كما أشرنا إليه من قبل: حول النزاع الشديد الذي كان مستمراً بين حكم العادات التي نمت واستحكمت عند عامة الشعب، وبين حكم القانون الذي وضعته الدولة.

فيما سبق تفسير الصراع ضد القانون.

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

د ـ النزاع بين القانون والعادات في الصين

قوانين ولايتي جنج وتشين أرعبت الفلاحين.

١ ـ لقد أصدرت **ولايتا جنج وتشين** في عامي ٥٣٥، ٥١٢ قبل الميلاد كتباً في القانون ملأت قلوب الفلاحين رعباً، وتنبأ الفلاحون لهاتين المنطقتين بما سيحلُّ بهما من عقاب سماوي شديد على هذه الجريمة الشنيعة (إصدار القوانين)؛ وحدث بالفعل أنْ دمرت النار عاصمة جنج بعد ذلك بقليل[١].

هذه القوانين أقرّت نظام الطبقات مثل مانو.

٢ ـ وتميزت هذه القوانين بإقرار نظام الطبقات كما هو في شريعة مانو، وبمحاباة الطبقات العليا: فقد أعفتها من كثير من الواجبات المفروضة على غيرها من الطبقات! على شريطة أن يؤدب أفرادها أنفسهم!

من ذلك: أن القاتل من الطبقات العليا كان يُسمَح له بأن ينتحر، وكان الكثيرون منهم ينتحرون بالفعل على النحو الذي أصبح فيما بعد عادة مألوفة بين طبقة السموراي في اليابان.

احتجاج العامة على

٣ ـ **واحتج عامة الشعب** على هذه التفرقة، وقالوا: إن في مقدورهم هم أيضاً أن يؤدبوا أنفسهم؛

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الجزء الرابع، الصفحة ٢٠ القاهرة، سنة ١٩٥٠.

وتمنوا أن يقوم بينهم وطني مخلص شبيه بهرمودويس Harmodius أو آريستو جيتون Aristogiton وطنيان أثينيان عاشا حوالى ٥٢٥ ق.م) يحررهم من ظلم القوانين؛

التفرقة وتمنيهم التحرر من ظلم القوانين.

٤ ـ **ثم تراضت الفئتان** آخر الأمر واتفقتا على حل سليم:

ثم تراضت الفئتان على حل سليم.

ـ **تضيقت** دائرة القانون الوضعي حتى لم تعدا أحكامه تشمل إلاّ المسائل الكبرى، أو المسائل القومية؛

ـ **وظلت أحكام العرف** والعادة هي الفيصل فيما دونها من الأمور.

وإذا كانت الكثرة الغالبة من شؤون البشر هي من المسائل الصغرى، فقد ظل حكم العرف والعادة هو السائد بين كافة الطبقات.

وظلت سيادة العرف.

٥ ـ وساعد هذه النزعة ضد القوانين والتنظيم الجديد مواقف أعظم فلاسفة الصين، ومنها ما جاء في كتاب «الدّو ـ ده ـ جنج»: أي «كتاب الطريقة والفضيلة» المنسوب إلى الفيلسوف «لَو ـ دْزَه» (٦٠٤ ـ ٥١٧ ق.م)، حيث يقول: «كلما كثرت الشرائع والقوانين كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق»[١].

الفلاسفة ضد القوانين.

(١) المرجع السابق، الصفحة ٣٢.

هـ ـ مواقف الفلسفة من النزاع بين القانون والعادات

عقائد الصين تؤيد التقاليد دون التقنين.

١ ـ والحقيقة أن جميع العقائد التي ظهرت في الصين من دوِّية، وكونفوشية، وبوذية، كانت مؤيدة للاستمرار في الحياة العادية البسيطة وفقاً للأعراف والتقاليد كارهة كل تجديد وكل تقنين.

طريقة الطبيعة للدوية.

٢ ـ **فالدوية** نسبة إلى لفظة «الدَّو» ومعناها «الطريقة»، ويراد منها «طريقة الطبيعة»، أو «الطريقة الدَّوية للحياة الحكيمة».

وترجع هذه الطريقة إلى كتاب «الدّو ـ ده ـ جنج» أي «كتاب الطريقة والفضيلة» لواضعه فيما يقال الفيلسوف لَو ـ دْزَه (٦٠٤ ـ ٥١٧ ق.م)[١].

عقائد الدويين ضد العلم والقوانين ومع الحياة العادية المألوفة.

٣ ـ **والدويون يرون**[٢]:

ـ أن التفكير أمر عارض سطحي لا خير فيه إلاَّ للجدل والمحاجَّة، يضرُّ الحياة أكثر مما ينفعها،

ـ وليس العلم فضيلة، بل إن السَفَلَة قد زاد عددهم من يوم إن انتشر العلم،

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٣٠.٣١، الصفحة ٥.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحات ٣٠.٣٣.

ـ وشر أنواع الحكومات التي يمكن تصورها حكومة الفلاسفة،

ـ وأن صاحب الفكر خطر على الدولة، لأنه لا يفكر إلاَّ في الأنظمة والقوانين،

ـ وأن كثرة النواهي والمحرَّمات في المملكة تزيد من فقر الأهلين،

ـ **وأنه كلما كَثُرت الشرائع والقوانين كَثُر عدد اللصوص وقطاع الطرق،**

ـ وأنه قال أحد الحكماء: لن أفعل شيئاً فيتبدل الناس من تلقاء أنفسهم، وسأولع بأن أبقى ساكناً فينصلح الناس من تلقاء أنفسهم..، وسيرون أن طعامهم الخشن وملابسهم البسيطة جميلة، ومساكنهم الحقيرة أمكنة للراحة، **وأساليبهم العادية المألوفة مصادر للذة والمتعة!**

مؤسس الدوية يقول: الحكمة هي الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة.

٤ ـ وأخيراً يقول[١] لَوْ ـ دزَه مؤسس مذهب الدوية بل إله الدويين الذين عبدوه فيما بعد:

ـ **إن الطبيعة** قد جعلت حياة الناس في الأيام الخالية بسيطة آمنة، فكان العالم كله هنيئاً سعيداً؛

ـ ثم حَصَّل الناس «المعرفة» فعقَّدوا الحياة بالمخترعات، وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية، وانتقلوا من الحقول إلى المدن، وشرعوا يؤلِّفون الكتب فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة؛

ـ فالعاقل إذن مَنْ يبتعد عن هذا التعقيد الحَضَري، وهذا

(١) نفس المرجع، الصفحة ٣٤.

التيه المفسد: تيه **القوانين والحضارة**، ويختفي بين أحضان الطبيعة؛

ـ وسر الحكمة كلها هو **الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة**، ونبذ جميع أساليب الخداع وأفانين العقل، وقبول أوامر الطبيعة الصادرة من الغرائز، والجري على سنن الطبيعة الصامتة وتقليدها في تواضع.

الكونفوشية أيضاً تكره القوانين، داعية للأخلاق لا للطبيعة.

٥ ـ **ولذلك كانت الكونفوشية** تكره القوانين، ولكنها تحت ستار الدعوة إلى **القانون الأخلاقي** والاحتفاظ بالتقاليد القوية السامية التي أقامت الصين عليها حياتها، عوضاً عن الدعوة إلى **قوانين الطبيعة** لدى الدويين.

مؤسس الكونفوشية.

٦ ـ والكونفوشية نسبة إلى كونفوشيوس (٥٥١ ـ ٤٧٨ ق.م) أعظم فلاسفة الصين على الإطلاق ومؤسس الديانة الكونفوشية التي ينتمي إليها أكثر الصينيين.

ما شغله كونفوشيوس من الوظائف.

٧ ـ وقد عُين كونفوشيوس أول الأمر كبير القضاة في مدينة «جونج ـ دو» واجتاحت المدينة في أيامه موجة من الشرف والأمانة؛

ثم عُين نائب وزير الأشغال فشرع في مسح أرض الدولة وأدخل إصلاحات جمَّة في الشؤون الزراعية؛

ثم عُين وزيراً للجرائم فكان مجرد وجوده في هذا المنصب كافياً لقطع دابر الجريمة.

ميزة كونفوشيوس عن مؤسس الدوية بالعمليات.

٨ ـ ويمتاز كونفوشيوس عن لَوْ ـ ذَه معبود الدويين بالميل إلى العمليات أكثر من النظريات، ولذلك كان أعظم من كل من عداه شهرة، وأوسع دراية، وأقدس كلمة[1].

---

(١) **دائرة معارف القرن العشرين**، فريد وجدي، المجلد الخامس الصفحة ٦٢٤، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٢٤.

٩ ـ ولعل توليه لتلك المناصب العليا قد جعل لفلسفته روحاً عملية أكثر من غيره، وجعل له آراء كثيرة صائبة في الحكم، منها قوله: «لا بد للحكومة من أن تحقق أموراً ثلاثة:

وظائف كونفوشيوس أفادت فلسفته روحاً عملية.

ـ أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام،

ـ وكفايتهم من العتاد الحربي،

ـ وأن يكون لهم ثقة بحكامهم؛

فقيل له فإذا لم يكن بد من الاستغناء عن أحد هذه الشروط فأي هذه الثلاثة يجب أن نتخلّى عنه أولاً؟ فأجاب: العتاد الحربي؛

فقيل له: وإذا كان لا بد من الاستغناء عن أحد الشرطين الباقيين فأيهما تتخلى عنه؟ فأجاب فلنتخلَّ عن الطعام: ذلك أن الموت كان منذ الأزل قضاء محتوماً على البشر، أما إذا لم يكن للناس ثقة بحكامهم فلا بقاء للدولة[(١)].

١٠ ـ وأخذ إجلال الناس لكونفوشيوس يعظم جيلاً بعد جيل حتى أصبح بفضل ما كان يصدره الأباطرة من مرسومات في المكانة الثانية بعد السماء نفسها؛

إجلال الأباطرة لكونفوشيوس.

ولم تكن الطبقات المثقفة تعدّه إلٰهاً، بل كان كثير من الصينيين يعدونه بديلاً من الإلٰه.

١١ ـ لقد تغلّبت الكونفوشية وعبادة الأسلاف وعظماء الرجال إلى جانب عبادة السماء على كثير من الديانات

تغلب الكونفوشية وحمايتها للتقاليد.

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الترجمة العربية، الجزء الرابع، الصفحة ٦٠، القاهرة سنة ١٩٥٠.

المنافسة، وقاومت هجمات كثيرٍ من أعدائها، وخرجت ظافرة من صراع دام عشرين قرناً، لأن الصينيين يشعرون بأنهم لا غنى لهم عن ذلك للاحتفاظ بالتقاليد القوية السامية التي أقامت الصين عليها حياتها[١].

الكونفوشية والأسرة ضمان للأخلاق الصينية.

١٢ ـ وكما كانت هذه الديانة هي الضمانة لهذه الحياة الصينية، فكذلك كانت الأسرة هي الوسيلة الكبرى لدوام هذا التراث الأخلاقي[٢].

القانون الأخلاقي المتوارث حكومة خفية.

١٣ ـ وقد ظلَّ الأبناء يتوارثون عن الآباء قانون البلاد الأخلاقي جيلاً بعد جيل حتى أصبح هذا القانون هو الحكومة الخفية للمجتمع الصيني[٣].

مناهضة القانونيين للكونفوشية.

١٤ ـ وكان في البلاد طائفة أخرى هي «طائفة القانونيين» استطاعت أن تناهض وقتاً ما آراء كونفوشيوس في عالم السياسة وأن تسير الدولة حسب مبادئها هي في بعض الأحيان[٤].

ردود القانونيين على كونفوشيوس في الانتصار للقانون لا لأخلاق الحاكمين.

١٥ ـ ومن أقوالهم في الرد على كونفوشيوس:

ـ إن نظام الحكم على المثل الذي يضربه الحاكمون، وعلى الصلاح الذي تنطوي عليه قلوب المحكومين، يعرِّض الدولة لأشد الأخطار: إذْ ليس في التاريخ أمثلة كثيرة تشهد بنجاح الحكومات التي تسترشد بهذه المبادىء المثالية؛

ـ ويقولون أيضاً: إن الحكم يجب أن يستند إلى القوانين لا

---

(١) نفس المرجع، الصفحة ٢٦٥، ٢٥٨.
(٢) نفس المرجع، الصفحة ٢٦٥.
(٣) نفس المرجع السابق.
(٤) نفس المرجع السابق، الصفحة ٦٥.

إلى الحكام، وإن الناس يجب أن يُرْغَموا على إطاعة القوانين حتى تصبح إطاعتها طبيعة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مختارين[1].

انتصار الكونفوشية أخيراً.

١٦ ـ ولكن فلسفة كونفوشيوس كُتِب لها النصر آخر الأمر أيضاً على القانونيين[2] لمصلحة التراث الأخلاقي.

المآخذ على الكونفوشية: أنها جمدت مسيرة الحياة،

١٧ ـ ويؤخذ على الفلسفة الكونفوشية:

ـ أن قواعد الأدب واللياقة التي كوّنت أخلاق الصينيين ونظامهم الاجتماعي أضحت قوة جارفة تسيِّر كل حركة حيوية في طريق مرسوم لا تتحول عنه،

ووقفت أمام الدوافع الطبيعية،

ـ وأن الفلسفة الكونفوشية تصطبغ بصبغة جامدة متزمتة، وتقف في سبيل الدوافع الطبيعية القوية المحرِّكة للجنس البشري،

وحقرت النساء، مع عداء للرقي،

ـ وقد أعانت على تحقيرالنساء وإذلالهن،

ـ كما أعان ما فيها من كمال بارد على تجميد الأمة الصينية وجعلها أمة محافظة لا يضارع عداؤها للرقي إلا حبها للسلام[3].

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) نفس المرجع قبله، الصفحة ٦٨.

الباب الثالث

الشعوب الأوروبية

(وفيه مبحثان)

المبحث الأول ـ اليونان

المبحث الثاني ـ الرومان

المبحث الأول: اليونان

أ ـ اليونان ومنشأ حضارتهم

المراد باليونان.

١ ـ نريد باليونان جميع البلاد التي كان يسكنها في الزمن القديم شعوب تتكلم باللغة اليونانية.

أسماء اليونان الثلاثة:

٢ ـ وقد أطلق على هذه الشعوب التي سكنت بلاد اليونان عدة من الأسماء: الهيللينيون، واليونان، والإغريق.

«الهيللينيون» سمّى به اليونان أنفسهم نسبة إلى جدهم الأعلى.

٣ ـ أما «الهيللينيون» فهو الاسم الذي سمى اليونان به أنفسهم نسبة إلى اسم جدهم الأعلى «هيللين Hellène» كما سموا بلادهم هيلاس Héllas[1].

«اليونان» أطلقه عليهم العرب نسبة إلى «يون» حفيد «هيللين».

٤ ـ وأما «اليونان» فهو الاسم الذي سماهم به العرب، وهو مأخوذ من اسم جد أيضاً هو «أيون Ion» أو «يون»، والنسبة إليه «ايونيان» أو «يونان»؛

و «يون Ion» المذكور هو حفيد «هيللين»، وقد عرف العرب هذا الاسم عن أجدادهم الفينيقيين، لأن هؤلاء قد كان لهم هجرة إلى هذه البلاد بقيادة «قدموس Cadmus أو Cadmos» الكنعاني = الفينيقي ـ العربي، وحينما وصل قدموس وجماعته إلى هذه البلاد نزلوا بين قبائل الأيونيين ـ اليونان، وقد

---

(١) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، طه باقر، الجزء الثاني الصفحة ٥٦٣١، الهامش رقم ١، طبع بغداد سنة ١٩٥٦.

كانت هذه القبائل تؤلف قسماً من القبائل الأخرى المسماة **بالآخيين والدوريين** الذين نزلوا شبه هذه الجزيرة كما سوف نرى وإلى أولئك «**الأيونيين ـ اليونان**» من بقية القبائل الأخرى **نقل قدموس العربي** وجماعته أول ما نقلوا من حضارة الفينيقيين العرب الكنعانيين، ولذلك اشتهر عند العرب اسم هؤلاء السكان باسم «**اليونان**» دون بقية الأسماء من «**هيللينيين**» أو «**إغريق**»، لأن أول صلة كانت للعرب الفينيقيين بهذه الشعوب إنما كانت عن طريق القبائل «**الأيونية ـ اليونانية**»، فأطلقوا كلمة «**اليونان**» على بقية القبائل توسعاً.

«الإغريق» أطلقه عليهم الرومان نسبة إلى قبيلة «غراي».

٥ ـ وأما «**الإغريق**» فهو الاسم الذي **سمّاهم به الرومان**، وهذا الاسم مأخوذ من كلمة «**غراي**» وهي اسم لقبيلة يونانية تعيش في إقليم بوشيه في اليونان؛ وقد **سمّى الرومان** باسم هذه القبيلة **جميع الهيللينيين** توسعاً أيضاً، وأطلقوا عليهم اسم «**إغريق** Graici»[١]، لأن هؤلاء قد كانوا هاجروا إلى نابولي في إيطاليا[٢] وعرفهم الرومان في أول مَنْ عرفوا من بقية تلك القبائل، ولذلك أطلقوا اسمهم على مَنْ وراءهم توسعاً أيضاً.

اتصال اليونان بالحضارة الإيجية.

٦ ـ وقبل أن نشير بإيجاز إلى تاريخ اليونان والحضارة اليونانية، نقدم بعض الملاحظات الموجزة عن **الحضارة الإيجية** في الجزر الإيجية، أو كما تُسمى: **الحضارة المينية** التي اتصل بها اليونان بعد هجرتهم، وأخذوا عنها عناصر حضارية مهمة[٣].

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الأول من المجلد الثالث، الصفحة ٨، طبع القاهرة ١٩٥٥.

(٣) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، الجزء الثاني، الصفحة ٥٢٥.

الحضارة الإيجية «المينية» مركزها كريت.

٧ ـ لقد نشأت في الجزر الإيجية حضارة مهمة ازدهرت في جملة جزر منها، وكان مركزها جزيرة كريت (أقريطش)؛ وسميت **بالحضارة المينية** نسبة إلى أحد ملوك كريت المسمى «مينوس».

ظهرت هذه الحضارة في الألف الثالثة متأثرة بمصر وبابل.

٨ ـ ظهرت هذه الحضارة منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد.

والمرجح كثيراً أن هذه الحضارة من الحضارات البشرية الأصلية التي نشأت من الأطوار البدائية، ولكنها على كل حال تأثرت **بحضارة مصر** القديمة في الدرجة الأولى، **وبحضارة العراق القديم**[١].

القبائل الإغريقية عاشت في أطراف هذه الحضارة وأخذت عنها وأضافت عليها.

٩ ـ وعاش في أطراف مركز هذه الحضارة قبائل من الأقوام «الهندية الأوروبية»، ومنها **القبائل الإغريقية** الهمجية (الآخيون ـ الدوريون ـ الإيونيون) التي أخذت عن الحضارة المينية أصول الحضارة، وأنشأت حضارة فرعية مشتقة هي **الحضارة الإغريقية** التي أضافت إلى تراث **الحضارة المينية** كثيراً من العناصر الجديدة في تاريخ الحضارة البشرية.

قضاء القبائل الإغريقية على الدولة المينية ونشوء عهد الملوك.

١٠ ـ وكانت القبائل الإغريقية هي التي قضت على آخر **دولة مينية** في حدود ١٢٠٠ ـ ١١٠٠ قبل الميلاد؛ وفي هذا التاريخ نشأ أقدم عهد في تاريخ اليونان، ويُسمَّى بعهد الملوك (١١٠٠ ـ ٧٥٠ ق.م)[٢].

اقتسام القبائل الإغريقية

١١ ـ وقد اقتسمت هذه القبائل الإغريقية فيما بينها: اليونان والجزر وسواحل آسيا الصغرى:

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٥٣٠ـ٥٣١.

- فتمكّن الدوريون في الجنوب،
- والايونيون في الوسط،
- والآخيون في الشمال[1].

لليونان وجزرها وسواحل آسيا الصغرى.

اليونان ليسوا عرقاً واحداً.

١٢ - ومن الراجح أن اليونان ليسوا من عرق واحد خالص، بل كانوا مزيجاً من عدة عروق، ثم صاروا وحدة بالقرابة والاختلاط ولا سيما مع المينيين.

اليونان آريون.

١٣ - وهم من الأقوام التي تُعرَف بعائلة: لغاتها «الآرية»، أو اللغات الهندية الأوروبية.

مهدهم القديم جنوبي روسيا حول قزوين أو وادي الدانوب الأعلى.

١٤ - ويرجح الكثيرون أن مهدهم القديم كان في مكان ما في الواحات ومناطق المراعي في جنوبي روسيا إلى بحر قزوين؛

ويرى البعض أن مهدهم الأصلي هو وادي الدانوب الأعلى.

بدء هجرتهم في الألف الثانية ق.م. أما عهدهم الملكي فمن ١١٠٠ - ٧٥٠ ق.م.

١٥ - ويُقدَّر الزمن الذي بدأت فيه هجرتهم من المهد الأصلي بحوالي الألف الثانية قبل الميلاد[2]؛

غير أن أقدم عهودهم وهو العهد الملكي قد ابتدأ كما مرَّ معنا في حدود ١١٠٠ ق.م، واستمرَّ حتى ٧٥٠ ق.م

يعتقد اليونان أن كثيراً من

١٦ - وكان معظم اليونان يعتقدون أن عناصر كثيرة من حضارتهم قد جاءتهم من **مصر** **وفينيقيا**[3].

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، السابق، الجزء الثاني، الصفحة ٥٢٨.

(٣) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الجزء الأول من المجلد الثاني، الصفحة ١٢٩-١٣٠.

وتعزو قصصهم نشأة كثير من المدن اليونانية إلى رجال من أمثال قدموس العربي الكنعاني (الفينيقي) ودانوس، ومنها إنشاء مدينة طيبة «تيبس Thébes» عاصمة إحدى مناطق اليونان القديمة بوطية «بييوثية Béotie»؛ وتقول إِن هؤلاء البنائين جاءوا من مصر، أو نقلوا الحضارة المصرية إلى بلاد اليونان عن طريق فينيقيا وكريت[1].

حضارتهم جاءهم من مصر وفينيقيا.

ويقول مؤرخ اليونان الملقب بأبي التاريخ هيرودوت (٤٨٠ ـ ٤٢٥ ق. م) أن قدموس ومَنْ قدم معه من الفينيقيين إلى بلاد اليونان هم أول مَنْ علَّمهم الكثير من **الصناعات المتنوعة**[2].

١٧ ـ وجاء في الكتاب الخامس من تاريخ هيرودوت: «والآن نذكر أن الفينيقيين الذين جاءوا مع قدموس، وإليهم يُنسَب الجفيريون، قد أدخلوا معهم إلى اليونان **صناعات كثيرة متنوعة**: منها صناعة الكتابة التي كانوا يجهلونها على ما أحسب قبل ذلك؛

نصوص هيرودوت عن قدوم الفينيقيين وإدخال صناعات كثيرة: منها الكتابة.

«ونقلوا (اليونان) حروفهم (أولاً) على مثال الحروف الفينيقية بغير تصرف؛ ثم تغيَّرت مع الزمن لهجاتهم فتغيرت معها رسوم حروفهم؛

«وقد كان الايونيون(Ionien = اليونان) أكثر الإغريق الذين كانوا يومئذ يقيمون في تلك البلاد حيث نزل الفينيقيون، فاقتبسوا الحروف الفينيقية مع تعديل قليل في رَسْم بعضها،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) **الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين**، للأستاذ عباس محمود العقاد، الصفحة ٦، ٣٥ مطابع دار القلم بالقاهرة.

وما زالوا بعد يسمونها بالفينيقية إنصافاً لِمَنْ نقلوها إليهم»[١].

نحن مع هيرودوت أمام نصوص وهجرة فينيقية.

١٨ ـ ونحن الآن مع هيرودوت المؤرخ اليوناني القديم أمام **نصوص من تاريخ اليونان**، لا أمام استنباطات؛

وكذلك نحن مع هيرودوت أمام **هجرة فينيقية مع قدموس** الفينيقي نزلت حيث نزل الايونيون (اليونان)، ولكن أصحابها وهم قلة ذابو فيما نرى بين موجات القبائل اليونانية الكثيرة، ولم يستطيعوا أن ينشئوا دولة فينيقية خاصة على مثل ما صنعوا في قرطاجة ـ تونس.

أساطير اليونان عن معجزات قدموس.

١٩ ـ غير أن أخبار اليونانيين وأساطيرهم لم تغفل أخبار القدموسيين ولم تنس فضل قدموس في تعليم اليونانيين الكتابة وبنائه لهم المدن؛ بل ذهبت رواياتهم إلى أن قدموس كان من أصحاب المعجزات الذين تعينهم الآلهة[٢]، وتملي عليهم مكائد الحرب والخديعة، ومن هنا توارث الأوروبيون القول في النصرة التي تنال بالثمن المرهق: «إنها نصرة قدموسية أو قدمية Cadméen»[٣].

عبادة اليونان رب الحكمة باسم قدموس، وقولهم

٢٠ ـ وينقل في هذا المقام (حول قدموس الفينيقي) الأستاذ أوسكار سيفيرت Oskar Seyffert في كتابه معجم

---

(١) **الثقافة العربية** (المذكورة قبلاً) للأستاذ العقاد، الصفحة ٣٥.

(٢) ومن هذه المعجزات الأسطورية أن قدموس قتل التنين الحارس لبعض الينابيع في بوطية Béotie، ونثر أسنانه على الأرض فنبت منها شرذمة من المردة المسلحين أحاطوا به ليقتلوه، فأوحت إليه آلهته أثينا أن يلقي إليهم بجوهرة كريمة بهرتهم فتركوه واقتتلوا عليها حتى أفنى بعضهم بعضاً، ولم يبق منهم غير خمسة لم يقدروا عليه لأنهم خرجوا من المعركة منهوكين، وأصبحوا فيما بعد أشراف مدينة طيبة.

(٣) كتاب العقاد السابق ـ الثقافة العربية، الصفحة ٣٧.

الآثار السلفية Dictionary of Classical Antiquites[1] أن اليونان كانوا يعبدون **هرمز رب الحكمة والمعرفة عندهم باسم قدموس**، «وأنه كان يقال عنه: إنه مخترع الزراعة والحدادة وصناعات الحضارة على التعميم».

إنه مخترع الزراعة والحدادة وصناعة الحضارة عامة.

٢١ ـ وتقول بعض المصادر:

من مصر أخذ اليونان الهندسة وصبَّ الآنية ومهروا في الفخار والنسيج وبعض الصناعات.

ـ إن طاليس الميليتي تعلَّم الهندسة في مصر؛

ـ وإن روكوس Rhoecus وثيودوروس الساموسيين قد عرفا في مصر فن صب الآنية المجوفة البرنزية، وازدادا مهارة في صناعة الفخار والنسيج وطرق المعادن والحفر على العاج؛

المثَّالون أخذوا طرازهم الأول عن مصر وآشور وفينيقيا.

ـ وإن المَثَّالين اليونان قد أخذوا طراز تماثيلهم الأولى عن المصريين والآشوريين والفينيقيين[2].

أثر فينقيا في اليونان لا يزيد عليه إلاَّ أثر مصر، والفينيقيون هم نقلوا لليونان ثقافة مصر وفينيقيا.

٢٢ ـ وكان أثر فينيقيا (من بلاد كنعان العربية) في اليونان لا يزيد عليه إلا أثر مصر نفسها:

ـ فقد كان تجار صور وصيدا المغامرون وسيلة طوَّافة لنقل الثقافة، وهم الذين نشروا في جميع أقاليم البحر الأبيض المتوسط علوم مصر والشرق الأدنى، وصناعاتهما، وفنونهما وطقوسهما الدينية؛

ـ وهم الذين نقلوا صورة الحروف الهجائية إلى بلاد اليونان بعد نمائها وتطورها في مصر وسوريا[3]، وتسمي المصادر اليونانية «قدموس» العربي بالذات في نقل الحروف الهجائية إليهم.

---

(١) الصفحة ١٠٦ ـ نقلاً عن كتاب الأستاذ العقاد السابق الصفحة ٣٨.

(٢) **قصة الحضارة**، الجزء الأول من المجلد الثاني، الصفحة ١٣٠.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٣١.

أخذ اليونان عن بابل الموازين والساعة والعملة والفلك والنظام الستيني.

٢٣ ـ **وأخذت بلاد اليونان عن بابل:**

ـ نظام موازينها ومكاييلها وساعتها المائية، ووحدات العملة المتداولة،

ـ **وكذلك أخذوا عن بابل** قواعد علم الفلك، وآلاته وسجلاته، وحسابه،

ـ **وكذلك أخذوا** عنها النظام الستيني الذي يقضي بتقسيم السنة والدائرة والزوايا الأربع القائمة التي تتقابل في مركزها إلى ٣٦٠ جزءاً، وتقسيم كل درجة إلى ستين دقيقة، وكل دقيقة إلى ستين ثانية[١].

وكذلك أخذوا الفلسفة من آسيا الصغرى وكانت أثينا تتنكر للفلسفة ورجالها.

٢٤ ـ وأخيراً فإن الفلسفة نفسها نقلت إلى أثينا من آسيا الصغرى، ونقلها إليهم الفيلسوف «أنكسغوراس» في أيام «بيريقلس Periclès» (٤٦٠ ـ ٤٣٠ ق.م)، وكانت أثينا قبل ذلك تتنكَّر للمباحث الفلسفية وتتهم مَنْ يبحثون فيها وينقطعون عن الشعائر الدينية؛ ولم يَسْلَم «أنكسغوراس» نفسه من تعصب أهلها، فقد اتهموه بالكفر لأنه يقول إِن الشمس صخر محمي، وأن القمر كالأرض من تراب، ولولا بيريقلس لما نجا من مصير كمصير سقراط بعده بقليل[٢].

لم يبتكر اليونان شيئاً وإنما أخذوا أسسه عن مصر وبابل وفينيقيا.

٢٥ ـ وبعد، فما هو الذي ابتكروه ابتكاراً ولم يأخذوا أسسه عن مصر وبابل وفينيقيا؟.

ليس العجب من اليونان أنهم تمثَّلوا عناصر

٢٦ ـ وإذا كان هناك من عجب في حضارة اليونان فليس ذلك في تكوينهم حضارة تمثَّلوا عناصرها ببطء؛

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) كتاب «الله» للأستاذ العقاد، الصفحة ١٣٠، الطبعة الثالثة في مصر.

الحضارة ببطء بل أنهم لم يستطيعوا مواصلة خطها كما وجدوه.

وإنما العجب في أنهم لم يستطيعوا مواصلة خطها الصاعد كما وجدوه في فينيقيا ومصر وبابل، ومنذ اتصلوا به، وذلك لغرابته عنهم.

لذلك صحَّ القول: إن اليونان لم ينشئوا الحضارة، بل كانوا فيها الوارث المدلل المتلاف.

٢٧ ـ ولذلك يصحُّ في اليونان ما كنا نقلناه من قبل عن ول ديورانت[١]: «إن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاءً، لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه، **وكانوا الوارث المدلل المتلاف** لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها آلاف من السنين... فإذا درسنا الشرق الأدنى وعظَّمنا شأنه فإنَّا بذلك نعترف بما علينا من دين لِمَنْ شادوا بحق صرح الحضارة الأوروبية والأمريكية، وهو دين كان يجب أن يؤدَّى من زمن بعيد».

---

(١) الصفحة ٥١ من هذا الكتاب، الفقرة ٨.

ب ـ موجز عهود التاريخ اليوناني

عهود تاريخ اليونان الأربعة.

١ ـ من الممكن أن نقسم تاريخ اليونان إلى العهود الآتية[1]:

- عهد الملوك (١١٠٠ ـ ٧٥٠ ق.م)،
- عهد النبلاء الإقطاعيين (٧٥٠ ـ ٦٢٥ ق.م)،
- عهد الطغاة (٦٢٥ ـ ٥٢٥ ق.م)،
- عهد الديمقراطية (٥٢٥ ـ ٤٠٠ ق.م).

(عهد الملوك)

١١٠٠ ـ ٧٥٠ ق.م

عهد الملوك أقدمها والنظام الملكي مقتبس من الإيجيين.

٢ ـ أما عهد الملوك فهو أقدم العهود في تاريخ اليونان بعد أن هاجروا إلى موطنهم وقضوا على الحضارة الإيجية؛

ويبدو أن النظام الملكي كان من جملة الأشياء التي اقتبسها اليونان من الحضارة الإيجية: فاتخذوا لهم ملوكاً من قوادهم في الحرب وزعمائهم في الدين، وكانوا في أول الأمر ملوكاً ساذجين أشبه ما يكونون برؤساء القبائل الرعاة

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الثاني، الصفحة ٥٣١، بغداد سنة ١٩٥٦.

عندما اتخذت القبائل الإغريقية الزراعة واستقرت في قرى.

في عهد الملوك نشأت حضارة الإغريق.

٣ ـ وفي هذا العهد نشأت حضارة الإغريق:

ـ فتطورت القرى إلى مدن،

ـ ونشأ عن المدن دويلات المدن التي كان كل منها مملكة مستقلة: لها قوانينها وجيشها، وآلهتها.

على الملك حماية المدينة ويساعده مجلس شورى للقضاء.

٤ ـ وصار الملك محترماً وحاكماً قوياً: تقع على عاتقه حماية المدينة؛

ويساعد الملك في الحكم وفضّ الخصومات مجلس شورى، أو دار ندوة تجتمع للقضاء بين الناس.

بلغت دويلات المدن مئات.

٥ ـ وقد بلغ عدد دويلات المدن المئات في بلاد الإغريق، وفي السواحل، وفي الجزر الإيجية.

في هذا العهد اقتبسوا الحديد من الحثيين.

٦ ـ وقد اقتبس الإغريق في هذا العهد معدن الحديد: إذ بدأ عندهم في حدود ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وقد جاءهم بعد أن انتشر استعماله في آسيا الصغرى من الحثيين منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد(١).

ولكن «سيفيرت» ـ كما مر معنا ـ يغزو اقتباسهم صناعة الحديد إلى الفينيقيين.

ساروا ببطء في إنضاج مدنيتهم الإيجية بعد

٧ ـ وظلَّ الإغريق زمناً بعد ١٠٠٠ سنة قبل الميلاد وهم لم يبلغوا طور المدنية الناضجة؛

ولكنهم كانوا يسيرون إلى طور النضج:

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الثاني، الصفحة ٥٣٢ الطبعة الثانية، بغداد سنة ١٩٥٦.

الألف ق.م. بتأثير مصر وفينيقيا والعراق.

- بالتراث الذي ورثوه عن الإيجيين،

- وبتأثير حضارات الشرق القديم، ولا سيما حضارة مصر والعراق،

- وتأثير الفينيقيين بصورة خاصة الذين كانوا نقلة الحضارة: إذ اقتبس اليونان عن الفينيقيين بعد سنة ٩٠٠ قبل الميلاد حروف الهجاء مع الورق (البابيروس)[١].

أغرم الملوك بالحروب ونشأ عنها شعر الملاحم في الإلياذة والأوديسة.

٨ - وقد أُغرِم اليونان في عهد الملوك بالحروب التي كانت تتصف بالبربرية والقسوة.

ونشأ عن التغني بأعمال الحرب وأبطال الحرب أشعار غنائية لتخليد أعمال الأبطال، ومنها **شعر الملاحم**؛ مثل أشعار هوميروس اليوناني (٩٠٠ ق.م) التي هي أقدم آداب الإغريق؛ وقد خلَّفها لنا في **الإلياذة** Iliade[٢] **والأوديسة** Odyssée[٣].

أشعار هوميروس عند اليونان مثل الكتاب المقدس.

٩ - وكانت أشعار هوميروس بمثابة الكتاب المقدس عند اليونان، إذ فيها أَخبار الآلهة، وحياتها، وعلاقاتها بعضها ببعض، وأعمالها، كما كان الحال في التوراة عند اليهود.

عهد الملوك تميز بالفخار الهندسي.

١٠ - ويقع ضمن عهد الملوك **طور حضاري** تميز بنوع أوانيه الفخارية المزينة بأطرزة هندسية يعرف باسم طور «**الفخار الهندسي** Geometric Pottery».

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نسبة إلى «إيليون Ilion» وهو الاسم الذي أطلقه اليونان على طروادة Troie.

(٣) نسبة إلى بطل الملحمة في حروب طروادة «اوديسوس».

(عهد النبلاء الإقطاعيين)

٧٥٠ - ٦٢٥ ق.م

١١ - لقد نشأ في عهد الملوك طبقة خاصة من الملاكين تجمعت في أيديهم ملكية الأراضي والثروة: بما حازوه من الأراضي، وبما اغتصبوه من الملاكين الصغار والفلاحين، وبما جبلوا عليه «من حب السرقة والقرصنة».

نشوء طبقة الملاكين المغتصبين في عهد الملوك.

١٢ - وأضحت ملكية الأرض **وراثية خاصة برجال هذه الطبقة** الذين نسميهم **النبلاء الإقطاعيين**.

ملكية الأرض وراثية خاصة بهم.

١٣ - وبلغ هؤلاء النبلاء الإقطاعيون قدراً عظيماً من البأس والقوة في عهد الملوك؛ وهذا ما سهل عليهم:

تغلب الإقطاعيين النبلاء على الملوك وتبديل نظام الحكم إلى نظام الإقطاع.

- القضاء على الملوك فيما بعد سنة ٧٥٠ قبل الميلاد،

- وتبديل نظام الحكم من الملكية إلى نظام الحكم الأوليغاركي Oligarchie: **حكم الأقلية المتسلطة** الذي يشبه نوعاً ما نظام الإقطاع في تاريخ أوروبا الوسطى.

١٤ - وقد أصبحت طبقة الفلاحين وعامة الناس في هذا العهد طبقة معروفة بالبؤس والشقاء بما سلّطه عليهم النبلاء من ظلم وعذاب، دون أن يجد هؤلاء البائسون لهم مجيراً.

بؤس الفلاحين من ظلم النبلاء الإقطاعيين.

١٥ - وقد حمل ظلم النبلاء لهذه الطبقة المرهقة المظلومة على الهجرة جماعات وأفواجاً إلى ما وراء العالم اليوناني؛ وقد أنشأوا أينما حلّوا مستعمرات:

هجرة الفلاحين من الظلم إلى ما وراء العالم اليوناني وإنشاؤهم المستعمرات.

- حول البحر الأسود إلى أراضي الزرع في الدانوب،

- وانتشروا في سواحل آسية الصغرى الجنوبية واصطدموا فيها بالآشوريين،

- وكونوا مستعمرة في قبرص،

- وهاجر جماعة منهم إلى دلتا مصر، وتغلغلوا فيها بصورة سلمية وأسسوا مدينة تجارية قرب الإسكندرية،

- وأسسوا بعيداً في غربي الدلتا قيرين Gyrene (في طرابلس الغرب الآن)،

- وكذلك نزلوا صقلية، وهبطوا في جنوبي إيطاليا، وقد دُعي هذا القسم الجنوبي من إيطاليا فيما بعد ببلاد اليونان الكبرى.

هذه الهجرة الواسعة تعبّر عن مساوىء عهد الإقطاعيين التي أريد استدراكها في شرائع دراكون وصولون.

١٦ - وأن هذه الهجرة الواسعة تحت ضغط الظلم والعذاب تعطينا فكرة واضحة عن مساوىء هذا العهد الذي سنلمس أثره حينما سنتكلم قريباً عن الشرائع التي نشأت فيما بعد في عهد دراكون، وصولون، رغبة في استدراك ما يمكن استدراكه:

- تارة بالقسوة كما هو طابع قوانين دراكون الذي أصبح اسمه بسببها عَلَماً على القسوة والشدة؛

- وتارة بالعطف واللين كما هو طابع قوانين صولون الذي ألغى معظم قوانين دراكون القاسية، وألغى جميع الديون القائمة على الأراضي سواء كانت للدولة أم للأفراد، وأطلق سراح جميع من استرقوا أو ألصقوا بالأرض، وكل مَنْ بيعوا رقيقاً في خارج البلاد، وطلب إليهم أن يعودوا إلى مواطنهم.

(عهد الطغاة)

٦٢٥ - ٥٢٥ ق.م

هذه الهجرة

١٧ - ولكن تلك الهجرة الواسعة المدى التي حدثت في

العهد الماضي نتيجة للظلم الذي فُرِض على الفلاحين والطبقة العامة، **وتلك المستعمرات** التي أنشأها المهاجرون، أحدثت تغييرات بعيدة المدى في حياة اليونان.

والمستعمرات أحدثت تغييراً في حياة اليونان.

١٨ ـ فقد كانت الثروة في **عهد النبلاء الإقطاعيين ثروة زراعية** في الدرجة الأولى.

الثروة زراعية فقط سابقاً.

١٩ ـ ولكن انتشار اليونانيين وهجرتهم وتكوينهم مستعمرات يونانية، ونشوء بعض الصناعات في بلاد اليونان نفسها، وحاجة المستعمرات المتزايدة إلى الإنتاج الصناعي اليوناني، جعل من المستعمرات أسواقاً هامة للتجارة اليونانية التي أخذت بالاتساع والازدهار منذ ذلك الوقت.

الهجرة والمستعمرات جعلت التجارة تزدهر.

٢٠ ـ وهكذا حدث تطور كبير في الاقتصاد اليوناني وأخذت المدن اليونانية تزدهر: فبعد أن كانت الثروة في العهد الماضي ثروة زراعية، **تضاءل** هذا النوع على أثر اتساع التجارة والصناعة، ذلك الاتساع الذي **أثر** في نظام المجتمع وفي نظام الحكم: **إذ حل** محل عهد النبلاء الإقطاعيين المؤسس على الزراعة **عهد جديد هو عهد الطغاة** المثرين بالثروة الجديدة، فتبدل نظام الحكم، وجاء إلى الحكم **حكام غاصبون** يحكمون حكم الملوك، وسماهم اليونان **بالطغاة والمستبدين**، وأخذ هؤلاء الحكام يظهرون منذ سنة ٦٥٠ قبل الميلاد[١].

تضاؤل الثروة الزراعية أمام الثروة التجارية وظهور عهد الطغاة محل الإقطاعيين منذ ٦٥٠ ق.م.

٢١ ـ وامتاز عهد الطغاة بنشوء أقدم **القوانين المدوَّنة** عند اليونان:

ظهور قوانين دراكون

ـ وكان أقدمها **قوانين دراكون** (٦٢٠ ق.م)، وهذا من أعلام هذا العهد وحكامه؛

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة** السابق، الجزء الثاني، الصفحة ٥٣٥ ـ ٥٣٦.

وصولون في عهد الطغاة.

ـ وكذلك قوانين صولون (٥٩٤ ق.م)، وهذا أيضاً من أعلام هذا العهد وحكامه.

شرائع اليونان المدوَّنة متأخرة عن مثيلاتها في الحضارات العربية.

٢٢ ـ وإذا رأينا أن القوانين المدوّنة قد بدأت في الحضارات العربية في العراق منذ أزمان قديمة جداً، فإن الشرائع في اليونان ظلت تعتمد على العُرْف المتداول حتى حدود سنة ٦٢٤ قبل الميلاد حيث بدأت الشرائع المدوَّنة تظهر منذ هذا التاريخ.

قوانين دراكون وصولون لاستدراك مآسي عهد الطغاة.

٢٣ ـ وقد أرادت قوانين دراكون وصولون استدراك مآسي هذا العهد، ولكن بطرق مختلفة متباينة فيما بين قوانين الرجلين كما أشرنا إليه أعلاه (الفقرة ١٦).

هذه القوانين بقساوتها أو بلينها لم تفلح في حماية الطغاة، بل حلَّ محلها حكم الشعب في أثينا.

٢٤ ـ ولكن هذه القوانين بقساوتها أو بلينها لم تستطع إيقاف القدر المحتوم على عهد الطغاة بالانهيار، وكان لا بد له من نهاية، وقد انتهى في أثينا بعد أن دام قرناً واحداً، وذلك باغتيال طاغية تارة، وطرد آخر مرة ثانية.

وحل محل حكم الطغاة حكم الشعب (٥٢٥ ـ ٤٠٠ ق.م) أي حكم الديمقراطية، وهذه كلمة ورثناها عن اليونان.

(عهد الديمقراطية)

٥٢٥ ـ ٤٠٠ ق.م

بداية هذا العهد.

٢٥ ـ ونستطيع أن نعد بداية هذا العهد من اغتيال آخر طاغية في أثينا في حدود ٥٢٥ قبل الميلاد، وبعد عهد صولون بنحو خمسين سنة.

امتيازه بأحداث هامة.

٢٦ ـ ويمتاز هذا العهد بأحداث هامة:

ـ في تاريخ اليونان جميعهم،

ـ وفي تطور حضارتهم وازدهارها.

الازدهار الاقتصادي تمهيد لازدهار الحضارة.

٢٧ ـ ويُعَدُّ الازدهار الاقتصادي والتجاري الذي أنجزته اليونان في عهد الطغاة سبباً لازماً ومقدمة تمهيدية لازدهار حضارة اليونان في عهد الديمقراطية.

أهم أحداث عهد الديموقراطية.

٢٨ ـ وأهم أحداث عهد الديمقراطية:

ـ انتقال دولة أثينا وهي أهم دولة في اليونان إلى نظام الحكم الديمقراطي، وبلغت الديمقراطية أوجها في عهد بيريقلس Periclès (٤٦٠ ـ ٤٣٠ ق.م) على الرغم من نهايتها بعده،

ـ الحروب اليونانية الفارسية،

ـ الإمبراطورية الأثينية عقب انتصار أثينا على الفرس في معركة «ماراثون Marathon» ـ ٤٩٠ ق.م ـ حيث انضمت جميع الدويلات اليونانية الأخرى إلى زعامة أثينا خشية من عودة الفرس للغزو، إلاّ سبارطة،

ـ الحرب بين أثينا وسبارطة،

ـ ازدهار حضارة اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد.

تجربة الديموقراطية كانت نتيجة تغييرات اقتصادية في العهد الماضي.

٢٩ ـ ومن المفيد أن نذكر هنا بأن التجربة التي قامت بها أثينا في هذا النظام من الحكم الديموقراطي قد كانت نتيجة تغييرات اقتصادية واجتماعية كبيرة أفضت فيما سبق إلى حصر السلطة بأيدي جماعة من المثرين من الطبقة الوسطى يتبعها العمال والأجراء وطبقة العبيد.

اتجاهان يتنازعان: الارستقراطية والديموقراطية.

٣٠ ـ وكان النزاع بين الاتجاهات المختلفة في أثينا، كما هو الأمر في جميع الدويلات اليونانية الأخرى، قائماً مستمراً؛ ويمكننا التمييز بين جماعتين تمييزاً واضحاً:

ـ فجماعة كانت تريد **حكماً ارستقراطياً** ينحصر في يد أقلية، ويكون لها جميع الامتيازات،

ـ وجماعة أخرى كانت تهدف إلى **حكم ديموقراطي**، أي حكم الشعب.

أثينا وحدها كانت بطل الديموقراطية.

٣١ ـ غير أن أثينا وحدها كانت بطل الديموقراطية في جميع بلاد اليونان؛ واستطاع الطغاة في غيرها الاحتفاظ بحكمهم كما كان الحال في سبارطة وفي سرقوسة.

الطبقات في جميع اليونان.

٣٢ ـ وعلى كل حال يجب أن نعلم بأن جميع الدويلات اليونانية كانت تشترك في تقسيم سكانها في كل منها إلى **طبقات**: إما بالنسبة إلى المال، أو إلى الحسب، أو إلى المركز الاجتماعي، أو إلى المهنة.

العمال والمزارعون في أثينا أحسن حالاً منهم في غيرها.

٣٣ ـ ولكن أثينا الديمقراطية امتازت بما كان يصيب الفرد المتوسط فيها من العمال والمزارعين من حصة كبيرة في الحياة السياسية والثقافية.

ج ـ أوضاع أثينا في القرن السابع

السكان ثلاثة أقسام في أثينا.

١ ـ وكان السكان ينقسمون من الوجهة الاقتصادية إلى ثلاثة أقسام:

- قسم الأشراف،
- وقسم العمال العموميين،
- وقسم عمال الأرض وصغار الزراع.

الأشراف في عيشة مترفة.

٢ ـ أما **الأشراف** فكانوا يعيشون عيشة مترفة بالنسبة إلى غيرهم من الجماعات، ويقيمون في المدن، بينما العبيد والعمال المأجورون يقومون بزراعة أراضيهم في الريف، كما يقوم التجار باستغلال أموالهم التي اقترضوها منهم مع أداء جزء غير يسير من الأرباح إليهم.

أصحاب المهن الحرة بعد الأشراف يتزايد سلطانهم.

٣ ـ ويلي الأشراف في الثروة **العمال العموميون**: أي أرباب المهن، والصناع، والتجار، والعمال الأحرار.

وقد أخذ سلطان هؤلاء يتزايد منذ نشأت المستعمرات اليونانية، ونشطت التجارة معها، حتى كانت هذه الطبقة هي القوة الفعَّالة في عهد صولون (٥٩٤ ق.م) ونالت بذلك نصيبها من الحكم، ثم ارتفعت إلى ذروة السلطان في عهد بيريقليس (٤٦٠ ـ ٤٣٠ ق.م).

عمال الأرض أفقر الطبقات ودواعي هجرتهم.

٤ ـ وكان أفقر الأهلين هم **عمال الأرض**، وهم صغار الزراع الذين كانوا ينتزعون قوتهم الضروري من تربة ضنينة ومن شره المرابين والأشراف، مما جعل حياتهم الريفية مزعزعة وغير مأمونة؛

وهذا ما حمل الكثيرين منهم على الهجرة بعد بيع أراضيهم رغم ما كان يُفْرَض على الذين يبيعون أراضيهم منهم من عقاب وما يُحْرَمون بسببه من حقوق.

مَنْ عجز عن الهجرة أصبح كالرقيق.

٥ ـ **أما مَنْ عجز منهم عن الهجرة** فقد ظلوا في أراضيهم يكافحون، ويقترضون المال بربا فاحش، ويرهنون أراضيهم ضماناً لما اقترضوه، ولكنهم عجزوا عن الوفاء بديونهم، وبذلك فقدوا أملاكهم، بل حريتهم أيضاً لأنهم فُرِض عليهم البقاء في الأرض والعمل فيها كرقيق.

رواية أرسطاطاليس عن سوء الوضع.

٦ ـ ويقول أرسطاطاليس في هذا:

ـ «وأصبحت كل الأراضي ملكاً لعدد قليل من الناس»،

ـ «وتعرَّض الزُرَّاع هم وزوجاتهم وأبناؤهم لأن يُبَاعوا بيع الرقيق، لا في داخل البلاد فحسب، بل خارجها أيضاً إذا عجزوا عن أداء أجرة الأرض أو الوفاء بما عليهم من ديون!».

الطبقات الوسطى ترجِّح الرقيق على العامل الحر.

٧ ـ وفي هذه الأثناء كانت الطبقات الوسطى من أهل المدن التي لا يقف في وجهها القانون: **تنزل** بالعمال الأحرار الفقر والضنك، وتستبدلهم بالرقيق شيئاً فشيئاً.

لذلك رخص الجهد العضلي.

٨ ـ وهذا ما جعل الجهد العضلي رخيصاً جداً، بل جعل العمل اليدوي غلاً وعبودية، ومهنة غير جديرة بالأحرار.

٩ ـ وقد أخذ ملاكو الأرض الكبار، لغيرتهم من ثراء التجار المتزايد، يبيعون في خارج البلاد حبوبهم، حتى الحبوب التي يحتاج إليها مستأجرو أرضهم طعاماً لهم؛ وانتهوا آخر الأمر ببيع الأثينيين أنفسهم تطبيقاً لأعراف البلاد في قوانين الديون.

أثر تزاحم الملاكين والتجار على الثروة في بؤس الأثينيين.

١٠ ـ وهكذا تدهورت الأوضاع في أثينا بصورة خاصة، وأصبح كل شيء ينذر بعدم إمكان الاستمرار في نظام الحكم، واشتد النزاع وروح التمرد والاغتيال لكثير من الحكام الطغاة، إلى أن ظهر منهم علمان وهما **دراكون** **وصولون**، وحاولا معالجة الوضع بتشريعات مختلفة متباينة كما أشرنا إليها من قبل، وكما سنتكلم عنها فيما يلي.

تدهور أوضاع أثينا لذلك ومحاولة المعالجة بتشريعات.

د ـ قوانين دراكون وإصلاحاته

قوانين دراكون أول قانون مدوَّن وأهدافها.

١ ـ كانت قوانين دراكون Dracon **أول قانون مدون** صدر في اليونان:

ـ لمعالجة انهيار الأوضاع في أثينا،

ـ وللاستجابة لرغبة الأثينيين وكفاحهم المستمر ليكون لديهم **شريعة مدونة**؛ كي لا يساء استعمال الأعراف والتقاليد القانونية غير المدوَّنة[١].

تكليف دراكون بذلك ٦٢٠ ق.م.

٢ ـ وقد كُلِّف هذا المشترع عام ٦٢٠ قبل الميلاد بوضع القوانين اللازمة لإعادة النظام إلى أثينا، وبتسجيلها كتابة لأول مرة في تاريخ اليونان[٢].

أمل الناس بهذه التشريعات.

٣ ـ وقد أمل الناس وقتاً ما أن تعالج تشريعات دراكون تلك الشرور والمآسي في أثينا كما أشرنا إليها من قبل.

غير أنها جمعت ما في

٤ ـ غير أن دراكون قد جمع في قوانينه ما كان في نظام الإقطاع من عادات قاسية مثيرة وخالية من النظام[٣]؛ وبلغ

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الثاني الصفحة ٥٣٦، طبعة ثانية، بغداد سنة ١٩٥٦.

(٢) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الترجمة العربية، الجزء الأول من المجلد الثاني، الصفحة ٢٠٧، القاهرة، سنة ١٩٥٣.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٠٨.

من شدتها أن قيل فيها: إِنها كُتِبَت بالدم[١]، وأصبح اسم صاحبها علماً على القسوة في كثير من اللغات الأوروبية حتى اليوم.

نظام الإقطاع من سيئات قاسية.

٥ ـ ولم يضع دراكون شيئاً في قوانينه لإنقاذ المدينين من الاسترقاق، ولم يقلل من استغلال الأقوياء للضعفاء؛

قوانين دراكون لم تقلل من استغلال الأقوياء للضعفاء.

بل ترك لطبقة كرام المحتد السيطرة التامة على دور القضاء، كما ترك لهم الحق في أن يفسِّروا كما يرون كل ما يمس مصالحهم من القوانين ونقط الخلاف[٢].

٦ ـ هذا، وقد ضمنت شرائع دراكون لأصحاب الأملاك حماية أكثر مما كان لهم قبل ذلك: فكانت السرقات الصغيرة، بل التراخي في العمل، يُعَاقب عليهما بحرمان المواطنين من حقوقهم السياسية، ويُعَاقب عليهما غير المواطنين بالإعدام[٣].

حماية دراكون للملاكين أكثر من ذي قبل.

٧ ـ وأن أهم ما نجده من تقدم في قوانين دراكون:

أهم ما في قوانين دراكون من تقدم.

ـ أنه وسع إلى حد ما دائرة مَنْ لهم الحق في أن يُختاروا لمنصب الحكام، حتى شملت الكثيرين من الأغنياء المُحْدَثين،

ـ وأَحلَّ القانون محل الغصب والانتقام،

ـ وأصبح مجلس الشيوخ بعدئذ صاحب الحق في النظر في جميع جرائم القتل.

---

(١) **معجم لاروس الفرنسي الصغير.**

(٢) نفس المرجع السابق من قصة الحضارة، الصفحة ٢٠٨.

(٣) نفس المرجع السابق.

هـ ـ قوانين صولون وما لها وما عليها

اشتداد حقد الفقراء على الأغنياء في آخر السابع ق.م.

١ ـ وبينما القرن السابع قبل الميلاد كان يقترب من نهايته، كان حقد الفقراء ـ المعدمين وعديمي النصير ـ على الأغنياء المتمتعين بحماية القانون، قد أوشك أن يقذف بأثينا في أتون الثورة؛

وفي ذلك يقول بلوتارخ: «إِن التفاوت في الثراء بين الأغنياء والفقراء قد بلغ غايته، حتى بدا أن المدينة قد أضحت في حال تخشى مغبتها».

ازدياد سوء حال الفقراء وتحدثهم عن الثورة.

٢ ـ ورأى الفقراء أَن حالهم تزداد سوءاً عاماً بعد عام:

ـ فزمام الحكم والجيش في أيدي سادتهم،

ـ والمحاكم الفاسدة المرتشية تقضي في كل نزاع في غير مصلحتهم؛

فأخذوا يتحدثون عن الثورة العنيفة، وعن توزيع الثروة توزيعاً يخالف ما هو قائم مخالفة تامة.

بدء الصراع وعجز الأغنياء عن تحصيل ديونهم.

٣ ـ وأخيراً عجز الأغنياء عن تحصيل ما لهم من ديون قانونية، وأغضبهم تحدي الفقراء لهم، وتهديدهم بالاعتداء على أموالهم المُدَّخَرة وأملاكهم، فلجأوا إلى القوانين القديمة واستعدوا لحماية أنفسهم من الغوغاء بالقوة.

التفاف الطبقات الوسطى حول صولون من الأشراف والأغنياء.

٤ ـ والتفَّت الطبقات الوسطى حول كهل في الرابعة والأربعين[١] من عمره من كبار التجار المثرين، ومن أعظم الأشراف بيتاً: ممَّنْ ينتسبون إلى إحدى الأسر الملكية القديمة، وهو «صولون» الذي لم يشترك في المعركة بين الفريقين، ولكنه لم يتردد قط في التشهير بالوسائل التي استعملها الأغنياء لإذلال الفقراء ودفعهم إلى أحضان الفاقة.

تكليفه لقبول الحكم لإخماد نار الحرب بين الطبقات ووضع دستور جديد.

٥ ـ وأخيراً أقبل ممثلو الطبقات الوسطى عام ٥٩٤ قبل الميلاد على صولون يدعونه إلى قبول ترشيحهم إيَّاه ليكون حاكماً (أرخونا Archonte): على أن يُمْنَح سلطة مطلقة للإصلاح العام، وإخماد نار الحرب بين الطبقات، ورفع الظلم والحيف عن الفلاحين والزراع، ووضع دستور جديد للبلاد، وإعادة الاستقرار إلى الدولة.

موافقة الطبقات العليا كارهة.

٦ ـ ووافقت الطبقات العليا على هذا الاختيار وهي كارهة؛ وكان الباعث لها على هذه الموافقة ثقتها بأن رجلاً مثل صولون من أصحاب المال لا بدَّ أن يكون رجلاً محافظاً.

الإصلاحات الاقتصادية الأولى خيَّبت المتطرفين.

٧ ـ وكانت أعمال صولون الأولى أعمالاً بسيطة، ولكنها من قبيل الإصلاحات الاقتصادية، وقد خيَّب آمال المتطرفين بإحجامه عن إعادة تقسيم الأراضي.

دستور صولون وما قدم أمامه كان خيراً من الإصلاح الاقتصادي.

٨ ـ وكان أبقى من تلك الإصلاحات الاقتصادية قراراته التاريخية التي أنشىء بمقتضاها **دستور صولون**:

ـ وقد قدم لها بعفو عام أطلق به سراح كل سجين،

---

(١) **قصة الحضارة**، الجزء الأول من المجلد الثاني، الصفحة ٢١٠، طبع القاهرة في سنة ١٩٥٣.

ـ وأعاد إلى البلاد كل منفي منها لجرائم سياسية إذا لم تكن هذه الجرائم هي بمحاولة اغتصاب مقاليد الحكم في البلاد،

ـ ثم واصل عمله بأن ألغى صراحة أو ضمناً معظم شرائع دراكون القاسية، ما عدا عقاب القَتَلَة.

صولون وفضله في قانون رفع الأعباء.

٩ ـ **واستطاع صولون** بفضل قانونه الشهير بقانون «**رفع الأعباء**» أن يلغي كما يقول أرسطاطاليس «جميع الديون القائمة سواء أكانت للأفراد أم للدولة»، وحرر الأراضي بذلك من جميع الرهون بجرة قلم، وخسر صولون نفسه بسبب قانونه هذا الشيء الكثير.

احتجاج الأغنياء على هذا القانون.

١٠ ـ وقد احتجَّ الأغنياء على هذا القانون بأنه تشريع لمصادرة أموالهم، ولكن صولون أَصمَّ أذنيه عن سماع احتجاجهم، ولم تمض عشر سنوات على صدوره حتى أجمع الناس، أو كادوا يجمعون، على أنه أنجى أثينا من الثورة.

تحرير صولون لجميع مَنْ استرقوا أو أُلصقوا بالأرض.

١١ ـ **وقد حرر صولون** أيضاً جميع مَنْ استُرِقوا أو أُلصقوا بالأرض، وكل مَنْ بيعوا رقيقاً خارج البلاد، وطلب إليهم أن يعودوا إلى مواطنهم، وحرَّم مثل هذا الاسترقاق في المستقبل.

مساواة قوانين صولون بين الأحرار في الأحكام.

١٢ ـ وقد طُبِقَت قوانين صولون على جميع **السكان الأحرار** بلا تمييز بينهم، وأصبح الأغنياء والفقراء على السواء مقيدين بقيود واحدة: تُفْرَض عليهم عقوبات واحدة.

عقوبات صولون أخف من دراكون.

١٣ ـ وأضاف صولون إلى كل شريعة من شرائعه عقوبات كانت أخف من عقوبات دراكون، ولكنها صارمة مع ذلك.

١٤ ـ وأراد أن يعرف جميع الناس قوانينه حق المعرفة فكتبها على ملفات أو منشورات خشبية تُدَار وتقرأ؛ ووضعها في ساحة الحاكم الديني؛ غير أنه لم يعط لشرائعه صفة دينية، ولم يدِّع كما ادعى ليكرجوس عم ملك سبارطة في شرائعه (٦٣٠ ق.م؟) أنها وحي إلٰهي أو تصديق رباني.

كتابة القوانين وإعلانها للجميع من غير صفة دينية.

١٥ ـ وقد امتازت قوانين صولون بضمان إحقاق الحق، وبأصول التقاضي مثل نظام المحلفين؛ وساوت بين جميع المواطنين الأحرار، وأعطت لجميع هؤلاء المواطنين حقاً في الحكومة وإدارة شؤونها.

ما لقوانين صولون وما عليها.

١٦ ـ غير أن صولون قسم الشعب بحسب دستوره إلى أربع طبقات تبعاً لدخلهم من الثروة، وقصر الوظائف العليا في الحكومة على طبقة النبلاء، وسمح للفلاحين بإدارة الوظائف الصغرى؛ وهكذا بقيت الحكومة في أيدي النبلاء، رغم إعطاء الحق لجميع الشعب في التصويت في انتخاب «مجلس الشعب».

١٧ ـ ورغم أن المدن اليونانية في آسيا وإيطاليا أنشأت بعد صولون على توالي الأيام طائفة راقية من القوانين لتنظيم شؤونها البلدية، غير أن اليونان بوجه عام لم يخرجوا بعد صولون كتاباً في القانون يُعَدُّ من الآيات الخالدة في هذا الموضوع[1].

لم يصدر بعد صولون قوانين تزاحمه.

١٨ ـ واشتهر صولون بالاعتدال والزهد في الحكم، حتى

اعتدال صولون وزهده في الحكم.

(١) **قصة الحضارة**، الجزء الأول من المجلد الثالث، الصفحة ٣٦٠، القاهرة، سنة ١٩٥٥.

أنه لمَّا اتهم بميله إلى أن يكون طاغية تخلَّى عن الحكم مختاراً، وترك أثينا عدة سنين، وأطلق المجال لغيره في الحكم.

انتقاد قوانين صولون من المتطرفين والمحافظين.

١٩ ـ وقد انتقد قوانين صولون كل من المتطرفين والمحافظين:

ـ أَمَّا المتطرفون فلأنه لم يسوّ بين الناس في الملك والسلطان،

ـ وأما المحافظون فلأنه منح العامة الحقوق السياسية، وأجلسهم فوق منصة القضاء.

تقبل صولون للنقد.

٢٠ ـ وكان صولون يتقبل كل هذا النقد بقبول حسن، ويعترف بما في شرائعه من نقص؛

ولمَّا سُئل هل سنَّ للأثينيين أحسن الشرائع؟ أجاب لا، بل سننت لهم خير ما يستطيعون أن يعطوه.

وضع اليونان صولون بين الحكماء السبعة.

٢١ ـ وقد أجمع اليونان على وضع صولون بين **السبعة الحكماء**.

اعتزال صولون الحكم بعد خمس وعشرين عاماً على أن يطيعوا قوانينه.

٢٢ ـ ولمَّا بلغ صولون في عام ٥٧٢ سن السادسة والستين آثر الحياة الخاصة، فاعتزل منصبه بعد أن ظلَّ **حاكماً** (**أرخونا** Archonte) نحواً من خمسة وعشرين عاماً[١]، وبعد أن أخذ العهد على أثينا بأيمانٍ أقسمها موظفوها أن تطيع قوانينه بلا تغيير فيها ولا تبديل مدة عشر سنين.

سفر صولون إلى مصر

٢٣ ـ وبعد أن اعتزل صولون منصبه سافر ليطلع على

---

(١) **قصة الحضارة**، الجزء الأول من المجلد الثاني، الصفحة ٢١٩، القاهرة سنة ١٩٥٣.

حضارة مصر والشرق كما فعل معظم عظماء اليونان أمثال طاليس وفيثاغورث وأفلاطون ودمقريطس؛

بعد الحكم للاطلاع على حضارة الشرق وما تعلّمه وسمعه فيها.

ويلوح أن ذلك الوقت هو الذي قال فيه مقالته الذائعة الصيت: «إِني لتكبر سني، وما فتئت أتعلم»[١]؛

ويقول بلوتارك Plutarque المؤرخ اليوناني (ولد ٤٥ أو ٥٠ ب.م): إن صولون درس التاريخ في عين شمس على الكهنة، وكان مما قاله أحد الكهنة المصريين لصولون: «إِنكم أيها اليونانيون لا تزالون أطفالاً، ثرثارين، مغرورين، لا تعرفون شيئاً عن الماضي»[٢].

(١) **قصة الحضارة**، الجزء الأول من المجلد الثاني، الصفحة ٢١٩، القاهرة، سنة ١٩٥٣.

(٢) نفس المرجع السابق.

و ـ أوضاع سبارطة العامة ونظام الحكم فيها

سبارطة دويلة من مئات الدويلات في الإغريق.

١ ـ إن سبارطة في ذلك العهد لم تكن إِلاَّ دويلة من مئات دويلات المدن التي نشأت في بلاد الإغريق، وفي السواحل، وفي الجزر الإيجية.

نزاع في الدويلات ما بين الارستقراطية والديموقراطية كما سبق.

٢ ـ وقد تقدَّم معنا (المبحث ب، الفقرة ٣٠) أنه كان في دويلات اليونان جميعها نزاع قائم ومستمر بين اتجاهات مختلفة:

ـ فجماعة تريد حكماً ارستقراطياً ينحصر في يد أقلية، ويكون لها جميع الامتيازات؛

ـ وجماعة أخرى كانت تهدف إلى حكم ديموقراطي، أي حكم الشعب.

أثينا وحدها ظفرت ببطولة الديموقراطية.

٣ ـ وقلنا في ذلك المكان: إِن أثينا وحدها كانت بطل الديموقراطية في جميع بلاد اليونان، واستطاع الطغاة في غيرها الاحتفاظ بحكمهم كما كان الحال في سبارطة وفي سرقوسة.

سبارطة ظلت مثلاً للارستقراطية.

٤ ـ وبعد أن أوجزنا الكلام عن الوضع في أثينا وأمثالها، وعمَّا انتهى إليه النضال فيها نحو أحد الاتجاهين وهو الديموقراطية، وجب علينا أن لا نغفل أخبار الاتجاه الآخر الارستقراطي الذي نتخذ سبارطة خير مثال يعبر عنه.

٥ ـ وكانت مدينة سبارطة في بداية العهد الديموقراطي في أثينا قد ازدادت قوة وبأساً، واتسعت فتوحاتها، وحققت في حدود سنة ٥٠٠ قبل الميلاد اتحاداً بالقوة، ضمت فيه الدويلات المجاورة، وعُرِفت باسم **«العصبة السبارطية»**.

ازدادت سبارطة قوة وكوَّنت اتحاد العصبة السبارطية ٥٠٠ ق.م.

ولما كانت سبارطة زعيمة هذه العصبة، فقد صارت هذه العصبة أو الجامعة السبارطية The Sparten League أقوى دولة في الإغريق.

٦ ـ وامتازت مدينة سبارطة بنظام الحرب والشدة، وكانت خالية من الصناعات، لذلك لم يكن فيها ازدهار صناعي وتجاري.

امتازت سبارطة بنظام الحرب وخلت من الصناعة.

٧ ـ وكانت تمقت نظام الحكم الديموقراطي، ولذلك كانت تنظر بعين الحسد والاشمئزاز إلى الديموقراطية الأثينية.

سبارطة تمقت ديموقراطية أثينا.

٨ ـ وأحسن ما وصفت به سبارطة في نظام حكمها: أنها كانت كناية عن **قبيلة محاربة، مخيمة ضمن رعايا أخضعتهم واستعبدتهم**.

أحسن وصف لحكم سبارطة.

٩ ـ وكان الحكم فيها ملكياً:

ـ **ويتولى السلطات الملكية** ملكان يحكمان في آن واحد، وينحدران من الهرقليين الغزاة،

ـ **ويخضعان** لمجلس من الشيوخ «الجروسيا» مؤلف من ثمانية وعشرين عضواً،

ـ **ويساعدهما** في الإدارة خمسة من المشرفين «الإِفورين».

نظامها ملكي ثنائي مع مجلس شيوخ وخمسة مشرفين.

١٠ ـ ولعل هذا النظام الملكي الثنائي الغريب كان نتيجة تنافس بين أسرتين تنتميان إلى أصل واحد فتراضيا على الحكم معاً.

الملكية الثنائية صورة لتنافس أسرتين.

سلطات الملكية وحدودها.

١١ ـ وكانت سلطة الملكين محدودة غير مطلقة:

ـ فكانا يقومان بتقريب القرابين التي يتطلبها دين الدولة،

ـ ويرأسان الهيئة القضائية،

ـ ويقودان الجيش في الحرب،

ـ ويخضعان في جميع أعمالهما لمجلس الشيوخ.

سلطات مجلس الشيوخ الارستقراطيين.

١٢ ـ وكان مجلس الشيوخ «الجروسيا» مقراً للعناصر الارستقراطية ذات السلطان الأكبر: فهو الذي يقترح القوانين، وهو المحكمة العليا في الجرائم الكبرى، وهو الذي يضع أسس السياسة العامة للدولة.

معنى الشيوخ الحرفي.

١٣ ـ ومعنى «الجروسيا» الحرفي جماعة من الرجال المسنين؛ وكان الذين تقلُّ أعمارهم عن ستين عاماً يعدون عادة غير ناضجين لمناقشة شؤون الدولة في هذا المجلس.

سلطات المشرفين وتطورها نحو السلطة العليا.

١٤ ـ ويتمتع المشرفون «الافورون» الخمسة بسلطة إدارية لا يقف في سبيلها إِلاّ معارضة مجلس الشيوخ؛

ولكنهم منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد أصبحت سلطاتهم مساوية لسلطة الملكين، ثم أَصبحوا في واقع الأمر أصحاب السلطة العليا بعد الحرب الفارسية: فكانوا يستقبلون السفراء ويفصلون في المنازعات القضائية، ويقودون الجيوش، ويوجهون أعمال الملوك، بل يعاقبون الملوك أنفسهم أو يبرئونهم من التهم التي توجَّه إليهم.

طبقات المجتمع السبارطي: سادة وأقنان ومجاورون حول الآخرين.

١٥ ـ ويتألف المجتمع السبارطي من ثلاث طبقات:

ـ العليا منها هي **طبقة السادة**، ويعيش معظمهم في سبارطة على منتجات الحقول التي يمتلكونها في الريف؛

ـ **وأُقنان الأرض** الأرقاء «ألهيلوتيين» ممَّنْ أخضعهم السبارطيون واستعبدوهم وأصبحوا يعملون في حراثة حقول السادة؛

ـ **وطبقة المجاورين** «البريئيسيين» Perioeci أي الساكنين حول الآخرين، وهم أحرار يشتغلون في المدن ويؤدّون الضرائب، ويخدمون في الجيش، ولا نصيب لهم في حكم البلاد وليس لهم حق الزواج من الطبقة الحاكمة.

الأقنان ٢٢٤ ألف نسمة.

١٦ ـ ويبلغ **عدد «الهيلوتيين»** الأرقاء الأقنان نحواً من/ ٢٢٤/ ألف نسمة؛

المجاورون ١٢٠ ألف.
السادة ٣٢ ألف.

ويبلغ **عدد البريئسيين** المجاورين نحواً من/ ١٢٠/ ألف نسمة، أما **عدد السادة** فلا يتجاوز/ ٣٢/ ألف نسمة!!

وضع الأقنان ومصدر اسمهم.

١٧ ـ وكان «الهيلوتيون» المستعبدون في أسفل الطبقات، وأكثرهم عدداً كما رأينا، وكانوا مرتبطين بالأرض، ولم يكن لمالك الأرض أن يبيعهم أو يبيع الأرض؛

وقد سُمّوا بهذا الاسم كما قال سترابون نسبة إلى مدينة «هيلوس» التي كان أهلها أول مَنْ استعبدهم السبارطيون.

السادة يحكمون ١١ من أمثالهم.

١٨ ـ وقد أصبح على السادة الذين لم يتجاوزوا نحواً من/ ٣٢/ ألف نسمة أن يحكموا أربعة أمثالهم من «البرئيسيين» **المجاورين**، وسبعة أمثالهم من «الهيلوتيين» **المستعبدين**!

السادة لا يمارسون الفنون وإنما همهم تجنيد السبارطيين للحرب.

١٩ ـ وهذا ما جعل السادة ينفضون أيديهم من ممارسة الفنون ومناصرتها، ويتخذون من كل سبارطي جندياً شاكي السلاح، مستعداً على الدوام لقمع الثورات، أو للسير إلى ميدان القتال.

السبارطيون وضعهم هذا من فضل قوانين ليكرجوس التي أخرجتهم من تاريخ الحضارة.

٢٠ ـ وقد بلغ السبارطيون هذه الغاية بفضل دستور **وقوانين «ليكرجوس»**، ولكن على حساب إخراج سبارطة من تاريخ الحضارة بكافة معانيها، إلا معناها السياسي وحده[١]، وإلاَّ قرض الشعر وممارسة الموسيقى مما كان ضرورة لإلهاب الحماس، وبعث الشجاعة، وإثارة حمية الشباب نحو الحروب[٢].

سبارطة قبل ليكرجوس ازدهر فيها الفن والأغاني.

٢١ ـ ويرى المؤرخون أن سبارطة في هذا الماضي الغامض، قبل أن يأتيها **المشرع ليكرجوس** ويضع قوانينه لسبارطة، كانت كسائر المدن اليونانية: **ازدهر فيها الفن والأغاني** كما لم يزدهرا قط بعد أيامه.

الموسيقى أكثر الفنون انتشاراً وأقدمها.

٢٢ ـ **وكانت الموسيقى** أكثر الفنون انتشاراً فيها، وهي قديمة فيها قدم السكان أنفسهم، ذلك أننا مهما أوغلنا في القدم نجد اليونان يغنون.

الموسيقى في سبارطة صبغتها عسكرية.

٢٣ ـ وإذا كان تاريخ سبارطة لا تنقطع منه الحروب فإن موسيقاها قد اصطبغت بالصبغة العسكرية.

---

(١) **قصة الحضارة**، الترجمة العربية، الجزء الأول من المجلد الثاني الصفحة ١٤٧.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحات ١٤٢ ـ ١٤٥.

ز ـ قوانين ليكرجوس في سبارطة

١ ـ يعتقد المؤرخون اليونان اعتقاداً جازماً لا يقبل الجدل بأن **ليكرجوس** هو واضع قوانين سبارطة[١]؛

قوانين سبارطة من وضع ليكرجوس في ٦٣٠ ق.م.

ويجنح بعض الناس إلى أن هذه القوانين والشرائع قد وضعت في سنة ٦٣٠ قبل الميلاد[٢].

٢ ـ ويقول هيرودوت (٤٨٠ ـ ٤٢٥ ق.م) المؤرخ اليوناني الملقب بأبي التاريخ: **أن ليكرجوس** هو عم الملك كاريلوس ملك سبارطة ووليه، **تلقى من الوحي** في دلفى Delphes ـ مدينة في اليونان القديمة ـ بعض المراسيم[٣].

زعم هيرودوت أن ليكرجوس تلقى مراسيمه من الوحي.

٣ ـ ويصف بعض العلماء هذه المراسيم بأنها **قوانين ليكرجوس** نفسها، ويصفها بعض آخر بأنها **تصديق رباني** على القوانين التي اقترحها هو.

وقيل إنها قوانينه وتصديق رباني.

٤ ـ وتضيف الرواية إلى ما سبق: أن **ليكرجوس** سافر إلى كريت، وأعجب بنظمها، واعتزم أن يدخل بعضها في لاكونية Laconie (المنطقة التي عاصمتها سبارطة)، وأن الملوك

تأثر ليكرجوس بنظم كريت.

---

(١) **قصة الحضارة**، المرجع السابق، الجزء الأول من المجلد الثاني، الصفحة ١٤٧.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٢٦.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٤٨.

ومعظم النبلاء قبلوا **إصلاحاته** على مضض لأنهم رأوا أن لا بدَّ لهم منها إذا أرادوا أن يضمنوا لأنفسهم السلامة والاستقرار.

عهد ليكرجوس على الأهلين أن لا يبدِّلوا قوانينه، ثم اعتزاله حتى الموت.

٥ ـ ولما أتمَّ ليكرجوس قوانينه أخذ على الأهلين عهداً ألاَّ يبدلِّوا في القانون شيئاً قبل أن يعود إليهم، ثم سافر إلى دلفى، واعتزل العالم، وحرَّم على نفسه الطعام حتى مات.

إطاعة القانون من فضائل سبارطة، وقوتها من قوانين ليكرجوس.

٦ ـ وإِذا كانت إطاعة القانون فضيلة فقد كان السبارطي يفوق في هذه الفضيلة سائر الناس؛

وقَلَّ أن تجد شعباً غير شعب سبارطة كان احترامه لقوانينه سبباً في قوته؛

وقد ظلت سبارطة مئتي عام على الأقل تزداد قوة على قوة تحت قوانين ليكرجوس(١).

تردد المُحَدَثين في وجود ليكرجوس.

٧ ـ **ومن العلماء المُحدَثين** مَنْ يتردد في الاعتراف بأن ليكرجوس شخص واقعي كان له وجود في التاريخ.

الاختلاف في تاريخ وجوده.

٨ ـ وتختلف التواريخ التي يحددها مَنْ يؤمن بوجوده منهم ما بين ٩٠٠ ـ ٦٠٠ قبل الميلاد.

يظنُّ البعض أن قوانين ليكرجوس عادات نُسِّقت ونُسِبَت لجامعها.

٩ ـ **وهناك مَن يظن** أن هذه الشرائع لم تكن من وضع رجل بعينه، بل كانت طائفة من العادات نُسِّقت وصيغت حتى صارت قوانين معينة محددة، سُميت من قبيل التيسير باسم الرجل الذي جمعها وقننها، وأبرزها في معظم الأحيان في صورة شرائع مكتوبة.

من الصعب تحديد إصلاحات ليكرجوس.

١٠ ـ وإذا أردنا أن نحدد بالضبط **إصلاحات ليكرجوس** وجدنا الروايات التاريخية مضطربة متناقضة؛

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٦٢.

وهذا ما يجعل من الصعب علينا أن نقول:

- أي عناصر القوانين السبارطية **سبقت ليكرجوس**؟

- وأيها **من وضعه هو**، أو من وضع الجيل الذي كان يعيش فيه؟

- وأيها **أضيفت** إليها بعد أيامه؟

يُنسَب تقسيم الأراضي إلى ليكرجوس ويشك آخر بالتقسيم نفسه.

١١ - ومما يُنسَب إلى ليكرجوس أنه قسم أراضي لاكونيه - Laconie، المنطقة التي عاصمتها سبارطة - ثلاثين ألف قسم متساوية، ووزعها على المواطنين؛

ويرى بعض المؤرخين أن تقسيماً من هذا النوع لم يحدث قط.

ويُنسَب إلى ليكرجوس تقسيم المجتمع جغرافياً بعد أن كان عائلياً.

١٢ - ومما يُنسَب أيضاً إلى ليكرجوس أنه ألغى نظام المجتمع اللاكوني القائم على **صلة القرابة**، واستبدله بأقسام **أرضية جغرافية**، وبهذا تحطم سلطان الأسر القديمة، وأنشىء نظام ارستقراطي واسع النطاق.

ويُنسَب إلى ليكرجوس تحريم التجارة والصناعة حماية لمالكي الأرض.

١٣ - ومما يُنسَب كذلك إلى ليكرجوس أنه أراد حماية طبقة مالكي الأرض من أن تقضي عليهم طبقة التجار ونحوها التي كانت تسير سيراً حثيثاً نحو مركز الزعامة في المدن المحيطة بسبارطة، **فحرّم لذلك** على المواطنين أن يشتغلوا **بالتجارة أو بالصناعة**، ووطّد العزم على أن يتفرَّغ السبارطيون (المواطنون ملاك الأرض) إلى شؤون الحكم والحرب.

الجيش عماد سبارطة

١٤ - **وكان الجيش** عماد السلطة في سبارطة ومناط فخرها، لأنها وجدت في شجاعته، ونظامه، ومهارته، أمنها ومثلها الأعلى؛

وتدريب كل مواطن ما بين عشرين وستين.

وكان كل مواطن يُدَرَّب تدريباً حربياً، وكان عرضة لأن يدعى إلى الخدمة العسكرية فيما بين العشرين والستين من عمره.

إعجاب اليونان جميعها بجيش سبارطة.

١٥ ـ وكانت بلاد اليونان جميعها تُعْجَب بجيش سبارطة وحكومتها، وتتطلَّع إلى معونتها في ثَلِّ عروش الطغاة الظالمين.

افتخار المحافظين بقوانين ليكرجوس لجمعها الملكية والارستقراطية والديموقراطية.

١٦ ـ وكان مما يفخر به المحافظون الأقدمون أن قوانين ليكرجوس، أو دستوره في تعبير آخر، قد دامت عهداً طويلاً، لأن أنظمة الحكم الثلاثة: الملكية، والارستقراطية، والديموقراطية، قد اجتمعت كلها فيه، واجتمعت بنسب تمنع طغيان أي عنصر منها على العنصرين الباقيين.

الملكية السبارطية وخصائصها.

١٧ ـ **فالملكية السبارطية** كانت في الواقع ملكية ثنائية، وكان في سبارطة ملكان يحكمان معاً، وكانت سلطة الملكية سلطة محدودة غير مطلقة، ويخضعان في جميع أعمالهما لمجلس الشيوخ كما تقدم.

الارستقراطية مقرها الشيوخ.

١٨ ـ **وأما العناصر الأرستقراطية** ذات السلطان الأكبر في الدولة فكان مقرها في مجلس الشيوخ (الجروسيا)، وكان عددهم ثمانية وعشرين عضواً.

الديموقراطية مقرها في «جمعية» المواطنين.

١٩ ـ **وأما العناصر الديموقراطية** فكانت في الأَبِلاَ Apella، وهي الجمعية التي كان جميع المواطنين الذكور يُقبَلون فيها متى بلغوا سن الثلاثين، وكان عددهم ٨٠٠٠ ثمان آلاف من بين سكان سبارطة البالغ عددهم ٣٧٦ ألفاً.

خصائص جمعية المواطنين.

٢٠ ـ وكانت **هذه الجمعية** من الوجهة النظرية مصدر السلطات، وصاحبة السيادة؛

ولكن تعديلاً أُدخل على الدستور بعد ليكرجوس، جعل **لمجلس الشيوخ** حق تغيير قرار الجمعية إذا رأى أنها اتخذت قراراً «**معوجاً**».

ولمّا طلب مفكر سابق لعصره إلى ليكرجوس أن ينشىء دولة ديمقراطية، أجابه المشترع بقوله: «ابدأ أيها الصديق بإنشائها في أسرتك».

خلاصة قوانين ليكرجوس أنها أعجب الشرائع وأبغضها في التاريخ كله.

٢١ ـ هذا وإن الإحاطة بشرائع ليكرجوس وما فيها من أحكام غريبة فُرِضت في سبارطة وأصبحت قانونها النافذ، تلخص لنا هذا القانون بأنه: **أعجب وأُبغض طائفة من الشرائع** في التاريخ كله[١].

يقول ريفيللو إن قانون سبارطة مخالف للطبيعة.

٢٢ ـ ويقول الأستاذ ريفيللو في قانون سبارطة: «إِنه من القواعد المخالفة للطبيعة التي ولدت في العهد الحديدي، وكان لها حينئذ من العذر أنها تدافع عن الحياة في مجتمع ينهب الناس فيه بعضهم بعضاً، ويعتدي أحدهم على حياة الآخر، وأن مثل هذه القواعد كان محتماً عليها أن تزول حينما تتكون دولة ذات نظام»[٢].

إيجاز شرائع سبارطة فيما يلي.

٢٣ ـ وها نحن أولئك نوجز هذه الشرائع السائدة في سبارطة فيما يلي.

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٤٧.

(٢) Engène Révillout, les obligations en Droit Egyptien suivies d'un appendice sur le Droit de la Chaldée, page LXXXI, Paris 1886.

ح ـ خلاصة القوانين في سبارطة

ما قلناه عن جيش سبارطة سابقاً.

١ ـ قلنا سابقاً إِن الجيش كان عماد السلطة في سبارطة ومناط فخرها، لأنها وجدت فيه أمنها ومَثَلَها الأعلى؛

وكان كل مواطن يُدَرَّب تدريباً حربياً.

تدريب السبارطيين على الشدة من أيام مولدهم.

٢ ـ وإن تدريب الناس على مَثَلٍ أعلى متعب للجسم، كالذي يدرَّب عليه السبارطيون، يحتِّم أخذهم من أيام مولدهم، لتعويدهم أشد النظم وأعظمها صرامة.

الخطوة الأولى تقوية النسل بأقسى الطرق.

٣ ـ وكانت الخطوة الأولى هي تقوية النسل بأقسى الطرق:

فلم يكن كل ما يُفْرَض على الطفل هو أن يواجه ما لأبيه من حق قتله، بل كان يؤتى به فضلاً عن ذلك أمام مجلس من مجالس الدولة مكوَّن من مفتشين، فإذا ظهر أن الطفل مشوَّه أُلقي به من فوق جُرُف في جبل «تيجيتس» ليلقى حتفه على الصخور القائمة في أسفله.

المطالبة بصحة مَنْ يُختَار للزواج.

٤ ـ وكان يُطلَب إلى الرجال والنساء أن يهتموا بصحة مَنْ يريدون أن يتزوجوهم؛

وكان الملك أركيداموس Arckidamus نفسه قد فرضت عليه غرامة لأنه تَزوَّج بامرأة ضئيلة الجسم.

٥ ـ وكان الأزواج يشجِّعون على أن يعيروا زوجاتهم إلى رجال ذوي قوة ممتازة غير عادية حتى يكثر بذلك الأطفال الأقوياء!!

تشجيع الأزواج على تحسين نسلهم بإعارة زوجاتهم.

وكان ينتظر من الأزواج الذين أنهكهم المرض أو أعجزتهم الشيخوخة أن يدعوا الشبان ليعينوهم على تكوين أسرٍ قوية!؟

٦ ـ ويقول المؤرخ اليوناني بلوتارخ: إن **ليكرجوس كان يسخر من الغيرة**، ومن احتكار الأزواج، ويقول: «إن من أسخف الأشياء أن يُعنَى الناس بكلابهم وخيلهم، فيبذلوا جهدهم ومالهم ليحصلوا على سلالات جيدة، ثم تراهم مع ذلك يبقون زوجاتهم في معزل ليختصوا بهنَّ في إنجاب الأبناء، وقد يكونون ناقصي عَقْلٍ، أو ضعفاء أو مرضى»!!

سخرية ليكرجوس نفسه من غيرة الأزواج ودعوته لتحسين النسل كما يُفعَل بالخيل والكلاب.

٧ ـ وكان الولد السبارطي **يؤخذ من أسرته في السابعة** من عمره لتتكفَّل الدولة بتربيته، ويسلك في فرقة عسكرية هي في الوقت نفسه فصل مدرسي تحت إشراف قيِّمٍ على الأولاد.

إلحاق الطفل منذ السابعة بفرقة عسكرية لتربيته.

٨ ـ ولم يكن هدفهم من هذه التربية هو الجسم الرياضي والمهارة في الألعاب كما كان هدف الأثينيين، بل كان الهدف هو الشجاعة والحرية والقيم العسكرية.

هدف التربية القيم العسكرية لا الألعاب كما في أثينا.

٩ ـ وكان يُطلَب إلى السبارطيين جميعاً أن يتحمَّلوا الألم ويقاسوا الصعاب، وأن يصبروا على المصائب وهم صامتون لا يتذمرون.

مطالبة السبارطيين جميعاً بتحمل الآلام والصعاب.

١٠ ـ وكان عدد من الشبان يختارون كل عام أمام مذبح أرتميس أوثيا Artemis Orthia، وتلهب أجسامهم بالسياط حتى تخضب دمائهم الحجارة.

تدريب الشبان على الجلد حتى تسيل دماؤهم.

تدريب الشبان منذ الثانية عشرة حتى الثلاثين على الشقاء بلا راحة.

١١ - وإذا بلغ الولد الثانية عشرة من عمره منعت عنه ملابسه السفلى، ولم يسمح له إلا بثوب واحد طول أيام السنة؛

ولم يكن يستحم كثيراً كغلمان الأثينيين، لأن الماء والإدهان تجعل الجسم ليناً رخواً؛ أما الهواء البارد والتراب النظيف فيجعلانه صلباً شديد المقاومة؛

وكان ينام في العراء صيفاً وشتاءً؛

وكان يعيش حتى الثلاثين من عمره في الثكنات مع فرقته، ولا يعرف وسائل الراحة المنزلية.

من غرائب الاستعداد للحرب الإباحة للشاب بسرقة طعامه من الحقول بشرط أن لا يُقْبَض عليه.

١٢ - وكان الشاب السبارطي يعلَّم أن يستعد للحرب بأن ينطلق في الحقول ليوجد طعامه بنفسه أو يموت جوعاً إِذا لم يجده؛

وكانوا يجيزون له السرقة في هذه الأحوال! وإِذا قبض عليه وهو يسرق عوقب بالجلد!!

على مَنْ بلغ الثلاثين حتى الستين تناول وجبته اليومية في مطعم عام، والهدف من ذلك.

١٣ - وكان الدستور السبارطي يفرض على كل رجل من سن الثلاثين إلى الستين أن يتناول وجبته اليومية الرئيسية في مطعم كبير عام، وكان الطعام فيه بسيطاً في نوعه، وأقل في كميته مما يلزم للشخص العادي؛

ويقصد المتشرع من ذلك تعويدهم الصبر على ما يلاقونه في الحروب من حرمان، وأن يحول بينهم وبين ما ينشأ في عهود السلم من تدهور وانحطاط؛ وإِذا كبر بطن الرجل كبراً معيباً كان عُرْضَةً لأن تؤنبه الحكومة علناً على هذا الكبر، أو أن تنفيه من لا كونية.

١٤ ـ وكانت البنت أيضاً خاضعة لقيود تفرضها عليها الدولة، وإن كانت تتركها لتربى في منزل أبويها؛

على البنت أيضاً تربية خاصة في منزل أبويها لتقوية بنيتها.

فكان يطلب إليها أن تقوم ببعض الألعاب العنيفة كالجري والمصارعة، ورمي القرص، وإطلاق السهام من القوس، لكي تصبح قوية البنية، صحيحة الجسم، صالحة في يسر للأمومة الكاملة.

١٥ ـ وحددت الدولة أنسب سن للزواج سن الثلاثين للرجال، والعشرين للنساء.

سن الزواج القانوني.

١٦ ـ **وكانت العزوبة في سبارطة جريمة**، وكان العُزَّاب يحرمون حق الانتخاب وحق مشاهدة المواكب العامة التي يرقص فيها الفتيان والفتيات عراة.

العزوبة جريمة تجرّد صاحبها من بعض الحقوق.

١٧ ـ ويقول بلو تارخ: إن العزاب أنفسهم كانوا يرغمون على أن يمشوا بين الجماهير عراة صيفاً وشتاء: ينشدون نشيداً فحواه أنهم يقاسون هذا العقاب العادل جزاء لهم على مخالفة قوانين البلاد؛

يُرْغَم العُزَّاب على العُرْي صيفاً شتاء وهم عرضة لأذى النساء.

وكان الذين يصرون على عدم الزواج عرضة لأن تهاجمهم في أي وقت من الأوقات جماعات من النساء يؤذينهم أشد الأذى.

١٨ ـ ولعل السبب في العزوف عن الزواج هو انتزاع الأولاد من آبائهم في السن السابعة، وقتل الضعيف منهم، وتدريب الصحيح منهم تدريباً فيه كثير من التعذيب إعداداً للشبيبة على شقاء الحرب.

سبب العزوف عن الزواج انتزاع الأولاد من آبائهم.

١٩ ـ وكان نظام الحكم السبارطي غير كريم في معاملة الأجانب إلى درجة لم يسبق لها مثيل؛

الحكم السبارطي غير

كريم في معاملة الأجانب الزائرين.

وقلَّما كان الأجانب يُرَحَّب بهم في البلاد، وكانوا يفهمون عادة أن زيارتهم يجب أن لا تطول، فإذا طالت فوق ما يجب صحبهم رجال الشرطة إلى حدود البلاد.

لا بد من إذن الدولة لخروج السبارطي من بلاده.

٢٠ ـ وكان يُحَرَّم على السبارطيين أنفسهم أن يخرجوا من بلادهم إِلاَّ بإذن من الحكومة.

ملاحظة العلماء على هذا النظام المصطنع العجيب.

٢١ ـ وكان لا بدَّ لهذا النظام في سبارطة أن يكون غير كريم ليحمي بذلك نفسه: لأن ريحاً تهبُّ من هذا العالم المحرم عليهم، عالم الحرية والترف والآداب والفنون، قد تدك هذا النظام المصطنع العجيب الذي كان ثلثا الشعب فيه من الأقنان، بل كان كل السادة فيه من الرقيق.

ط ـ ما لهذه القوانين وما عليها

انتقال للملاحظات على قوانين سبارطة بعد تلخيصها.

١ ـ وبعد أن استعرضنا خلاصة قوانين سبارطة المستمدة من دستور ليكرجوس وشرائعه العجيبة الغريبة في سبيل تكوين الرجل السبارطي، وحماية الدولة السبارطية، **أرى من المفيد** أن أنقل فيما يلي ما سجله المؤرخون والعلماء من ملاحظات فيما هو لخير هذه القوانين وما هو عليها.

أي رجال وحضارة أنتجتها هذه القوانين.

٢ ـ فأي طراز **من الرجال؟**

ـ وأي نوع **من الحضارة؟**

أنتجتهما هذه القوانين وهذا الدستور!

أما الرجال فشجعان وأقوياء الأجسام.

٣ ـ **أما الرجال** فكانوا أقوياء الأجسام: أَلِفوا المشاق والحرمان؛ وكانوا شجعاناً وقلَّ مَنْ كان يضارعهم في ذلك الوقت في ثبات جنانهم وانتصارهم في الحروب؛

وقد قال عنهم أحد السيباريين[(١)] Sybarites المترفين من القانونيين القدماء: إن السبارطيين لا يُمْدَحون على استعدادهم للموت في ميدان القتال لأن موتهم هذا ينجيهم من كثير من العمل الشاق، ومن الحياة البائسة.

دليل شجاعتهم وقوتهم

٤ ـ وليس أدلُّ على قوتهم وشجاعتهم في الحروب من

(١) نسبة إلى مدينة قديمة هي سيباريس Sybaris: مستعمرة يونانية في إيطاليا القديمة، هدمت في سنة ٥١٠ قبل الميلاد.

أن اليونان لم تصدّق هزيمة سبارطة في سفاكتيرية.

أن بلاد اليونان كلها لم تكد تصدق أن السبارطيين قد استسلموا لأعدائهم في سفاكتيرية Sphacterie (جزيرة يونانية)، وذلك لأنه لم يُسْمَع عنهم من قبل أنهم لم يحاربوا إلى آخر رجل فيهم: وكان الجندي السبارطي العادي يفضِّل الانتحار على الحياة بعد الهزيمة.

دهشة زينوفون من مكان سبارطة بين دول اليونان بفضل أنظمتها.

٥ ـ ويحدثنا زينوفون Zénophon المؤرخ والفيلسوف اليوناني الأثيني (٤٢٧ ـ ٣٥٥ ق.م) عن الدهشة التي عَرَته حين لاحظ أول مرة مكان سبارطة الفذ بين دول اليونان مع قلة عدد سكانها، ويقول إنه لم تزل حيرته إلاً حين فكَّر في **أنظمة السبارطيين العجيبة.**

ثناء الفلاسفة اليونان من غير ملل على السبارطيين؛ سبارطة مصدر وحي أفلاطون في مدينته.

٦ ـ ولم يكن زينوفون يملُّ من الثناء على السبارطيين؛ ولم يكن أفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م) وبلوتارخ Plutarque (مؤرخ يوناني ولد في ٤٥ أو ٥٠ ب.م) يملاَّن أيضاً من الثناء عليهم؛

ولا حاجة إلى القول: إن سبارطة هي التي وجد فيها أفلاطون الخطوط الرئيسية لمدينته الفاضلة.

المفكرون اليونان مجّدوا أرستقراطية سبارطة لما رأوا من فوضى ديموقراطية أثينا.

٧ ـ وقد كان الكثيرون من المفكرين اليونان يعمدون إلى تمجيد نظام سبارطة الارستقراطي بعد أن ملّوا ما في ديموقراطية أثينا من انحطاط وفوضى، وأوجسوا في أنفسهم خيفة منها.

الصحة في سبارطة فضيلة والمرض جريمة.

٨ ـ وكانت صحة الجسم من الفضائل الرئيسية في سبارطة، كما كان المرض جريمة فيها؛

وما من شك في أن أفلاطون قد سرَّه أن يجد بلاداً خالية من الدواء ومن الديموقراطية.

٩ ـ والحق أنهم كانوا يستطيعون الثناء على سبارطة لأنهم لم يضطروا إلى المعيشة فيها، ولم يروا عن كثب ما في أخلاق من أنانية، وبرودة، وقسوة؛

هؤلاء أثنوا على سبارطة لأنهم لم يضطروا إلى العيش فيها ولم يروا قسوة رجالها وموت كفاياتهم الفعلية.

ولم يتبينوا ممَّنْ يرونهم من الصفوة الذين التقوا بهم، أو من الأبطال الذين يمجِّدونهم عن بعد، أن **الشرائع السبارطية خرّجت جنوداً بواسل ولا شيء غير الجنود**،

وأن هذه الشرائع جعلت قوة الجسم وحشية مرذولة: لأنها أماتت الكفايات العقلية كلها.

١٠ ـ ولمَّا أصبح لهذه الشرائع السبارطية المقام الأول في البلاد:

شرائع سبارطة أماتت ما ازدهر من الفنون قبلها.

ـ أصاب الموت فجأة جميع الفنون التي ازدهرت قبل سيادة هذه الشرائع،

ـ ولم نعد نسمع بعدئذ عن شعراء، أو مثَّالين، أو بنائين في سبارطة بعد عام ٥٥٠ قبل الميلاد،

ـ ولم يبق في سبارطة إلاَّ الرقص الجماعي والموسيقى، لأنه فيهما يمكن أن يتجلَّى النظام السبارطي، وأن يختفي الفرد ويضيع في المجموع.

١١ ـ وكان من أثر حرمان السبارطيين أن يتَّجروا مع العالم، ومن أثر منعهم من الأسفار، وجهلهم بعلوم بلاد اليونان وآدابها وفلسفتها الآخذة في الظهور والنماء **أن أصبحوا** أمة من الجنود المشاة المدرعين الثقال، لا ترقى عقليتهم فوق مستوى الذين قضوا في هذه الجندية حياتهم كلها.

حرمان السبارطيين من الاتصال بالعالم جعلهم لا ترقى عقليتهم فوق مستوى جندي قضى كل حياته في الجندية.

١٢ ـ وعلى بعد لا يزيد على مسيرة يوم واحد على ظهور الجياد من حدود دولة سبارطة كان الأثينيون يشيدون من آلاف المظالم صرح حضارة واسعة المدى، قوية في

التناقض ما بين خصائص أثينا وسبارطة رغم قرب

المسافة بين حدود الدولتين.

أعمالها، تتقبل كل فكرة جديدة، حريصة على الاتصال بالعالم، متسامحة، معقدة، مترفة، مبتدعة متشككة، واسعة الخيال، شعرية، مشاغبة، حرة؛

وكان ما بين أثينا وسبارطة من التناقض هو الذي صبغ التاريخ اليوناني بصبغته المعروفة، ورسم خطوطه الرئيسية.

ضيق أفق سبارطة قضى على قوة نفسيتها وأذلّها.

١٣ ـ وأخيراً قضى ضيق أفق سبارطة على ما لها من قوة نفسية: ذلك أن نفسيتها القوية ذاتها لم تلبث أن انحطّت في هذا الأفق الضيق وذُلّت، حتى صارت ترتضي كل وسيلة تؤدّي إلى غرض سبارطي.

إذلال السبارطيين جعلهم يبيعون حريتهم للمستعمر بسهولة.

١٤ ـ وبلغ من ذلة هذه النفسية السبارطية للغزاة آخر الأمر: أن باعت سبارطة للفرس **تلك الحريات** التي كسبتها أثينا في ماراثون Marathon (مدينة في اليونان مشهورة بهذه المعركة الظافرة سنة ٤٩٠ ق.م)؛

وإذا سهل عليها بيع تلك الحريات للفاتح المستعمر فذلك لأن السبارطيين لم يكونوا متمتعين بتلك الحريات، ومن يهن يسهل الهوان عليه.

نزعة سبارطة العسكرية كانت عذاباً لجيرانها ولمّا سقطت سبارطة لم يحزن عليها أحد.

١٥ ـ ولقد استحوذت النزعة العسكرية على سبارطة وجعلتها سوط عذاب على جيرانها، بعد أن كانت في مكان الشرف منها!

ولما سقطت سبارطة عجبت الأمم كلها من سقوطها! ولكن ما من أمة حزنت عليها(١)!

أنقاض سبارطة لا تدلُّ

١٦ ـ ولا نكاد اليوم نجد بين الأنقاض القليلة الباقية من

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الأول من المجلد الثاني، الصفحة ١٦٤.

هذه العاصمة القديمة نقشاً واحداً، أو عموداً ملقى على الأرض: يعلن للعالم أن أصحاب الحضارة اليونانية كانوا في يوم من الأيام يسكنون في هذا المكان.

على أن أصحاب الحضارة اليونانية سكنوا يوماً في هذه الأرض.

المبحث الثاني: الرومان

أ ـ سكان إيطاليا ومنشا حضارتهم

الإيتروسك واليونان والقرطاجيون العرب

حضارة الرومان فرع عن الحضارة اليونانية في رأي المؤرخين، وفي رأينا أنها فرع أولاً عن حضارة الإيتروسكيين.

١ ـ يرى المؤرخون أن **حضارة الرومان** فرع من حضارة أعم: هي **الحضارة الهيللينية** (اليونانية)، ولذلك كان ما شرحناه في البحث السابق عن اليونان الإغريق يساعد على فهم حضارة الرومان وأصولها[١].

ونحن نرى أن حضارة الرومان هي فرع أولاً عن **حضارة الأيتروسكيين** في شمالي إيطاليا كما سوف نرى، قبل أن نكون فرعاً عن الحضارة الهيللينية.

ما تميزت به الثقافة الرومانية عن اليونانية.

٢ ـ وكذلك يرى المؤرخون أن **الثقافة الرومانية** قد تميَّزت عن الثقافة اليونانية بخصائص تفرَّدت بها، ومن ذلك:

ـ أنها لم تُعْنَ بالفلسفة التي تفرَّدت بها عبقرية اليونان،

ـ ولكنها تميَّزت بأمور أخرى: منها القانون والشريعة، وطرق الإدارة، والتنظيم المدني والعسكري، والاهتمام بطرق المواصلات، والعمارات المدنية العامة[٢].

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الثاني، الصفحة ٦٠٥، الطبعة الثانية، بغداد سنة ١٩٥٦.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٦٣٧.

٣ ـ وقد كانت إيطاليا في القرن الثامن قبل الميلاد، أي قبل بناء روما، تحوي مجموعة عجيبة من الشعوب غير متجانسة[١].

٤ ـ من أين أتت هذه الشعوب؟ ومتى؟ وكيف وصلت؟ . . .

هذه أسئلة لم يمكن الجواب عليها نهائياً، لأنها تتعلق بعصر من العصور القديمة، وليس لدينا حتى الآن شيء من الوثائق عنها غير قيامها في تلك الأمكنة[٢].

٥ ـ جاءت هذه القبائل إلى شبه الجزيرة التي دُعيت فيما بعد **إيطاليا، وكان أكثر هذه القبائل** جزءاً من هجرات الأقوام **الهندية ـ الأوروبية.**

٦ ـ وكان أكثر هذه القبائل في بداية أمرها، كما كان الحال في قبائل الفرس والإغريق، **قبائل شبه همجية،**

ولكنها أخذت تتعلَّم أصول الحضارة بالتدريج من اتصالاتها بالمدنيات المجاورة:

- الإيتروسكية،
- واليونانية،
- والقرطاجية العربية.

٧ ـ وهكذا فقد **تعلَّمت هذه القبائل بوجه خاص** من جماعات كانت سبقتهم إلى إيطاليا نفسها قبل مجيء بقية الإيطاليين:

شعوب إيطاليا غير متجانسة في القرن الثامن قبل الميلاد.

لا يُعْرَف شيء نهائي عن مكانها الأول وكيف وصلت ومتى.

أكثرها قبائل من الهنود الأوروبيين.

كانت أولاً شبه همجية مثل الفرس والإغريق ثم تعلَّمت من المدنيات المجاورة الإيتروسكية واليونانية والقرطاجية العربية.

---

(١) الصفحة ٩ من كتاب: **التاريخ الروماني الجديد** Nouvelle Histoire Romaine لمؤلفه Guglielmo Ferrero، طبع مكتبة Hachette، باريس سنة ١٩٣٦.

(٢) نفس المرجع السابق.

وهم **الإيتروسكيون** (التوسكانيون) الذين كانوا مسيطرين على إيطاليا في القرن السادس قبل الميلاد من مدنهم المحصنة التي كانت في الإقليم المسمى توسكانية Toscane[(١)]، وسماه الرومان أيضاً ايترورية Etrurie[(٢)].

أخذت أولاً عن الإيتروسكيين السابقين إلى إيطاليا.

٨ ـ هذا، ونستطيع أن نقول على ما قد وصل إليه علمنا **بتاريخ الإيتروسكيين**: إنهم أدخلوا في إيطاليا العقود والقباب في الأبنية المقامة لغير الأغراض الدينية، كأبواب المدن وأسوارها، ومجاري المياه ومصارفها؛

عقود أبنيتهم وقبابها جاءوا بها عن بابل بطريق ليديا فيما يظهر ويوجد مثلها في مصر.

ويظهر أنهم قد جاءوا بهذه الأشكال الفخمة من بلاد ليديا، وأن هذه قد أخذتها عن بلاد بابل؛ وكانت هذه الأشكال تستخدم في المقابر والهياكل المصرية وفي قصور نينوى في شمالي بلاد الرافدين[(٣)].

٩ ـ ولقد شادوا حيث نزلوا في إيطاليا مدناً لا قرى من القش والطين كما كانت الحال قبل مجيئهم، بل بلاداً مسورة ذات شوارع منظمة على قواعد هندسية، وبيوتاً غير مقامة من اللبن فحسب، بل مقامة كثرتها، من الآجر المحروق أو الحجارة[(٤)].

شادوا حيث نزلوا مدناً على قواعد هندسية لا قرى من القش كما كان الحال قبل مجيئهم.

١٠ ـ وهكذا نجد أنفسنا مع هؤلاء الإيتروسكيين (التوسكانيين) أمام مدنية فيها بعض التقدم كما أشرنا إليها أعلاه: لأننا لسنا أمام

نحن مع الإيتروسكيين أمام مدنية فيها بعض

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الثاني، طبعة ثانية، الصفحة ٦٠٦.

(٢) **قصة الحضارة**، ترجمة عربية، الجزء الأول من المجلد الثالث، الصفحة ١٣ الحاشية (*)، القاهرة سنة ١٩٥٥.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٠.

(٤) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٢.

التقدم صناعة وتجارة وبحارة.

جماعة من الفلاحين الفقراء، وإنما أمام جماعة من رجال الصناعة والتجارة، وهم فوق ذلك بحارة شبه الجزيرة، فقد كانوا يشقون البحار بسفنهم، وينشئون المدن ويجهِّزونها بالأقنية aqueducs، والمجاري égouts، ويحيطونها بالحصون، ويبدعون في تجميل البناء architecture وفي صناعتي الدهان peinture والحفر sculpture[١].

لدى هؤلاء تنظيم سياسي: اتحاد دويلات ومجالس موسمية، وقد أعطوه إلى روما.

١١ ـ وقد كان لدى هؤلاء الإيتروسكيين فوق ذلك **تنظيم سياسي**؛ إذ أنهم كانوا يؤلفون اتحاداً Confederation ما بين مجموعة صغيرة من الدويلات بلغت نحواً من اثنتي عشرة، ويحكم كل واحد منها ملك، ويجتمع هؤلاء في مجالس موسمية[٢] diétes périodiques؛ وأن الإيتروسكيين هم الذين أعطوا إلى روما النظام السياسي والإداري في البلاد كما سوف نراه فيما يلي في آخر مبحث: إنشاء مدينة روما.

ظلَّت هذه المدن المتحالفة أقوى سلطة طوال السادس ق.م.

١٢ ـ وظلت هذه المدن المتحالفة طوال القرن السادس قبل الميلاد أقوى سلطة سياسية في إيطاليا؛

وكان لها جيش حسن التنظيم، وفيه فرق من الفرسان ذائعة الصيت، وأسطول بحري كان في وقت من الأوقات هو المسيطر على البحر الذي لا يزال إلى اليوم يُسمَّى البحر الترهيني أو البحر الإِتروري أو البحر التوسكاني[٣].

---

(١) كتاب Nouvelle histoire Romaine، لمؤلفه Guglielmo Ferrero، الصفحة ٩.

(٢) نفس المرجع السابق؛ وكذلك **قصة الحضارة**، الجزء السابق، الصفحة ١٢.

(٣) **قصة الحضارة** السابق، الصفحة ١٢-١٣، ويضيف في الحاشية أن اليونان كانوا يسمون الأتروسكين: الترهيني Tyrrheni، ولعل هذا الاسم اليوناني مأخوذ من كلمة Tyrrha وهي اسم غابة في ليديا.

١٣ ـ وكما تعلمت القبائل الإيطالية من الإيتروسكيين. أولاً كما رأينا **تعلمت هذه القبائل أيضاً من اليونان**، وكذلك من الفينيقيين **القرطاجيين العرب** أشياء مفيدة من عناصر الحضارة.

ثم تعلّمت إيطاليا من اليونان ومن الفينيقيين العرب.

١٤ ـ ومما لا ريب فيه أنه كان **للمدنية الفينيقية العربية** أثر يعادل أثر **المدنية اليونانية** في إيطاليا، **بل أكثر منها**، لأن مدنية الفينيقيين نشأت واستكملت أسبابها قبل القرون الوسطى اليونانية بزمن طويل، وأثرت في حياة شعوب البحر المتوسط المادية والفكرية تأثيراً عظيماً ساعد التطور الحضاري على دفعهم في معارجه[1]؛

أثر فينيقيا في إيطاليا أكثر من اليونان فيها، وإن اليونان إنما تحضّروا بواسطة الفينيقيين قبل أن ينتقلوا إلى إيطاليا.

بل قد ثبت لدينا ـ كما مر معنا في مبحث اليونان ومنشأ حضارتهم ـ أن الفينيقيين يرجع إليهم وحدهم في الدرجة الأولى تطوير اليونان ونشر الحضارة فيهم قبل أن ينتقل اليونان بحضارتهم إلى إيطاليا.

١٥ ـ لا يُستغرَب أن تكون **المدنية الفينيقية** قد أخذت تؤثر تأثيراً كبيراً في مدنية إيطاليا **منذ العهد الحجري والنحاسي**، وإن كان لم يُعثَر على آثار تثبت ذلك حتى الآن[2]، وأن يكون تأثير الفينيقيين في حضارة روما تارة بشكل مباشر، وتارة بشكل غير مباشر بطريق اليونان.

تأثير فينيقيا في إيطاليا منذ العهد الحجري، مباشرة تارة، وتارة بطريق اليونان.

١٦ ـ هذا ولا يخفى أن الفينيقيين العرب ظهروا في البحر المتوسط منذ أوائل الألف الثاني قبل الملاد، وكانوا المصرِّفين لأمور التجارة فيه مع الأقوام الإيجية خلال هذه

ظهور الفينيقيين مع الإيجيين في المتوسط منذ الألف الثاني ق.م.

---

(١) **روما والشرق الروماني**، للدكتور سليم عادل عبد الحق المدير العام للآثار والمتاحف في سوريا، الصفحة ١٥، المطبعة الهاشمية بدمشق، سنة ١٩٥٩.

(٢) نفس المرجع السابق.

الحقبة الطويلة من تاريخ الإنسانية[١].

سيادة الفينيقيين وحدهم للمتوسط بعد الإيجيين وتعليمهم جيرانهم الأبجدية لحاجة التجارة.

١٧ ـ ولمّا اضمحل الإيجيون ساد الفينيقيون وحدهم هذا البحر، وكان ذلك في أول الألف الأولى قبل الميلاد؛

وكان الفينيقيون قد وضعوا الأبجدية منذ عدة قرون، وأخذوا يعلّمون رموزها إلى جيرانهم[٢] لحاجة التجارة والمواصلة على الأقل فيما أرى.

صور أكبر مدينة فينيقية، وملاّحوها أشاعوا لدى الشعوب البربرية مدنيات مصر وبابل وآشور.

١٨ ـ **وكانت مدينة صور** على ساحل البلاد الكنعانية الشامية أكبر مدينة فينيقية حينئذ؛ وكان ملاحوها تجاراً مغامرين يتكلمون كل اللغات المعروفة، ويعرفون أصول كل الديانات، ويطلعون على الحاجات التجارية لكل شعوب البحر الأبيض المتوسط، **فجعلوا يشيعون** لدى الشعوب الغربية البربرية، ومنها شعوب إيطاليا، جميع المدنيات المصرية والبابلية والآشورية بما يحملونه لها من سلع مادية وأفكار دينية وتقاليد[٣].

في آثار صقلية وإيترورية كثير مما نقله الفينيقيون من صناعات الشرق.

١٩ ـ وقد تكاثرت الأدوات والأشياء الشرقية التي **حملها الفينيقيون** إلى إيطاليا؛ وظهر في مواقع **صقلية** الأثرية، وفي **قبور الإيتروسكيين في إيترورية**، وفي بولونيا Bologne من إيطاليا، كثير من الأدوات الفخارية ذات الزخارف الهندسية، والأشياء الثمينة المصنوعة في مصر وآشور وفينيقيا[٤].

إن ما تقدم يثبت صلة الإيتروسكيين بالفينيقيين

٢٠ ـ وإن **ما تقدم يحكم** بأن صلة الإيتروسكيين بالعرب الفينيقيين البحارة كانت صلة وثيقة، **وهذا ما أثبته** التاريخ: من

---

(١) نفس المرجع السابق.
(٢) نفس المرجع السابق.
(٣) نفس المرجع السابق.
(٤) نفس المرجع السابق.

صلة الإيتروسكيين بالقرطاجيين العرب، **وهو الذي يفسر** لنا سبب تقدم الإيتروسكيين في الحضارة عن بقية سكان إيطاليا حينذاك، **وهو الذي يفسر** لنا سر تقدم روما السريع في الصناعة والتجارة بعد أن حكمها الإيتروسكيون: **إذ كانت** هنالك علاقات دولية واتفاقات ما بين القرطاجيين من الفينيقيين العرب وبين إيترورية ضد الإغريق وغيرهم من أعدائهم، وكانت أسواق إيترورية أسواقاً خاصة بتجارة الفينيقيين إلى أن استخلصها منهم الإغريق[1].

ويفسِّر سر تقدمهم وتقدم روما تحت حكمهم.

٢١ ـ هذا ولا تجوز المبالغة في تأثير هذه المدنيات في شعوب إيطاليا حينئذ، بل كان ذلك محدوداً في تلك الأزمنة، وذلك لضعف استعداد هذه الشعوب في ذلك الوقت، ولغرابة هذه المدنيات عن روما، فلم تستطع هذه تمثلها إلاّ تدريجياً وببطء؛ لذلك كان لا بدَّ لهذه الشعوب الإيطالية من قرون عديدة وكثيرة حتى يتحركوا ويسيروا ويتأثروا بتلك الحضارات، ولكن بعد أن قُضي على سلطان أهلها، وحلَّ محله سلطان الرومان.

تأثير فينيقيا في إيطاليا كان بطيئاً لضعف استعداد شعوبها.

٢٢ ـ ونرى من الواجب أن نسجِّل هنا إعجاب الرومان بزراعة القرطاجيين العرب، وما نشأ عنه من إصدار مجلس الشيوخ في روما أمره إلى جونيوس سيلانوس Junius Silanus بأن يترجم إلى اللاتينية كتاباً في الزراعة أَلَّفه القرطاجي ماغون Magon، وقد لخص هذا الكتاب أيضاً باللغة اليونانية، وينصح مؤلفه في استثمار الأراضي الزراعية بإزالة الملكيات الريفية الصغيرة، وبإنشاء الملكيات الكبرى، وبأن

إعجاب الرومان بزراعة القرطاجيين والأمر

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٢٤.

لا تُجزَّأ هذه الملكيات عن طريق الإرث وغيره، وبتجميع الفلاحين ضمن قرى وبعدم السماح لهم بأن يعيشوا متفرقين؛

بترجمة كتاب ماغون القرطاجي في الزراعة.

وقد كانت أساليب القرطاجيين العرب في الزراعة مبنية على أحدث النظريات المعاصرة لاستثمار الأرض، وقد اخترعوا عدة أدوات زراعية[١].

أساليبهم في الزراعة من أحدث النظريات المعاصرة.

هذا وقد بلغت مؤلفات ماغون القرطاجي في الزراعة نحواً من /٢٨/ كتاباً، وقد ترجمت جميعها واختصرت مراراً في اللغتين اليونانية واللاتينية[٢].

٢٣ ـ وكذلك كان اهتمام الإيتروسكيين بالزراعة اهتماماً عظيماً، وهذا ما أوحى إليهم بعدة مؤلفات في الزراعة[٣]، وبذلك يقوم الشبه العظيم ما بين القرطاجيين والإيتروسكيين في التفوق في الزراعة وفي الملاحة، ويُضَاف إلى ذلك وحدة الأبجدية إذ أنها لدى الشعبين أبجدية فينيقية[٤].

الإيتروسكيون مثل القرطاجيين في الاهتمام بالزراعة والتأليف فيها وبذلك يتشابهون بالإضافة إلى الملاحة ووحدة الأبجدية.

٢٤ ـ هذا، وإن جميع تلك القبائل الهندية ـ الأوروبية وغيرها التي جاءت إلى شبه جزيرة إيطاليا، والتي تكلمنا عن مصدر ثقافتها وحضارتها فيما تقدم من الفقرات، قد حملت جميعها فيما بعد اسم الإيطاليين.

هذه القبائل الهندية سُميِّت فيما بعد بالإيطالين.

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٣٣.

(٢) انظر كتاب: La vie quotidiene chez les Étrusques، لصاحبه Jacques Heurgon، الصفحة ١٤٢، طبع مكتبة هاشيت Hachette في باريس ١٩٦١.

(٣) نفس المرجع قبله.

(٤) كتاب: Les Étrusques، لصاحبه Raymond Bloch، الصفحة ٤٨، طبع: باريس سنة ١٩٥٩ Presses universitaire de France:

سبب تسميتهم بالإيطاليين نسبة للملك إيطاليوس.

٢٥ ـ وجاء عن أرسطو في سبب تسمية تلك القبائل بالإيطاليين، وذلك بعد زمن طويل:

«يقول أصدق الناس حكماً في هذا البلد: إنه لما أصبح **إيطالوس**[١] Italus ملكاً لأوينوترية Oenotria بدل أهل البلاد اسمهم، ولم يعودوا يسمون أنفسهم أوينوتريين، بل إيطاليين»؛ وكانت أوينوترية في مكان الأصبع الكبرى في الحذاء الإيطالي[٢].

توسع الإغريق في مدلول إيطاليا.

ثم توسع الإغريق في مدلول إيطاليا حتى شمل هذا الاسم جميع شبه الجزيرة من جنوبي نهر البو Pô إلى أقصى طرفها الجنوبي[٣].

في الساحل الجنوبي عنصر يوناني ازدهرت بهم مواطنهم.

٢٦ ـ **وقد سكن في الساحل الجنوبي** أيضاً من شبه جزيرة إيطاليا عنصر معروف **هو العنصر اليوناني**،

ورغم أن قدوم هؤلاء لتلك الأرض لم يكن قد مضى عليه زمن طويل فإنهم لم يلبثوا حتى ازدهرت مواطنهم بسرعة، وألفوا هناك فيما بعد ما قد سموه **باليونان الكبرى**.

قدومهم فراراً من بؤس اليونان في عهد الإقطاع.

٢٧ ـ وقد كان قدوم هؤلاء اليونان فراراً من البؤس والشقاء الذي ساد بلا اليونان في عهد حكم النبلاء وأمراء الإقطاع في أثينا (٧٥٠ ـ ٦٢٥ ق.م).

في الوسط والجنوب

٢٨ ـ **وسكن في القسم الأكبر من الوسط والجنوب** من شبه الجزيرة

---

(١) إن إيطالوس هذا كان ملك الصقليين الذين احتلوا أوينوترية في طريقهم لاحتلال جزيرة صقلية وتسميتها بهذا الاسم.

(٢) كتاب **قصة الحضارة** السابق، الجزء الأول من المجلد الثالث، الصفحة ٨.

(٣) كتاب **قصة الحضارة** السابق، الصفحة ٨.

شعوب من الشرق.

الإيطالية شعوب إيطالية قديمة، ويظن أنهم جاءوا من الشرق بطريق إيليرية L'illyrie، والبحر الإدرياتيك L'Adriatique.

هذه الشعوب في الوسط جماعات زراعية خشنة، لا صناعية ولا تجارية.

٢٩ - وقد كانت هذه الشعوب **جماعات زراعية** وحربية، وذات حياة خشنة، ومدنية بديئة؛

أما الصناعة لديهم فلم تتجاوز الأشياء العادية مما هو أكثر مساساً بالحاجات الضرورية؛

وأما التجارة فقد كادت تكون مفقودة.

هذه الشعوب لاتينيون وسابينيون وأومبريون يجمعهم اللغة والدين والأخلاق.

٣٠ - وقد كانت هذه الشعوب منقسمة إلى عدة طوائف: **اللاتينيين** Latins، **والأومبريين** Ombriens، **والسابينيين** Sapins؛ ويجمع بينهم بعض الجوامع من لغة ودين وأَخلاق.

في الشمال الليكوريون والفينيت لا يُعْرَف أصلهما.

٣١ - **أما في الشمال**، أي في سهول نهر بو La Plaine de Pô، فقد كان يعيش فيه شعبان آخران لا يعرف أيضاً أصلهما على التحقيق، وهما **الليكوريون** Les Ligures في الغرب، **والفينيت** Les Vénètes في الشرق حول منطقة البندقية اليوم (فينيس Venis).

في جنوبي أولئك: الإيتروسكيون لا يعرف أصلهم ولا لغتهم.

٣٢ - **وفيما بين هذه القبائل** الأخيرة وفي جنوبيها، من قواعد جبال الألب Les Contreforts des Alpes إلى نهر التيبر Le Tibre، ومن بحر الادرياتيك إلى بحر التيرنه، تمتد أراضي **الإيتروسكيين** Les Étrusques ويسمون أيضاً **التوسكانيين** Les Toscans.

وليس لدينا عن هؤلاء إِلاَّ الشيء القليل من المعلومات: فلا أصلهم بثابت، ولا لغتهم بمعلومة على التحقيق[١].

---

(١) كتاب Nouvelle Histoire Romaine لمؤلفه Gugleilmo Ferrero، الصفحة ٧٩ باريس سنة ١٩٣٦.

ب ـ هل الإيتروسك هجرة عربية قديمة إلى إيطاليا كهجرة الكنعانيين إلى قرطاجة

غموض تاريخ الإيتروسكيين وحكمهم لروما مئة عام.

١ ـ إن تاريخ الإيتروسكيين (التوسكانيين) يكتنفه غموض شديد يضايق المؤرخ أشد الضيق؛

وقد حكم هؤلاء الأقوام مدينة روما مئة عام أو أكثر من مئة بواسطة ثلاثة ملوك منهم حتى سنة ٥٠٩ قبل الميلاد، وخلَّفوا في أنماط الحياة الرومانية آثاراً تجعل فهم هذه الحياة وفهم تاريخ روما متعذرين دون دراسة تاريخهم.

الآداب الرومانية أَغفلت ذكر الإيتروسكيين.

٢ ـ ومن المؤسف أن الآداب الرومانية، رغم ما خلَّفه الإيتروسكيون (التوسكانيون) من آثار، قد أغفلت ذكرهم كما تغفل المرأة النَّصف الجهر بأنها جاوزت سن الشباب؛ ومع ذلك فإن الحضارة الإيطالية، أو ما سُجِّل منها، تبدأ من أيامهم[١].

لغة الإيتروسكيين لم تحل غير أن أبجديتهم فينيقية وهي في أكثرها نفس

٣ ـ ومما يزعج المؤرخ أن لغة هؤلاء لم يُحَل من رموزها إلاً عدد قليل من الألفاظ لا غناء فيه، وأن ما تركوه من نقوش على آثارهم لا يزال لغزاً غير مفهوم، ولا يزال

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الأول من المجلد الثالث، الصفحة ١١، طبع القاهرة سنة ١٩٥٥.

رسوم الأبجدية اللاتينية اليوم.

العلماء حيارى أمام غموضها أشد مما كان يكتنف تاريخ مصر الفرعونية قبل شمبليون[١].

غير أن أبجديتهم على كل حال ورسومها هي أبجدية فينيقية[٢]، وهي في أكثرها نفس رسوم الأبجدية اللاتينية اليوم.

يُرَجَّح أن الإيتروسكيين من آسيا الصغرى كما يعتقدون.

٤ ـ وذهب معظم المؤرخين اليونان والرومان إلى أنه من القضايا التي لا تحتاج إلى برهان: أن الإيتروسكيين قد جاءوا من آسيا الصغرى[٣]؛

وكان الإيتروسكيون أنفسهم يعتقدون بأنهم غزوا إيطاليا من آسيا الصغرى؛ والراجح أنهم جاءوا من ليديا Lydie في آسيا الصغرى[٤] (على بحر الأرخبيل).

حضارتهم على الغالب تأثرت بآسيا الصغرى والعراق واليونان ومصر

٥ ـ وأغلب الظن أن **حضارتهم** قد تأثرت من الناحية التجارية بحضارات اليونان والشرق الأدنى[٥]، **وأن صلاتهم** بآسيا الصغرى ومصر وبلاد اليونان قد أثرت في تبدل أحوالهم الاقتصادية والثقافية[٦].

بل تدل أكثر الأدوات والأشياء الجنازية التي وجدت في قبورهم على أنها شرقية الصنع، ويرجع عهدها إلى القرنين

(١) نفس المرجع السابق.
(٢) انظر كتاب: الإيتروسك Les Étrusques، لصاحبه ريمون بلوخ Raymond Bloch، طبع باريس سنة ١٩٥٩، مطبعة Presses universitaires de France.
(٣) نفس المرجع السابق.
(٤) نفس المرجع، الصفحة ١٢.
(٥) نفس المرجع السابق.
(٦) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٩.

الثامن والسابع قبل الميلاد؛ واستدل منها على أن ملابس أصحابها تشبه الملابس الحثية، وأن معتقداتهم متأثرة بمعتقدات الحثيين وبلاد الرافدين في العراق[1].

كما دلّت الأدوات التي وجدت في قبورهم.

٦ ـ **فهل كان القرطاجيون** الذين طوقوا إيطاليا في الغرب واحتلوا الجزر من الشمال إلى الجنوب هم الذين نقلوا إليهم بعض الصناعات: وخاصة أصول عمران المدن والزراعة ومهنة الملاحة وأبجدية الفينيقيين؟.

فهل كان القرطاجيون العرب هم الذين نقلوا إلى الإيتروسكيين صناعات الفينيقيين؟.

أو أن هجرة عربية كبيرة أخرى قبل القرطاجيين العرب قد اتجهت إلى إيترورية في إيطاليا، كما اتجه مثلها في هجرة صغيرة إلى منطقة «الأيونيين = اليونان» بقيادة قدموس العربي وكانت مصدر حضارة اليونان؟

أو أنه هناك هجرة عربية أخرى إلى إيطاليا مثل هجرة جماعة قدموس إلى اليونان؟.

٧ ـ إن القول بوصول هجرة عربية كبيرة إلى شمالي إيطاليا من العرب القدماء ومن أقرباء الفينيقيين قبل هجرة القرطاجيين إلى شمالي أفريقيا، ثم ذوبانهم في الشعوب الإيطالية، هو وحده الذي يصلح مفسراً لنا سر وصول عدد من الفينيقيين في عهد الإمبراطورية الرومانية إلى أعلى سلم القيادة في الجيش، ثم إلى عرش الإمبراطورية في روما نفسها، رغم أن أولئك الفينيقيين السوريين من أسرة سيفير وكذلك فيليب العربي هم غرباء عن الرومانيين الوطنيين، وليس لهم حق في عرف الحقوق الرومانية بالتمتع بتلك الحقوق السياسية العليا.

القول بوصول هجرة عربية إلى شمالي إيطاليا هو المفسِّر الوحيد لصعود الفينيقيين على

ولولا أن الإيتروسكيين من أصل عربي ومن أنسباء

---

(١) **روما والشرق الروماني**، سليم عادل عبد الحق، الصفحة ١٩، طبع دمشق سنة ١٩٥٩.

الفينيقيين مثل القرطاجيين لما سهل على سبتيم سيفير Septime Sévère الفينيقي من حمص أن يقتحم بجيشه المعسكر حول روما وفي مناطق الإيتروسك القديمة وأن يعلن نفسه إمبراطوراً على روما! ولولا أن جيش سبتيم سيفير في مناطق الإيتروسك مثله في القرابة والنسبة لما تعصَّبوا له وحموه ضد اللاتينيين وفرضوه على مجلس الشيوخ في روما، رغم أنه في عرف حقوق روما أجنبي ولا يجوز له أن يتمتع بالحقوق السياسية التي يتمتع بها اللاتينييون الرومانيون!

عرش الإمبراطورية في عهد أسرة سيفير.

يجزم علماء الآثار بوجود خمس هجرات عربية تاريخية، وأنه قد سبقها قبل التاريخ هجرات عربية إلى البلقان وإيطاليا وغيرهما على البحر الأبيض المتوسط.

٨ - وإذا رجعنا إلى دراسات علماء الآثار وما حصلوا عليه في السنوات الأخيرة في البلاد العربية رأيناهم يجزمون ويقولون: «استطاعت الأبحاث الأثرية أن تعد خمس موجات منها، وأن تؤكد أن آخرها وأقواها كانت موجة العرب المسلمين قبل أربعة عشر قرناً؛ وأنه لا ريب قد سبق هذه **الهجرات العربية التاريخية** الخمس **هجرات عربية قديمة أخرى قبل التاريخ؛** امتدت على أفريقيا الشمالية **والبلقان وإيطاليا وإسبانيا،** وعرفت بأسماء موجات أقوام البحر الأبيض المتوسط[١]».

يقول أريستو إن الإيتروسكيين والقرطاجيين ألفوا أمة

٩ - ولعل قول آريستو Aristote في هذا المقام يصبح القول الفصل حيث يقول: «إن الإيتروسكيين والقرطاجيين كانوا يؤلِّفون في القديم أمة واحدة»[٢]، فهم إذن شعب

---

(١) **مجلة الحوليات الأثرية السورية**، المجلد السابع سنة ١٩٥٧، الصفحة ٤، الدكتور سليم عبد الحق مدير الآثار العام.

(٢) انظر كتاب La vie quotidienne chez les Étrusques لمؤلفه جاك هوركون Jacques Heurgon، الصفحة ٢٤، مطبعة Crété سنة ١٩٦١، ومكتبة هاشيت Hachette باريس.

واحد في الأصل، وما دام القرطاجيون هم هجرة عربية لا شك فيها، فإن الإيتروسكيين هم هجرة عربية أيضاً ومن أنسباء القرطاجيين الفينيقيين.

واحدة، فهم إذن هجرة عربية.

١٠ ـ وإن وحدة الأصل العربي فيما بين الإيتروسكيين والقرطاجيين في مهجرهم هي التي تفسر لنا سر تلك الصلة الوثقى التي أشرنا إليها من قبل فيما بين هذين الشعبين (الفقرة ٢٠ من المبحث السابق)، وإنها لم تكن فقط علاقات ودية واتفقات دولية، وإنما كانت **وحدة عنصرية**.

الصلات الوثقى بين الشعبين في مهجرهم كانت نتيجة وحدة الأصل.

١١ ـ ولذلك لم يعد من المستغرب أن نرى في الإيتروسك نفس خصائص القرطاجيين، إلى جانب تلك الوحدة في السلم والحرب والموت والحياة:

وحدة الخصائص عند الإيتروسكيين والقرطاجيين.

ـ فكلا الشعبين كانا مهرة في الملاحة البحرية،

ـ وكلا الشعبين كانا مهرة في الزراعة،

ـ وكلا الشعبين كانت أبجديتهما أبجدية فينيقية،

ـ وكلاهما كانا يقاتلان سوية وبأسطول واحد أعداءهما الفوسيين Les Phocéen لطردهم من جزيرة كورسيكا سنة ٥٣٥ قبل الميلاد(١)،

ـ ولم يكن انهيار الإيتروسكيين في التاريخ إلا نذيراً بانهيار القرطاجيين أيضاً.

---

(١) نفس المرجع السابق.

ج ـ إنشاء مدينة روما

استقرار اللاتينيين جنوبي التيبر حول ألف ق.م. وجاورهم السابينيون والأومبريون.

١ ـ لقد عبر نهر التيبر حوالي عام ١٠٠٠ قبل الميلاد جماعة من المهاجرين، واستقروا في منطقة اللاتين Latium جنوبي النهر، وعُرِفوا باللاتينيين، ويُسمون أحياناً بالآريين؛ وهم كما ظهر في التحقيق شعب من الشعوب الهندية الأوروبية.

وجاور هؤلاء إلى الشرق وإلى الشرق الشمالي قبائل السابينيين Sapin والأومبريين Ombriens، ويجمع ما بين الجميع كما تقدم بعض الجوامع من لغة ودين وأخلاق.

لا يُعْرَفُ ما فعله هؤلاء في السكان الأصليين.

٢ ـ ولا يعرف أحد هل غلب هؤلاء المهاجرون مَنْ وجدوهم في تلك البلاد من السكان الأصليين الذين كانت ثقافتهم في ذلك العهد لا ترقى عن ثقافة أهل العصر الحجري الحديث، أو أبادوهم، أو اكتفوا بالاختلاط بهم والزواج منهم[١]؛

انضمام القرى لبعضها ما بين التيبر إلى نابولي

٣ ـ ومهما يكن ما فعله هؤلاء المهاجرون في السكان الأصليين، فقد أخذت ***القرى الزراعية*** التي كانت قائمة في هذا الإقليم التاريخي العظيم بين نهر التيبر وخليج نابلي Naples

---

(١) **قصة الحضارة**، الجزء الأول من المجلد الثالث، الصفحة ٢٦، طبع القاهرة سنة ١٩٥٥.

تجتمع، وينضم بعضها إلى بعض حتى تكون منها عدد قليل من **دويلات المدن** المستقلة المتحاسدة، التي لم يتحد بعضها مع بعض إلا في الأعياد الدينية السنوية، أو فيما كان يقوم بينها من حروب.

وتكوين دويلات مدن متحاسدة.

٤ ـ وكان أكبر هذه المدن هي **آلبا ـ لونكا** Alba - Longa = Alpe -- La - Longua القائمة عند سفح جبل آلبان Alban وهي عاصمة اللاتينيين.

آلبا ـ لونكا عاصمة اللاتينيين أعظم هذه المدن.

والراجح أن موضعها كان في موضع قصر كاندولفو Castel Gandolfo الذي يأوي إليه البابا في أيام الصيف في الوقت الحاضر.

٥ ـ ومن مدينة **آلبا ـ لونكا** تحرك جماعة من اللاتينيين ولعل ذلك كان في **القرن الثامن قبل الميلاد**، وأقاموا على بعد عشرين ميلاً نحو الشمال الغربي، وعلى الشاطىء الأيسر من نهر التيبر، مدينة جديدة لغرض دفاعي على الأرجح.

لاتينيون من آلبا ـ لونكا أقاموا روما في الثامن ق.م. لغرض دفاعي.

٦ ـ ولم تلبث تلك المدينة الجديدة روما أن أصبحت السوق المركزية لتلك النواحي، ثم صارت فيما بعد من أعظم مدن العالم وأوسعها شهرة:

غدت روما سوقاً لتلك النواحي، ثم من أعظم مدن العالم شهرة.

ـ فمنها خرجت إلى الوجود الدولة الرومانية،

ـ وفيها تأسست إمبراطوريتها،

ـ وعنها صدرت الألواح الإثنا عشر (سنة ٤٤٩ ق.م)،

ـ ثم أخذت الألواح الإثنا عشر **تتطور خلال أحد عشر قرناً** تحت ضغط عوامل مختلفة إلى أن انتهت إلى **تقنين الإمبراطور** جوستينيان ما بين أعوام ٥٣٨ ـ ٥٦٥ بعد الميلاد: حيث انتهى حكم جوستينيان واستقر تقنينه الذي **غدا مصدر الشرائع**

الأوروبية في القرون الحديثة، ولا يزال يعمل عمله في التأثير في أمم وشعوب أُخرى غير الأمم الأوروبية.

غير ما تقدم لا توجد معلومات قطعية عن تاريخ تأسيسها ولا عن مؤسسها.

٧ ـ ولسنا نعرف عن نشأة روما هذه أكثر مما ذكرناه أعلاه؛ وأن جميع ما يروى عن أخبار نشأتها وتأسيسها دخل في عداد القصص الخرافية، وليست هناك **معلومات قطعية**:

ـ لا عن تاريخ تأسيسها،

ـ ولا عن شخص مؤسسها.

ترجُح القصص تاريخ تأسيس روما في ٢١ نيسان سنة ٧٥٤ ق.م.

٨ ـ أما فيما يتعلق **بتاريخ تأسيس** روما فإن القصص المنقولة إلينا بواسطة المؤرخين القدماء تدعي بأن روما أُسست حول منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، بل تحدد تاريخ تأسيسها في ٢١ نيسان من سنة ٧٥٤ قبل الميلاد على نحو ما أشارت إليه بعض وثائق روما الرسمية.

ورغم أن **تحديد هذا التاريخ** قد نوقض وأُبديت عليه كثير من الملاحظات القيمة، فإنه لا يزال له الرجحان على أي تاريخ آخر أشارت إليه نظريات الباحثين.

شخص المؤسس أغمض من تاريخ التأسيس لما أُحيط به من خرافات.

٩ ـ وكذلك الأمر فيما يتعلق **بشخص مؤسس روما**، فإن شخص الباني هو أشد صعوبة، لأن ذلك يسوقنا إلى الدخول في **مجموعة قصص خرافية** اشترك في عرضها الشعر والأدب وتاريخ الآلهة اليونانية Mythologie بشكل مثير وجذاب.

أقدم القصص أن المؤسس رومولوس أو

١٠ ـ وإِن أقدم القصص المنقولة وأبسطها تقول:

ـ إن روما قد أُسست من قبل **رومولوس** Romulus أو ريموس Rémus.

ـ وإن اسم روما مأخوذ من أحد اسميهما،

. وإن هذين هما ولدان لجوبيتر Jupiter أب الآلهة وسيدها لدى الرومان واليونان.

ريموس ابنا جوبيتر سيد الآلهة.

١١ ـ وقد أعاد المؤرخون النظر في مجموعة هذه القصص الكثيرة وغير المؤتلفة، واستخلصوا منها بعد النقد:

ما جنح إليه الناقدون أولاً أن آلبا لونكا من بناء أحفاد إينه الطروادي وحُكِمَت من قبلهم.

إن إِينه Enée المحارب الطروادي والرحالة الكبير الذي وصل إلى شواطىء اللاتين بعد مغامرات عديدة، والذي يُنْسَب إليه تأسيس كثير من المدن التي رؤي أن تنسب إليه، قد قام من أحفاده رجل يسمى **أسكاني** Ascagne، وأنشأ مدينة آلبا لونكا Alba Longa (آلب لالونك Alpe -la -longue) لتكون عاصمة لمملكة اللاتينيين؛ وقد حكم فيها بعد آسكاني عدد من الملوك، ومنهم الملكان الأخوان **نوميتور وآموليوس** Numitor et Amulius؛

١٢ ـ ويتابع المؤرخون فيقولون: إن هذين الملكين الأخيرين قد اختلفا. وأن آموليوس خلع أخاه نوميتور وأخرجه من المدينة واغتصب منه الملك، وحكم على بنته الوحيدة **ريا سيلفيا** Rhea Sylvia بالعزوبة الأبدية، وأرغمها على أن تصبح كاهنة Vestale لدى إلٰهه النار المسماة **فيستا** Vesta، وأن تترهب وتقسم بأن تظل عذراء حتى الممات.

النزاع بين الأخوين نوميتور وأموليوس من أولئك الأحفاد وتغلب آموليوس.

١٣ ـ غير أن **إلٰه الحرب مارس** Mars (المريخ) فيما يحكى لم يلبث أن انتقم لهذا الاغتصاب، وقد أسر جمال هذه الكاهنة قلبه؛

انتقام المريخ إلٰه الحرب من آموليوس واستيلاده

وبينما ريا سيلفا كانت راقدة يوماً على شاطىء مجرى ماء «وفتحت صدرها لتتلقى النسيم»[1]، واستغرقت في النوم

---

(١) **قصة الحضارة**، الجزء السابق الصفحة ٢٧.

بنت نوميتور توأمين هما رومولوس وريموس.

واثقة بطهارة من حولها من الآلهة وغيرهم أكثر مما يجب، إذا بمارس هذا يفاجئها ويتصل بها، ويولدها من صلاته توأمين هما رومولوس Romulus وريموس Rémus.

آموليوس أمر بقتل الأم وبإلقاء التوأمين في النهر، ولكن الآلهة أنقذتهما.

١٤ ـ ولمّا وضعتهما أمر آموليوس بقتلها وبإلقاء طفليها وهما في المهد في نهر التيبر؛ بيد أن الآلهة شاءت إنقاذهما، وأشفقت عليهما الأمواج فحملت مهدهما إلى البر في ذيل تل البالاتان Palatin المشرف على النهر، وأتت ذئبة Lupa فحنت عليهما وأرضعتهما من ثديها، وأقبل صقر فحلّق فوقهما، وحمل إليهما الغذاء، وحمتهما الطير من الحشرات؛

وفي رواية أخرى أن التي أرضعتهما هي زوجة راع تدعى **آكا لارانتيا** Acca Larantia يكنونها **لوبا** Lupa ـ **ذئبة** ـ لأن حبها عارم كحب الذئاب(١).

شبَّ التوأمان وقتلا آموليوس وأعادا جدهما للعرش وأنشآ على تل البالاتان روما بإذن من جدهما لغرض دفاعي.

١٥ ـ ولمّا شبَّ **رومولوس وريموس** على تل البالاتان واطلعا على ما جرى لهما، قتلا آموليوس وأعادا جدهما نوميتور إلى عرش **مدينة ألب**، ثم أنشآ بإذن منه، وبقرب من هذه المدينة إِلى الشمال على **تل البالاتان** Palatin، وعلى هذا الشاطىء الأيسر من نهر التيبر، مدينة جديدة في ذلك المكان لغرض دفاعي وتجاري، وسميت روما أخذاً من أحد اسميهما.

وقد اتسعت مدينة روما القديمة شيئاً فشيئاً حتى اشتملت أخيراً على سبعة جبال أو تلال، كان أشهرها تل **البالاتان**

(١) نفس المرجع السابق.

الذي بُنيت عليه أولى المساكن، وتل الكابيتول Capitol، وتل الكيرينال Quirinal، وتل الآفانتان Aventin.

انتقال جاليات من مدينة آلب إلى روما التي غدت سوقاً لتلك الناحية ثم عاصمة الرومانيين.

١٦ ـ وهكذا انتقل إلى هذه المدينة الجديدة روما شيئاً فشيئاً بعض الجاليات من مدينة آلب؛ ولم تلبث هذه المدينة كما أشرنا إليه من قبل أن أصبحت **السوق المركزية** لتلك النواحي، وهي في طريقها لتصبح بعد ذلك **عاصمة إيطاليا** كلها، ثم **قاعدة الرومانيين** وإمبراطوريتهم الواسعة.

غدت روما بعد عصرين مدينة صناعية وتجارية مما لا يتفق مع خشونة اللاتينيين، فما هو التفسير؟

١٧ ـ ومن هذا الإيضاح يظهر لنا أن **مدينة روما** إنما أُنشئت من قِبَلِ مدينة آلب اللاتينية لتكون **مرفأً تجارياً لها** على نهر التيبر!

وفي ذلك من المعاني ما يثير الاهتمام: لأننا إذا تقبلنا أن مدينة روما منذ نشأتها وفي العصرين الأولين من وجودها قد أصبحت **مدينة صناعية وتجارية**، فإن مشكلة جديدة وخطيرة جداً تظهر أمامنا وهي: كيف تمكّن اللاتينيون في هذه السرعة الفائقة، رغم ما عُرِفوا به من شظف العيش، أن يجهزوا روما بعناصر التقدم الصناعي والتجاري؟!

هناك فرضية تقول إن روما ليست لاتينية بل إيتروسكية لطابعها الإيتروسكي.

١٨ ـ وبناء على هذه الملاحظة ظهرت فرضية غريبة تقول إن مدينة روما ليست **بمدينة لاتينية** وإنما هي **مدينة إيتروسكية**، وذلك بما حملته في مظهرها من جميع معاني مدنية الإيتروسكيين:

ـ سواء في أشكال تجميل أبنيتها،

ـ أو في أوضاع شوارعها،

ـ أو في النقوش التي تزين بها أدوات الحياة المنزلية من مصابيح وآنية،

ـ بل إننا نجد هذا الأثر الإيتروسكي حتى في الشؤون الدينية والعادات التجارية.

هذه الفرضية تفسّر أسباب تقدم روما السريع.

١٩ ـ وإن **هذه الفرضية** التي تقول إن مدينة روما **مدينة إيتروسكية** هي وحدها التي تفسر لنا أسباب التقدم السريع لهذه المدينة التي ازدهرت في وسط بلاد فقيرة وقروية، كما تفسر لنا أسباب تلك المدنية اللامعة حينذاك التي ظهرت في مدينة روما بين جماعة من الفلاحين الخشنين.

توسيع روما بقبول المغامرين والآبقين في جوارهم.

٢٠ ـ هذا، ولمّا أراد رومولوس زيادة عدد سكان مدينته افتتح ملجأ على **تل الكابيتول** في جوار تل البالاتان، وأخذ يؤوي إليه جميع الأرقاء الآبقين، واللصوص المغامرين، والغرباء، والمدينين العاجزين عن وفاء ديونهم.

معظم هؤلاء كانوا رجالاً، ورفض السابينيون المجاورون تزويجهم فاختطف رومولوس لهم النساء.

٢١ ـ وكذلك أصبح عدد الجاليات واللاجئين رجالاً، ورفض المجاورون لهم من السابينيين تزويج بناتهم إلى هؤلاء الرومانيين الأول؛

وهذا ما دعا رومولوس وجماعته إلى انتهاز فرصة عيد ديني لدى طائفة السابنيين، وقيل بل دعا رومولوس نفسه جيرانه هؤلاء إلى حفلة، واختطف هو وأعوانه بناتهم وتزوجوهن.

تبع الاختطافَ حربٌ فصلح فاتحاد بين اللاتينيين والسابينيين هناك وحكم مشترك ونهاية الملكين الأولين.

٢٢ ـ وتبع هذا الاختطاف حرب انتهت بسرعة بين الرومانيين والسابينيين، إذ توسط النسوة المسبيات ما بين الطائفتين إبقاء على ذويهن وأزواجهن، وأصلحن بينهما، وعقد الجانبان فيما بينهم حلفاً، **وحكمت بموجبه** روما بعد ذلك بصورة مشتركة من قبل **رومولوس** ملك اللاتينيين في روما، ومن قبل السابيني **تيتوس تاتيوس** Titus Tatius ملك قبيلة

الكيريت Quirites (أو الكوريت Curites)[1] السابينية، **وتم حينئذٍ** توحيد تل البالاتان مع تلك الكابيتول؛

ولم يلبث تاتيوس أن قتل ـ بعد مدة في حرب خاضها ضد بعض المجاورين ـ فبقي رومولوس وحده، ثم اختفى هذا الأخير في عاصفة كما ترويه القصص القديمة في يوم احتفال، ولم يعد يرى له أثر، واتخذ من بعد ذلك إلٰهاً من آلهة الرومان المحببين يعبدونه باسم كيرينوس Quirinus[2] **ولعلّ هذه العبادة** للإلٰه الجديد كيرينوس هي التي عممت بعد ذلك اسم الكيريتيين على جميع الرومانيين القدماء الذين اشتركوا في عبادة كيرينوس.

سبعة ملوك حكموا روما حتى سنة ٢٤٠ من بنائها منهم أولاً أربعة لاتينيون وسابينيون.

٢٣ ـ ويُحكى أن روما منذ ذلك التاريخ حتى سنة ٢٤٠ تقريباً من بنائها قد حُكِمت من قبل سبعة ملوك:

ـ وكان أولهم **رومولوس** الذي أوجد قواعد روما السياسية والأساسية، وأقام نظامها على كيان العشيرة La gens.

ـ ثم خلفه من السابينيين **نوما بومبيليوس** Numa Pompilius وكان رجلاً صالحاً وتزوج إحدى الربات، ونظم الكهنوت والحرف؛

ـ وجاء بعده ملك محارب هو **توлليوس هوستيليوس** Tullius Hostilius، الذي أخضع لروما مدينة آلب عاصمة اللاتين، وورثت روما بنتيجة ذلك السيادة على جميع المدن اللاتينية؛

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الأول من المجلد الثالث، الصفحة ٢٨، طبع القاهرة ١٩٥٥.

(٢) نفس المرجع السابق.

ـ وبعد هذا جاء آنكوس مارتيوس Ancus Martius السابيني، الذي أنشأ على البحر مرفأ أوستي Ostie في مصب نهر التيبر، كما أنشأ جسر سوبليسيوس Sublicius المشهور على نهر التيبر.

ثلاثة ملوك أخيراً من الإيتروسكيين.

٢٤ ـ وجاء بعد هؤلاء الملوك الأربعة الذين هم من طائفتي اللاتينيين والسابينيين ثلاثة ملوك آخرون من **شعب الإيتروسك**، وهم:

ـ **تاركان القديم** Tarquin l'Ancien الذي أدخل على روما أنظمة الإيتروسكيين القائمة في إيترورية Etrurie؛

ـ ثم **سيرفيوس تولليوس** ServiusTullius الذي أصلح قواعد روما الأساسية، وأقام نظامها على **كيان المدينة** بعد أن كان قائماً على **كيان العشائر**،

ـ وأخيراً جاء **تاركان الغطريس** Tarquin le Superbe الذي أثار الشعب عليه بسبب أعماله الظالمة، وانتهى الأمر بأن طُرِد الملوك نهائياً حينذاك، وذلك في سنة ٥٠٩ قبل الميلاد (أي في سنة ٢٤٥ من تأسيس روما)، وقام مكان الملكية نظام جمهوري.

د ـ موجز عهود التاريخ الروماني

إيجاز تاريخ روما في أربعة عهود.

١ ـ يمكن إيجاز عهود التاريخ الروماني في العهود الأربعة التالية:

أولاً ـ العهد الملكي، ويبتدىء من سنة ٧٥٤ قبل الميلاد حتى سنة ٥٠٩ قبل الميلاد؛

ثانياً ـ العهد الجمهوري، ويبتدىء من سنة ٥٠٩ قبل الميلاد حتى سنة ٢٧ قبل الميلاد؛

ثالثاً ـ عهد الإمبراطورية العليا، ويبتدىء من سنة ٢٧ قبل الميلاد حتى مجيء الإمبراطور ديوكليسيان Dioclétien في سنة ٢٨٤ بعد الميلاد(١)، وقيل حتى مجيء الإمبراطور قسطنطين في سنة ٣٠٣ بعد الميلاد(٢)؛

رابعاً ـ عهد الإمبراطورية السفلى، ويبتدىء من سنة ٢٨٤ بعد الميلاد، أو من سنة ٣٠٣ بعد الميلاد حتى سنة ٥٦٥ بعد الميلاد.

---

(١) انظر كتاب: Manuel Elémentaire de Droit Romain لمؤلفه Raymond Monier، الجزء الأول، الصفحة ٦٠. طبع Montchrestien، باريس سنة ١٩٤٧.

(٢) كتاب Précis de Droit Romain لمؤلفه جيفار، الجزء الأول الصفحة ٥٨ داللوز سنة ١٩٣٣.

(العهد الملكي)

بدء العهد الملكي ونهايته.

٢ ـ أما العهد الملكي فيرجع أوله إلى التاريخ التقليدي المتخذ أساساً لتاريخ تأسيس مدينة روما في ٢١ نيسان من سنة ٧٥٤ قبل الميلاد من قبل رومولوس أو ريموس كما سبق ونقلناه آنفاً عند الكلام عن إنشاء مدينة روما، وأن رمولوس كان أول ملك فيها.

وينتهي هذا العهد بالثورة التي ذهبت بالعهد الملكي في سنة ٢٤٥ من بناء روما، أي في سنة ٥٠٩ قبل الميلاد.

هذا التحديد تقليدي لا يتفق مع الوقائع التاريخية.

٣ ـ إن هذا التحديد لبدء العهد الملكي ونهايته ما هو إلاً نقل تقليدي كما تقدم معنا، ولا يتفق مع الوقائع التاريخية، لأن البحوث التاريخية الجديدة، والاكتشافات الأثرية الحديثة، أثبتت أن مدينة روما لم تؤسس في سنة ٧٥٤ قبل الميلاد من قبل رومولوس وريموس، وأنه قد تحقق الآن وجود بعض القرى قبل هذا التاريخ بكثير على تل البالاتان الذي هو أول تل بُنيت عليه روما.

الملوك السبعة وأصولهم.

٤ ـ وحكم في هذا العهد سبعة ملوك:

ـ اثنان منهما رومانيان لاتينيان: هما رومولوس الملك الأول، وتولليوس هوستيليوس Tullius HostiLius الملك الثالث؛

ـ وإثنان سابينيان: نوما بومبيليوس Noma Pompiliu الملك الثاني، وآنكوس مارتيوس Ancus Martius الملك الرابع؛

ـ وثلاثة آخرون من الإيتروسكيين وهم: تاركان القديم Tarquin l'Ancien الملك الخامس، وسيرفيوس تولليوس

Servius Tullius الملك السادس، وتاركان الغطريس Tarquin le Superbe الملك السابع الأخير، الذي أثار الشعب عليه بسبب أعماله الظالمة، وقُضي على العهد الملكي بالقضاء على حكمه.

الملك لمدى الحياة.

٥ ـ وكان الملك حاكماً فرداً، ويمارس صلاحياته مدى الحياة.

طريقة تعيين الملك من مجلس الشيوخ.

٦ ـ ولم يكن تعيين الملك حينذاك انتخابياً، بلا ولا إرثياً، وإنما كان يُسمَّى من قبل سلفه بناء على ما ذكره كثرة المؤلفين، وعند عدم ذلك كان يُعيَّن من قبل شخص Interroi ينتخبه مجلس الشيوخ لهذه المهمة؛

وبطبيعة الحال كان يؤخذ الملك من أعضاء مجلس الشيوخ الذي هو في الأصل مجلس تمثيلي للعشائر، ويؤلَّف من رؤساء العشائر الذين يختارهم الملك.

سلطات الملك ثلاث.

٧ ـ وقد كان الملك يتمتع **بسلطات ثلاث**: دينية، وعسكرية، وقضائية؛

فكان الملك هو الرئيس الديني، وهو القائد العسكري للجيش، وهو الذي يمارس حق القضاء بالموت أو الحياة على جميع أبناء مدينة روما.

احترام الملك لنظام العشائر الداخلي.

٨ ـ وكان على الملك مع ذلك أن يحترم **النظام الداخلي** للعشائر؛

بيد أنه كان له أن يتخذ قرارات ملزمة لهم في جميع حياة روما الأساسية من سياسية ودينية.

المظاهر الملكية.

٩ ـ وكان للملك مظاهر ملكية خاصة:

ـ فمنها أنه كان يلبس لباساً خاصاً أحمر Vétu de pourpre،

ـ ومنها أنه كان له مسكن في منتدى روما Forum، وقد خصص فيما بعد هذا المسكن للملك الديني le Rex Sacrarum في العهد الجمهوري،

ـ ومنها أنه كان يرافقه اثنا عشر مرافقاً يتقدمونه، ويحمل كل منهم عصا في يمينه، وقدوماً خاصاً في يساره كرمزٍ لحق الملك على كل فرد من أفراد شعبه بالموت والحياة.

الشعب الروماني أشراف وعوام متفاوتون في الحقوق.

١٠ ـ وكان الشعب الروماني ينقسم في هذا العهد الملكي إلى قسمين متفاوتين تمام التفاوت في الحقوق والواجبات، وهما:

أولاً ـ **طبقة الأشراف**،

ثانياً ـ **طبقة العوام**.

الأشراف لهم وحده كامل الحقوق.

١١ ـ وتؤلف **طبقة الأشراف** طبقة ممتازة في الدولة الرومانية الأولية، وذلك لأنها تتمتع وحدها بكامل الحقوق:

ـ **المدنية**،

ـ **والسياسية**،

ـ **كما تتمتع بتفوق** على من عداها لا مثيل له في **الناحية الاقتصادية**.

الملك والشيوخ ومجالس القرى من طبقة الأشراف فقط.

١٢ ـ وبناء على ذلك فالملك، ومجلس الشيوخ، ومجالس القرى: كل ذلك مقصور على طبقة الأشراف، وهذه في جملتها ترجع إلى حقوق سياسية.

للأشراف وحدهم تملك

١٣ ـ وكذلك كانت هذه الطبقة هي وحدها **صاحبة الحق في**

تملك أرض روما يوم تأسيس هذه المدينة، وما يتبع ذلك من حقوق مدنية وتفوق في الشؤون الاقتصادية.

آراضي روما مع تفوق في الاقتصاد.

١٤ - أما طبقة العوام فهي تلك الطبقة من الشعب التي لا تتمتع بتلك الامتيازات والحقوق والتي اختص بها الأشراف، ولذلك كانت طبقة منحطة عن طبقة الأشراف، وموضوعة تحت حماية الملك؛

العوام منحطة عن الأشراف ويحميها الملك.

وليس لطبقة العوام إلى جانب طبقة الأشراف غير حق البيع لهم والشراء منهم، وهو ما يسمى **بحق الاتجار**: جوس كوميرسيوم Jus Commercium.

١٥ - غير أن طبقة العوام هذه أخذت تنتزع شيئاً فشيئاً بعض الحقوق الأخرى، وذلك مثل **حق الزواج** من الأشراف الذي ظل ممنوعاً عليهم زمناً طويلاً، ولم يسمح لهم به إلا في عهد الجمهورية، وبعد نضال طويل.

بدأ العوام في العهد الجمهوري انتزاع بعض الحقوق مثل الزواج من الأشراف.

(العهد الجمهوري)

١٦ - يبدأ هذا العهد منذ سقوط العهد الملكي في سنة ٢٤٥ من بناء روما، الموافق لسنة ٥٠٩ قبل الميلاد، **وينتهي** بظفر أوكوست Auguste أي الرجل العظيم في سنة ٢٧ قبل الميلاد، وذلك بعد أن انتصر على حكومة القناصل التي كان هو فيها قنصلاً أيضاً من بين ثلاثة.

بدء ونهاية العهد الجمهوري.

١٧ - إن قصة تأسيس الجمهورية محاطة مثل تأسيس العهد الملكي بكثير من الأخبار والحكايات الخرافية.

تأسيس الجمهورية محاط كالملكية بالخرافات.

١٨ - ومهما يكن من أمر هذه الحكايات، فإن انهيار الملكية كان ناشئاً عن ثورة الفلاحين من الشعب الروماني، وأن هؤلاء كانوا مؤيدين من قبل جميع طبقة الأشراف ضد

انهيار الملكية نشأ على كل حال من ثورة الفلاحين بتأييد الأشراف

ضد طغيان الملوك الإيتروسكيين.

طغيان الملوك الإيتروسكيين في ميولهم العنصرية الإيتروسكية، وقد كانت هذه الميول مطبوعة بطابع استثماري واستبدادي أضرت كثيراً بطبقة الأشراف والأغنياء، وخففت من غلوائهم تجاه طبقة العوام.

كانت الثورة ظفراً للأشراف باستعادة غطرستهم.

١٩ ـ وقد كانت هذه الثورة ظفراً لطبقة الأشراف، استعادوا فيها غطرستهم وارستقراطيتهم، مما سبب رد فعل عنيف لدى طبقة العوام الذين أخذوا يطالبون منذ ذلك الحين بإصلاحات مقرونة بكثير من التهديدات.

في الجمهورية قام ثلاثة قناصل مكان الملك.

٢٠ ـ وإن انهيار الملكية وإقامة الجمهورية مكانها قد بدل شخص الحاكم المفرد المنتخب مدى الحياة وهو **الملك**، وجعل مكانه ثلاثة أشخاص يُنتخبون في كل سنة وهم **القناصل** Consuls، وهذا هو الشيء الجديد الأساسي في الجهاز السياسي لهذا العهد.

القناصل ملوك لسنة وتوزَّعوا سلطات الملك.

٢١ ـ وقد أصبح هؤلاء القناصل ملوكاً في الحقيقة، **ولكن لسنة واحدة**، وتوزعوا فيما بينهم صلاحيات الملك الفرد:

ـ فكان أحدهم فقط **للشؤون الدينية**، وهو الملك الديني le Rex sacrorum، وسكن في مسكن الملك الموجود في ندوة روما Forum؛

ـ أما القنصلان الآخران فقد توزعا السلطات **القضائية والعسكرية**.

يُنتخَب القناصل من قبل المجالس الشعبية المئوية

٢٢ ـ ويُنتخَب هؤلاء القناصل من قبل **المجالس المئوية الشعبية** المؤلفة من الأشراف والعوام، والتي أُنشئت في العهد الماضي منذ عهد الملك سيرفيوس تولليوس الإيتروسكي؛

وقد حلت هذه المجالس الشعبية في هذا العمل الانتخابي

مكان مجلس الشيوخ المؤلف فقط من الأشراف، والذي كان ينتخب الحاكم الأعلى: أي الملك سابقاً.

عوضاً عن مجلس الشيوخ.

٢٣ ـ هذا، وإن تطور الدولة في هذا العهد، واتساع نطاق أعمالها، أوجب على القناصل أن يستعينوا في كثير من أعمالهم الأولية ببعض الشخصيات الجديدة التي أوجدها القناصل لتكون شخصيات مساعدة للقناصل في أعمالهم؛

شخصيات جديدة مساعدة للقناصل معينة أولاً منهم ثم منتخبة من المجالس الشعبية.

وكانوا يعينون في أول الأمر من قبل القناصل أنفسهم؛ غير أن هذه الشخصيات لم تلبث أن أصبحت بعد ذلك ولاة وحكاماً يُنتخَبون من قبل الشعب بواسطة مجالسهم الشعبية، وذلك مثل ولاة المال والمظالم، وولاة الإحصاء، وولاة الأمن المدني، وولاة القضاء بين الوطنيين أو الأجانب، وولاة الأقاليم.

٢٤ ـ ومن التطورات في هذا العهد الجمهوري هو اتساع دائرة الشعوب التي حكمها هذا العهد بالنسبة إلى العهد الملكي الماضي: فإذا كانت الشعوب التي حكمها ملوك روما في العهد الماضي قاصرة على جاليات جاءت من جوار روما مؤلفة من جماعات من اللاتينيين والسابينيين والإيتروسكيين نزلت مدينة روما أو منطقتها على نهر التيبر، فإن الشعوب التي حكمتها جمهورية روما قد تجاوزت هذه الجماعات إلى شعوب وأمم أخرى في إِيطاليا وفي غيرها، لأن التاريخ السياسي الخارجي لهذه الجمهورية لم يكن إلا عبارة عن حروب وفتوحات.

اتساع نطاق الشعوب التي حكمها هذا العهد عنها في العهد الملكي.

٢٥ ـ وكان أول فتح قامت به روما في هذا العهد هو استكمال منطقة اللاتين وضمها بأجمعها إلى حكم روما.

الجمهورية استكملت أولاً منطقة اللاتين.

٢٦ ـ ثم لم تلبث روما أن أكملت فتوحها في إيطاليا كلها على ما فيها من شعوب وأمم مختلفة، واستطاعت في مطالع العصر السادس من بناء روما أن تنهي هذه الفتوحات في إيطاليا، وأن تخضع جميع مناطق إيطاليا لحكم روما.

ثم استكملت إيطاليا في مطالع السادس من بناء روما.

٢٧ ـ ومن بعد ذلك، أي أثناء العصر السادس، ابتدأت فتوحات حوض البحر الأبيض المتوسط وقد ابتدأت بتحرير بحر التيرانيان من أيدي العرب القرطاجيين من الفينيقيين؛ ويحيط هذا البحر كما هو معروف بإيطاليا الغربية من الجنوب إلى الشمال، وتطوقه جزر صقليا، وسردينيا، وكورسيقا، وكلها كانت في أيدي القرطاجيين؛

في العصر السادس ابتدأت فتوحات حوض المتوسط بتحرير التيرانيان من القرطاجيين العرب.

وقد اتضح لروما حينذاك: أنها إذا ما أرادت أن تنال حرية العمل في عرض البحار فلا بد لها من تحيطم هذه السلسلة الجبارة المضروبة حول شواطئها[1].

٢٨ ـ وهكذا اشتبك الرومان مع قرطاجة العربية في حروب دامت طويلاً، وأخذوا يتدخلون في ممالك الشرق، وأخيراً افتتحوا اليونان.

اشتبك الرومان طويلاً مع قرطاجة العربية ثم فتحوا اليونان والشرق.

٢٩ ـ ودفع الشرق باستيلاء روما عليه ثمناً باهظاً جداً، وهو أن مدنياته الأصلية لم تعد تتابع تطورها وفق مبادئها الخاصة؛ وذلك لأن هذه المدنيات كانت غريبة عن روما ـ كما أشرنا إليه من قبل أيضاً ـ، ولم تستطع هذه تمثلها إلا تدريجياً وببطء[2].

استيلاء روما على الشرق أوقف سير مدنياته الغريبة عن روما.

---

(١) **روما والشرق الروماني**، الدكتور سليم عبد الحق، الصفحة ١٢٢، طبع دمشق سنة ١٩٥٩.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ـ ب ـ.

أثر الشرق في الإمبراطورية الرومانية.

٣٠ ـ ومهما يكن:

ـ فقد جعلت الديانات والفلسفة والعلوم، والفنون والآداب الشرقية، تعمل عملها في نفوس الرومان؛

ـ كما جعلت ثروات الشرق وإمكانياته العظيمة تجذبهم إليه؛

ـ وولى عهد إيطاليا في الإمبراطورية الرومانية العالمية، وحلَّ عهد الولايات الشرقية: فقد فكر يوليوس قيصر أَن ينقل العاصمة إِلى الإسكندرية، أَو إِلى طروادة، وظلت هذه الفكرة حية، وشقت طريقها نحو الحقيقة، حتى تحققت في عهد قسطنطين سنة ٣٢٤ بعد الميلاد لما بدأَ بناء القسطنطينية(١).

امتاز العهد الجمهوري بوضع أول قانون مكتوب هو الألواح الإثنا عشر.

٣١ ـ ولا ننسى أَن هذا العهد الجمهوري هو الذي وضع أَول تشريع مكتوب، وأعلنه في إثني عشر لوحاً في سنة ٤٤٩ قبل الميلاد، وعُرِف هذا التشريع بعد ذلك **بقانون الألواح الإثني عشر**، وسوف نفرد لقصتها فقرات خاصة.

(عهد الإمبراطورية العليا)

بدء هذا العهد ونهايته المختلف عليها.

٣٢ ـ **يبدأ هذا** العهد منذ نهاية الجمهورية في سنة ٢٧ قبل الميلاد (٧٢٧ من بناء روما)، **وينتهي** بمجيء الإمبراطور ديوكليسيان Dioclétien في سنة ٢٨٤ بعد الميلاد، **وقيل ينتهي** بمجيء الإمبراطور قسطنطين في سنة ٣٠٣ بعد الميلاد.

أول إمبراطور هو

٣٣ ـ وقد كان أول إمبراطور هو **أوگوست** Auguste أحد رجال حكومة القناصل في عهده الذي تغلب على زميليه،

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ـ ج ـ.

أوكوست الذي ألغى الجمهورية.

وأحدث الانقلاب السياسي الأساسي، وذلك بإلغاء الجمهورية أي نظام حكومة القناصل، وإعلان نظام الإمبراطورية والحكم الفردي.

سبب الاختلاف في نهاية العهد ترجيح أحد حدثين عظيمين.

٣٤ ـ أما الخلاف في نهاية هذا العهد للإمبراطورية العليا فيرجع إلى ترجيح أحد الحدثين العظيمين في حياة الإمبراطورية وهو:

ـ إما انقسام الإمبراطورية إلى شرقية وغربية، وهذا قد ظهر في عهد ديوكليسيان (٢٨٤ ـ ٣٠٥ ب.م)؛

ـ وإما إطلاق حرية التدين بالنصرانية بصورة رسمية، وهذا قد أعلن في عهد قسطنطين (٣٠٣ ـ ٣٣٧ ب.م)، وكان قسطنطين نفسه أول إمبراطور اعتنق النصرانية ديناً، بعد أن كانت النصرانية جرماً يعاقب عليه في عهد ديوكليسيان الذي أخرج كل مسيحي من الجيش، وأصدر عدة مرسومات سنة ٣٠٣ لاضطهاد المسيحيين.

هذا الانقلاب السياسي وسلطات الإمبراطور مدى الحياة.

٣٥ ـ وكان من نتيجة هذا الانقلاب السياسي أن احتفظ **الإمبراطور أوكوست** لنفسه بالسلطات التالية طول حياته:

أولاً ـ **السلطات القنصلية** التي كان القناصل يمارسونها،

ثانياً ـ **السلطات الدفاعية عن طبقة العوام** التي كان يمارسها **نقباء العوام** Tribun،

ثالثاً ـ **سلطات الكاهن الأعلى**، وهي سلطات دينية محضة.

سلطات الإمبراطور سياسية وشعبية ودينية.

٣٦ ـ وبذلك جمع الإمبراطور في شخصه جميع السلطات:

ـ **سلطات سياسية** لإدارة الحكم،

ـ وشعبية للدفاع عن حقوق الشعب،
ـ ودينية لفرض سلطانه على قلوب الناس.

٣٧ ـ غير أنه من ناحية ثانية لم يثر الإمبراطور أوكوست على أسس النظام الجمهوري، بل ترك جميع رجال الحكم في العهد الجمهوري، بما فيهم القناصل، يستمرون في العمل إلى جانبه، واعتبروا جميعاً الجهاز التنفيذي لقرارات مجلس الشيوخ، وجُرِّدوا من كل سلطة عسكرية.

أوكوست أبقى رجال النظام الجمهوري ولكن دون سلطة عسكرية.

٣٨ ـ وقد اعتبر هذا العهد في الجملة دور رخاء ومجد من الناحية السياسية، رغم أن بعض بوادر الانحطاط وخاصة في الأخلاق قد ذر قرنها، لأن الإمبراطورية أصيبت منذ أولها بأزمة خطيرة من انحطاط الأخلاق وهبوط عدد السكان، مما حمل القياصرة منذ عهد أوكوست على أن يصدروا القوانين لمعالجتها عبثاً.

هذا العهد دور مجد سياسي مع بوادر انحطاط أخلاقي.

٣٩ ـ وقد كان هذا العهد من أعظم أدوار الحركة الفقهية في الحقوق الرومانية،

هذا العهد أعظم أدوار الحركة الفقهية وتأليف العلماء الفينيقيين.

بل كان هذا العهد دور **أعظم المصادر الفياضة في الحقوق** الرومانية: ألا وهو **تأليف العلماء** أمثال غايوس Gaius وبابينيان Papinien، وبولس Paul، وأولبيان Ulpien، وموديستان Modestin.

ولكن هؤلاء على التحقيق لا يمتون بصلة إلى الرومان، بل الأربعة الأخيرون لا شك أنهم **سوريون فينيقيون**، ويبقى الشك فقط في الأول أعني **غايوس** وهو على كل حال ليس بروماني، ويرى ريفيللو Révillou أنه فينيقي[1].

(١) انظر كتابه Les obligations en Droit Egyptien، الصفحة XXXVI.

في هذا العهد وصل إلى العرش عرب فينيقيون.

٤٠ - ووصل إلى عرش الإمبراطورية الرومانية في هذا العهد عدد من الفينيقيين العرب وأصبحوا أباطرة في روما، ومنهم مَنْ حمل مع اسمه **أصله العربي** صراحة: وهو الإمبراطور **فيليب العربي** (٢٤٤ - ٢٤٩ ب.م).

عهد أسرة سيفير الفينيقية أعظم عهود الإمبراطورية.

٤١ - وقد أجمع المؤرخون على أن العهد الذي تولّت فيه أسرة سيفير Sévère (١٩٣ - ٢٣٥ ب.م)، الفينيقية العربية من مدينة حمص، كان أعظم عهود الإمبراطورية عظمة وحضارة.

كيف أُتيح للعرب الفينيقيين الوصول إلى العرش.

٤٢ - وقد أُتيح **لهؤلاء العرب الفينيقيين** فرصة الصعود إلى عرش روما بواسطة انضمامهم إلى الجيش وانتهازهم الوقت المناسب للاستعانة بقواهم العسكرية العربية الأصل: من قرطاجية وإيتروسكية كما سبق معنا وفرضوا - بواسطة هذه القوى العربية المحيطة بروما - أسماءهم على مجلس الشيوخ في روما، والسيف مصلت في أيديهم، فما كان من هذا المجلس إِلاَّ أن خضع وقرر إعلانهم أباطرة على روما.

الأسرة الفينيقية أحدثت تجديداً في نظام الدولة وتشريعها وأدخلت في الوطنية جميع الأجانب.

٤٣ - وقد أحدثت هذه الأسرة الفينيقية من **التجديد في نظام الدولة وفي تشريعها**، وبواسطة مستشاريهم الفينيقيين من الفقهاء أمثال بابينيان وأولبيان، ما قال فيه الأستاذ ريفيللو[١] Révillout:

- «إن هذا التجديد إنما تم نهائياً بواسطة فينيقيين حقيقيين: هم أسرة سبتيم سيفير Septime Sévère ومستشاروهم الفينيقيون،

---

(١) انظر كتابه Les obligations en Droit Egyptien المدخل، الصفحة XXXVI.

ـ «وإن الطوفان الفينيقي لم يزل يعلو إلى أن تجاوز الحدود، وأزال الحواجز، وذلك تحت حكم أسرة من رأس فينيقي أدخلت في الوطنية الرومانية جميع الأجانب الخاضعين لسلطان روما، **وانتخرت** بما أغدقت من الامتيازات النادرة على **مدينة صور** Tyr العظيمة (عاصمة الفينيقيين)، وما جاورها من المدن».

وفي عهد أسرة سيفير أسست مدرسة بيروت الحقوقية.

٤٤ ـ وفي هذا العهد أسست **مدرسة بيروت الحقوقية**، وكانت أعظم حدث في تاريخ الحقوق الرومانية؛

وكان تأسيس هذه المدرسة على التحقيق في نهاية العصر الثاني بعد الميلاد، أو في مبادىء العصر الثالث أيام حكم الأباطرة من أسرة **سيفير الفينيقية السورية**، وفي عهد كبار الفقهاء الفينيقيين السوريين وهم: بابينيان **أمير الفقهاء** كما لقبه الرومان، وتلاميذه بولس، وأولبيان، وموديستان تلميذ أولبيان.

أطلق الرومان على مدرسة بيروت: الأم المرضعة للحقوق.

٤٥ ـ وقد أُطلق على هذا المعهد من قبل الرومان **الأم المرضعة للحقوق**، وذلك بالنظر لأثره العظيم في تطوير الحقوق الرومانية، ولم يعط هذا اللقب لأي معهد آخر من معاهد الحقوق في الإمبراطورية الرومانية لا في روما، ولا في أثينا، ولا في القسطنطينية.

غدت بيروت بفضل مدرستها مركزاً لنشر

٤٦ ـ وزيادة على ذلك فإن بيروت بفضل معهد بيروت قد أصبحت هي:

ـ **المستودع للقوانين**،

ـ **والمركز الأساسي لنشرها** في الإمبراطورية كما أثبته الأستاذ

القوانين ومستودعاً لها رغم أنها ليست عاصمة.

كوللينه[1] رغم أنها لم تكن في يوم من الأيام عاصمة للإمبراطورية الرومانية.

(عهد الإمبراطورية السفلى)

بدء هذا العهد تبعاً لأحد حدثين عظيمين.

٤٧ . **يبدأ هذا العهد** بمجيء الإمبراطور ديوكليسيان في سنة ٢٨٤ بعد الميلاد، أو بمجيء الإمبراطور قسطنطين في سنة ٣٠٣، وذلك تبعاً لأحد الحدثين العظيمين في الإمبراطورية في هذا العهد، وهما:

انقسام الإمبراطورية إلى شرقية وغربية في أيام ديوكليسيان،

. **أو إطلاق حرية التدين بالنصرانية** في أيام قسطنطين الذين كان أول إمبراطور اعتنق النصرانية ديناً.

انتهاؤه بموت جوستينيان.

٤٨ . **وينتهي هذا العهد** بموت الإمبراطور جوستينيان في سنة ٥٦٥ بعد الميلاد، لأنه بموته وقفت الحقوق الرومانية في آخر مرحلة وصلت إليها، وهي التي نُقِلت إلينا في مجموعة مدوَّناته.

أبرز طابع للإمبراطورية السفلى انقسامها إلى

٤٩ . وإن **أبرز طوابع** الإمبراطورية السفلى من **الناحية السياسية** هو انقسامها إلى إمبراطوريتين شرقية وغربية؛ وقد ظهر هذا الانقسام كما ذكرنا منذ أيام الإمبراطور ديوكليسيان (٢٨٤ - ٣٠٥)؛

وقد سقطت الإمبراطورية الغربية في سنة ٤٧٦ تحت وطأة هجمات البربر، بينما ثبتت الإمبراطورية الشرقية حتى

(١) انظر كتاب Manuel Elémentaire de Droit Romain لمؤلفه مونييه R.Monier، الجزء الأول، الصفحة ١١٠، الحاشية رقم ٣، طبع باريس سنة ١٩٤٧.

سنة ١٤٥٣ وامتدت حياتها كما نرى عشرة قرون إِلى ما بعد نهاية حياة الإمبراطورية الغربية، إِلى أن سقطت الشرقية أيضاً بسقوط القسطنطينية على يد المسلمين الترك في التاريخ المذكور.

غربية وشرقية وتاريخ سقوط كل منهما.

٥٠ - وكان **أبرز الأحداث** الهامة في هذا العهد من **الناحية التشريعية** هو تشريع جوستينيان الذي ابتدأ به فيما بين سنة ٥٢٨ وسنة ٥٣٣، ثم أضاف عليه ما أصدره من قوانين جديدة انتهت بنهاية حياة جوستينيان في سنة ٥٦٥.

أبرز أحداثها التشريعية تشريع جوستينيان.

هـ ـ موجز عهود الحقوق الرومانية

العهود الأربعة.

١ ـ تقسم الحقوق الرومانية تبعاً لتطورها إلى عهود أربعة:

أولاً ـ عهد نشأة الحقوق الرومانية،

(من تاريخ بناء روما في ٧٥٤ ق.م حتى سقوط الملكية في ٥٠٩ ق.م).

ثانياً ـ عهد الحقوق القديمة،

(من أوائل العهد الجمهوري في ٥٠٩ ق.م حتى ١٥٠ ق.م).

ثالثاً ـ العهد العلمي La Période classique،

(من ١٥٠ ق.م حتى أواخر العصر الثالث ب.م).

رابعاً ـ عهد الإمبراطورية السفلى،

(من عهد الإمبراطور قسطنطين ٣٠٣ ب.م حتى موت جوستينيان ٥٦٥ ب.م).

العهدان الأساسيان.

٢ ـ غير أن هذه العهود الأربعة يمكن ردها إلى عهدين أساسيين:

أولاً عهد الحقوق الرومانية الأصيلة.

أولاً ـ **عهد الحقوق الرومانية «الأصيلة»**، وأعني بها الحقوق الرومانية الابتدائية التي لم يطرأ عليها طوال ذلك العهد ما من شأنه أن يطورها ويخرجها عن **طابعها الروماني الأصيل**،

ثانياً ـ **عهد الحقوق الرومانية «اللاحقة»**، وأعني بها الحقوق الرومانية التي تلاحقت بعد العهد الأول، والتي تطورت بما دخل عليها من عناصر التجديد، كنتيجة للفتوحات الشرقية، واختلاط الرومان بأمم ذات مدنيات قديمة راقية مما لا عهد للرومان بمثلها.

ثانياً عهد الحقوق الرومانية اللاحقة.

٣ ـ **ويبتدىء العهد الأول** من تاريخ بناء روما في سنة ٧٥٤ قبل الميلاد حتى مطلع القرن السابع من بناء روما أو سنة ١٥٠ قبل الميلاد تقريباً، حيث تمت فتوحات البحر الأبيض المتوسط؛

بدء العهد الأول ونهايته.

ويبتدىء العهد الثاني من حوالي سنة ١٥٠ قبل الميلاد، أو مطلع القرن السابع من بناء روما حيث تمت فتوحات حوض البحر الأبيض المتوسط، حتى موت الإمبراطور جوستينيان في سنة ٥٦٥ بعد الميلاد، وبموته وقفت الحقوق الرومانية في الوضع الذي نُقِلت فيه إلينا اليوم.

بدء العهد الثاني ونهايته.

٤ ـ ولكل من هذين العهدين الرئيسيين مميزات خاصة به، تبعاً للعوامل المؤثرة فيه من: مصادر، ومحيط، وفقهاء؛

لكل من العهدين الرئيسيين مميزات تبعاً لمصادر الحقوق ومحيطها وفقهائها.

وهذه **العوامل الثلاثة** هي وحدها في الحقيقة التي تكوِّن الحقوق في كل أمة؛ لذلك كان لا بدَّ لفهم الحقوق الرومانية والحكم لها أو عليها في كل من عهديها الرئيسيين من الوقوف على مميزات كل من عهديها، ودراسة تلك العوامل الثلاثة التي كونت الحقوق أو جددت فيها.

و ـ خصائص الحقوق الرومانية الأصيلة

خصائص الحقوق الأصيلة خمس.

١ ـ إن **خصائص** الحقوق الرومانية الأصيلة يمكن تلخيصها في **خمس مميزات** كما يلي:

الميزة الأولى الصبغة الابتدائية.

٢ ـ **الميزة الأولى**: الصبغة الابتدائية.

إن تلك الحقوق هي حقوق جماعة ذات حياة ابتدائية تقريباً، وما كانت تعرف في أول عهودها في العهد الملكي التبادل الاقتصادي إلا نادراً؛

العرف هو المصدر الوحيد والألواح تثبيت له.

وإن العرف كان المصدر الأساسي للحقوق، وأن نشر الألواح الإثني عشر في سنة ٤٤٩ قبل الميلاد (٣٠٥ من بناء روما) لم يكن إلا تثبيتاً للعرف، وكان في كلمات بسيطة مقتضبة على مثل كلمات النكت والحقائق المسلمة.

الميزة الثانية الصبغة الدينية السرية.

٣ ـ **الميزة الثانية**: الصبغة الدينية السرية.

إن هذه الحقوق في أصلها ذات «صبغة دينية»، لذلك بقي فقه هذه الحقوق سراً يتناقله فقط الكهنة بكل تحفظ خشية الشيوع؛

تاريخ نشر الحقوق الأصيلة.

ولم تنشر جميع هذه الحقوق بصورة كاملة إلاً في آخر القرن الخامس من بناء روما (٢٧٩ ق.م تقريباً)؛

تاريخ خروج الفقه من أيدي الكهنة.

ولم يخرج الفقه من أيدي الكهنة بعد النشر الكامل إلاً في وسط القرن السادس من بناء روما (٢٠٠ ق.م تقريباً).

٤ ـ **الميزة الثالثة:** المراسم الرمزية.

الميزة الثالثة مراسم رمزية في تكوين الحق وفي الادعاء به وفي تنفيذه.

إن هذه الحقوق هي حقوق ذات **مراسم رمزية** لها المكان الأول والآخر:

- في تكوين الحق،
- وفي الادعاء به،
- وفي تنفيذه.

وإن إرادة المتعاقدين وتراضيهما لا يُعتَدُّ بهما أبداً، وقد قال الأستاذ جيفار: «ففي قواعد الحقوق القديمة وفي روما في عهدها القديم **لم يكن للإرادة وحدها نتيجة حقوقية**، ولا يمكن لحق أن يتكون وأن ينتج نتائجه ما لم يلبس أثواباً من المراسم الرمزية؛ ولئن كان الأصل في الحقوق الحديثة هو **استقلال الإرادة** في تكوين أي حق من الحقوق، فإن الأصل في الحقوق القديمة هو **المراسم الرمزية**: إذ إن حقاً ما من الحقوق لم يكن ليوجد وينتج نتائجه إلاً بعد القيام بأمور شكلية رمزية، ومراسم ظاهرية، وكلمات مشهورة علنية، وغير ذلك من الطقوس **ذات الصبغة الدينية**».

٥ ـ **الميزة الرابعة:** عدم جواز التوكيل.

الميزة الرابعة عدم جواز التوكيل.

ومن مميزات الحقوق الرومانية الأصيلة أنها لا تجيز **مبدأ الإنابة** والتمثيل، وذلك بسبب ما في هذه الحقوق من مراسم ورموز لا تقيد إلاً المتكلم وحده؛

دخول مبدأ الإنابة بصعوبة وعدم كماله.

ولم يدخل مبدأ الإنابة والتمثيل في الحقوق الرومانية فيما بعد إلا بصعوبة: وبقي هذا التمثيل **غير مباشر** وغير كامل، إذ أنه رغم قبول إشراك ذمة الأصيل بنتيجة أعمال التوكيل، بقي الوكيل ملزماً أيضاً إلى جانب موكله.

الميزة الخامسة تقسيم أبناء الإمبراطورية إلى ثلاثة أقسام.

٦ ـ **الميزة الخامسة**: أقسام أبناء الإمبراطورية بالنسبة للقانون.

ومن مميزات الحقوق الرومانية أنها قسمت العالم الروماني إلى ثلاثة أقسام:

أولاً ـ **الوطنيين**، وهم جماعة روما، وينقسمون أيضاً إلى **أشراف** يتمتعون بكامل الحقوق، وإلى **عامة** وهي طبقة منحطة ولا تتمتع بامتيازات الأشراف؛

ثانياً ـ **اللاتينيين**، وهم التابعون إلى مدن لاتينية في إيطاليا غير مدينة روما؛

ثالثاً ـ **الغرباء**، وهم في الأصل مَنْ جاورهم وسكن حول روما من وراء نهر التيبر، ويلحق بهم جميع الذين خضعوا لحكم روما فيما بعد.

الحقوق الرومانية مقصورة على الوطنين.

٧ ـ وقد كانت الحقوق الرومانية لا تطبق في الأصل إلاً على **الوطنيين** من العالم الروماني، وأما مَنْ عداهم فتطبق عليهم حقوقهم المحلية الخاصة بمدنهم.

إلحاق اللاتينيين بالوطنيين: بالتجنس ثم بقانون جوليا.

٨ ـ ولم يستطع **اللاتينيون** أن يصبحوا **وطنيين** إلا بالتجنس حتى صدر أخيراً قانون جوليا في سنة ٩٠ قبل الميلاد، ومنح حقوق مدينة روما إلى جميع اللاتينيين في إيطاليا، وجعلهم بإلحاقهم بالوطنيين وامتيازاتهم استثناء في الإمبراطورية.

تاريخ إلحاق الغرباء بالوطنيين.

٩ ـ **أمَا الغرباء** فما استطاعوا أن يلحقوا بالوطنيين ويمنحوا امتيازاتهم إلاً بعد اللاتينيين، ومع بعض التحفظ، وذلك في عهد أسرة سيفير Sévère الفينيقية السورية، وبموجب أمر الإمبراطور كاراكاللا Caracalla في سنة ٢١٢ بعد الميلاد، لأنه لم يعد من المعقول وقد أصبح الإمبراطور نفسه من

الغرباء عن الرومانيين الوطنيين، وجمع في يديه جميع الامتيازات الخاصة بالوطنيين، أن لا يمنحها لبقية الغرباء المحرومين من امتيازات الوطنيين.

١٠ - إن خصائص الحقوق الرومانية في هذا العهد كما رأينا في مميزاتها تثبت **أن المصدر** الأساسي لهذه الحقوق حينذاك هو **العرف**، وهذا لم يقم حينذاك على مبادىء الإنصاف والمصلحة واحترام الالتزامات وفقاً للإرادة المجردة دون المراسم والشكليات، إذ إن هذه المبادىء لم تدخل في التعامل القضائي إلاّ في عهد الحقوق الرومانية اللاحقة.

العُرْفُ مصدر أساسي ولم يقم على مبادىء الإنصاف والمصلحة واحترام الإرادة المجردة.

١١ - وكذلك أثبتت هذه المميزات أن **محيط** تلك الحقوق في ذلك العهد هو **محيط روما** أولاً، ثم **محيط إيطاليا** أخيراً؛ وهذا المحيط في الجملة هو **محيط منعزل** عما حوله وابتدائي، ولا يمكن في حال من الأحوال مقارنته بمحيط الشعوب العربية القديمة حينذاك كالفينيقيين والمصريين والبابليين والآشوريين واليمانيين ممَّنْ دخلوا في المدنية قبل الرومانيين بآلاف السنين.

المحيط محيط ابتدائي.

١٢ - **أما الفقهاء** المشترعون فلم يكونوا في ذلك العهد، لأن الحقوق حينذاك كانت كما رأينا مجموعة أعراف خالية من مبادىء الإنصاف والمصلحة، وكان فقهها محفوظاً لدى الكهنة بتحفظ شديد خشية الشيوع.

الفقهاء هم الكهنة فقط.

ز ـ دور الحقوق الرومانية الأصيلة زمن الفتح الشرقي

هذه الحقوق لم ينقلها الرومان معهم.

١ ـ إن هذه الحقوق بما عرفنا لها من خصائص ومميزات تبعاً للعوامل الثلاثة المكونة لها: من **مصدر ومحيط وفقهاء**، لا يمكن في حال من الأحوال الادعاء لها بأن الرومانيين قد نقلوها معهم عقب الفتح لحوض البحر الأبيض المتوسط، ونشروها في تلك الأمم الشرقية.

قَصُر هذه الحقوق على الوطنيين وسبق العرب لهم في المدنية حال دون نشرها.

٢ ـ بل إن **حياة روما الابتدائية**، وتأخر الرومانيين عن الشعوب العربية والشرقية القديمة في المدنية نحواً من عشرين قرناً على الأقل، وبقاء الحقوق الرومانية **مقصورة** في تطبيقها على الرومانيين الأصليين كامتياز لهم على بقية أبناء الإمبراطورية حتى سنة ٢١٢ بعد الميلاد، كل ذلك كان يحول دون نشرها وانتشارها بين الشعوب الشرقية ذات المدنيات القديمة ممَّنْ كُتِب عليهم بعد ذلك أن يخضعوا إلى سلطة روما.

تأثير المدنيات الشرقية في الحقوق الرومانية.

٣ ـ **وكان الأمر على عكس ذلك**، فإن الحقوق الرومانية الأصيلة غدت بعد الفتح الشرقي، واختلاط الرومان بأهل تلك المدنيات القديمة، غير قادرة على البقاء على ما كانت عليه، رغم انحصار تطبيقها فيما بين الرومانيين، وأصبحت عاجزة عن مقاومة تأثير المدنيات الشرقية وحقوقها المنتشرة في كل مكان.

٤ ـ وهكذا: لمَّا تمَّ اختلاط الرومان بشعوب تلك المدنيات، وتذوقوا قيمة تقاليد هؤلاء الحقوقية، وعرفوا درجة تفوقها على قانون الألواح الإثني عشر، أخذوا يفكرون عندئذ بتقليدهم.

تقليد الرومان للأمم الشرقية.

٥ ـ وقد قال الأستاذ ريفيللو[١] Révillout في ذلك: «إن الحقوق الرومانية لم تقدم شيئاً يستحق البقاء»؛

رأي الأستاذ ريفيللو في الحقوق الأصيلة: إنها مغايرة للطبيعة ومحكوم عليها بالزوال.

«وكل ما كان من الحقوق الرومانية **حقوقاً أُصيلة** وصادرة عن الرومانيين أنفسهم، كان عبارة عن منظمة عائلية واجتماعية **مغايرة كل المغايرة للأحكام الطبيعية**؛

«وهي كحقوق سبارطة Sparte: من الأحكام المخالفة للطبيعة، والتي ولدت في العهد الحديدي، وكان لها حينئذ من العذر أنها تدافع عن الحياة في مجتمع ينهب الناس فيه بعضهم بعضاً، ويعتدي أحدهم على حياة الآخر؛

«وإن مثل هذه الحقوق كان محتماً عليها أن تزول حينما تكون دولة ذات نظام»، وكذلك كان.

---

(١) كتاب Les obligations en Droit Egyptien suivies d'un appandice sur le droit de la Chaldée الصفحة Ixxxi، طبع باريس سنة ١٨٨٦.

ح ـ خصائص الحقوق الرومانية اللاحقة وطابعها الشرقي

التجديد في الحقوق عقب الفتح.

١ ـ بعد أن أتم الرومان فتوح حوض البحر الأبيض المتوسط، وازداد اختلاطهم بالأمم الشرقية ذات المدنيات السابقة، حدث انقلاب عظيم في الحقوق الرومانية، وذلك بما لحق **مصدرها ومحيطها وفقهاءها** من تطور جديد.

(المصادر)

تطور في المصادر، وانحطاط العرف وظهور مصادر جديدة.

٢ ـ **أما المصادر** فقد رأينا فيما تقدم من خصائص ومميزات للحقوق الرومانية الأصيلة:

ـ **أن العرف** كان مصدرها الأساسي،

ـ **وأنه لم يكن قائماً على مبادىء** «الإنصاف، والمصلحة، واحترام الالتزامات وفقاً للإرادة المجردة من المراسم والشكليات»،

ولكن العرف لم يلبث في عهد الحقوق الرومانية **اللاحقة** أن انحطت درجته، وذلك على أثر ظهور **مصادر جديدة** أدخلت في التعامل القضائي تلك المبادىء التي كانت معروفة في البلاد الأجنبية.

أول المصادر الجديدة مرسومات الحكام.

٣ ـ وكانت **مرسومات الحكام** هي أول تلك المصادر الجديدة سواء في روما أو في الملحقات.

٤ ـ وتشمل **مرسومات الحكام** في روما:

مرسومات حكام روما.

أولاً ـ مرسومات القضاة بين الوطنيين Préteur urbian،

ثانياً ـ مرسومات القضاة بين الوطنيين والغرباء Préteur Pérégrin،

ثالثاً ـ مرسومات ولاة الأمن المدني Ediles Curules.

٥ ـ وتشمل **مرسومات الحكام في الملحقات** والأقاليم:

مرسومات حكام الملحقات.

أولاً ـ مرسومات ولاة الملحقات Gouverneurs،

ثانياً ـ مرسومات ولاة المال والمظالم في الملحقات Questeurs de la province.

٦ ـ ولقد أحدثت **مرسومات الحكام** على اختلافها، في روما وفي الملحقات، **حقوقاً جديدة** تناقض الحقوق الأصيلة، وذلك بما أحدثته من أصول جديدة في القضاء **مقتبسة عن البلاد المفتوحة**.

مرسومات الحكام أحدثت حقوقاً جديدة.

٧ ـ ومن المصادر الجديدة للحقوق في هذا العهد:

ـ **فتاوى المفتين** التي أصبحت تقيد القاضي كالقانون،

ـ **ومقررات مجلس الشيوخ** التي لم تعش طويلاً،

ـ وأخيراً **الأحكام الإمبراطورية**: Les constitutions imperiales.

ومن المصادر الجديدة: الفتاوى ومقررات الشيوخ والأحكام الإمبراطورية.

(المحيط)

٨ ـ أما التطور **في محيط الحقوق** الرومانية فقد كان عاملاً أكثر مفعولاً وأعظم قدراً: إذ إن الحقوق الرومانية لم تستطع في عهد **الحقوق الأصيلة** أن تتجاوز أبواب روما.

محيط الحقوق الأصلية روما فقط.

٩ ـ غير أنها في سنة ٦٦٤ من بناء روما (٩٠ ق.م)

التوسع في محيط روما

وضم جميع اللاتينيين.

أمكنها أن تشمل أيضاً ما حول روما من المدن اللاتينية، وذلك بناء على قانون جوليا الذي منح حقوق مدينة روما إلى **جميع اللاتينيين** في إيطاليا.

ثم انضمام المدن الأجنبية الراقية وخاصة بيروت.

١٠ - ثم أخذت بقعة الحقوق الرومانية تتوسع شيئاً فشيئاً عقب فتوحات حوض البحر الأبيض المتوسط، حتى شملت **كبريات المدن** الأجنبية المفتوحة، **وخاصة مدينة بيروت** التي كانت تنعكس عنها ألمع المدنيات الشرقية العربية.

بيروت لقّبها الرومان بالأم المرضعة للحقوق.

١١ - وقد **أخذت بيروت** في الإمبراطورية الرومانية مكاناً لم تلحق به مدينة أخرى في ازدهار الحقوق فيها، ولذا لقبها الرومان «**بالأم المرضعة للحقوق**»؛

- **إذ في مدينة بيروت** تكامل إعداد الحقوق الرومانية الجديدة،

- **وإلى بيروت** كان يتجه كل مَنْ ترك بلاده من هواة الحقوق، بما فيهم أهل الإسكندرية وأثينا وبيزانس. القسطنطينية.،

- **وإلى جماعة من الفينيقيين** لا شك فيهم، هم أسرة سبتيم سيفير Septime Sévère ومستشاروه، لا تزال الحقوق الرومانية مدينة ببلوغها أوج الكمال(١).

(الفقهاء)

العقلية الشرقية العربية في الحقوق الرومانية اللاحقة.

١٢ - وعلى أثر التوسع الذي تمَّ في رقعة الدولة الرومانية اشتركت **عقليات جديدة** شرقية في تطوير الحقوق الرومانية؛

أو بالأحرى: إن **العقلية اللاتينية الرومانية** لم تعد منذ ذلك

---

(١) انظر كتاب ريفيللو المشار إليه سابقاً في الحواشي، الصفحة XII منه.

الوقت هي التي تسهر على نمو الحقوق الرومانية وثرائها وإتمام رقيها، بل هي **العقلية الشرقية العربية** خاصة وبراعة الشرقيين.

رأي كوللينه أن أوروبا لم تطوُّر الحقوق الرومانية وإنما هو الشرق.

١٣ ـ وقد قال الأستاذ كوللينه[1] P. Collinet : «إن المملكات البربرية ـ ويعني بها ما فتحه الرومان في أوروبا ـ بقيت، فيما يتعلق بتطوير الحقوق الرومانية وإنمائها، **عاقرة مدة طويلة** كالصحراء، بينما كانت الإمبراطورية الشرقية مرتعاً خصيباً:

ـ وإن نفس الزهرة لويت وذبلت هناك،

ـ بينما انتعشت وبسقت هنا».

المؤلفات الفينيقية قضت على اللاتينية.

١٤ ـ وهكذا فقد كسفت مؤلفات الفقهاء الشرقيين، وخاصة منهم الفينيقيين السوريين، جميع المؤلفات اللاتينية وقضت عليها!

وكل ما نجده اليوم فيما بين أيدينا من الكتب إنما هي مؤلفات غايوس Gaius وبابينيان Papinien وأولبيان Ulpien، وهم فينيقيون حقيقة[2].

مدوَّنة جوستينيان وارثة لثقافة حقوقية متأصِّلة في الشرق وحُرِّرَت بأيدي الشرقيين.

١٥ ـ وكذلك مُدَوَّنة جوستينيان فهي إنما أُعِدَّت في الشرق وبواسطة الشرقيين وخاصة منهم أساتذة بيروت، وهي كما قال الأستاذ كوللينه: «تشريع وضع للإمبراطورية الشرقية، وحُرِّر بأيدي الشرقيين، وهو وارث في قسم منه لتعامل

---

(١) انظر كتاب: le caractère de l'oevre Législative de Justinien, Paul Collinet الصفحة ٣١٩ طبع باريس سنة ١٩١٢.

(٢) انظر فيما يتعلق بغايوس كتاب ريفيللو المشار إليه في الحواشي السابقة، الصفحة XXXVI.

شرقي قديم، وثقافة حقوقية متأصلة في الشرق»[١].

(الطابع الشرقي)

العنصر الشرقي تجاوز الحقوق إلى أعمال القياصرة وحياتهم ودين الدولة.

١٦ ـ ويتضح مما تقدم عن التطور الذي تم في الحقوق الرومانية اللاحقة: **في مصادرها ومحيطها ونقهائها**، أن عنصراً شرقياً هاماً جداً ليس برومانى قد اشترك في تكوين الحقوق الرومانية الجديدة **اللاحقة**.

وأَن هذا **العنصر الشرقي** كان له من التأثير العظيم أكثر بكثير مما يمكن أن يتصور؛

وأَن تأْثيره قد تجاوز الحقوق حتى شمل أعمال القياصرة وحياتهم، بل ودينهم أَوَليس قسطنطين هو الذي أدخل النصرانية على الدولة الرومانية؟.

رأي جيفار في ذلك.

١٧ ـ وقد قال الأستاذ جيفار في هذا المقام[٢]: «إن قياصرة الرومان في الشرق أخذوا ينظمون شيئاً فشيئاً **تصورهم وسلطانهم** على مثال ملوك الفرس... وإِن قيصر بيزانس أصبح في الحقيقة عاهلاً شرقياً: له قصور متعددة، ومراسم في التشريفات مأخوذة عن ملوك الفرس القدماء».

رأي ريفيللو في شعار الصليب أنه آشوري

١٨ ـ ويرى الأستاذ ريفيللو[٣] Révillout: أن قسطنطين لمَّا وضع شارة **الصليب** على رايته إنما أخذها عن الملوك الآشوريين ووضعها في نفس الشكل الذي كان يُرَى على صدر أولئك الملوك؛

---

(١) كتاب كوللينه المشار إليه سابقاً، الصفحة XX منه.

(٢) انظر كتاب: Précis de Droit Romain لمؤلفه A.E. Giffard، الجزء الأول، الصفحة ٥٨، المادة ١٠٠ طبع باريس سنة ١٩٣٣.

(٣) كتاب ريفيللو السابق الصفحة XX منه (انظر حاشية الصفحة ١٩١).

بل إن كلمة لاباروم Labarum اللاتينية هي نفس الكلمة التي كانت تُستعمَل للدلالة على الصليب في لغة الكلدان القديمة، وأن هذه اللفظة كان معناها لدى الآشوريين الأزلية والخلود.

ومعنى الكلمة الخلود.

١٩ ـ وأَمَّا تأثير العنصر الشرفي في الحقوق فيقول عنه الأستاذ ريفيللو[١] ما يلي:

وثائق مصر والكلدان غير ما كنا تقبلناه من الأفكار.

«إن هذه الأكداس من الوثائق الصحيحة التي اكتشفت أخيراً ما بين عقود ونصوص حقوقية، وصلتنا في آن واحد عن مصر والكلدان، قد زلزلت بصورة غريبة جداً ما كنا تقبلناه حتى الآن من الأفكار؛

«وأن هذه الوثائق قد برهنت لدينا على أن هذه الحقوق العامة Jus gentium، أي حقوق الأمم والشعوب التي يتكلم لنا عنها فقهاء الرومان من غير انقطاع، لم تكن كما اعتقد حتى الآن من بنات أفكارهم، وإنما كانت حقوقاً موجودة قبلهم لا شك فيها».

الحقوق العامة لم تكن من وضع الرومان.

٢٠ ـ ثم يتابع ريفيللو ويقول: «إن هذه الوثائق قد أثبتت لنا أن الشعبين العظيمين ـ المصري والكلداني ـ اللذين اعترف لهما اليونان بأنهما مصدر وحيهم، وأنهما أُنموذجهم في المدنية، هما اللذان أوجدا هذه الحقوق قبل آلاف السنين، ثم نُقِلت عنهما إلى كل مكان بواسطة الفينيقيين واليونان، وأن الرومان لمَّا وجدوها لدى الشعوب التي أخضعوها لسلطانهم لم يلبثوا أن عرفوا مبلغ سموها على قانون الألواح الاثني عشر، وأخذوا يفكرون في تقليدها.

مصر والكلدان مصدر مدنية اليونان والرومان، وهما واضعا الحقوق العامة التي رجَّحها الرومان على الألواح الإثني عشر.

(١) نفس كتاب ريفيللو الأسبق، الصفحات VI، IX، XII.

إنتاج الفقهاء الرومان ليس منهم.

٢١ ـ ثم يضيف ريفيللو قائلاً: «إنه ليس من الممكن اعتبار **إنتاج الفقهاء ـ الرومان** ـ من فيض قرائحهم وبنات أفكارهم الخاصة بهم دون أن تكون متأثرة بتأثيرات خارجية؛

ما يُنسَب إليهم من نظم وأحكام كانت موجودة قبلهم وبقيت مدة مرفوضة منهم، والحكام هم الذين أدخلوها عليهم.

«وأن هذه الأمور التي تُنسَب إليهم من **نُظُم وأحكام** قد بقيت زمناً طويلاً **مرفوضة منهم**، بينما كانت موجودة ومطبقة لدى غيرهم من العالم؛ ولم يمكن البدء في إدخالها على الحقوق الرومانية إلا بعد أن جاء **الحكام من قضاة وولاة** وغيرهم ممَّنْ رأوا تلك النظم والأحكام يُعمَل بها في الملحقات والأقاليم فأُعجبوا بها أي إعجاب، ثم قلَّدوها في مرسوماتهم، وفتحوا بعملهم هذا الصادر عن محض إرادتهم باباً للفقهاء يلجون منه للتعليق على كثير من النصوص، وهيأوا بذلك ميداناً للنقاش فيما بين هؤلاء على دقائق الأمور».

القياصرة قلَّدوا الحكام في النقل عن الفينيقيين.

٢٢ ـ ثم يتابع ريفيللو ويقول:

«ومن بعدهم ـ بعد الحكام والقضاة والولاة ـ **جاء القياصرة** وتدخلوا في الأمر، وكان منهم تراجان Trajan وآدريان Adrien ممَّنْ رجعوا من إسبانيا بعد أن رأوا في هذه البلاد حقيقة **التقاليد الحقوقية** من حقوق الأمم والشعوب Droit des gens، تلك التقاليد التي نقلها الفينيقيون لتلك الأقطار بعد فتحهم إيَّاها».

التجديد تمَّ نهائياً من قبل الأباطرة الفينيقيين.

٢٣ ـ وأخيراً يقول ريفيللو:

«غير أن هذا **التجديد** إنما تمَّ نهائياً بواسط **فينيقيين حقيقيين** هم أسرة سبتيم سيفير Septime Sévère ومستشاروهم الفينيقيون؛

الفينيقيون هؤلاء هم

«وأن **الطوفان الفينيقي** لم يزل يعلو إلى أن تجاوز الحدود

وأزال الحواجز وذلك تحت حكم أسرة من رأس فينيقي أدخلت في الوطنية الرومانية جميع الغرباء الخاضعين لسلطان روما، وافتخرت بما أغدقت من الامتيازات النادرة على **مدينة صور** ـ العاصمة الأولى للفينيقيين في سوريا ـ Tyr العظيمة وما جاورها من المدن، ولم يعد في الإمكان تعداد المقتبسات من حقوق الناس».

الذين أدخلوا الغرباء في الوطنية وأغدقوا الامتيازات على بعض المدن الشرقية.

٢٤ ـ وجاء الأستاذ كوللينه Paul Collinet في كتابه الذي سماه «الطابع الشرقي لعمل جوستينيان التشريعي» Le caractère Oriental de l'oeuvre legislativ de Justinien يدعم أيضاً بصورة علمية **نظرية تأثير الشرق** في الحقوق الرومانية وقد قال فيما قاله(١):

كوللينه يدعم نظرية تأثير الشرق في الحقوق الرومانية اللاحقة.

«في الشرق أكثر منه في الغرب، وفيما بين القرن الرابع إلى القرن السادس بعد الميلاد إنما تم تطور الحقوق الرومانية وانتقالها من الحقوق القديمة إلى حقوق القرون الوسطى، هذه الحقوق التي أصبحت طليعة للحقوق الحديثة ومعدة لها».

إنما تطورت الحقوق الرومانية في الشرق.

٢٥ ـ ويتابع كوللينه قائلاً(٢):

فهم مراحل الحقوق الرومانية متوقف على معرفة مدنية الملحقات.

«إذا أُريد التمكن بصورة دقيقة من معرفة مراحل حقوق ليست بالحقوق الرومانية الصرفة، وإنما هي حقوق تتصل بالحقوق الرومانية الصرفة لتؤلف الحقوق التي جمعتها كتب الأحكام القانونية Institutes والفتاوى Digestes ومجموعة

(١) انظر الصفحة III منه، طبعة ١٩١٢ باريس.

(٢) انظر الصفحات xx - xIx منه.

القوانين Code فيجب عندئذ أن يُعطَى مقام كبير إلى **مدنية الأقاليم** الملحقة بالعاصمة الرومانية من العالم الروماني، تلك المدنية التي أصبحت تُعرَف من يوم إلى آخر أحسن من ذي قبل؛

«ويجب أن لا يغيب قط عن النظر أن حقوق جوستينيان ـ كما جاءت في تلك الكتب ـ لن يمكن النفاذ إلى باطنها، وفهمها حقاً، ما لم نربطها بمدنية عصره، ومدنية البلاد التي وضعت تلك الحقوق لتطبق فيها».

الطابع الشرقي هو المسيطر على التجديد عند جوستينيان.

٢٦ ـ ثم يضيف كوللينه قائلاً:

«وإذا أُريد التوغل جيداً في فهم الروح التي سيطرت **في التجديد** الذي جاء به جوستينيان نفسه، وفي الإصلاحات التي قام بها جامعو كتبه، لا بدَّ عندئذ من الاصطدام في الخط الأول **بالطابع الشرقي** لتشريع وضع للإمبراطورية الشرقية، وحُرِر بأيدي شرقيين، وهو وارث في قسم منه لتعامل شرقي قديم، وثقافة حقوقية متأصلة في الشرق».

حقوق جوستينيان فيها تسجيل لحقوق الشرق بكامله.

٢٧ ـ ثم يتابع الأستاذ كوللينه قائلاً:

«لا يجوز أن نرى في التجديد الذي جاء في تقنين جوستينيان تسجيلاً فقط للحقوق الرومانية في الشرق، بل يجب أن نرى فيه بصورة أوسع **تسجيلاً لحقوق الشرق بكامله**».

إجلال كوللينه للبيزنطيين، لاهتدائهم بنجمة الشرق.

٢٨ ـ وفي الختام يعلن الأستاذ كوللينه قائلاً:

«نقدم مرة أخرى إجلالنا إلى البيزنطيين، طليعة حقوق القرون الوسطى والحقوق الحديثة، ذلك لأنهم سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا مهديين بنجمة الشرق في رقيهم وتقدمهم».

تأثير الشرق في الحقوق الرومانية اللاحقة عند فولتيرا.

٢٩ ـ وكذلك جاء الأستاذ الإِيطالي أَدواردو فولتيرا Edoardo Volterra يؤيد في كتابه «الحقوق الرومانية والحقوق الشرقية Diritto Romano e Diritto Orientali» فكرة التأثير الكبير للشرق في الحقوق الرومانية اللاحقة، وخاصة في حقوق الأسرة منها وفي أحكام العقود[١].

---

(١) انظر الصفحة ٢٤٥ وما يليها من كتابه، طبعة Bologna سنة ١٩٣٧.

ط ـ قصة الألواح الإثني عشر: أول قانون مكتوب

روما في العهد الملكي تحت حكم الأعراف والأشراف.

١ ـ كانت روما في عهدها الملكي تُحكَم بالأعراف والعادات غير المكتوبة، عدا بعض **المرسومات الدينية** الصادرة عن الملوك والكهان؛ وكان العلم بهذه العادات والحكم محصوراً في أيدي الأشراف.

ضجيج طبقة العوام من الأحكام الكيفية غير المعروفة.

٢ ـ وقد ضجَّت العامة من الشعب من الاحتكام لهؤلاء الأشراف والنزول عند أحكامهم الكيفية المستندة في زعم الأشراف والكهان إلى عادات غير مكتوبة ولا معروفة، مما لم يعد من الممكن الثقة فيها؛

اندفاعهم نحو كتابتها.

لذلك اندفع الشعب أخيراً في العهد الجمهوري نحو **تثبيت قواعد الحكم**، وكتابتها في شكل قانون.

الألواح الإثنا عشر أول قانون مكتوب بعد جهاد عنيف صوَّر لنا حياة الشعب الأولى.

٣ ـ وكان أول قانون صدر تحقيقاً لهذه الأمنية هو **قانون الألواح الإثني عشر** La Loi des XII Tables، وذلك بعد جهاد عنيف، ودراسة طويلة لكيفية تثبيت هذه الأحكام، وإعلانها للجميع؛

وقد اعتبر هذا القانون **القانون الوطني** (المدني) الروماني الأصلي، وهو الذي صور لنا حقيقة الشعب الروماني وأعرافه وتقاليده في جميع نواحي حياته الأولى.

الألواح الإثنا عشر مرحلة

٤ ـ إن المؤرخين الرومان واليونان عندما يتكلمون عن

الألواح الإثني عشر يتكلمون عنها كمرحلة أساسية اجتازتها **طبقة العوام** في نزاعها مع طبقة الأشراف، ذلك النزاع الذي بدأه العوام من أجل تحقيق مساواتهم مع الأشراف في الحقوق.

نزاع ما بين طبقتي العوام والأشراف.

٥ ـ وفوق ذلك فإن **العوام**:

ـ كانوا يشكون كثيراً من **جهلهم العادات** الحقوقية التي كانت نافذة في مدينة روما،

ـ كما أنهم كانوا يشكون بنتيجة ذلك من أنهم أصبحوا ضحايا **الأحكام الكيفية** الصادرة عليهم من الحكام الأشراف المكلفين بتطبيق هذه العادات.

شكوى العوام من جهل العادات الحقوقية وتعرضهم للأحكام الكيفية.

٦ ـ وفي سنة ٤٦٢ قبل الميلاد اقترح **نقيب** Tribun طبقة العوام والمحامي عنهم: تيرانتيليوس آرسا Terentilius Arsa تعيين خمسة مفوضين لوضع مجموعة من الأحكام الحقوقية القانونية تكون **خاصة بطبقة العوام**.

اقتراح العوام وضع حقوق خاصة بهم.

٧ ـ غير أن مجلس الشيوخ عارض بشدة هذا الاقتراح الذي لو تحقق لقطع كل صلة للعوام بالأشراف، وعزز رغبات العوام الانفصالية.

معارضة مجلس الشيوخ.

٨ ـ **ولكن العوام** أصرّوا على مطالبتهم، ودام النزاع في ذلك بضع سنوات، وكان العوام يجددون في كل سنة انتخاب نفس **النقباء** المحامين عنهم، وانتهى الأمر بأن اضطر مجلس الشيوخ أن يوافق على مشروع آخر يرمي إلى إيجاد بعض القواعد الحقوقية تكون **مشتركة فيما بين الأشراف والعوام**.

إصرار العوام ثمّ موافقة الشيوخ على مشروع مشترك بين العوام والأشراف.

٩ ـ وبناء على ذلك تقرر سنة ٤٥٥ قبل الميلاد أن يوقف مؤقتاً انتخاب **القناصل**، وانتخاب **النقباء** المحامين عن العوام،

تقرّر انتخاب عشرة

مفوّضين لوضع القوانين المشتركة.

وأن يُصار إلى تعيين **عشرة أشخاص** مكانهم، وأن يُفوَّض إليهم وضع هذه القوانين.

بعثة ثلاثية إلى اليونان لدراسة قوانين صولون قبل انتخاب المفوضين العشرة.

١٠ - وقبل أن يُعيَّن هؤلاء **المفوضون العشرة** أرسلت بعثة **من ثلاثة مفوضين** إلى اليونان، والمراد من اليونان فيما يظهر **اليونان الكبرى**، وهي في جنوبي إيطاليا الساحلية؛

وكانت مهمة هؤلاء دراسة **قوانين صولون** Solon اليونانية التي وضعت في مطلع القرن السادس قبل الميلاد.

انتخاب المفوضين العشرة من الأشراف فور عودة البعثة.

١١ - وفور عودة البعثة من اليونان انتخب عشرة مفوضين decemviri، وكانوا **كلهم من الأشراف**، وذلك ليمارسوا أعمالهم في سنة ٤٥١ قبل الميلاد (أي سنة ٣٠٣ من بناء روما)، وقد تمَّ انتخابهم من المجالس الشعبية المعروفة بالمجالس المئوية، وهي مزيج من الأشراف والعوام، وقد أُعطيت في العهد الجمهوري حق انتخاب حكام البلاد الأعلين وهم **القناصل**.

وضع عشرة ألواح في السنة الأولى وصودق عليها.

١٢ - وقد تمكن هؤلاء الحكام المفوضون العشرة من وضع **عشرة ألواح** في تلك السنة، وصودق عليها من قبل المجالس المئوية.

انتخاب عشرة آخرين من أشراف وعوام لإكمال التشريع في لوحين آخرين.

١٣ - ولما كان العمل الموكول إليهم لم ينته بكامله فقد انتخب من جديد عشرة مفوضين لإنجاز بقية العمل، وقد كانوا هذه المرة **مزيجاً من الأشراف والعوام**،

وكان لأحدهم، واسمه آبيوس كلوديوس Appius Claudius وهو من العوام، التأثير الراجح، وأنجزوا ما بقي من العمل **في لوحين آخرين**.

استياء العوام من هؤلاء

١٤ - غير أن اللوحين الأخيرين لم يشتملا على إباحة **زواج**

العوام من الأشراف الذي كان يحرص عليه العوام، وهذا ما حمل العوام على الاستياء، وهيأ جواً خطراً على حكومة المفوضين.

المفوضين وأسبابه.

ويُضَاف إلى ذلك أن المفوضين قد ساروا في الشعب سيرة الطغاة المستبدين، وحاولوا أن يبقوا في الحكم سنة تالية، مما جعل الشعب يثور عليهم ويزيلهم.

محاولة آبيوس السيطرة على فتاة أعجبته زاد في الاستياء.

١٥ ـ ويُحكَى أن تصرفات آبيوس كلوديوس كانت هي العامل الأخير الذي أثار الشعب، وذلك أن آبيوس قد كان أُعجب بابنة أحد رؤساء المجالس المئوية، وحاول السيطرة عليها واسمها فيرجينا Vergina، وحكم بتسليمها مؤقتاً لأحد مواليه الذي زعم بأنها أَمَةٌ لديه رغم أنها كانت من النساء الأحرار.

قتل والد الفتاة ابنته دفعاً للعار، وثورة الجيش، وإعادة نظام القناصل.

١٦ ـ ولكن والد الفتاة فيرجينيوس قد ثار الدم في رأسه عقب الحكم الظالم، ولم يتحمل أن يرى ابنته تُقَاد رغماً عنه وعنها إلى ما يدنِّس شرفه، لذلك سارع إلى دكان لحام فأخذ سكيناً كبيراً وتقدَّم فقتل ابنته في ندوة روما Forum إنقاذاً لشرفه، ثم لحق بالجيش فأثاره حتى هاجم روما وأسقط حكومة المفوضين، وأعاد إلى روما نظام القناصل السابق مع مساعدة مجلس الشيوخ.

تصديق اللوحين الأخيرين وإعلان الألواح الإثني عشر.

١٧ ـ ثم جاء القناصل فعرضوا اللوحين الأخيرين على المجالس المئوية سنة ٤٤٩ قبل الميلاد، وبذلك تمَّ وضع القانون الجديد في اثني عشر لوحاً؛ وعُلِّقت هذه الألواح في ندوة روما.

مادة الألواح وتحطيمها

١٨ ـ وقد كانت هذه الألواح مكوَّنة من عاج على ما ذكره

من قبل الغوليين.

الفقيه بومبونيوس؛ وقيل إِنها مكونة من نحاس على ما ذكره المؤرخ الروماني تيت ليف Tite - Live؛

غير أنها قد حُطِّمت بعد ستين سنة، وذلك حين دخول الغوليين Les Gaulois إلى روما وتهديمها سنة ٣٩٠ قبل الميلاد.

إعادة الألواح مع بعض التجديد.

١٩ ـ ولكن الألواح أُعيدت مرة ثانية مع بعض التجديد في لغتها؛

ويقول سيسيرون الروماني Cicéron وهو مولود عام ١٠٦ قبل الميلاد: إِن الشبيبة في أيامه كانوا يستظهرون في المدارس الألواح الإِثني عشر عن ظهر قلب؛ وهذا ما يدل على أن نصوص الألواح الإثني عشر كانت معروفة لدى الجميع في عهد سيسيرون.

نصوص الألواح لم تصلنا بكاملها.

٢٠ ـ إِنه لمن المؤسف جداً أن لا تصلنا نصوص الألواح الإثني عشر بكاملها، وذلك لما عرفناه من قبل بأنها حُطِمت حين تهديم روما من قبل الغوليين بعد ستين سنة من إعلانها، ولم يتيسر استعادتها إِلا من محفوظات الناس، وبعد زمن طويل، مع بعض التجديد في لغتها؛

وهذا ما جعل **النص الأُصلي غير معروف** بكامله.

الألواح سلسلة لبعض الأحكام المقتضبة تشبه الأمثال.

٢١ ـ وبالجملة فإن قانون الألواح الإثني عشر قد كان مؤلَّفاً من سلسلة من الأحكام الموجزة، بل المقتضبة، المخصصة للحكم في المسائل المتناقش فيها بين طبقتي العوام والأشراف؛

وقد صيغت بصيغة مختصرة جداً ليسهل حفظها، وهي تشبه الأمثال، وتذكِّر بالقواعد العرفية المسلَّم بها.

٢٢ ـ ويقول الأستاذ مونييه[١] R. Monier في مجمل أحكام قانون الألواح الإثني عشر: «إننا في الحقيقة أمام تشريع بربري يبرهن لنا، في قضايا المدينين العاجزين عن الوفاء، عن قساوة لا رحمة فيها».

الألواح في مجملها بربرية لا سيما في المدينين العاجزين.

٢٣ ـ وتتضح هذه القساوة الوحشية إذا ما عرفنا أن أحكام هذا القانون في المدينين العاجزين عن الوفاء تقضي باسترقاقهم من قبل الدائن، وتعطي لهذا حق بيعهم أو قتلهم! وإذا تعدد الدائنون فلهم جميعاً الحق في تقطيع جسم المدين إِرباً إرباً وهو حي!!

المدين العاجز يُسْتَرَق أو يُبَاع أو يقطع جسمه حياً إرباً بين الدائنين.

٢٤ ـ ويقول الأستاذ مونييه[٢]: «لو قارنا قانون الألواح الإثني عشر مع شريعة حمورابي التي صدرت قبل ألفي سنة من المسيح ـ على الأقل ـ لوجدنا هناك فروقاً أساسية، لأن التشريع الروماني من الناحية الاقتصادية يظهر منحطاً جداً عن الشريعة الحمورابية:

المقارنة تظهر انحطاط الألواح وتقدم شريعة حمورابي رغم سبقها بألفي سنة تقريباً.

ـ فالأول موضوع لجماعة من الملاكين الفلاحين وساكت عن أحكام العقود والالتزامات،

ـ أما الشريعة الحمورابية فهي على عكس ذلك مجموعة أحكام قانونية لمجتمع تجاري، وقد خصصت الأحكام المطولة للعقود والالتزامات».

٢٥ ـ لذلك لم يصمد هذا التشريع البربري أمام سمو أحكام شرائع مصر وبابل بعد الاحتكاك بها والسيطرة عليها

انحطاط الألواح عن شرائع مصر وبابل قضى

(١) انظر كتابه: Manuel Elémentaire de Droit Romain، الجزء الأول، الصفحة ٣٥، الفقرة ٣٨، طبع باريس سنة ١٩٤٧.

(٢) الكتاب السابق، الجزء الأول، الصفحة ٣٤ـ٣٥.

بتطوير الحقوق الرومانية تحت تأثير الشرق كما تقدم.

منذ ميلاد السيد المسيح، إلى أن انتهى تطور التشريع الروماني إلى ما وصل إليه في مجموعات جوستينيان في القرن السادس بعد الميلاد تحت تأثير المدنيات الشرقية والعربية كما تقدم معنا في خصائص الحقوق الرومانية الأصيلة واللاحقة.

الفصل الثالث

فكرة الحق والقانون
في أزمنة ما قبل التاريخ

(وفيه مقدمة وثلاثة أبواب)

مقدمة ـ هذا الفصل دراسة نظرية فقط

الباب الأول ـ خصائص الفطرة

الباب الثاني ـ صور مراحل الحق والقانون

الباب الثالث ـ النظم القانونية في المجتمع الفطري

مقدمــة

هذا الفصل دراسة نظرية فقط

١ ـ كنا نقلنا في مطالع كتابنا قول دوكي جي (الفقرات ٨ ـ ١١):

«إنه ليرتكب خطيئة خطيرة جداً ذلك الذي يرد **نشأة أصول الحق والقانون** إلى مطالع **الأزمنة التاريخية**، أي إلى سبعة آلاف سنة أو ستة آلاف سنة بالنسبة للبلاد الشرقية على بحر الأبيض المتوسط، وإلى ألفين أو ثلاثة آلاف سنة بالنسبة لأوروبا الغربية».

كنا نقلنا أن القول بنشأة أصول الحق والقانون في مطلع الأزمنة التاريخية فقط خطأ كبير.

٢ ـ وذلك لأننا في الحقيقة:

ـ لا نعرف إلا جزءاً صغيراً جداً من التطور البشري،

ـ وإن الجزء الأهم بكثير قد فقدناه تماماً، وسيبقى مفقوداً بلا شك إلى الأبد: لأنه تغيب دون أن يترك لنا أثراً من الآثار.

لأن الجزء الأهم من تاريخ التطور البشري فقدناه نهائياً.

٣ ـ ويقول دوكوجي أيضاً:

ـ «**إن الحق قد نشأ** قطعاً قبل أن تعلّمت البشرية الكتابة، وإن الكتابة في أقدم استعمالها لا ترجع إلاً إلى ستة آلاف سنة أو سبعة آلاف سنة تقريباً».

الحق قد نشأ قطعاً قبل استخدام البشرية للكتابة، والأزمنة التاريخية جزء من مئة بالنسبة لما قبلها.

ـ وإنه «يجب علينا أن نكون قادرين على الغوص إلى آخر غور من أعماق **أزمنة ما قبل التاريخ** كي نعرف الصفحات الأولى من تطور النظم الإنسانية التي لا يؤلف ما كان منها في **الأزمنة التاريخية** إلا جزءاً من مئة جزء».

بفقدان أخبار ما قبل التاريخ لا سبيل لمعرفة نشأة القانون في أقدم عصور البشرية.

٤ ـ **وإذا كان** الغوص إلى تلك الأعماق السحيقة من عمر الإنسانية قد أصبح متعذراً، بل مستحيلاً،

وإذا كانت صفحات التطور البشري في تلك العهود **فيما قبل الأزمنة التاريخية** قد فقدناها إلى الأبد دون أي أمل في العثور عليها، وتغيبت في بطون الدهر دون أن تترك لنا أثراً من الآثار،

فكيف السبيل إلى دراسة **نشأة الحق** والقانون لدى البشرية في أقدم العصور والشعوب؟؟

لذلك كانت دراسة أخبار القانون فيما قبل التاريخ نظرية بحتة.

٥ ـ على ضوء هذه الوقائع والأسئلة كما كنا نقلناها أيضاً من قبل، اضطر العلماء في هذه الحقبة من عمر الإنسان، الأطول في عمرها، والأعظم في قدرها، والمفقودة نهائياً من حياة البشرية، أن يعمدوا إلى الاستعاضة عنها **بدراسة نظرية** بحتة حول **نشأة فكرة الحق والقانون** في تلك الحقبة الطويلة المجهولة.

هذه الدراسة النظرية هي موضوع فصلنا هذا مع نهج جديد.

٦ ـ إن هذه الدراسة النظرية هي ما نريد معالجته في هذا الفصل من كتابنا، ولكننا سننهج نهجاً جديداً فيه إلا قليلاً؛ وسنبدي عند الاقتضاء ما أمكن من ملاحظات على بعض الفرضيات، آملين أن يكون منهجنا أدق نظراً، وأقوم مسلكاً.

الباب الأول

خصائص الفطرة

أ ـ الفطرة الإنسانية والمجتمع الفطري الأول
ب ـ الفطرة والإيمان وأثره في حياة الإنسان
ج ـ الفطرة والعيش في جماعة مشتركة
د ـ الفطرة وفكرة الحق في الأسرة الأولى

أ ـ الفطرة الإنسانية والمجتمع الفطري الأول

١ ـ ما دامت صفحات التطور البشري في عهود **ما قبل الأزمنة التاريخية** قد فقدنا أخبارها الناطقة، وليس هناك أي أمل في العثور عليها، فلا بد لنا إذا ما أردنا الكشف عن سير ذلك التطور من الاعتماد:

بسبب فقدان أخبار ما قبل التاريخ لا بدَّ من الظن واستنطاق الفطرة في حياة المجتمع الفطري الأول.

أولاً ـ على **التخمين والظن**،

ثانياً ـ **على البدء**، في هذا التخمين والظن، **بحياة الأُسرة الأولى للإنسان، ومجتمعه الفطري الأول**، وحياته الطبيعية فيه؛

ثالثاً ـ وأخيراً الاعتماد على **استنطاق الفطرة** وما يمكن **أن توحيه** في نفوس أصحابها من اتجاهات وعقائد في ذلك **المجتمع الفطري الأول**، مسترشدين في هذا الاستنطاق ـ كلما صح الاسترشاد ولكن مع كثير من الحذر ـ بأمثلة عن ذلك الإنسان الفطري الأول الذي لا يخلو عهد من عهودنا عن نماذج صحيحة عنه: في نفسيته، وتفكيره، وشعوره، **إذا ما تخيلناه أو وضعناه أمام نفس الظروف** والأوضاع الأولى.

٢ ـ وما دامت **الفطرة الإنسانية** في المجتمع الفطري الأول الطبيعي هي الأساس والمرشد لنا في بحثنا، فلا بد لنا أيضاً من تحديد:

لذلك يجب تحديد المراد بالفطرة ووحيها.

ـ **المراد** من الفطرة أولاً،

ـ وفهم وحيها ثانياً.

لا نريد من تحديد الفطرة ووحيها الخوض في صلاح الفطرة أو فسادها.

٣ ـ ولسنا نريد في **تحديد الفطرة ووحيها** أن نبدأ من حيث ذهب الفلاسفة وأصحاب الظنون إلى أقوال خلافية تقوم على القول بأن الفطرة صالحة أو فاسدة، أو أن الإنسان صالح بفطرته أو سيء: **مما يتناول الكلام عن فطرة الإنسان** من حيث هي، مع صرف النظر عن أزمانها الأولى أو الحديثة، **ومما يعقد الأمر**، ويزيد البحث غموضاً، ويجعل الفطرة المختلف فيها حينئذ غير صالحة للاسترشاد بها في استقراء حياة الإنسان الأولى، والتعرف على مجتمعه الفطري الأول، وحياته الطبيعية البديئة التي قد تغيبت عنا أخبارها، واندثرت آثارها.

نحدد الفطرة من نقطة أبسط وأصلح للاسترشاد.

٤ ـ ولكننا نبدأ في تحديد الفطرة من نقطة أبسط وأسهل وأبعد عن الخلاف، لتكون صالحة للاسترشاد بها والاستنارة بوحيها من غير نزاع، ولتكون عند الاقتضاء صالحة من غير شك للحكم في كل ما قد ينشأ من خلاف.

المراد من الفطرة هو الحالة الطبيعية التي جابه فيها الإنسان الحياة لأول مرة وحيداً مستوحشاً ضعيفاً وفاقداً كل خبرة.

٥ ـ **فالمراد من الفطرة** هو تلك «**الحالة الطبيعية الأولى**» التي جابه فيها الإنسان السليم الحياة لأول مرة:

ـ **وحيداً مستوحشاً** من هذا الفضاء الواسع والكون العجيب،

ـ أعزل عديم الحيلة أمام كل ما يفزعه من عوارض الطبيعة،

ـ وفاقداً كل خبرة قد ترشده إلى الطريق السويّ إذا ما أُبهِم عليه الأمر، وأحاطت به الظلمات،

ـ جاهلاً بكل ما يحيط به من أسرار الخليقة،

ومستفسراً عن حقائق الخليقة وأسرارها بما تنبَّه لديه من حسن الملاحظة والتفكير.

من هذه الحالة الطبيعية الأولى الساذجة نبدأ للتعرف على الإنسان في مجتمعه الفطري الأول وعلى وحي فطرته حينذاك.

٦ ـ فمن هذه **الأزمنة الغابرة الأولى** من تاريخ الإنسانية السحيق،

ومن **المجتمع الفطري الأول** الذي تغيبت عنا جميع أخباره وآثاره،

ومن هذه الحياة الطبيعية الساذجة التي ابتدأ فيها الإنسان الأول **حياته الأولى** بكل ما في هذه اللفظة من معنى: حيث لا منزل يؤويه من العواصف القاتلة، ولا ملجأ يحميه من ضراوة الحيوانات المفترسة، ولا طعام يملأ جوفه إلا ما وقعت عليه يده من بعض ثمار الأشجار الباسقة:

ـ فمن هنا نبدأ للتعرف على الإنسان في أول نشأته،

ـ ونسمي مجتمعه الأول هذا دون غيره **بالمجتمع الفطري**،

ـ كما نسمي حالته هذه **بحال الفطرة**،

ـ ونعتبر ما يصدر عنه وهو في هذه الحال من **وحي الفطرة**.

كل تقدم يجتاز به الإنسان تلك الحالة يبعده عن المجتمع الفطري إلى مجتمع آخر له ظروفه الخاصة ووحيه الخاص.

٧ ـ **وكل تقدم** يحرزه الإنسان في حياته ويجتاز به تلك **الحالة الطبيعية الأولى** (التي جابه فيها الإنسان الحياة لأول مرة وحيداً مستوحشاً أعزل فاقداً كل خبرة وجاهلاً مستفسراً)، يبعده عن **المجتمع الفطري الأول** الذي نتحدث عنه، ويفقده الكثير من **وحي الفطرة الأولى**، ويصبح في مجتمع آخر له ظروفه ووحيه الخاص، ولو كان ذلك المجتمع لا يزال بدئياً؛

ولا بد من ضرب بعض الأمثلة لزيادة الإيضاح.

خذ مثلاً لذلك الإنسان

٨ ـ خذ مثلاً الإنسان الأول حين كان كما وصفناه: لا

الأول كما وصفناه وتصوَّر وحي فطرته وطبيعته أمام النوائب.

منزل يؤويه من العواصف القاتلة، ولا ملجأ يحميه من ضراوة الحيوانات المفترسة، وتصوَّر وحي فطرته وطبيعته إذا ما ثارت العواصف، أو انقضَّت عليه الوحوش، أوزلزلت الأرض وانفجرت البراكين، أو اجتاحته أمواج الفيضان دون عاصم له:

فالخوف والملاحظة هما الوحي الأول لفطرته.

ـ لا شك أن **الخوف والوجل** هو الوحي الأول لهذا الوضع الطبيعي، والحال الفطري،

ـ ولا شك أن **التماس المعين**، والتوجه إليه بالنداء وطلب الحماية هو الوحي الثاني؛ ولكن هذا الوحي ملازم تمام الملازمة للوحي الأول **بالخوف والوجل**، وهو من **أولى مظاهر الملاحظة والتفكير لدى الإنسان**.

الخوف أول أمهات الآلهة وخصوصاً الخوف من الموت.

٩ ـ ويقول لوكريش[١] تأييداً لما تقدم: «الخوف أول أمهات الآلهة، وخصوصاً الخوف من الموت»؛

«وقد كانت الحياة البدائية محاطة بمئات من الأخطار، وقلما جاءتها المنيَّة عن طريق الشيخوخة الطبيعية: فقبل أن تدبَّ الشيخوخة في الأجسام بزمن طويل، كانت كثرة الناس تقضي بعامل من عوامل الاعتداء العنيف، أو بمرض غريب يفتك بها فتكاً؛

«ومن هنا لم يصدق الإنسان البدائي أن الموت ظاهرة طبيعية، وعزاه إلى فعل الكائنات الخارقة للطبيعة».

أما إنسان آخر ممَّنْ اجتاز

١٠ ـ ولكنك إذا أخذت إنساناً آخر قد اجتاز هذه المرحلة

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الأول، الصفحة ٩٩، طبع القاهرة سنة ١٩٤٩.

الفطرية الأولى إلى مرحلة أخرى لا يزال فيها بديئاً في حياته بالنسبة لِمَنْ جاء بعده بمراحل، فإنه أمام نفس الأحداث سيكون له في الكثير منها شعور جديد غير الشعور الأول وتوحي به أيضاً فطرته، ولكنها فطرته المتطورة الآن عن ذي قبل.

تلك المرحلة الفطرية فله أمام نفس الأحداث شعور جديد ووحي جديد.

١١ ـ فإذا كان الإنسان في منزل متين حصين وقد فاجأته العاصفة مثلاً، أو انتشرت حوله الوحوش الضارية، فسوف يقف متفرجاً هادئاً، وقد يكون ضاحكاً وساخراً بهذه الوحوش التي تحوم حول حصنه المنيع دون أن تجد إليه منفذاً؛

الشعور بالهدوء أمام العاصفة والوحوش وهو في منزل حصين.

وإذا كان الإنسان في بيته الذي نحته في الجبال وقد فاجأه الزلزال ورأى منازل الآخرين المبنية باللبن وفي أرض ترابية تنهار وتغور بأصحابها، فلن يكون لديه قطعاً نفس الشعور بالخوف الذي يدبُّ في نفوس الآخرين.

شعوره بالزلزال وهو في بيت منحوت من الجبال غير شعور مَنْ هو في بيت من الطوب.

١٢ ـ وهكذا **فكل تقدم يحرزه** الإنسان في شخصه وفي قوته وسلطانه **يبعده عن وحي الفطرة الأُولى** بالنسبة للإنسان الأول العاجز الضعيف: فهذا الأخير بسبب عجزه ألوف بطبعه وفطرته لأخيه الإنسان، بينما الآخر بسبب قوته مستغنٍ عن أخيه وكفور به وطاغية وجبار.

وهكذا فكل تقدم في الإنسان يبعده عن وحي الفطرة الأولى، فواحد بسبب عجزه أُلوفٌ وآخر بسبب قوته طاغية جبار.

١٣ ـ وهكذا نرى كما قلنا: إِن كل تقدم يحرزه الإنسان في حياته ويجتاز به تلك **الحالة الطبيعية الأُولى**:

- يبعده عن **المجتمع الفطري الأُول** الذي نتحدث عنه،
- ويفقده الكثير من **وحي الفطرة الأُولى**،

ذلك يرينا أن كل تقدم يحرزه الإنسان يبعده عن المجتمع الفطري الأول.

ـ ويصبح في مجتمع آخر: له ظروفه **ووحيه الخاص**، ولو كان ذلك المجتمع لا يزال بدائياً.

ليس من الضروري أن يفقد الإنسان بتقدمه مكاسب فطرته الأولى إذا حلَّ مكانها خبرة العقل، ولكن فقدان وحي الفطرة مع ضعف قدرة العقل يورث اضطراباً نفسياً أمام سلطان المادة.

١٤ ـ هذا، ولا بد من لفت النظر إلى أن كل تقدم قد يحرزه الإنسان في مراحل حياته ويباعده عن وحي فطرته الأولى ليس معناه أنه يفقد قطعاً في هذا التقدم مكاسب وحي الفطرة الأولى:

ـ بل هو قد يحافظ على مكاسبه بطريق **خبرة العقل** التي ارتقت وتقدَّمت لتحتلَّ مكان **وحي الفطرة** في صيانة تلك المكاسب؛

ـ وقد يفقد تلك المكاسب في كثير من الحالات لضعف قدرة العقل أحياناً إلى جانب فقدان وحي الفطرة والطبيعة الأولى، وتلك هي **حالات الاضطرابات النفسية** أمام سلطان المادة الذي قد يعطل لدى الكثيرين مواهب العقل بعد أن حُجِبوا عن وحي الفطرة.

قد ينحطُّ الإنسان عن مجتمعه الفطري بعوامل خاصة فلنحذر من ردِّ انحطاطه الطارىء إلى عهود الفطرة.

١٥ ـ وقد ينحطُّ الإنسان أيضاً بعد فقدان تلك المكاسب إلى أرذل الأوضاع مما لا عهد للإنسان بمثلها في مجتمعه الفطري الأول، وذلك تحت ضغط عوامل مختلفة من الظروف الخاصة التي تدفعه دفعاً إلى تلك الأوضاع الغريبة عن **عهد الفطرة الأولى**،

لذلك فلنحذر من أن نردَّ هذه الأوضاع **المنحطة الطارئة إلى** عهود الفطرة التي لم تعرفها، لأنها لما تعرف أسبابها.

معظم النظريات عن المجتمعات الأولى من خلال القبائل الهمجية الحاضرة فقدت اليوم اعتبارها.

١٦ ـ ويقول دوكوجي في هذا المقام، وحول ما وضع من نظريات عن النظم الحقوقية للأسرة في المجتمعات الأولى من خلال عادات القبائل الهمجية الحاضرة والشعوب المعاصرة المتحضرة: «إن معظم هذه النظريات لم تصمد

أمام النقد، وفقدت اليوم اعتبارها»[١].

مَثَلٌ عن عادات الأسكيمو في قتل أبويهم إذا شاخا فهي منبعثة عن ظروف المنطقة القطبية.

١٧ - وزيادة في الإيضاح خذ مثلاً واحداً عن بعض أعراف قبائل الأسكيمو من سكان المنطقة القطبية الذين يقتلون اليوم أبويهم إذا ما عجزا وشاخا، ولم يعودا صالحين لشيء غير استهلاك الغذاء العزيز النادر، وذلك تحت ضغط ندرة الغذاء وفقدان العلاج مثلاً: وكذلك حيث يندر الغذاء ترخص الحياة.

هذه العادات لا يجوز ردها إلى عهود الفطرة بل يجب البحث عن أسبابها.

١٨ - إن مثل هذه الأوضاع والأعراف لدى هذه القبائل البدائية لا يجوز بحال من الأحوال، ومهما كانت غريبة عنا، الادعاء لها بأنها من مبادئ العهود الفطرية الأولى، بل يجب أن نفتش عن أسبابها وظروفها الخاصة التي جعلتها تظهر وتسود لدى هؤلاء مما لم يكن معروفاً من قبل: فكم من الشعوب الغارقين في سباتهم عن ركب الحضارة قد توقف تطورهم مبكراً، واستقروا في مراحل منحطة من الحياة، بل انتكسوا في حالة مغرقة في الوحشية، وما ذلك إلاّ تحت ضغط عوامل اجتماعية مختلفة[٢] مما يجب البحث عنها.

ومثلها كل ما نراه من انحطاط لا يجوز رده إلى عهود الفطرة بسبب الانحطاط فقط.

١٩ - وكذلك الحال في كل ما نراه اليوم منحطاً عمّا يجب أن يكون عليه الإنسان المتحضر، لا يجوز أبداً أن ندعي له القدم، وأن نردَّه إلى عهود الفطرة الأولى: لا لشيء إلاّ لأنه منحط! فكم من أصول مدنيتنا يرجع في أصله إلى تلك المجتمعات الفطرية الأولى التي نحن مدينون إليها بها، وسوف نبقى مدينين لها إلى آخر الدهر.

---

(١) كتاب Les Etapes du Droit، الجزء الأول، الصفحة ٤٢، باريس سنة ١٩٤٢.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ٤١٨.

إن أعظم أخطاء المؤرخين عند ابن خلدون يعود إلى الجهل بطباع الأحوال في العمران.

٢٠ ـ ويقول ابن خلدون في الكتاب الأول من مقدمته حول ما يقع فيه المؤرخون من أخطاء: إِن أعظم أسبابها يعود إلى[1]: «الجهل بطباع الأحوال في العمران، فإن كل حادث من الحوادث، ذاتاً كان أو فعلاً، لا بدَّ له من طبيعة تخصه:

ـ في ذاته،

ـ وفيما يعرض له من أحوال؛

فإذا كان السامع (للأخبار) **عارفاً بطبائع الحوادث** (الذاتية) والأحوال (العارضة) في الوجود، ومقتضياتها، أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب؛ وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض؛ وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم... من أحاديث خرافة مستحيلة...، وإذا كان ذلك فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار، بالإمكان والاستحالة، أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميز ما يلحقه من الأحوال:

ـ لذاته وبمقضتى طبعه،

ـ وما يكون عارضاً لا يُعْتَدَّ به،

ـ وما لا يمكن أن يعرض له؛

وإذا فعلنا ذلك كان لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل... بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه».

---

(١) الكتاب الأول في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض لها من البدو والحضر الخ...، الصفحة ٢٢.٢٠، المطبعة الخيرية، أولى.

ب ـ الفطرة والإيمان وأثره في حياة الإنسان

في المجتمع الفطري الموصوف نجد لدى الإنسان وحياً واحداً تجاه أخيه الإنسان والاستئناس به، وتجاه ما وراء الإنسان من قوة قاهرة والإيمان بها.

١ ـ **إذا رجعنا** إلى الإنسان الأول في **مجتمعه الفطري** الطبيعي الذي وصفناه،

وعرفنا كيف جابه فيه صعاب الحياة **فريداً عاجزاً أستوحشاً**،

ورأينا كيف وقف أمام مظاهر الكون وألغازه: **وجلاً خائفاً، ومؤملاً راجياً**،

ثم استقرأنا ما في قرارة نفس كل فرد منه من انعكاسات وإيحاء،

لوجدنا لدى أفراد الإنسان الأول **وحياً واحداً** تجاه هذه الأوضاع، منبعثاً من فطرته، ومتفقاً مع طبيعته، سواء:

ـ في وضع الإنسان **تجاه أخيه الإنسان** في الاستئناس به وفي عطفه عليه،

ـ أو في وضع الإنسان **تجاه ما وراء الإنسان** من قوة قاهرة مسيرة: يلمس آثارها ولكنه لا يراها، وهي **مصدر خوفه** تارة، **ومكان أمله** أخرى، **ومبعث ملاحظته** وتفكيره في كل حين.

كل مظاهر الكون كانت ألغازاً مبهمة ومبعثاً لتفكير الإنسان ولمخاوفه.

٢ ـ فكل مظاهر الكون أمام الإنسان كانت ألغازاً مبهمة **تبعث على الملاحظة** والتفكير، بل **مفاجآت مخيفة** مقلقة:

ـ تفزعه العواصف إذا ثارت وأحاطت،

- وتخيفه الأنهار إذا فاضت وهاجت،

- وتذهب البراكين بقلبه ولبه إذا انفجرت،

- ويقلق من الشمس إذا لفحته بنارها،

- ويجفل من الليالي ومن انبعاث وحوشها،

- ويرتاب من السماء ومن بصيص نجومها.

ضعف الإنسان واستيحاشه أمام مظاهر الكون وصعابه نَبَّه فيه حس الملاحظة والتفكير وذلك مصدر كل خير.

٣ - وهكذا:

- فإن ضعف الإنسان الأول واستيحاشه أمام صعاب الحياة،

- ووجله وخوفه من مظاهر الكون وألغازها،

- بل انهيار أعصابه أحياناً أمام ما يصيبه من أذاها: ببراكينها وزلزالها، وعواصفها وفيضانها، وسعيرها وزمهريرها،

كل ذلك كان لدى الإنسان الفطري السليم في خَلْقه، والحي في شعوره وعقله، مبعثاً لديه **للانفعال والتفاعل**، ومنبهاً فيه لحس الملاحظة والتفكير؛

ولا نرى في تنبه حسِّ الملاحظة والتفكير لدى الإنسان إلاَّ مصدراً لكل خير فيه.

ليس الإنسان الصحيح مَنْ يمر بالكائنات ومظاهرها كأنه لا يراها.

٤ - **وليس الإنسان الصحيح** في تكوينه هو الذي يمر بهذه الكائنات العظيمة ومظاهرها العجيبة كأنه لا يراها!

وليس الإنسان الصحيح هو الذي إذا ما فجأته أحداثها لم يهتز لها، ولم تجِش نفسه للبحث عن أسرارها، وللتعرف على ما وراءها!

وإنما **الإنسان الصحيح** هو الذي تجيش نفسه أمام هذه الكائنات العظيمة ومظاهرها العجيبة:

إنما الصحيح مَنْ استعظم الكائنات حائراً ثم استقرَّ بالتقديس لِمَنْ وراءها.

- فيستهول الكون، ويستقبله بالحيرة أولاً؛

- ثم يستقبله بالاستقرار والتقديس لِمَنْ وراءه ثانياً، لأن واقع هذا الكون هائل محير، وجامع لجميع معاني القداسة أنَّى نجمت: من لغة اللسان أو لغة الضمير(١).

إذا كان ضعف الإنسان مصدراً للإيمان فليس معدن الإيمان من طبيعة الضعف في الإنسان.

٥ - وعلى هذا فإذا كان **صغر الإنسان** أمام عظمة الكون الهائلة، **وضعفه** أمام مظاهره العجيبة، هو مصدر الوحي بالإيمان بما وراء هذا الكون ومظاهره: من قوة قاهرة حكيمة مسيّرة - **فليس معنى ذلك أن معدن الإيمان هو من طبيعة الضعف في الإنسان!**

لو كان الأمر كذلك لكان الإيمان ملازماً للضعف والهوان، وهذا لا يتفق مع قوة مؤسسي الأديان.

٦ - ولو كان معدن الإيمان هو من **طبيعة الضعف** في الإنسان لما كان أوفر الناس نصيباً في الإيمان إِلاَّ أوفرهم نصيباً في الضعف والهوان!

ولكن أين هذا من جميع بناة الأديان ومؤسسيها المخلصين، الذين كانوا جميعاً أقوياء ومن ذوي البأس والخلق المتين.

بل ما زال الضعفاء في الإيمان من المجرّدين من القوة والسلطان هم

٧ - هذا، ومهما يكن من الصلة ما بين ضعف الإنسان وإيمانه، كما ذهب إليه الكثير من الباحثين(٢)، فإن الإنسان لا يزداد إيماناً كلما ازداد ضعفاً، ولا يضعف على حسب نصيبه من الإيمان؛

---

(١) انظر في هذا المعنى أيضاً كتاب «الله» لمؤلفه الأستاذ عباس محمود العقاد، الصفحة ١٩، الطبعة الثالثة، طبع مصر ١٩٦٠.

(٢) نفس المرجع السابق للأستاذ العقاد، الصفحة ١٨.

ضعفاء النفوس في كل زمان.

بل ما زال **الضعفاء في النفوس** إذا ما جُرِّدوا من كل قوة وسلطان هم الضعفاء في الإيمان، وما زال **ذوو القوة في الخلق** لدى كثرة الناس في هذا المقام هم ذوي القوة في الإيمان[١].

لذلك ليس معدن الإيمان من معدن الضعف في الإنسان.

٨ ـ لذلك لم يكن معدن الإيمان من معدن الضعف في الإنسان،

ولم يكن **الإنسان المعتقد** هو الإنسان الواهي الهزيل،

ولم تكن القيادة الصحيحة للناس في إيمانهم يوماً من أيام هي القيادة في الوهن والهزال[٢]!

«بل كانت أعظم الحوادث التي أنتجت أعظم الآثار في التاريخ هي قيام الديانات»[٣].

العقيدة تعظم في الإنسان على قدر إحساسه بعظمة الكون وما صغر الكون لديه إلأ دليل نقص في شعوره.

٩ ـ «ولهذا كان الأصح والأولى بالتقرير والتحقيق **أن العقيدة تعظم في** الإنسان على قدر إِحساسه **بعظمة الكون**، وعلى قدر إحساسه بعظمة أسراره وخفاياه، لا على قدر إِحساسه بصغر نفسه وهوان شأنه»،

وأن «مبلغ الإحساس بالعظمة هو مبلغ الإحساس بالعقيدة الدينية»،

وأن «**صغر الكون** في نظر الإنسان نقص في الشعور بظاهره وخافيه، ونقص من أجل ذلك في طبيعة الاعتقاد والإيمان»[٤].

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٩.

(٢) كتاب الأستاذ العقاد السابق.

(٣) **سر تطور الأمم**، كوستاف لوبون، ترجمة فتحي زغلول، الصفحة ١٥٥، طبع مصر سنة ١٩٢١.

(٤) نفس المرجع الأسبق للأستاذ العقاد، الصفحة ١٩.

١٠ ـ وعلى هذا تكون العقيدة بما وراء هذا الكون العظيم: من قوة قاهرة عليمة مسيرة لهذا الوجود العظيم الهائل، هي التي تتجاوب مع عظمة هذا الوجود المحيط بالنفس الإنسانية؛

لذلك كانت العقيدة بقوة قاهرة وراء هذا الكون العظيم هي الجواب على عظمته وهي الدليل على صحة تكوين الإنسان في تفكيره لا على نقصه وغفلته عن حقائق الأمور.

كما تكون هذه العقيدة المنبعثة عن وحي عظمة الكون دليلاً على صحة تكوين ذلك الإنسان وكمال التفكير فيه، وليست دليلاً على نقصه وغفلته عن حقائق الأمور(١).

١١ ـ ويقول الأستاذ ستانلي كوك مؤلف كتاب «دراسة الأديان»(٢): «والحق أنه لولا وجود الرغبة في تفسير الأشياء، ولولا شعور الإنسان بناء على خبرته الشخصية الفعلية بأن ثمة قوة خارجة عن دائرة الأحاسيس، لكان الدين ظاهرة مستعصية على الإدراك من أولها إلى آخرها».

لولا شعور الإنسان بالقوة الخارجة عن الحس لكان الدين ظاهرة مستعصية على الإدراك.

١٢ ـ وهكذا دفع الإنسان الفطري الأول دفعاً:

ـ تحت عامل **الانفعال** من مظاهر الكون العجيبة،

ـ وتحت عامل **تنبة حسن الملاحظة والتفكير فيما** وراء هذا الكون ومظاهره،

وأَخذ في اندفاعه يفتش عن **الفاعل القاهر** الذي لا بد منه لهذه الكائنات ومظاهرها.

الإنسان الفطري دُفِعَ للبحث عن الخالق من وراء تنبه حسه في الملاحظة والتفكير.

١٣ ـ ولكنه، وقد فتش عن الفاعل والمسيّر لهذه المظاهر

ولمَّا لم يره اندفع يناديه

---

(١) انظر في هذا المعنى نفس المرجع السابق كتاب «الله» للأستاذ العقاد، الصفحة ١٩.

(٢) **تاريخ العالم**، لمؤلفه السير جون هامرتين Sir J. A. Hammerton، ترجمة عربية لوزارة المعارف العمومية، الجزء ١١، الصفحة ٦٧٤، طبع مصر، مكتبة النهضة المصرية.

يمنة ويسرة فما كان ليراه، اندفع يناديه من أعماق قلبه بكل معاني التقديس والتجريد **معتقداً بأنه لا شك من ورائها**، وأنه خالقها وباعثها، ومسير لها **بخيرها وشرها**.

بكل تقديس وتجريد معتقداً بأنه من وراء مظاهر الكون بخيرها وشرها.

وهكذا أحبه لخيرها، وخافه من شرها، وعبده رغبة ورهبة، مستعطفاً ومستجيراً، وطالباً رحمته، وسائلاً رعايته.

١٤ ـ **وهكذا انبعث** الإيمان من ذات الإنسان، وشعَّ نوره في قلبه بوحي من فطرته وطبيعته؛

وهكذا انبعث الإيمان من فطرته، واعتقد في الخالق أنه قوة غير محدودة ولا ملموسة وحاضرة في كل مكان.

وآمن بأن هناك من وراء هذا الكون **قوة فوق هذا الكون**، هي التي أبدعته وأوجدته، وبسطت عليه سلطانها، وفرضت عليه أحكامها؛ وهي مناط آماله، ومكان رجائه؛

وأن هذه القوة ليست بمادة ليلمسها، ولا بأشخاص ليراها، وأنها غير محدودة بشكل، ولا ملموسة بيد وهي حاضرة في كل مكان.

١٥ ـ ويرى **الباحثون في أصول الأديان** ومبعثها لدى الإنسان الفطري أنه قد تعاون **عدة عوامل** على خلق هذه العقيدة الدينية(١):

للعقيدة عوامل عديدة عند الباحثين في أصول الأديان، منها الخوف والأمل والدهشة.

ـ فمنها **الخوف من الموت**،

ـ ومنها كذلك **الدهشة** لما يسبب الحوادث التي تأتي مصادفة، أو الأحداث التي لم يكن في مقدور الإنسان فهمها،

ـ ومنهما **الأمل** في معونة الآلهة، والشكر على ما يصيب الإنسان من حظ سعيد.

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الأول، الصفحة ١٠٠، طبع القاهرة سنة ١٩٤٩.

١٦ ـ وكان أهم ما تعلّقت به دهشة بني الإنسان الأول، وما استوقف أنظارهم في سر الإنسان العجيب:

أهم ما تعلقت به دهشة الإنسان الجنس والأحلام وأثر السماء في الأرض.

ـ هما الجنس(١) والأحلام،

ـ ثم الأثر الغريب الذي تحدثه أجرام السماء في الأرض والإنسان.

١٧ ـ فقد بهت الإنسان البدائي لهذه الأعاجيب التي يراها في نومه، وفزع فزعاً شديداً حين شهد في رؤاه أشخاص أولئك الذين يعلم عنهم علم اليقين أنهم فارقوا الحياة، وقد دفنهم بيديه ليحول دون عودتهم، ودفن معهم ألوان الطعام وسائر الحاجات حتى لا يعود الميت من جديد فيصبُّ عليه لعنته.

فزع الإنسان البدائي ودهشته من الأحلام.

١٨ ـ وكيفيما كان الأمر فإن هذه العوامل التي تدافعت على شخص الإنسان في مجتمعه الفطري الأول، وأحدثت في نفسه ما أحدثت من قلق وذعر ـ لم تكن كما أشرنا إليه من قبل نتيجة ضعف في شخصه وفي تكوينه، وبالتالي فإنها لم تكن في غير مصلحته.

الذعر في الإنسان تبعاً لتلك العوامل ليس نتيجة ضعف تكوينه.

بل الأمر هو على العكس تماماً: فلو أنه لم يشعر بشيء من ذلك في نفسه تجاه هذه الأحداث ومظاهر الكون العجيبة لكان ذلك هو الدليل على ضعف تكوينه، وجمود حواسه، وعدم استعداده لعمل شيء ما في هذه الحياة في سبيل بقائه.

بل عدم الشعور بالأحداث العجيبة هو الدليل على ضعف التكوين.

---

(١) فهناك بعض القبائل المنعزلة عن العالم حتى اليوم مَنْ لا يعزون حمل النساء إلى الاتصال بين الجنسين، بل إلى شبح يدخل جوف المرأة وهي تستحم، وهم سكان جزائر تروبرياند Trobriand، وكذلك أهل ماليزيا، فإن الفتيات اللائي لم يتزوجن يصررن على أن حملهن قد سببه لون من الطعام أكلنه: ـ نفس المصدر السابق، الصفحة ٥٧ ..

لذلك كان إيمان الإنسان الأول تبعاً لأثر تلك العوامل في نفسه دليلاً على حيويته وحسن ملاحظته.

١٩ ـ لذلك لا نعتبر ما انتهى إليه الإنسان الأول من ايمان إثر هذه العوامل التي تفاعلت في نفسه، واندفع من ورائها يطلب البقاء بأي ثمن كان حتى اهتدى إلى الإيمان بالله، إلا **دليل الحيوية، والنشاط، والحس والملاحظة،** والتساؤل لفهم ما لم يُفْهَم: مما هو ضروري لا بد منه للتطور والإبداع، والقدرة على البقاء.

تتبعات التاريخ دلّت على أن مَنْ لم يكن لهم ديانة كانوا أقزاماً وظلّوا عاجزين عن المساهمة في الحضارة.

٢٠ ـ ولقد دلّت التتبعات لتواريخ حياة الشعوب أن الذين لم يكن لهم ديانة قط فيما يبدو **إنما هم قبائل الأقزام** في بعض القارات، وخاصة أَقزام أفريقيا(١)، وهؤلاء عجزوا وحدهم في تاريخهم القديم والحديث عن المساهمة في **الحضارة الإنسانية.**

أقزام أفريقيا لا عقيدة لهم.

٢١ ـ **فأقزام أفريقيا**(٢) لم يكن لهم عقيدة أو شعائر دينية يقيمونها، ولم يكن لهم طوطم(٣) Totam، ولا أصنام، ولا

---

(١) **قصة الحضارة** الموصوفة سابقاً، الجزء الأول، الصفحة ٩٨.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) إن الطوطم Totam من مصطلحات علماء البحث في تطور الأديان وفلسفتها، وقد أطلقوا عدة اصطلاحات على عدة أنواع من العبادات:
منها: **الفيتيشية** Fétichism للدلالة على عبادة الأشياء المادية الجامدة التي لا حياة فيها لاعتقاد أصحابها بوجود قوة سحرية فيها؛
ومنها **الطوطمية** Totemism للدلالة على تقديس حيوان لدى جماعة يعتقدون بصلة لهم به، ولذلك لا يجوز صيده ولا ذبحه ولا قتله ولا أكله ولا إلحاق أذى به؛ وقد تشمل الطوطمية النباتات فتقدس كذلك من قبل جماعتها، وقد يتوسع في الطوطمية فيدخل فيها بعض مظاهر الطبيعة مثل القمر والشمس.
ومنها عبادة الأسلاف Ancestor Worship للدلالة على تقديس الأبطال والرؤساء أملاً في استمرار دفاعهم عنهم، وحمايتهم للجماعة التي تنتمي إليهم كما كانوا يفعلون في حياتهم؛ =

آلهة، وكانوا يدفنون موتاهم بغير احتفال، وإذا ما فرغوا من دفنهم لم يبد عليهم ما يدل على أنهم يهتمون لأمرهم بعد ذلك إطلاقاً.

اعتراف أقزام الكامرون بآلهة الشر دون محاولة استرضائها دليل فقدان الحيلة لدفع الأذى عندهم.

٢٢ ـ بيد أن **أقزام «الكامرون»** قد اعترفوا بآلهة الشر وحدها، ولم يحاولوا قط إرضاء هذه الآلهة، على أساس أن المحاولة في هذه السبيل عبث لا يجدي؛ وذلك دليل العجز، وفقدان الحيلة في العمل لدفع ما يؤذيهم، كما هو دليل الانحطاط في الإنسانية إلى أسفل درك في الحيوانية التي من شأنها الاستسلام للواقع ولو كان فيه الموت.

قبيلة فيدا في سيلان واعتقادهم باحتمال وجود الإله مع عدم الاكتراث.

٢٣ ـ وكذلك قبيلة «فيدا» في سيلان، فقد اعترفت باحتمال وجود الآلهة وخلود الروح، لكنهم لم يجاوزوا ذلك الحد إلى تأدية الصلاة أو تقديم القرابين؛

وسأل أحدهم سائل عن الله فأجاب في حيرة فيلسوف حديث: «أيكون على صخرة، أم على تل من تلال النمل الأبيض، أم على شجرة؟ إني لم أر قط إلٰهاً».

أقزام أمريكا تصوَّروا إلٰهاً لكنهم اعتقدوا بأنه أبعد من أن يُعْنَى بهم.

٢٤ ـ وكذلك الشأن **في أقزام أمريكا** وهنودها الشماليين، فهم وإن تصوروا إلٰهاً، لكنهم لم يعبدوه، وظنوا أنه أبعد من أن يعنى بأمورهم؛

= **ومنها عبادة الأرواح** Animism للدلالة على الاعتقاد بوجود أرواح مؤثرة في الطبيعة كلها، ويؤله أصحابها كثيراً من مظاهر الطبيعة المرئية وغير المرئية؛

ومنها الشمانية Shamanism للدلالة على ديانة تعتقد بتعدد الآلهة وبوجود إلٰه أعلى فوق الجميع، وبتأثير السحر. الجزء الخامس من **تاريخ العرب** لجواد علي، الصفحات ٣٠ حتى ٣٧ طبع بغداد سنة ١٩٥٦ ..

وقال هندي منهم من قبيلة «ايبون»: إن آباءنا وأجدادنا كانت تعنيهم هذه الأرض وحدها، لا يرجون شيئاً سوى أن ينبت لهم السهل كلأً ويفجر لهم ماءً لتطعم جيادهم وتشرب، إنهم لم يشغلوا أنفسهم أبداً بما كان يجري في السماء، وبمَنْ ذا عسى أن يكون خالق النجوم وحاكمها!!

جهل الأسكيمو والزولو بخالق الكائنات وظنهم بأنها حادثة من نفسها.

٢٥ ـ وكلما سئل «الاسكيمو»: مَنْ ذا صنع السماوات والأرض؟ كانوا يجيبون بقولهم «لسنا ندري»؛

وسئل رجل من «الزولو» إذا رأيت الشمس تشرق وتغيب، وإذا رأيت الشجر ينمو، فهل تعرف مَنْ خالقها ومَنْ حاكمها؟... أجاب في بساطة بقوله: كلا! فنحن نراها، لكننا لا نستطيع أن نعلم أنّى جاءت؟ ويظهر أنها جاءت من تلقاء نفسها!!

الإيمان بالخالق نتيجة فكر وملاحظة وعدمه نتيجة جمود في الحس وفقدان الملاحظة.

٢٦ ـ وهكذا نرى:

ـ **إن الإيمان** بالخالق كان نتيجة **حركة فكرية**: من يقظة وملاحظة وحركة وسؤال؛

ـ **وإن عدم الاكتراث** بمَنْ وراء مظاهر الطبيعة كان نتيجة **جمود في الحس والعقل** والحركة مع فقدان الملاحظة الحيوية؛

لذلك فالحضارات من إنتاج الأولين أما الآخرون فأقزام وأموات.

ولذلك كانت الحضارات من إنتاج **الأولين أصحاب الحيوية** والملاحظة والتفكير والاستنتاج، أصابوا أم أخطأوا في استنتاجهم؛

أما الآخرون الجامدون في حسهم فقد ظلوا كالأموات: أقزاماً لا يفهمون.

حالات الأقزام غير

٢٧ ـ ويقول ول ديورانت في هؤلاء الأقزام غير

المؤمنين: «إِن هذه حالات نادرة الوقوع؛ ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعمُّ البشر جميعاً ـ اعتقاداً سليماً، وهذه في رأي الفيلسوف حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية... من حيث ظهورها، ودوام وجودها؛ فما أساس هذه التقوى التي لا يمحوها شيء من صدر الإنسان[1]؟».

المؤمنين نادرة، والدين ظاهرة تعمُّ البشر جميعاً.

٢٨ ـ وكذلك يقول الدتور ستانلي كوك مؤلف كتاب «دراسة الأديان»: «كان للدين في نفوس القدماء منزلة لا تدانيها منزلة، كما هو شأنه اليوم بالنسبة لكافة المُحْدَثين الذين هم أقرب إلى الفطرة...؛ وكان دينهم عملياً إلى حد بعيد، وكان دينهم هو حياتهم بمعنى ما؛ وقد انطبع هذا الدين في أسلوبهم في الحياة، وفي وسائلهم في كسب القوت، وفي طبيعة أرضهم ومناخهم؛ وكان يعبر عن مزاجهم، ويوجه تفكيرهم[2]... وكان الدين في الأزمنة القديمة عاملاً جوهرياً في كافة الأحداث التي لازمت الانحطاط أو النهوض الاقتصادي[3]».

للدين في نفوس القدماء منزلة فريدة وهو عامل في كافة الأحداث.

٢٩ ـ وقد تقدم معنا ما أثبت أن الإيمان في أساسه ظاهرة فطرية اجتماعية شاملة؛

رفض الإيمان كظاهرة فطرية لا يستقيم معه تفسير للقول بأن الإيمان ظاهرة اجتماعية شاملة.

فإذا رفضنا هذا **الدافع الفطري** إلى الإيمان بخالق هذا الكون ومبدعه فلن يستقيم معنا قط تفسير لهذه الظاهرة الاجتماعية **الشاملة لحياة الإنسان** وأصوله مما أجمع عليه المؤرخون، تلك الظاهرة التي قامت في التاريخ القديم لدى جميع الشعوب.

---

(١) **قصة الحضارة** الموصوفة سابقاً، الجزء الأول، الصفحة ٩٩.

(٢) **تاريخ العالم**، السير هامرتن Sir J.A.Hammerton ترجمة عربية لوزارة المعارف العمومية في مصر العدد ١١، الصفحة ٦٦٩.

(٣) المرجع قبله، الصفحة ٦٨٥.

رغم اختلافها ـ على الإيمان بخالق لهذا الكون، وهادم له إذا ما يشاء.

وكذلك لا يستقيم مع ذلك الرفض فهم لوجود الآلهة لدى الشعوب القديمة.

٣٠ ـ وكذلك إذا رفضنا هذا **الدافع الفطري** إلى الإيمان بخالق هذا الكون فلن يستقيم معنا أيضاً فهم لوجود الآلهة لدى جميع الشعوب القديمة التي كشفت عنها الآثار، وقد جَسَّمها أصحابها بعد أن كانت قوى مجردة؛

هذا وإن حالة التجسيم والتعدد أثر لا شك فيه من آثار الاضطرابات النفسية[١] بعد عهد الفطرة الأولى.

هذا يؤيد أن الدين حقيقة تاريخية بقدمها ودوام وجودها.

٣١ ـ وبذلك نؤيد مرة أخرى ول ديورانت حيث قال: «ولا يزال الاعتقاد القديم بأن الدين ظاهرة تعمُّ البشر جميعاً اعتقاداً سليماً؛ وهذه في رأي الفيلسوف حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية: من حيث قدم ظهورها ودوام وجودها[٢]».

الإيمان بخالق الكون لدى الهنود القدماء.

٣٢ ـ وهكذا نقل المؤرخون بالإجماع أن عقائد الهنود القدماء إنما كانت قائمة على القول بوجود إله واحد أبدي غير محدود، هو أصل العالم وروحه وهو «**براهم**» أو «**الروح الأعظم**»، خالق هذا الكون وهادمه[٣].

إيمان الرومان بمثل ذلك

٣٣ ـ وكذلك قال المؤرخون فيما يتعلق بعقائد الرومان القدماء[٤]:

---

(١) انظر الفقرة ١٤ من المبحث الأسبق: ١. الفطرة الإنسانية والمجتمع الفطري الأول.

(٢) **قصة الحضارة**، الجزء الأول، ترجمة عربية، الصفحة ٩٩، طبع القاهرة سنة ١٩٤٩.

(٣) الصفحة ٧٤ من هذا الكتاب، الفقرة ١١.

(٤) كتابنا: **الوجيز في الحقوق الرومانية**، الجزء الأول الصفحة ١٧٧ في عقائد الرومان، الطبعة الرابعة، طبع جامعة دمشق سنة ١٩٦١.

- إن الرومانيين كانوا يمارسون ديناً له شبه بأديان اليونان والهنود القدماء[١].

في قوى حاضرة في كل مكان.

- وإنهم كانوا يقيمون عقائدهم الدينية على فكرة أساسية هي الإيمان بأرواح غير مسماة، وبقوى ليست بمادة ولا بأشخاص: «نومينا Numina» أي أنها غير محدودة بشكل ولا ملموسة بيد، وهي حاضرة في كل مكان[٢].

إيمان الصينيين بأرواح كامنة في جميع نواحي الطبيعة.

٣٤ - وكذلك كان الإيمان لدى سكان الصين البدائيين: «فلم يكن الدين لديهم يختلف بوجه عام عن دين عبدة الطبيعة، وكانت أهم عناصره:

- الخوف من الطبيعة،

- وعبادة الأرواح **الكامنة في جميع** نواحيها[٣] (نواحي الطبيعة)».

إيمان المصريين القدماء بقوى الطبيعة التي جسَّموها بعد ذلك.

٣٥ - وكذلك كان الشأن لدى المصريين القدماء: «فمما اتفق عليه أن الآلهة لدى المصريين هي في أصلها من القوى الطبيعية المهمة التي كانت ذات أثر مهم في حياة سكان وادي النيل الأقدمين: حيث جَسَّموا وشَخَّصوا هذه القوى بعدئذ وعبدوها على هيئة آلهة»[٤].

---

(١) كتاب Précis de Droit Romain، لمؤلفه جيفار A.E Giffard طبع مكتبة داللوز، باريس سنة ١٩٣٣، الصفحة ٢١.

(٢) كتاب Manuel Élémentaire de Droit Romain لمؤلفه مونييه R.Monier، الجزء الأول، الصفحة ٣٧، طبع باريس سنة ١٩٤٧.

(٣) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الترجمة العربية، الجزء الرابع، الصفحة ٢٥٦ طبع مصر سنة ١٩٥٠.

(٤) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الثاني، الصفحة ٨٨، طبع بغداد سنة ١٩٥٦.

إيمان سكان العراق القدماء أيضاً بقوى الطبيعة التي جسَّموها بعد ذلك مثل المصريين.

٣٦ ـ وكذلك كان الأمر أيضاً لدى سكان وادي الرافدين في العراق: «فإن تصورات القوم عن آلهتهم تعكس لنا الكثير عن أحوال العراق الاجتماعية منذ أقدم العهود، حيث أنهم شخَّصوا آلهتهم التي كانت في الأصل **قوى طبيعية**»[1].

آدم وحواء ليسا دون أحفادهم في جنتهم البديعة في شعورهم الفطري بالخالق والإيمان به.

٣٧ ـ بل إذا صعدنا في تتبع أصول البشرية حتى نصل إلى آدم وحواء الأبوين الأولين في جنتهما وعزلتهما، فإن وجودهما في ذلك العالم البديع الذي لا يعرفان من أمره بل ولا من أمرهما شيئاً، أعزلين مجردين من كل خبرة ومعرفة، لم يكونا بلا ريب دون أحفادهم وأنسالهم فيما بعد ذلك بعصور **في هذا الشعور الفطري** في التوجه نحو الخالق والإيمان به.

آدم وحواء في جنة يعلمان أنها ليست من صنعهما: وكل شيء كان طوع إرادتهما، فهل خلق كل ذلك من غير خالق أم هما الخالقان.

٣٨ ـ لقد وجدا نفسيهما في جنتهما وهما يعلمان أنها ليست من صنعهما،

ووجدا كل شيء في جنتهما مسيَّراً لهما، وطوع إرادتهما فعاشا زمناً في نعيم دائم لا حد له، وهناء لا مثيل له:

ـ فمَنْ الذي أوجدهما؟

ـ ومَنْ الذي أوجد جنتهما؟

ـ ومَنْ الذي وضع في هذه الجنة البديعة كل شيء لسعادتهما؟؟

ـ هل هما اللذان أوجدا نفسيهما؟... كلا

ـ وهل هما اللذان أوجدا جنتيهما؟... كلا، وهما يعرفان مدى سلطانهما، ومنتهى قدرتهما!

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارة**، الموصوف سابقاً، الجزء الأول الصفحة ٢٢٤ طبع بغداد سنة ١٩٥٥.

ـ أَوَخُلقوا جميعاً من غير خالق؟؟؟ . . .

﴿أم خُلِقوا من غير شيء؟ أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض؟؟﴾[1].

٣٩ ـ بل ذهبت الأديان جميعاً، وتبعهم المؤرخون المؤمنون، بأن الله تجلَّى لهما في جنتهما، وتلقيا منه أوامر قاسرة ونواهي زاجرة، فعصيا مرة واحدة، فَجُرِّدَا من سعادتهما، وأُخرِجا من جنتهما، وأُلقي عليهما وعلى أنسالهم أعباء الحياة وشقاؤها، وكُلِّفوا بالاستقامة في حياتهم، وبالامتثال لأوامر خالقهم، وأن لا يجرّبوا معصية ثانية فيلقوا جزاء ثانية: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً، فإما يأتينكم مني هدى، فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون﴾[2].

بل ذهبت الأديان جميعاً بأن الله تجلى لهما في جنتهما وأنهما تلقيا منه أوامره ونواهيه، وأنهما عصيا وعوقبا منه.

٤٠ ـ **وهكذا حمل** آدم وحواء المسؤولية أولاً عن نفسيهما، **وكُلِّفا بحمل** المسؤولية ثانياً في القيادة والحكم في أنسالهما؛

وكان العقاب الذي لقياه بسبب خروجهما على الأوامر الإلٰهية عظة لهما، ومثالاً يحتذيانه في قيادة الأولاد والأحفاد والأجيال.

عقابهما من الله على العصيان كان مثلاً لهما يحتذيانه في قيادة الأولاد والأحفاد.

٤١ ـ ومن هنا اشتركت معظم الشرائع القديمة[3]:

لذلك أجمعت الشرائع

---

(١) القرآن الكريم، سورة الطور، الآيتان: ٣٥، ٣٦.

(٢) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآيتان: ٣٨، ٣٠.

(٣) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الأول الصفحة ٢٨١، الطبعة الثانية، بغداد سنة ١٩٥٥.

القديمة على أنها مستمدة من الآلهة.

ـ بالاعتقاد بأنها مستمدة من الآلهة،

ـ وبالاعتقاد بأن الحاكم يمثل الإله في هذه الأرض.

بل تصور سكان العراق القدماء الكون على هيئة دولة تحكم فيها الآلهة، وتتدرَّج فيها الطاعة من الفرد حتى الآلهة.

٤٢ ـ بل تصوَّر سكان العراق الأقدمون الكون على **هيئة دولة** أو مملكة تحكم فيها الآلهة وتدير شؤونها، وتتدرَّج السلطة فيما بينها، وتتوزَّع الأعمال، ويتجلَّى في المملكة **مبدأ الطاعة**، وإلاَّ لما أمكن وجود المجتمع والدولة؛

ولذلك صارت **إطاعة أنظمة المجتمع** وأحكامه على رأس الفضائل المتطلبة من الفرد؛

وتتدرَّج الطاعة وتتنوع من إطاعة الفرد إلى رأس أسرته، ثم من هذا إلى إطاعته لرأس المجتمع، ثم من هذا إلى إطاعة الآلهة[1].

مما سبق نجزم بأن فهم تطور الإنسان متوقف على فهم الصفة الدينية لمجتمعه.

٤٣ ـ وإن ما تقدَّم من أثر الفطرة في تكوين **الإيمان بالخالق** يحملنا على الجزم الآن: بأنه ليس من الممكن فهم تطور الإنسان، في مختلف الأمكنة والأزمان، بل ليس من الممكن فهم نشأة حضاراته القديمة ما لم تُفهَم هذه الحقيقة في نشأته، وهذه **الصفة الدينية لمجتمعه**.

الدين عند الباحثين حاجة للبشر لا غنى لهم عنها.

٤٤ ـ ويقول الأستاذ ستانلي كوك مؤلف كتاب «دراسة الأديان»: «كان الدين عند الأقدمين أهم شأناً مما هو عادة عند شعوب العالم الحديث؛ وكان يشمل كل ما يحسون أنه أحق الأشياء وألزمها لهم، وكان جزءاً أساسياً من نظامهم الاجتماعي والسياسي لا ينفصل عنه بحال من الأحوال. . . ومن ثم لا يمكننا أن نعد الدين مجرد شيء ابتكره الكهنة أو

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٣٩.

الحكام أو فرضوه؛ بل لا بدَّ للدين أن يسدَّ إلى حدٍّ ما حاجات البشر التي لا غنى لهم عنها»[1].

لذلك يرى المؤرخون أن فهم تاريخ الشعوب وحضاراتهم متوقف على فهم عقائدهم.

٤٥ ـ ولذلك قال المؤرخون لتاريخ العراق القديم ولتاريخ حضاراته: إِنه يتعذَّر فهمهما ما لم يُمهَد لدرسهما بفهم ديانة القوم وعقائدهم[2]؛

وما قيل في شعوب العراق يمكن أن يُقَال في سائر شعوب العالم القديم ممَّنْ ساهم في تاريخ الحضارة.

يقول علماء الاجتماع إِن الشعائر الدينية قديماً هي التي كوَّنت الرابطة في جميع المجتمعات.

٤٦ ـ ويقول بوكليه C. Bouglé ورافول J. Raffault في كتابهما[3] «عناصر علم الاجتماع Eléments de Sociologie» نقلاً عن فوستل دو كولانج Fustel de coulanges:

«لا يجوز أن يغيب عن النظر أن **الشعائر الدينية** في العهود القديمة كانت هي التي تكوّن الرابطة في كل المجتمعات:

ـ **فمحراب الأسرة** autel domestique هو الذي كان يجمع حوله أعضاء الأسرة الواحدة،

ـ **وكذلك المدينة** la cité هي التي كانت تجمع مَنْ كانوا يعبدون آلهة واحدة تحميهم، ويؤدون واجباتهم الدينية في معبد واحد».

ويقولون إِن الدين يحتوي

٤٧ ـ ثم ينقل المؤلفان السابقان أيضاً عن دوركهايم[4]

---

(١) **تاريخ العالم**، هامرتن Sir Hammerton، ترجمة عربية لوزارة المعارف العمومية المصرية، العدد ١١ الصفحة ٦٦٩.

(٢) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الأول الصفحة ٢٢٥ الطبعة الثانية، بغداد سنة ١٩٥٥.

(٣) الصفحة ٤٤٦، الطبعة الثالثة، مكتبة فيليكس آلكان Felix Alcan، طبع باريس ١٩٣٨.

(٤) من كتابهما السابق: **عناصر علم الاجتماع**، الصفحة ٤٥٩.

على جميع العناصر التي أوجدت مختلف مظاهر الحياة الجماعية.

Durkheim: «إن الدين يحتوي في نفسه على كل العناصر التي أوجدت مختلف مظاهر الحياة الجماعية:

- فمن قصص الأديان والقديسين استُخْرِج العلم والشعر،

- ومن التزيينات الدينية ومراسم العبادة جاءت الفنون التصويرية والتشكيلية،

- ومن ممارسة الطقوس الدينية ولدت الحقوق والأخلاق».

ويقولون لا يمكن فهم تصوراتنا الفلسفية اليوم دون معرفة العقائد التي كانت هي الصورة الأولى.

٤٨ - ثم يتابع المؤلفان السابقان نقلهما فيقولان:

«ولا يمكن فهم تصوراتنا الفلسفية حول الروح، وحول الأخلاق، وحول الحياة، إذا لم نعرف العقائد الدينية التي كانت هي الصورة الأولى لهذه التصورات؛

وإن صلة القرابة ابتدأت بأنْ كانت في أساسها رابطة دينية،

وإن العقوبة والعقود والاحترام ما هي إلا تطوير لما كان يُقدَّم من ذبائح تكفيراً عن الذنوب، أو وفاء بالنذور، أو إجلالاً وتعظيماً».

الحضارة ترجع في مصادرها إلى أصول الدين.

٤٩ - وهكذا نجد في أصول العقيدة والدين جميع مصادر الحضارة.

ويقول لوبون: أكبر

٥٠ - وأخيراً يقول كوستاف لوبون في كتابه - سر تطور الأمم - في هذا المقام[1]: «كانت المبادىء الدينية على الدوام أهم عنصر في حياة الأمم، وهي لذلك أهم عنصر في تاريخها»؛

«وإن أكبر الحوادث التي أنتجت أعظم الآثار هي قيام

---

(١) ترجمة فتحي زغلول، الصفحة ١٥٥، طبع مصر، سنة ١٩٢١.

الديانات وسقوطها؛ وإِن جميع النظم السياسية، والتدبيرات الاجتماعية قامت منذ بداية التاريخ على معتقدات دينية؛

الحوادث وأعظم الآثار هي من إنتاج الديانات.

«وإِن الدين أسرع مؤثر في الأخلاق، لا يدانيه مؤثر إلاَّ الحب؛ والحب دين شخصي غير دائم».

لا يُقْدَح بالدين أنه لم يبق له نفس الأثر اليوم.

٥١ ـ هذا وإِذا كان علماء الاجتماع قد أثبتوا للدين ذلك الأثر العظيم في حياة الشعوب القديمة، مهما كانت حقيقة ذلك الدين، فلا يقدح به أَن الدين لم يبق له نفس الأثر في مجتمعاتنا الحديثة[1]، إِذ من المشاهد اليوم أن مَنْ لا يدينون بدين من العالم المتحضر ليسوا أقل شأناً من غيرهم في تطوير حضارتنا الحديثة إذا ما استعملوا عقلهم وذكاءهم.

الدين لدى الإنسان الأول كان خير منظم وجامع بسبب نقص الخبرة والعلم.

٥٢ ـ وذلك لأن الإنسان الأول فيما قبل الأزمنة التاريخية، وكذلك شأن معظم الجماعات الابتدائية في الأزمنة التاريخية، لنقص في خبرتهم وفي علمهم، كان الدين مهما اختلفت أسسه خير جامع لهم، وخير منظم لأوضاعهم؛ وقد ظهر فيهم خيرة رجال البشرية من أنبياء وهداة ومصلحين وقديسين ليحملوا أمام البشرية مشعل النور والهداية في الظلمات.

خَلَفَ القادة الملهمين مَنْ خلط عملاً صالحاً بغير

٥٣ ـ غير أنه قد خَلَفَ بعد أولئك العظام من قادة الأديان في البشرية خَلْفٌ لم يكن للكثيرين منهم ما كان لأولئك المؤسسين الملهمين، فخلطوا عملاً غير صالح بعمل صالح، وكان لا بدَّ للعقل البشري المتطور من أن يميز ما بين الصالح فيقبله، وبين الفاسد فيطرحه، فقامت معركة ما

(١) كتاب **عناصر علم الاجتماع**، الموصوف سابقاً، الصفحة ٤٥٩.

بين العقل وبين أدعياء الدين، ولم يجد الأدعياء فيها مخرجاً غير محاربة العقل والدعوة إلى تجميده تحت ستار من أوامر الدين أيضاً، وبذلك قضوا على ما كان للدين من صدارة القيادة والهداية، وتنافر الدين مع العلم والعقل لدى الكثيرين الذين حلَّت لديهم قوة الفطنة والذكاء في الهداية مكان ما لم يُعْقَل من أوامر الدين في القيادة.

صالح وجمَّد الدين ونافر بينه وبين العقل.

٥٤ ـ ولكن تكامل العقل البشري في مراحله الأخيرة كان لا بدَّ له من تنقية ما علق بالدين مما ليس منه، فكانت صيحة الإسلام أولاً صيحة تنبه إلى ما يجب أن يكون عليه الدين في كل وقت وزمان، من تقديس للعقل، وتكريم للعلم: فصاح صيحة علوية: ﴿قل هذه سبيلي، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾، وقال: ﴿كذلك يفصل الآيات لقوم **يعقلون**﴾، كما قال: ﴿نفصل الآيات لقوم **يعلمون**﴾، إلى أن قال: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ **إنما يتذكر أولو الألباب**﴾.

صيحة الإسلام العلوية لبيان ما يجب أن يكون عليه الدين من عقل وعلم.

٥٥ ـ وإن غفلة بعض علماء الاجتماع عن هذه الحقيقة من انفصال العقل عن دين الفطرة أخيراً، جعلتهم يذهبون في هذا المقام بعد تعظيم الدين وما كان له من أثر لا شك فيه في حضارة الإنسان، ويقولون(١): «إن الدين في الحقيقة هو حادث ابتدائي في تطوير البشر، وينبغي له أن يترك مكانه شيئاً فشيئاً إلى أشكال اجتماعية جديدة قد ولَّدها الدين نفسه... تلك الأشكال الجديدة التي لا يمكن فهمها إلا بعد ردِّها إلى أصولها الدينية»؛

غفلة بعض علماء الاجتماع عن انفصال العقل عن دين الفطرة أخيراً جعلتهم يصفون الدين بأنه حادث ابتدائي ليتخلَّى عن مكانه.

---

(١) نفس الكتاب السابق **«عناصر علم الاجتماع»** الصفحة ٤٥٩ـ٤٦٠.

مثل ذلك: «الحس» لدى الإنسان الأول وأنه حادث ابتدائي وتخلى اليوم إلى العقل.

ويقولون إن مثل الدين في ذلك مثل الفرد من الإنسان الذي كان مصدر قواه العقلية السامية في حياته الابتدائية هو «**الحس** la sensation»، فقد تخلى «الحس» في هذه الأيام شيئاً فشيئاً عن مكانه كوسيلة ابتدائية مادية لدى الإنسان إلى **سلطان** «**العقل** intelligence» وقواه المجردة، وأن أهمية «الحس» اليوم لتقل بنسبة ما يحرزه «العقل» من تقدم[١].

---

(١) ملخصاً عن نفس المرجع السابق.

ج ـ الفطرة والعيش في جماعة مشتركة

عيش الإنسان الأول في أسرات متفرقة بعيد الاحتمال.

١ ـ **إنه لبعيد الاحتمال** أن يكون الإنسان الأول قد عاش في أسرات متفرقة، حتى في مرحلة الصيد، لأن ضعف الإنسان في أعضائه الجسمية Physiologique التي يدافع بها عن نفسه، كان كافياً ليجعل منه فريسة للكواسر الضارية التي لم تزل تجوس في مناكب الأرض(١).

الكائن العضوي الضعيف محمول بطبيعته على الالتجاء لأفراد نوعه.

٢ ـ والعادة في الطبيعة أنه إذا ما كان الكائن العضوي ضعيف الإعداد للدفاع عن نفسه وهو فرد، لجأ إلى الاعتصام بإفراد من نوعه، لتعيش الأفراد جماعة تستعين بالتعاون على البقاء في عالم تمتلىء جنباته بالأنياب والمخالب.

يرى الباحثون أن تلك هي حالة الإنسان الأول الذي

٣ ـ وأغلب الظن فيما يراه بعض الباحثين أن تلك الحالة هي حالة الإنسان في أول أمره(٢)، وأنه أنقذ نفسه بالتماسك:

- **في جماعة الصيد** أولاً،
- **ثم في القبيلة** ثانياً،

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الأول الصفحة ٥٥، طبع القاهرة سنة ١٩٤٩.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحات ٥٥ـ٥٦.

ـ **ثم في الدولة ثالثاً**، بعد أن حلَّت **العلاقات الاقتصادية والسيادة السياسية محل القربى** في التنظيم الاجتماعي، ففقدت **القبيلة** نهائياً مكانها في قوام المجتمع، وحلت **الدولة** محلها في قمته، بعد أن أخذت **الأُسرة** مكاناً لها في أسفل البناء عوضاً عن القبيلة التي اختفى أثرها في نظام الدولة؛

أنقذ نفسه بالتماسك في جماعاته المختلفة من جماعة الصيد إلى القبيلة ثم إلى الدولة.

وفي هذه الحالة الأخيرة تولَّت الحكومة عندئذ مشكلة **استتباب النظام**، بينما أخذت الأسرة على نفسها أن تعمل على **بقاء النسل**[1].

٤ ـ ويُلاحَظ في هذا العرض الذي يقدمه بعض الباحثين أن **الجماعات المشتركة** التي عاش فيها الإنسان ضمن أنظمة اجتماعية بديئة هي في الترتيب التالي:

يُلاحَظ مما تقدم أن الجماعات التي عاش فيها الإنسان هي في ترتيب ظهورها: جماعات الصيد فالقبيلة فالدولة.

ـ **جماعة الصيد أولاً**، من مختلف الأسر، وقد جمعتهم الحاجة لا القرابة لاقتناص طعامهم وإعداد غذائهم؛

ـ **ثم القبيلة ثانياً**، وهي الخلية الاجتماعية الثانية التي تكونت أيضاً من أفراد ضمتهم المصادفة أو الضرورة للتعاون في اتقاء الأخطار دون أن تشملهم صلة عامة، أو تربطهم قرابة؛

ـ **وأخيراً وثالثاً الدولة**.

٥ ـ **أما الأسرة** وهي النواة الأولى فلم يرد لها ذكر في هذا العرض لدى هؤلاء الباحثين **إلّا بعد أن ظهرت الدولة** واختفت القبيلة لمصلحة الدولة، **وحينئذ ظهرت الأُسرة** لترعى بقاء النسل وما يتصل به من أسباب الحياة الخاصة والبقاء، بينما تقوم الدولة في حماية الأمن واستتباب النظام.

الأسرة لدى هؤلاء الباحثين لم تظهر إِلاَّ بعد ظهور الدولة.

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٥٦.

الأسرة البدائية لدى هؤلاء الباحثين كانت نظيرها عند الحيوان: أم وأبناؤها، وإباحة المرأة لجميع الرجال، وفقدان الزواج الذي هو من ابتكار الحيوان.

٦ ـ ويرى هؤلاء في **الأسرة البدائية** لدى الإنسان[١]:

ـ أنها كانت على نظيرها عند الحيوان؛

ـ وأن أبسط صور الأسرة هي الأم وأبناؤها؛

ـ وأن هذه الصورة للأسرة ونظامها هو نتيجة طبيعية للأسرة عند الحيوان الذي تتكوَّن الأسرة عنده من الأم وصغارها، تبعاً **للحالة الإباحية** لدى الجماعات البشرية في أوائل عهدها، **وفقدان الزواج** الفردي السائد في العصور الحديثة[٢]؛

ـ وأن الزواج الفردي جاء بعد عصور كثيرة ساد فيها لدى الإنسانية زواج الجماعة أو فوضى الصلات الجنسية بعبارة أصح، وأن الزواج الفردي «كان من ابتكار أجدادنا من الحيوان[٣].

ـ وأنه لهذا السبب لم يكن من علاقة بين الوالد والأبناء، أو بعبارة أصح بين المستولد والأبناء في المجتمع البدائي: إذ كان الجنسان يعيشان منفصلين في عدد كبير من القبائل»[٤]!.

الراجح من الباحثين ينبذ هذه الفكرة التي تجعل

٧ ـ **غير أن فريقاً راجحاً** من الباحثين في تاريخ الأجناس البشرية، وفي طبائع الإنسان، ينبذ هذه الفكرة التي تضع النوع الإنساني في أول عهوده في مرتبة الطبقات الدنيا من النوع الحيواني، بل أحطُّ منه مرتبة ووحشية في بدء الحياة

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، الصفحات ٥٨، ٥٩.

(٢) **أبحاث التاريخ العام للقانون**، علي بدوي، الجزء الأول، الصفحة ١٤.

(٣) **قصة الحضارة**، السابق، الجزء الأول، الصفحة ٦٦.

(٤) **قصة الحضارة**، السابق، الصفحة ٥٨.

الإنسانية[1]: إذ إن بعض الطيور والحيوانات **تعيش في أسر**، وتتوالد في **رباط بين الزوجين** لا يعرف الطلاق[2].

الإنسان دون الحيوان.

٨ ـ **ويرى هذا الفريق** الأخير أن الوحدة الاجتماعية الأولى انحصرت على وجه عام في جماعة أضيق دائرة من جماعة الرأي الأول، وأمتن اتصالاً، **وهي الأسرة**: تربطها صلة الدم وعاطفة القرابة، وتضم أفرادها فكرة الخضوع والطاعة لأب أو جدٍّ واحد هو صاحب الكلمة فيهم، والمتصرف في شؤونهم: سواء أكانت هذه الصلة الأسروية حقيقية بالتناسل، أم اعتبارية بتبني الغريب، واقتناء الرقيق، وحماية النزيل[3].

ويرى هذا الفريق الراجح أن الأسرة هي أول وحدة اجتماعية تجمعها فكرة الخضوع لأب واحد.

٩ ـ **وبهذا الرأي قال** منذ القديم سيسيرون Cicéron، إذ إنه اعتبر نواة المجتمع الفطري: إنما هو الأب والأم وأنسالهم[4].

سيسيرون يرى ذلك الرأي وتؤيده بقايا الإنسان في أصول العصر الحجري القديم.

ويؤيد هذا الرأي أيضاً أن ما وجد من بقايا الإنسان في الطبقات الأرضية السفلى من العصر الحجري القديم إنما كان بقايا إنسانية في مجموعات مؤلفة من شخصين أو ثلاثة بصورة عامة، مما لا يدل على حياة تكتلات إنسانية كبيرة كما قد كشفت عنها ـ خلافاً لتلك ـ طبقات الأرض الأقرب

---

(١) **أبحاث التاريخ العام للقانون**، علي بدوي، الجزء الأول، طبع مصر سنة ١٩٤٧، الصفحة ١٤.

(٢) **قصة الحضارة**، السابق، الصفحة ٦٦.

(٣) نفس المرجع الأسبق، علي بدوي، الصفحة ١٥ ـ ١٦.

(٤) كتاب **مراحل الحق** Les Etapes du droit، لمؤلفه Henri Decugis، الجزء الأول، الصفحة ٤٢، طبع باريس ١٩٤٢.

عهداً[1] عندما نشأت الطائفة والقبيلة بعد الأسرة.

في كلا الاحتمالين الدوافع الفطرية حملت الإنسان على العيش في جماعة مشتركة.

١٠ ـ وكيفهما كان الأمر: **فالذي يهمنا** في هذا المقام هو الإشارة في كلا الاحتمالين إلى **الدوافع الفطرية الطبيعية** في الإنسان للعيش في جماعة مشتركة منذ أوائل حياته البدائية، ونشأته الفطرية.

ولا يهمنا من ذلك أن الإنسان مقسور على الحياة المشتركة أو طائع بمجرد رغبته.

١١ ـ **وكذلك لا يهمنا** أن نقول إن الإنسان في اتحاده مع زملائه:

ـ **مقسور** على ذلك بحكم العادة والظروف القاهرة،

ـ **أو مريد** لذلك ومدفوع إليه بمجرد رغبته ورضاه[2]؛

وإنما الذي يهمنا أن نعرض كل ما يدل على فكرة أن الإنسان **مدني بالطبع**، وأنه مدفوع إلى العيش في حياة مشتركة **بدافع من فطرته الأولى**، وطبيعته الأصلية، **حباً ببقائه، وطلباً لسلامته**.

بل إن الإنسان الأول كان أكثر شعوراً بحاجته إلى العيش المشترك منه بعد تقدمه وشعوره أحياناً بالاستغناء وبالاستعلاء.

١٢ ـ بل نرى أن الإنسان في **المجتمع الفطري** كما وصفناه فيما تقدم[3]، وما كان عليه من ضعف وعجز أمام عوارض الطبيعة مع حرصه على البقاء، ربما كان أكثر شعوراً بهذا العيش المشترك ضمن نظام يسوده **قانون التعاون الطبيعي ووجوب التضامن**، لأن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، كما هو حال التقدم الإنساني في مختلف مراحله التاريخية وما قد يرافقه من الاستعلاء على الحق وعلى أصحابه، وهكذا كثيراً ما

---

(١) **مراحل الحق** السابق: الجزء الأول، الصفحة ١٠٨ـ١١٠.

(٢) **قصة الحضارة**. ول ديورانت، الجزء الأول ترجمة عربية، الصفحة ٣٩، طبع القاهرة سنة ١٩٤٩.

(٣) في هذا الباب (أ ـ الفطرة الإنسانية والمجتمع الفطري الأول) الصفحة ٢٢٤، الفقرة ٥.

يُحَجَب الإنسان بهذا الاستعلاء وبهذا الاستغناء حجباً تاماً عن فطرته، وعما توحي به طبيعته من ضرورة العيش في جماعة مشتركة متعاونة.

من ذلك يظهر بوضوح أن الأثر الثاني للفطرة هو العيش في جماعة مشتركة بعد أن كان أثرها الأول هو الإيمان بالخالق، وإذا لم يعلم كثرة الناس اليوم بوحي هذه الفطرة فلأنهم حُجِبوا عنها بقوتهم واستعلائهم.

١٣ ـ وبذلك يظهر لنا بكل وضوح **الأثر الثاني** للفطرة الأولى: وهو أن الإِنسان الفطري مدفوع بفطرته إلى العيش في جماعة مشتركة؛

كما ظهر لنا سابقاً **الأثر الأول** للفطرة: وهو أن الإِنسان الأول مدفوع بفطرته وبطبيعته أيضاً إلى الإيمان بالخالق: ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، . . . ولكن أكثر الناس لا يعلمون[1]﴾، وأن عدم العلم هذا إنما يتكوَّن لدى كثرة الناس بعد أن حُجِبوا عن وحي فطرتهم الأولى: بما أحرزوه من قوة الشخصية التي دفعتهم إلى الاستعلاء على الغير والاستغناء عنه، فجنحوا للطغيان على الحق، وما أكثر الطغاة في الأرض!.

(١) قرآن كريم، سورة الروم، الآية: ٣٠.

د ـ الفطرة وفكرة الحق في الأسرة الأولى

تقدم معنا أن الأسرة لم يرد لها ذكر لدى بعض الباحثين وأنها لم تظهر إلاَّ بعد ظهور الدولة.

١ ـ تقدم معنا في الصفحات السابقة[١] ما خلاصته:

ـ أن **الأُسرة**، وهي النواة الأولى للمجتمع البشري، **لم يرد لها ذكر** لدى بعض الباحثين في تاريخ الأجناس البشرية وطبائع النوع الإنساني في أول عهوده،

ـ **وأن القبيلة** هي الخلية الاجتماعية التي **سبقت الأُسرة**،

ـ وأن الأسرة كخلية اجتماعية لم تظهر إلا بعد ظهور الدولة واختفاء القبيلة من نظام المجتمع.

ويحتجون لذلك بأن الجماعات البشرية الأولى كانت تعيش في حالة إباحية قبل نظام الزواج.

٢ ـ ويرى هذا البعض تعليلاً **لفقدان الأُسرة** في الجماعات البشرية الأولى:

ـ «أن الجماعات البشرية في أوائل عهدها كانت في **حالة إباحية**،

ـ «وأن عهد الزواج الفردي السائد في العصور الحديثة جاء بعد عصر سابق عليه ساد فيه **نظام زواج الجماعة**، أو بعبارة أوضح فوضى زواج الجماعة»[٢].

---

(١) في مطالع: ج ـ الفطرة والعيش في جماعة مشتركة، الفقرات ٣ ـ ٦.

(٢) **أبحاث التاريخ العام للقانون**، علي بدوي، الجزء الأول الصفحة ١٤، الطبعة الثالثة، القاهرة سنة ١٩٤٧.

٣ ـ وإذا أخذنا بهذا الزعم، وقلنا **بفقدان الأسرة ونظامها** في أوائل عهد الجماعات البشرية، كان من العبث البحث عن حال الفطرة الأولى **ووحيها في الأسرة** من حيث **نشأة فكرة الحق**، ما دامت الأسرة لم تتكون في تلك العهود الأولى بسبب شيوعية الجنس والحالة الإباحية.

بناء على هذا الزعم لا يمكن البحث عن وحي الفطرة في الأسرة ما دامت هذه غير موجودة.

٤ ـ بل يذهب بعض هؤلاء الباحثين(١) إلى أن **القبيلة**:

ويرى هؤلاء أن القبيلة كانت الخلية الاجتماعية الأولى دون أن يكون بينها رابطة القرابة غير رابطة التعاون.

ـ كانت أول خلية اجتماعية وجدت في الجنس البشري؛

ـ وأنها كانت جَمْعَاً من أفراد ضمتهم المصادفة أو الضرورة للتعاون في اتقاء الأخطار، دون أن تشملهم صلة عامة، أو تربطهم قرابة؛

ـ وأنهم لم يكن لديهم ضابط في صلاتهم الجنسية، بل كانت النساء مشاعاً للرجال، وأن الولد لا يُنْسَب لغير أمه(٢)، وأن العلاقة بين الوالد والأبناء مفقودة تقريباً(٣).

ـ وأنهم انتقلوا من هذه الحالة الوحشية إلى حالة اجتماعية أرقى درجة: عندما **استأثر الرجل بزوجه أو أزواجه**، وضم إليه أخوته وأولاده، **واستقلّ بأسرته** في أمور حياته، وبذلك حلّت جماعة الأسرة محل جماعة القبيلة(٤).

٥ ـ **غير أن فريقاً** راجحاً من الباحثين في تاريخ الأجناس البشرية وفي طبائع الإنسان، كما مرَّ معنا، ينبذ هذه الفكرة

لكن فريقاً راجحاً من الباحثين يرى أن الأسرة

---

(١) المصدر السابق، الصفحة ١٤.

(٢) نفس المصدر السابق، الصفحة ١٤؛ وكذلك **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الجزء الأول، الصفحة ٥٨٥٧، طبع مصر سنة ١٩٤٩.

(٣) **قصة الحضارة**، الجزء السابق، الصفحة ٥٨٥٧.

(٤) **أبحاث التاريخ العام للقانون**، علي بدوي، الصفحة ١٤.

التي تضع النوع الإنساني في أول عهوده في مرتبة الطبقات الدنيا من النوع الحيواني، بل أحط منه مرتبة، والتي تتجاوز أقصى ما قد بلغه الرجال من درجات الوحشية في بدء الحياة الإنسانية؛

هي الوحدة الاجتماعية الأولى وترتبط برابطة الدم والطاعة للأب.

ويرى هذا الفريق أن الوحدة الاجتماعية الأولى انحصرت على وجه عام في جماعة أضيق دائرة، وأمتن اتصالاً: **هي الأسرة**، تربطها صلة الدم، وعاطفة القرابة، وتضم أفرادها فكرة الخضوع والطاعة لأب واحد، أو جَدٍ واحد، هو صاحب الكلمة فيهم، والمتصرِّف في شؤونهم(١).

كل من الفريقين أقام نظريته على التخمين فقط دون البحث عن وحي الفطرة.

٦ ـ وكل من الفريقين أقام نظريته قبل كل شيء على أساس من **الحدس والتخمين**، قبل الاعتماد على **حقيقة الفطرة الأولى** ووحي الطبيعة لدى الإنسان، ذلك الوحي الذي يكوِّن القانون الطبيعي الأبدي لدى البشرية.

ففريق يهبط بمستوى الإنسان الأول اعتماداً على واقع قبائل الأقزام اليوم بمجرد التخمين،

٧ ـ ففريق يهبط بمستوى الإنسان الابتدائي بصورة عامة إلى أدنى درجات الوحشية اعتماداً على واقع **قبائل الأقزام** التي لا تزال موجودة في أفريقيا وأمريكا وقريباً من المنطقة القطبية كما نقلنا بعض أخبارها سابقاً(٢) مخمناً أن ماضي الإنسان في مجتمعه الفطري المجهول والموغل في القدم لا ينبغي أن يرتفع عن مستوى هؤلاء؛

وهذا تخمين محض قد ينزل بالإنسان في بعض أحواله

---

(١) نفس المرجع السابق، علي بدوي.

(٢) وقد مر معنا أخبار بعضها في هذا الفصل المبحث: ب ـ الفطرة والإيمان وأثره في حياة الإنسان. الفقرات ٢٠ـ٢٥، وكذلك في الحاشية على الفقرة ١٦.

الشاذة اليوم إلى ما دون بعض الحيوانات في فطرتهم وطبيعتهم، وذلك لعدم دراسة العوامل الطارئة التي قد كانت هي سبب ذلك الانحطاط وذلك الإيحاء.

مع أن هذا الواقع طارىء لظروف خاصة.

٨ ـ وهكذا فإن أبناء الأسكيمو Esquimaux ou Eskimos، من سكان المنطقة القطبية حيث يغلو الطعام وترخص الحياة، يرون أنه لا مندوحة لهم عن قتل والديهم إذا ما أصبح هؤلاء من الشيخوخة بحيث لا يقوون على شيء ولا يصلحون لشيء؛

ومن هذه الوقائع الطارئة قتل الأسكيمو لأبويهم إذا شاخا وعجزا لظروف خاصة بهم.

والامتناع عن قتل الوالدين في مثل هذه الحالات لديهم يُعتَبر مجافاة لواجب البنوة(١).

٩ ـ وكذلك ينقل ول ديورانت(٢): «أن بعض القبائل ترفض المرأة فيهم أن تتزوج من رجل لم يقتل أحداً في قتال، سواء في ذلك أكان القتال سليم الأساس أم فاسده؛

ومثل ذلك رفض المرأة الزواج من رجل لم يقتل أحداً في قتال.

«ومن هنا نشأت عادة اصطياد الرؤوس التي لا تزال باقية في الفيليبين حتى اليوم؛ وعند قبيلة دياك Dyak يكون للرجل الذي يعود من مثل هذا الصيد البشري بأكبر عدد ممكن من الرؤوس أن يختار مَنْ يشاء من بنات القرية؛ والبنات يشتهينه زوجاً لأنهنَّ فيما يرون قد يصبحن. بلقاء مثل هذا الزوج. أمهات لرجال شجعان أقوياء».

عادة اصطياد الرؤوس في الفيليبين.

١٠ ـ وأنت ترى أن الاعتماد على مثل هذه الوقائع الخاصة دون دراسة العوامل الموحية بها، ثم الذهاب بعد ذلك إلى القول مثلاً:

الاعتماد على هذه الوقائع

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الجزء الأول، ترجمة عربية الصفحة ٩٣.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٩٢.

الخاصة والادعاء لها بأنها قديمة فطرية غير سليم.

ـ إن أبناء الإنسان في المجتمع الفطري الأول كانوا يوجبون قتل والديهم إذا ما شاخا ولم يعودا صالحين لشيء.

ـ أو إن مهر الزواج في المجتمع الفطري الأول كان اصطياد الرؤوس البشرية،

كل من هذا وذاك لا شك أنه مذهب في القول لا يقوم على أساس علمي سليم في استنباط الحقائق.

الفريق الآخر رفع مستوى الإنسان ولكن بالتخمين أيضاً.

١١ ـ وليس شأن الفريق الثاني، الذي ذهب على عكس الفريق الأول إلى رفع مستوى الإنسان الابتدائي بصورة عامة، أحسن حالاً من الفريق الأول في **طريقة الاستدلال**، بل كان أيضاً اعتماده في البحث قائماً على **الظن والتخمين** أولاً وأخيراً.

افترض هذا الفريق وجود الأسرة قبل القبيلة حتى لا يهبط بالإنسان عن الحيوان.

١٢ ـ وقد حاول هذا الفريق أن لا يجعل الإنسان الأول دون بعض الحيوان في رابطته مع صغاره، ولذلك افترض **وجود الأسرة** من الجماعات البشرية قبل **وجود القبيلة**، وربط ما بين أفرادها برابطة الدم، وبعاطفة القرابة.

أما طريقتنا فاستقراء الفطرة ووحيها أولاً.

١٣ ـ أما نحن فنوجب الرجوع:

ـ أولاً إلى **استقراء فطرة الإنسان** في مجتمعه الفطري الأول، وإلى **استعراض وحي الطبيعة** في شخصه الضعيف أمام مظاهر الكون وأَعراض الطبيعة كما تقدم معنا[1]؛

ثم المقارنة بين وحي الفطرة والوقائع الشاذة

ـ ثانياً **إلى المقارنة** فيما بين ما يوصلنا إليه استقراء الفطرة ووحي الطبيعة حينذاك، وبين ما وجدنا عليه الإنسان اليوم

---

(١) في هذا الفصل: ج ـ الفطرة والعيش في جماعة مشتركة؛ وكذلك: ب ـ الفطرة والإيمان وأثره في حياة الإنسان.

من شذوذ في بعض **وقائع أحواله المنكرة**، واعتبار هذه الوقائع المنكرة قديمة وسليمة في الدلالة على أصالتها: **إذا صلحت مفسّراً** لظروف الإنسان الأول لا لظروف خاصة بمن عرفناهم من الأقزام، **وإذا انسجمت** مع ما ثبت لدينا من وحي فطرة الإنسان في مجتمعه الفطري.

الحاضرة للحكم بأصالتها أو شذوذها.

١٤ - ونزيد إيضاحاً بأننا لا نريد أن نحتكم إلى التخمين وحده أيضاً فيما نحاول رفضه أو تثبيته من أصالة بعض الوقائع المنكرة، فإننا عندئذ لن نخرج من النطاق الذي دار فيه الباحثون السابقون؛

ولكننا نعمد إلى التحقيق من أصالة هذه الوقائع، ثم إلى الجزم بشذوذها عن عهد الفطرة أو بأصالتها: تبعاً لصلوحها مفسرة لظروف الإنسان أو عدم صلوحها، وتبعاً لانسجامها مع وحي فطرته حينذاك مما أجمع عليه إجماعاً أو عدم انسجامها.

أي أننا لا نحتكم إلى التخمين فيما نرفضه، بل إلى التحقيق منه تبعاً لظروف الإنسان الأول ووحي فطرته مما أجمع عليه.

١٥ - فمن **الوقائع المجمع عليها**، والتي لا يختلف فيها اثنان: **ذلك الطابع الديني الفطري** الذي رافق حياة الإنسان الفطري منذ نشأته الأولى في كل شأن من شؤونه، كما مر معنا في محله؛

وإننا إذا رفضنا هذا **الطابع الفطري الديني** فلن يستقيم معنا فهم لوجود الآلهة لدى جميع الشعوب القديمة التي كشفت عنها الآثار؛

وكذلك إذا رفضنا هذا **الطابع الديني الفطري** فلن يستقيم معنا فهم لذلك **التقديس** الطوعي والجماعي بل **العبادة أحياناً** لكثير من صفوة الرجال الذين ظهروا منذ عهد آدم ودعوا إلى

مما أُجمع عليه: الطابع الديني لحياة الفطرة، ولا يستقيم مع رفضه فهم لوجود الآلهة والقديسين لدى جميع القدماء.

الإيمان بالله والنزول عند أوامره لدى جميع الشعوب وفي مختلف الأزمان، تحت أسماء ونعوت مختلفة تشعر بالتقديس مثل رسل وأنبياء وقديسين، بل آلهة وأبناء آلهة.

ومما أُجمع عليه: أن الإنسان فوق مستوى الحيوان في روابطه مع صغاره وفي العيش المشترك.

١٦ ـ **ومن الوثائق المجمع عليها** أن الإنسان بطبيعته **فوق مستوى الحيوان**، مهما كان الإنسان فطرياً في نشأته وبديئاً في حياته؛

وإذا وجدنا أن الحيوان من غير استثناء تقوم فيما بينه وبين صغاره رابطة الائتلاف على نحو ما نراه في جماعات الطير والنحل والنمل من العيش في جماعات مشتركة في سبيل إعداد الغذاء ودفع الطوارىء،

فمن خطل الرأي أن نقول إن الإنسان لم تقم فيما بينه وبين صغاره وذويه الأقربين مثل هذه الرابطة في أسرته الأولى إلاَّ بعد ظهور الدولة التي صرفته إلى العناية بالنسل والجنس[١]! وعندئذ فالويل ثم الويل لهذه الأفضلية للإنسان على الحيوان إذا كان الإنسان لم يستطع أن يلحق به فيما هو من ضرورات بقائه إلاَّ بعد عصور وأزمان.

بل الإنسان يختلف عن الحيوان في طبيعته منذ وجوده:

١٧ ـ بل إِن الإنسان ليختلف عن الحيوان اختلافاً بيِّناً في خلقه وطبيعته منذ ظهوره للوجود:

فبهيمة الحيوان تولد مكتسية ومسلحة بما تحتاج إليه كي لا تحتاج لأفراد نوعها،

ـ فبهيمة الحيوان منذ تولد **تكون مكتسبة** بما يدفع عنها أذى الحر والقرّ، **ومسلحة** بما هي في حاجة إليه لمتابعة بقائها في الحياة دون الحاجة إلى العناية بها من قبل أفراد نوعها في ذلك إِلا قليلاً جداً؛

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الأول الصفحة ٥٦، طبع القاهرة سنة ١٩٤٩.

ـ أما الإنسان فيولد مجرداً مما منحته الطبيعة للحيوان، وهو لذلك في حاجة إلى عناية أفراد من بني جنسه به مدة أطول ما عرفت في حياة المخلوقات الحية، كي يستطيع الاستمرار بعد ذلك في البقاء.

أما الإنسان فمجرد من ذلك ليكون في حاجة إلى أفراد نوعه.

١٨ ـ ومن هنا صح قول دي بونالد De Bonald من علماء الاجتماع[١]:

لذلك قال الاجتماعيون: الحيوان يولد كاملاً وأما الإنسان فيولد قابلاً للكمال.

ـ **إن الحيوان يولد كاملاً** L'animal nait parfait، أي مجهزاً بما هو في حاجة إليه للقدرة على الاستمرار في البقاء؛

ـ وأما الإنسان فيولد قابلاً للكمال L'homme nait Perfectible، أي أنه في حاجة إلى العناية به لجعله كاملاً وقادراً على الاستمرار في البقاء.

١٩ ـ وذلك لأن بهيمة الحيوان:

أي أن البهيمة جهّزتها الطبيعة مباشرة بحاجاتها دون لزوم لتربية أو تعليم.

ـ **قد جهزها** الخالق مباشرة بجميع ما هي في حاجة إليه لبقائها، من غير حاجة إلى تربية، ولا إلى تعليم، ولا إلى رؤية مثل؛

ـ **وجعلها تميز** بين ما هو خير لها وبين ما هو ضار لها؛

ـ كما جعلها تبحث عن فريستها من غير إرشاد؛

ـ وتتجنب عدوها من غير تنبيه؛

ـ وأن ما قد نعلّمه نحن للحيوان إنما هو لحاجاتنا ولذاتنا لا لحاجات الحيوان ولذاته.

---

(١) **عناصر علم الاجتماع** Éléments de Sociologie، لمؤلفيه بوكليه C.Bouglé ورافول J.Raffault، الصفحة ٨٣٨٢، الطبعة الثالثة، طبع باريس ١٩٣٨.

٢٠ ـ أما الإنسان فيولد وهو في حاجة إلى العناية به من قبل بني جنسه في كل شيء ليتكامل ويكون بعد ذلك قادراً على البقاء، وقد حفَّت حاجته بكثير من الصعاب والمشاق:

أما الإنسان فيولد وهو في حاجة في كل شيء إلى بني جنسه: غذاء وتدريباً.

ـ فهو في حاجة أولاً إلى مَنْ يُعنى بصحته وبغذائه بضع سنوات، لا كالسمكة تولد وهي مستغنية عن غيرها، وقادرة على السباحة والبحث بنفسها عن رزقها؛

ـ وهو في حاجة بعد ذلك إلى مَنْ يعلِّمه كيف يعيش،

ـ وهو في حاجة بعد ذلك إلى تقوية قواه العقلية ليكون قادراً بنفسه على معرفة ما هو ضروري لبقائه.

٢١ ـ وهكذا يولد الإنسان وهو في حاجة في كل شيء إلى مَنْ سبقه على طريق الحياة من أبناء جنسه،

الإنسان في حاجة إلى بني جنسه في تعلم الكلام، وإلى الاستماع وإلى الطاعة ليتكامل.

وهو في حاجة إلى تعلمه المنطق والكلام ليعبِّر عما في نفسه لمصلحته؛

وإذن فهو في حاجة إلى الاستماع وإلى الإطاعة ليتكامل وليقدر على الاستمرار في الحياة.

٢٢ ـ فمَنْ هو ذلك الذي يجب أن يتوفر على تقديم كل ذلك إلى الإنسان إبَّان حاجته المحتومة إلى الغير، دون أية فائدة ترجى منه، أو مطمع فيه؟

فمَنْ هو الذي يتوفر على تقديم ذلك له دون فائدة ترجى منه؟.

٢٣ ـ إنهما أبواه على السواء، من غير ترجيح لأحد على آخر: فالأم التي وضعته لن تكون بأقل حاجة من طفلها ـ في كثير من أيامها في الحمل والحضانة ـ إلى رجل بعينه يُعنَى بها أو بهما على السواء، من غير فائدة أيضاً ترجى منهما، أو مطمع يسعى إليه فيهما:

إنهما أبواه على السواء.

ـ ولن يقوم بهذه المهمة الشاقة المؤلمة، دون أية رابطة، غير الأم التي كان الطفل جزءاً منها،

ـ ولن يقوم بهذه المهمة إلى جانب الأم أي رجل كان غير الأب الذي ارتبط بهما برابط الزواج والإنس، والدم والحب.

طبيعة الأشياء فرضت الأسرة من أب وأم وأولاد.

٢٤ ـ وهكذا فرضت طبيعة الأشياء **وجود الأسرة** من أب وأم وألاودهما؛

وجعلت كل عنصر من عناصرها الثلاثة فقط، من غير زيادة ولا نقصان، جزءاً من كل: متساوين في الإنسانية، ولكنهم غير متساوين في وظائفهم الطبيعية(١): للإنسال والاستمرار في البقاء؛

وجعلت من هذه المجموعة الثلاثية: أب وأم وأولاد، بعضها يتمم بعضاً، ويؤلف في الجملة أول نواة للمجتمع البشري في كل زمان من غير شك.

أخضعت الطبيعة كل إنسان إلى أسرته في سبيل حاجته أطول مدة عرفت لدى الأحياء لتعزز رابطة الجماعة الحيوانية، وهي إرادة عليم أحسن التقدير.

٢٥ ـ وهكذا أخضعت الطبيعة كل شخص من الإنسان إلى **أسرته مدة أطول ما عرفت** في حياة كل مخلوق، وذلك **لتعزز بطول حاجته إلى أسرته رابطة هذه الجماعة فيما بينها**، مما هو ضروري لحياة المجتمع كله في حياة الإنسان المدني بطبعه كما نرى، دون حاجة الحيوان إلى مثل تلك الرابطة الاجتماعية؛

وتلك هي بلا شك إرادة حكيم عليم فيما وراء طبيعة الإنسان وطبيعة الحيوان: ممن قدر خلقهما وأحسن التقدير.

ما تقدم يحملنا على

٢٦ ـ وإن ما قدمناه يحملنا على الجزم بأن **الأسرة سابقة** في وجودها للقبيلة؛

---

(١) المرجع السابق، **عناصر علم الاجتماع**، الصفحة ٨٢.

الجزم بسبق الأسرة للقبيلة في الوجود.

وإن تصورنا للجماعات البشرية البدائية في حالة الأسرة قبل القبيلة هو منطقي، لأنه أبسط من تصور الجماعات عن طريق القبيلة؛ والأبسط يتقدم بلا شك في الوجود على المركب؛

«وإن صلة الدم، حقيقة كانت أم افتراضية، كانت الباعث الفطري، والأساس الوحيد لتكوين الجماعات القديمة»[1] إلى جانب الباعث الطبيعي أيضاً الصادر عن صعاب الحياة الابتدائية، وأحداث الطبيعة.

وبعد فما هو مكان الحق لدى الجماعات الأولى؟ هل صحيح أنه لم يكن للحق أساس خلقي، وإنما كان الأساس في الحياة المصلحة المادية فقط؟.

٢٧ ـ وبعد، فما هو مكان الحق في هذه الجماعات الأولى من المجتمع البشري الفطري؟.

هل صحيح أنه لم يكن للحق والعدالة من أساس خلقي لدى هذه الجماعات في تلك العصور الفطرية؟ وأنه لم يكن من أساس للحياة حينذاك غير المصلحة المادية المفروضة بالقوة دون معرفة لفكرة الحق والعدل[2]؟

وهل صحيح أن الحالة البدائية لدى الجماعات الإنسانية الأولى كانت وحشية لا تعتمد إلا على القوة؟ وإنه لم يكن في هذه الأعشاش الصغيرة مكان لفكرة العدالة والحق في تلك العصور البدائية؟.

وهل صحيح أن الحالة البدائية كانت قائمة على المصلحة المادية المعززة بالقوة، يقتص بها الخصم من خصمه، وينال بها من أموال عدوه وفريسته ما يريد دون أن يكون هنالك

---

(١) **أبحاث التاريخ العام للقانون**، علي بدوي، الجزء الأول، الصفحة ١٥ طبع القاهرة سنة ١٩٤٧.

(٢) المرجع السابق، علي بدوي، الصفحة ١٧.

أي اعتبار للأسس الخلقية التي كانت مصدر الحق والعدالة؟؟

هنا نعود أيضاً لاستقراء الفطرة الأولى.

٢٨ ـ هنا أيضاً نعود إلى استقراء الفطرة الأولى، لدى النواة الأولى، في الجماعات البشرية الفطرية.

عودة إلى حدود الحق كما سبقت.

٢٩ ـ ونعود أولاً إلى مراجعة حدود الحق كما سبق لنا أن حددناها في قولنا: «إن الحق هو مجموعة الأحكام التي تسوس مسلك الناس العائشين في جماعة مشتركة، والمضمونة بسلطة قسرية تفرض نفاذها».

للحق مفهوم ذاتي وشرطان أساسيان.

٣٠ ـ ويؤخذ من هذا التعريف أن للحق **مفهوماً** ذاتياً أولاً، **وشرطين أساسيين** خارجين عن مفهومه الذاتي:

أما مفهوم الحق الذاتي فهو العدالة المعبَّر عنها بالحق، وذلك لإقامة التعادل بين الأمور ووضعها في مستوى طبيعي واحد: ينال به كل من أبناء الإنسان ما منحته له الطبيعة من حقوق؛

ـ **وأما الشرط الأول** فهو العيش في جماعة مشتركة؛

ـ **وأما الشرط الثاني** فهو السلطة القسرية الضامنة لنفاذ الحق.

كل ذلك موجود في الأسرة الأولى.

٣١ ـ وكل ذلك موجود ومتحقق في الأسرة الأولى التي هي نواة المجتمع البشري الفطري.

الشرط الأول: العيش المشترك موجود في الأسرة بلا شك.

٣٢ ـ ولنستعرض الشرطين أولاً:

أمّا الشرط الأول لوجود الحق، وهو العيش في جماعة مشتركة، فهو متحقق بلا شك في **وجود الأسرة**، لأنها كما رأينا كانت بلا شك النواة الأولى للمجتمع البشري، وكانت أول أشكال الجماعات البشرية وأبسطها قبل القبيلة، وقبل الدولة؛

الشرط الثاني: السلطة القسرية موجودة في يد سيد الأسرة.

وأما الشرط الثاني لوجود الحق، وهو السلطة القسرية، فإنه موجود أيضاً وقائم في يد سيد الأسرة أباً كان أو أماً، وذلك لما يتمتع به كل منهما من سلطان نافذ على أفراد الأسرة بكاملها.

العدالة بين أفراد الأسرة وفقاً للقانون الطبيعي. أبرز ما نراه في الأسرة.

٣٣ ـ **وأما مفهوم الحق الذاتي** لدى الأسرة، وهو العدالة، ووضع الأمور في وضع طبيعي متعادل: حيث ينال كل من أبناء الأسرة ما منحته الطبيعة له من حقوق، **وفقاً للقانون فوق الطبيعي** الذي أوحت به الطبيعة أو خالق الطبيعة إلى أبنائها من النوع الإنساني، فذلك أبرز ما نراه لدى السيدين الحاكمين في هذه الجماعة الصغيرة، وهما الأب والأم.

فصل الأبوين بين عدوان أولادهم موجود قطعاً.

٣٤ ـ فإذا قسمت الأم أو الأب نصيب أطفالهما من الطعام بينهم، وأعطيا كلاً نصيبه، ثم رأيا أن أحدهم قد عدا نحو صاحبه لينتزع منه نصيبه ولقمته بالقوة، فصلا قطعاً بينهما، وعاقبا القوي المعتدي، وردّا إلى كلٍ حصته، وأتاحا للضعيف المُعتدَى عليه أن ينال نصيبه الذي لولا قيام فكرة الحق والعدالة لدى والديه الفطريين لذهب نصيبه منه بحكم القوة ومنطق الظلم.

الزعم بأن الحالة الفطرية مجانبة للحق مخالف للواقع.

٣٥ ـ وإن الزعم بأن **الحالة الفطرية البدائية** لدى الجماعات البشرية الأولى مجانبة للحق، ولا تعتمد إلا على القوة، وأنه لم يكن في هذه الأعشاش الصغيرة مكان لفكرة العدالة في تلك العصور البدائية ـ هذا الزعم مخالف للواقع، ومناقض للمحسوس، وحاكم على الفطرة بالسوء، مع أنها كانت وحدها المرشد والهادي في تلك العصور البدائية؛

ولولا أن **الفطرة** توحي بنفسها بما يصلح الإنسان ويضمن

بقاءه، ولولا أنها توحي بالخير والعدل والحق ما لم يحجب الإنسان عن وحيها حاجب الاستعلاء والاستغناء، لما أمكن للإنسانية أن تنطلق نحو البقاء، وأن تندرج في مصاعد الحضارة والارتقاء.

الفطرة هنا هي القانون الطبيعي مصدر الحق وما أُجمع عليه من «مدنية الإنسان بالطبع».

٣٦ ـ **والفطرة** هنا ليست شيئاً آخر غير ما أجمع عليه العلماء من أن الإنسان **مدني بالطبع**؛

بل هي ليست شيئاً آخر **غير القانون الطبيعي** الذي استوحت منه البشرية قديماً فكرة الحق والعدالة؛ ولهذا لا يزال علماء اليوم مجمعين على استمداد الحق منه كلما خرج على الحق ظالم، أو استبد بالضعيف قاهر: معلنين أنه لا يجوز في حالٍ من الأحوال القضاء على ما منحته الطبيعة من حقوق.

الفلاسفة مجمعون على أن الحق الطبيعي من وحي الإرادة الإلٰهية وأنه فوق كل قانون وضعي.

٣٧ ـ لذلك نجد هذا التفكير سائداً في المأثور من أقوال الأقدمين منذ فلاسفة اليونان والرومان[1]: مثل صوفوكليس وسقراط وأفلاطون وأرستطاليس وسيسرون، وكلهم يفرق ما بين **القوانين الوضعية** أو التقاليد القومية التي وضعتها كل مدينة أو كل جماعة لنفسها، وبين **القانون الطبيعي** الذي توحي به الإرادة الإلٰهية؛

وقال هؤلاء في الحق الطبيعي: إنه يمتاز عن كل قانون وضعي، وإنه أقدم عهداً وأسمى منزلة، وإنه عام وشامل لجميع أفراد الإنسان، وخالد على ممر الأزمان.

سيسرون والقانون الطبيعي.

٣٨ ـ ويقول سيسرون في القانون الطبيعي: «إن في العالم

(١) **أبحاث التاريخ العام للقانون**، علي بدوي، الجزء الأول، الصفحات ٦٧ـ٧٠ طبع القاهرة ١٩٤٧.

قانوناً صحيحاً مطابقاً للطبيعة، وسارياً على جميع الناس، ثابتاً، أبدياً، ويتولى الله تأييده، وعقاب من يخالفه».

السائد لدى الفلاسفة أن الفطرة الأولى والقانون الطبيعي هما المبادىء العليا التي أوحى بها خالق الطبيعية المفكر المنظم.

٣٩ ـ وهكذا نجد من هذا الفكر السائد لدى الفلاسفة والعلماء، الأقدمين والمحدثين: إن **الفطرة البشرية الأولى**، أو القانون الطبيعي الذي ارتكزت عليه، ما هما إِلا تلك المبادىء **العليا** التي توحي بها الطبيعة أو خالق الطبيعة إلى من نشأ وترعرع في أحضانها؛

وإن **الفطرة البشرية الأولى** أو القانون الطبيعي كلاهما يدوران حول فكرة واحدة: هي **أن العالم تحيط به قوة مفكرة**، تنظم أموره، وترقب أحواله، وتفتح أمامه أبواب الهداية **لما يصلح شأنه** كي يلجها بدافع من فطرته ما لم يحجب عن وحيها بحاجب الاستعلاء والاستغناء.

الفطرة مصدر لفكرة الحق في الأسرة وهي حقيقة ثابتة، وغير ذلك شذوذ.

٤٠ ـ وبعبارة أوضح: إِن ثمة حقيقة ظاهرة أكيدة وهي أن **الفطرة البشرية مصدر للعدالة** ولفكرة الحق في الأسرة من غير شك؛

فإذا عرض في بعض الوقائع ما يدل على غير ذلك، فذاك لأن أصحاب هذه الوقائع قد عرض عليهم من أسباب التنكر للحق والاستعلاء عليه ما حجبهم عن وحي الفطرة وقانون الطبيعة كما سبق لنا بيانه، وأن الإنسان ليطغى أَنْ رآه استغنى، فشذوا على الأصل وخرجوا عن الجادة المستقيمة بلا شك؛ والشذوذ واقع ومحتمل في كل أمر من الأمور عند وجود أسبابه ودواعيه.

القائلون بفقدان الحق في الجماعات الأولى قالوا

٤١ ـ هذا وقد ذهب القائلون **بفقدان فكرة الحق** في الجماعات البشرية: من أسرة أو قبيلة، إِلى أن فكرة الحق والقانون إنما

نشأت وتكونت فقط منذ **نشأت المدينة** وتكونت منها وحدة سياسية ـ كالدولة في العصور الحديثة ـ بدلاً من القبيلة، ومنذ تمكنت فيها السلطة لملك أو أمير.

بنشأة الحق منذ نشوء المدينة والدولة فقط.

٤٢ ـ وهنا أيضاً لا بد لنا من إبداء ملاحظات حول ذلك، لأنه ليس من المعقول أن الدولة أنشأت فكرة الحق: فكم ضاعت حقوق أمام أعظم منظمة دولية في عصبة الأمم في الماضي، وفي الأمم المتحدة اليوم مما هو فوق الدولة أو الدول، فضلاً عن الدولة نفسها، وذلك تحت **سلطان القوة والمصالح المادية** للأقوياء، دون أن يكون **للحق والعدالة** لديهم أي اعتبار.

ليس معقولاً أن الدولة هي التي أنشأت الحق، فكم أضاعت الدول حقوقاً تحت سلطان القوة.

٤٣ ـ لهذا لا نستطيع أن نتقبل بأن نشوء الدولة هو الذي أنشأ فكرة الحق؛

وإنما الواقع في ذلك هو أن **فكرة الحق** قد ولدت قبل ولادة الدولة، وقبل ولادة المدينة، وقبل تكون القبيلة، وذلك في أحضان **جماعة الأسرة الفطرية**.

الواقع أن فكرة الحق ولدت في أحضان الأسرة الفطرية قبل ولادة الدولة.

٤٤ ـ وقد تمتعت فكرة الحق في أحضان جماعة الأسرة منذ القديم **بالقوة الملزمة** ـ وهذا لا بد منه في مفهوم الحق كما تقدم ـ وذلك لما يتمتع به الأب من سلطة الإلزام بالنسبة لأولاده، والزوج بالنسبة لزوجه، **فضلاً عن الصفة الدينية** للحقوق في منشأ جميع الأمم والشعوب، تلك الصفة التي وجدت أيضاً قبل وجود المدينة، وقبل نشوء الدولة، وكان لتلك الصفة الدينية **قوة ملزمة** للمعتقدين بها خوفاً من العقاب الإلٰهي؛ وهذا ما يفرغ على الأوامر الدينية الصفة الحقوقية من غير شك، كما مرَّ معنا في مطلع الكتاب في مبحث تحديد شروط الحق.

وتمتعت فكرة الحق في الأسرة بالقوة الملزمة من قبل الأب فضلاً عن الصفة الدينية للحق في منشأ جميع الشعوب.

تلخيص هذا المبحث تسهيلاً لاستعراضه:

٤٥ ـ وتسهيلاً لاستعراض ما جاء في هذا المبحث حول «الفطرة وفكرة الحق في الأسرة الأولى» من فرضيات وآراء، نرى من المفيد تلخيصها فيما يلي:

الحق تابع للجماعة التي عرفت العدالة،

أولاً ـ **إن فكرة الحق** تابعة بلا شك لوجود **الجماعة** التي عرفت **العدالة** وأقامتها على **أساس خلقي**، لا على أساس **المصلحة المادية المعززة بالقوة**،

بعض الباحثين يرى أن القبيلة هي أولى لجماعات،

ثانياً ـ إن فريقاً من الباحثين يرى **أن أول جماعة** تكونت إنما هي **القبيلة** التي انضم أفرادها بعضهم لبعض **معاونة** تحت تأثير رابطة المصالح المادية، لا تحت تأثير رابطة الدم لعدم معرفة نظام الزواج عندئذ؛ وإن **الجماعة الثانية** إنما هي **دولة المدينة** منذ نشأت المدينة لتسود فيها الروابط السياسية عوضاً عن الروابط القبلية؛ وأن **الجماعة الثالثة** إنما هي **الأُسرة** التي نشأت بعد نشوء الدولة واختفاء القبيلة؛

ويرى هؤلاء أن القبيلة لم تعرف الحق وأنه إنما نشأ مع الدولة،

ثالثاً ـ ويرى هذا الفريق أن **الجماعة الأولى** وهي القبيلة لم يكن لديها من أساس للحياة غير **المصلحة المادية المفروضة بالقوة**، دون معرفة لفكرة الحق والعدل؛ **وأن فكرة الحق** إنما نشأت مع الجماعة الثانية وهي الدولة؛

الراجح اليوم أن الأسرة هي أولى الجماعات،

رابعاً ـ غير أن فريقاً راجحاً يعتبر اليوم أن **جماعة الأُسرة** هي أسبق الجماعات في الوجود، ولا يسلِّم بسيادة **نظام الإباحة** في التوالد أولاً عوضاً عن **نظام الزواج** المكون للأسرة؛

فكرة الحق أسبق من الدولة ونشأت مع الأسرة وانبعثت من فطرة الإنسان.

خامساً ـ إن فكرة الحق **أسبق في الوجود من الدولة**، وقد رافقت الجماعة الأولى وهي الأسرة منذ نشأتها، وصحب فكرة الحق لدى الأسرة جميع الشروط المكوِّنة للحق، وإن فكرة الحق لدى هذه الجماعة الأولى **منبعثة من فطرة الإنسان**.

الباب الثاني

صور مراحل الحق والقانون

أ ـ مصادر هذا البحث
ب ـ المرحلة الإلٰهية لفكرة الحق
ج ـ المرحلة العرفية لفكرة الحق
د ـ المرحلة القانونية المكتوبة لفكرة الحق

أ ـ مصادر هذا البحث

أكثر الشرائع القديمة متشابهة في نظمها ومبادئها وأدوارها.

١ ـ ذهب العلماء والمؤرخون إلى أن أكثر الشرائع في الأمم القديمة متشابهة:

ـ في نظمها،

ـ وفي مبادئها،

ـ وفي الأدوار التي مرت بها، والتي دعت إليها حاجات التقدم الاجتماعي في تلك الأمم.

لكن الباحثين السابقين قد فاتهم بحوث ما يعتمد عليه من الآثار لبيان فكرة الحق لدى الإنسان الأول.

٢ ـ غير أنه لم يصل إلى علم الباحثين الذين سبقونا في تاريخ القانون شيء من الأدلة والآثار التي يصح الاعتماد عليها، أو الوثوق بها في بيان **حالة العهد الأول** الذي تكونت فيه فكرة القانون في المجتمع؛

وذلك لأن هؤلاء العلماء المتقدمين قد فاتهم ما قدمته لنا اليوم **بحوث الآثار** والمشاهدات المادية إلى كشف الحقائق التاريخية.

لذلك اعتمد هؤلاء على المذاهب النظرية التي طوّرت الشرائع الحديثة

٣ ـ ولذلك وجد هؤلاء الباحثون الذين سبقونا غنى عن بحوث الآثار والمشاهدات: باعتناق **المذاهب النظرية** التي كانت عندهم أساساً لتكوين القاعدة القانونية الملزمة لأفراد الهيئة الاجتماعية:

ـ مثل نظرية القانون الطبيعي،

ولكنها كانت سبباً لغموض حالة القديم منها.

- ومثل مذهب العقد الاجتماعي؛

تلك المذاهب الفلسفية التي كانت عاملاً خطيراً في تطور **التشريع الحديث**، كما كانت سبباً في غموض حالة **القانون القديم**[١].

مصادرنا القديمة هي الأشعار اليونانية والكتب الإسرائيلية وبعض الآثار.

٤ - **وكانت المصادر القديمة** التي يمكن الاستناد إليها في هذا البحث منحصرة تقريباً فيما يلي:

- الأشعار اليونانية القديمة، وأهمها أشعار «هوميروس»،
- كتب بني إسرائيل،
- بعض الآثار التي تخلفت عن القبائل الصلتية أو الإرلندية الغابرة،
- وكذلك ما اكتشف عن قدماء المصريين[٢].

في هذه المصادر بيان لنشأة فكرة الحق معزز بأقوال المؤرخين القدماء.

٥ - وفي هذه المصادر نجد **بياناً عن نكرة القانون** في أصل نشأتها، **معززاً في بعض الأحيان** بأقول المؤرخين القدماء الذين تناولوا دراسة الشعوب السالفة: مثل سترابون Strabon، وسيزار César، وديودور الصقلي Diodore de Sicile، وهيرودوت[٣].

أساطير أشعار هوميروس لا تقضي على ما فيها من

٦ - وإذا كان في أشعار «هوميروس» كثير من الأساطير الخرافية عن قوى الآلهة، وكثير من المبالغات في وصف الوقائع الحربية وبسالة الملوك والأبطال والقواد، فإنه لا محل للاعتقاد بأن فيها مبالغة أو تحريفاً في بيان الأفكار

---

(١) Ancient Law، لمؤلفه مين Maine، الصفحة ٣ (نقلاً عن **أبحاث التاريخ العام للقانون**، على بدوي، الجزء الأول، الصفحة ٢٥-٢٦، طبع القاهرة سنة ١٩٤٧).

(٢) **أبحاث القانون** السابق، الصفحة ٢٦.

(٣) نفس المرجع السابق.

لاجتماعية والمعتقدات الدينية التي كانت سائدة في ذلك العصر؛

حقيقة عن الأفكار الاجتماعية والدينية.

ولذلك يعتبرها المؤرخون وصفاً صادقاً للحالة القانونية حينذاك[1].

أصول نشأة الحق لدى الباحثين: أوامر إلٰهية وأعراف وقانون مكتوب.

٧ ـ ونستطيع أن نلخِّص ما وصل إليه العلماء الباحثون عن **أصول نشأة فكر الحق** والقانون، أنها:

- أوامر إلٰهية،
- وأعراف وتقاليد،
- وقانون مكتوب.

وبعبارة أخرى: صور مراحل الحق ثلاثة كان آخرها القانون المكتوب وهذا عُرِف فقط في الأزمنة التاريخية.

٨ ـ وبعبارة ثانية، يمكن أن نلخص **الصور** التي مرت فيها فكرة الحق والقانون في ثلاث صور:

- الهية في صورتها الأولى،
- ثم أعراف وتقاليد في صورتها الثانية،
- وأخيراً قانون مكتوب في صورتها الثالثة؛

والصورة الأخيرة إنما عُرِفت فقط في **الأزمنة التاريخية**: منذ عرف الإنسان الكتابة واستعملها؛ غير أن الحق قد نشأ قطعاً مع الأسرة الإنسانية الأولى كما تقدم معنا[2]، وقبل أن تتعلم الإنسانية الكتابة وتستعملها.

استعراض أقوال الباحثين فيها فيما يلي.

٩ ـ وها نحن أولئك سنستعرض فيما يلي أقوال الباحثين في تلك الصور وما حولها من إيضاح وتفسير.

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٦.

(٢) في الباب الأول من هذا الفصل الثالث: د ـ الفطرة وفكرة الحق في الأسرة الأولى.

ب ـ المرحلة الإلهية لفكرة الحق

معظم الشرائع القديمة كما نقلنا مستمدة من الآلهة والإله هو الحاكم.

١ ـ لقد نقلنا سابقاً[١] قول المؤرخين بأن معظم الشرائح القديمة اشتركت:

ـ بالاعتقاد بأنها **مستمدة من الآلهة**،

ـ وبالاعتقاد بأن **الحاكم يمثل الإله** في هذه الأرض.

والقوانين العُرْفية أو الملكية هي أحكام إلٰهية.

٢ ـ وعلى هذا «فالقوانين القديمة سواء:

ـ أكانت صادرة عن العرف والعادة،

ـ أم كانت مبنية على الأحكام الصادرة عن الملك، أو الكهنة، إنما هي **أحكام إلٰهية**: لأن الحاكم يمثل الإله في هذه الأرض، وأحكامه موحى بها من الآلهة»[٢].

بسبب المصدر الإلٰهي اتصفت هذه القوانين بالثبات والعموم.

٣ ـ وإِن هذا الاعتقاد بذلك **المصدر الإلٰهي** هو الذي جعل القوانين القديمة:

ـ تتصف بالثبات والاستمرار، وبعدم التغير والتحول،

ـ كما تتصف بأنها عامة لجميع الناس، وفي جميع

---

(١) الباب الأول من هذا الفصل: ب ـ الفطرة والإيمان وأثره في حياة الإنسان، الفقرة ٤١ الصفحة ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

(٢) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الأول، الصفحة ٢٨١، طبعة ثانية، بغداد سنة ١٩٥٥.

الأحوال والأزمان[١].

العراق القديم تصوّر الكون مملكة تحكم فيها الآلهة بالتدرج.

٤ ـ وهكذا تصور سكان العراق الأقدمون الكون على هيئة دولة أو مملكة **تحكم فيها الآلهة** وتدير شؤونها، وتتدرَّج فيها السلطة فيما بينها، وتتوزع الأعمال، ويتجلى في المملكة مبدأ الطاعة؛ وتتدرَّج هذه الطاعة وتتنوع:

ـ من إطاعة الفرد إلى رأس أسرته،

ـ ثم من هذه إلى إطاعته لرأس المجتمع،

ـ ثم من هذا إلى إطاعة الآلهة[٢].

وكذلك قال المؤرخون وإلياذة هوميروس وكُتَّاب بني إسرائيل: إن القانون كان في صورة حكم إلٰهي.

٥ ـ وكذلك يؤخذ من المصادر التاريخية التي أشرنا إليها في المبحث المتقدم (أ) وخاصة الياذة هوميروس، وكتاب بني إسرائيل: **أن الفكرة الأولى** التي تتصل بما نسميه الآن قانوناً كانت تنحصر في صورة **حكم إلهي** يوحى به إلى الملك أو الحاكم أو القاضي عند الفصل في النزاع المرفوع إليه، فينطق به بصفته إلهاماً[٣].

لهذا كان القانون إرادة إلٰهية تظهر على لسان المتصلين بها وذلك سبب أثرها في النفوس.

٦ ـ ولهذا فالقانون:

ـ لم يكن إِلا **إرادة إلهية** تصدر في كل قضية بخصوصها،

ـ وما كانت هذه الإرادة لتصدر إِلاَّ على لسان أفراد من فئة خاصة **تمتاز باتصالها بالآلهة**، وبالقدرة على تعرف مشيئتهم وتلقي أحكامهم، ومن هذا جاءت قوة أثرها في النفوس.

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٣٩.

(٣) **أبحاث التاريخ العام للقانون**، علي بدوي، الجزء الأول، الصفحة ٢٧، طبعة ثالثة، مصر سنة ١٩٤٧.

ولهذه الأحكام الإلٰهية أسماء تفيد معنى إلٰهياً عند اليونان واليهود والإيرلنديين.

٧ - وكان لهذه **الأحكام الإلهية** التي تصدر في القضايا أسماء خاصة عند اليونان، وعند الإسرائيليين، وعند الإيرلنديين، تفيد في ألفاظها معنى إلٰهياً:

- فيعبر عنها عند اليونان بكلمة «ثيميستيس Themistes» نسبة إلى آلهة العدل **ثيميس** Themis (شمس؟)،

- ويعبر عنها عند اليهود بكلمة «أوراكل Oracle» أي الوحي،

- ويعبر عنها عند الإيرلنديين بكلمة «دومس Dooms» وفيها معنى القضاء الإلٰهي[1].

ذلك قول العلماء عن فكرة الحق الإلٰهية في الأزمنة التاريخية وفيما قبل الأزمنة.

٨ - هذا ما قاله العلماء **عن المرحلة الإلهية** الأولى لفكرة الحق في اعتقاد الأمم والشعوب في **الأزمنة التاريخية**،

وأضاف العلماء وقالوا: وكذلك كان اعتقاد الناس خلال العصور الأولى من عهود الفطرة[2] **فيما قبل أزمنة التاريخ**.

القوانين الإلٰهية والطبيعية تؤلف وحدة في مراحل الفكر الأولى.

٩ - ويقول الأستاذ الدكتور ستانلي كوك[3]: «ومن الاعتقادات الشائعة بين الشعوب الساذجة أن **الفوضى الأخلاقية تؤثر في نظام الطبيعة**،

«وكأن القوانين التي **ينبغي للناس أن يتبعوها** ليدرجوا في معارج الرقي، والقوانين التي **تلتزمها الطبيعة** في خلال تطورها نحو الرقي: **واحدة لا يختلف بعضها عن بعض**،

---

(١) نفس المرجع قبله، علي بدوي، الصفحة ٢٧.

(٢) نفس المرجع قبله.

(٣) **تاريخ العالم** هامرتن Hammerton، ترجمة وزارة المعارف العمومية المصرية، العدد ١١، الصفحة ٦٧٧.

«أو كأن **القوانين الإلهية وقوانين الطبيعة** تؤلف جميعها نظاماً واحداً؛

«وهذه العقيدة مما تمتاز به **مراحل الفكر الأولي**، وقد كانت ذات شأن أساسي خطير في نمو الأفكار».

والمجتمع البشري والطبيعة شيئان لا يفرق بينهما.

١٠ ـ ويقول الأستاذ ستانلي كوك السابق[١]:

«وكان **المجتمع البشري** وما نسميه نحن **الطبيعة** شيئين لم يكن يُستطَاع التفريق بينهما تفريقاً واضحاً؛

«ولذلك كان الإجرام الخلقي في حق الناس والتفريط في الطقوس والشعائر الدينية في حقوق الآلهة والقوى الروحية ذات السلطان **متساويين في الخطورة وجلب العقاب**».

المراد من ذلك: القول بالتلازم ما بين طبيعة الإنسان والإيمان بوحي الفطرة، وبأن غضب الطبيعة من غضب الآلهة عقوبة.

١١ ـ **ويشير الأستاذ** ستانلي كوك فيما تقدم من أقواله إلى ما أثبتناه في مطلع الفصل من الصلة المتلازمة ما بين طبيعة الإنسان الأول والإيمان بالخالق: بوحي من الفطرة ومن الطبيعة من جهة؛

كما يشير من جهة ثانية إلى أن كل ما يصيب الإنسان من غضب الطبيعة إنما هو من غضب الآلهة جزاء خروج الإنسان على قواعد الفطرة والأخلاق.

الجماعات الأولى تنسب كل حادث طبيعي إلى إله خاص.

١٢ ـ وكذلك ينقل الأستاذ علي بدوي في كتابه «أبحاث التاريخ العام للقانون»[٢]: إن الجماعات البشرية في حالة الفطرة كانت تنسب كل حادث من **الحوادث الطبيعية** إلى عامل إلٰهي، أي إلى إلٰه خاص: وظيفته أن يتولى القيام بهذا الحادث.

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٦٨٢.

(٢) الصفحة ٢٨٢٧.

الطبيعة نفسها ردَّت الإنسان الأول إلى خالقه وخوَّفته من الخروج عن طاعته.

١٣ ـ وهكذا استشعر الإنسان الأول من **وحي الطبيعة** أن الطبيعة نفسها:

ترده إلى الرجوع في كل أمر من أموره إلى خالقه، وإلى الامتثال لأوامره؛

ـ وتخوفه من الخروج عن طاعته؟

وبذلك صبغ وحي الطبيعة سلوك الإنسان بصبغة دينية.

١٤ ـ وبذلك صبغ **وحي الطبيعة** سلوك الإنسان في حياته، وكل خطوة من خطواته **بصبغة دينية**، وبأوامر إلٰهية زاجرة قاسرة: هي **القوانين الإلهية**، أو القوانين الطبيعية.

ظهور بعض القادة الصالحين من وقت لآخر عُرِفوا بنعوت مقدسة وبالصلة بالعالم غير المنظور، واستنجدوا بأرواحهم ثم عبدوهم.

١٥ ـ وقد كان يظهر في هذه المجتمعات من وقت لآخر قادة صالحون ذوو بصيرة وحكمة وروية يدعونهم إلى الله، ويأمرونهم بالخير، وينهونهم عن المنكر، فتصلح أحوالهم باتِّباعهم، وتنتظم شؤونهم بالانقياد لهم، ويعرفونهم بأسماء ونعوت مختلفة من رسل وصالحين وقديسين؛

وكان «هؤلاء هم وحدهم الذين يتصلون بالعالم غير المنظور[١]؛ فإذا فقدوهم، وألمت بهم الأحداث، استنجدوا بأرواحهم، وطلبوا إنقاذهم كما كانوا يفعلون أيام حياتهم، ثم لا يلبثون حتى يقدسوهم، بل يجسِّموهم ويعبدوهم.

كانت فكرة «الرجل المقدس» أساساً لكثير من الأفكار المتوارثة.

١٦ ـ وكانت فكرة «الرجل المقدس» أو «الملكية الإلٰهية»، ونعني بها تلك القدسية الخاصة التي تخلع على الرئيس أو الحاكم، هي الأساس الذي قام عليه كثير من الأفكار الخطيرة البعيدة الأثر[٢]؛

---

(١) المرجع السابق، هامرتن، الصفحة ٦٧٧.

(٢) نفس المرجع السابق.

وتوارث الناس بعد ذلك هذه الفكرة جيلاً بعد جيل حتى وصلت إلى العهود التاريخية.

ففي بابل: الإلٰه سيد المدينة، والرئيس البشري نائبه وكبير كهنة الرب.

١٧ ـ ففي بابل **كان الإله** هو سيد دولة المدينة وملكها؛ **أما الرئيس البشري** فكان وكيله ونائبه على الأرض، يستمد منه سلطته، كما يستمد منه شعاره، ويحتفظ بكل ما في يده وديعة عنده للإلٰه، بل إن البلد والشعب كليهما ملك للإلٰه...

وكان الملك كبيراً لكهنة الرب: **فكان فرعون** حامي ذمار أوزيريس؛ **وكذلك كان الملك** والأسرة المالكة في غير هذه البلاد يشغلان بصفة عامة أهم الوظائف الكهنوتية، كما كانوا يشغلونها من مصر[١].

وكان إلٰه الملك بمثابة أبيه الذي أنجبه، والملك بمثابة ابنه الحبيب.

١٨ ـ وكان **إله الملك بمثابة أبيه** الذي أنجبه وأعده لهذا المقام، وكان **الملك بمثابة ابنه الحبيب**:

ـ وهكذا كانت الآلهة العظيمة إيزيس **الأم المقدسة** لفرعون، وكانت الآلهة ترضعه؛

ـ وقد خاطب جوديا Gudea ملك شومر أمه الآلهة جاتمداج Gatumdag بقوله: «ليس لي أم فأنت أمي، وليس لي أب فأنت أبي»[٢]؛

ـ وعرف «مانو» في الهند واضع شريعتها وأحد ملوكها المؤلهين: **بابن الله** كما مر معنا سابقاً[٣].

---

(١) نفس المرجع السابق الصحفة ٦٧٧ـ٦٧٨.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٦٧٨.

(٣) الصفحة ٧٥ من هذا المدخل، الفقرة ٣.

وهذا هو المظهر الأول لفكرة الحق في مظهر الوحي الإلٰهي.

١٩ ـ وبعد، فهذا هو المظهر الأول الذي برزت فيه فكرة الحق والقانون: **بمظهر الوحي الإلٰهي**، والأوامر الإلٰهية؛

وقد امتزجت فيه كما نرى الفكرة القانونية بالعقيدة الدينية؛

وليس للقاضي فيه من الملوك والكهان إلاّ دور الوسيط بين الإلٰه والناس؛

وكان الملك في مبدأ الأمر يتولى جميع الوظائف: الدينية والحربية، والإدارية، والقضائية؛ وكان عليه في قضائه أن يتلقى الحكم الإلٰهي، وأن ينطق به(١).

---

(١) **أبحاث التاريخ العام للقانون**، علي بدوي، الجزء الأول، الصفحة ٢٩، طبعة ثالثة، القاهرة سنة ١٩٤٧.

ج ـ المرحلة العرفية لفكرة الحق

١ ـ **العرف، والعادة، والتقاليد**، كل ذلك أسماء متعددة لمدلول واحد فيما يتعلق بموضوعنا.

أسماء واحدة لمدلول واحد.

٢ ـ **والعرف** هو من أقدم مصادر الحقوق لدى جميع الشعوب **بعد الأوامر الإلٰهية** كما مر معنا في البحث عن الهند والصين واليونان والرومان، وكما سنرى في غير هؤلاء من الشعوب.

العرف لدى الجميع أقدم مصادر الحقوق بعد الأوامر الإلٰهية.

٣ ـ فقد سبق لنا الكلام عن شريعة مانو في الهند (الصفحة ٨٠ : الفقرة ١٨) أننا نقلنا قول القائلين بأنه «لم يكن هناك قبل شريعة مانو تشريع قانوني واحد يشمل الهند بأسرها؛ بل كانت هنالك **أعراف** في شؤون الحياة اليومية: ويسمون تلك الأعراف «ذارماشاسترا»: أي النصوص العرفية التي **تفصل ما للطبقات من نظم وواجبات**»،

تشريع «مانو» في الهند هو النصوص العرفية فيها.

وأنه «قد كتب هذه **النصوص العرفية** رجال من البراهمة؛ وأقدم هذه النصوص ما يسمى «**تشريع مانو**»، و «مانو» هذا هو ذلك السلف الأسطوري الذي تسلسلت عنه جماعة البرهمية؛ وقد صورته هذه النصوص ابناً لله يتلقى القوانين من الإلٰه «براهما» نفسه».

٤ ـ وكذلك سبق لنا أن نقلنا حين تكلمنا عن الصين أننا:

وكذلك كان الحال في

الصين حيث أن السلطان فيها هو للعرف والعادة.

«إذا رجعنا إلى ما نحن في صدده من تاريخ القانون في هذه البلاد، وفي أقدم عهودها، نجد أن السلطان فيها كان **للأخلاق والعاوات** (الصفحة ٨٥ الفقرة ١)؛

وأن الكونفوشية كانت تكره القوانين وتدعو إلى القانون الأخلاقي والاحتفاظ **بالتقاليد القومية السامية** التي أقامت الصين عليها حياتها (الصفحة ٩٦، الفقرة ٥).

وكذلك كان الحال في أثينا حيث كان تشريع دراكون صوغاً لأعرافها.

٥ ـ ونقلنا نحو ذلك عند الكلام على قوانين دراكون في اليونان، وقلنا إن دراكون: «قد جمع في قوانينه ما كان في نظام الإقطاع من **عاوات قاسية مثيرة** وخالية من النظام (الفقرة ٤)»؛

وذكر الأستاذ علي بدوي في كتابه «أبحاث التاريخ العام للقانون» أن قانون دراكون وضع في أثينا حوالي عام ٦٢٠ قبل الميلاد، «وكان الغرض من وضعه **صوغ التقاليد** والنظم القانونية في نصوص مدوَّنة، منعاً لاحتكارها في أيدي الأشراف، ووقاية من تطبيقها لمصلحة طائفة دون أخرى»(١).

وكذلك كانت الألواح الإثنا عشر في روما تثبيتاً للعرف.

٦ ـ ونقلنا مثل ذلك عن الرومان حين تكلمنا عن «خصائص الحقوق الرومانية الأصيلة» (الفقرة ٢) وقلنا: «إن **العرف** كان المصدر الأساسي للحقوق، وإن نشر الألواح الإثني عشر في سنة ٤٤٩ قبل الميلاد لم يكن **إلا تثبيتاً للعرف**».

فما هو العرف ومستنده

٧ ـ فما هو **تعريف العرف**، أو العادة أو التقاليد؟

---

(١) الصفحة ٣٤، طبعة ثالثة، مصر سنة ١٩٤٧.

- وما هو **مستند العرف** الذي يجعل له هذه السلطة الملزمة؟

ووقت ولادته وزمن إلزامه.

- ما هو **الوقت** الذي يولد فيه العرف؟

- وفي أي زمن يأخذ الصفة الإلزامية؟

العرف ما استعمله الأجداد.

٨ - **أما تعريف العرف** فقال فيه العلماء: إنه مجموعة من الأعراف **المستعملة من قبل الأجداد**، والمنقولة فيما بين الناس شفهياً في عهد كانت الكتابة غير موجودة أو غير منتشرة(١).

مستند العرف الموافقة الضمنية.

٩ - وأما **مستند العرف** في سلطته الملزمة فهو على ما أشار إليه الفقيه الفينيقي أولبيان Ulpien في عهد الإمبراطورية الرومانية العليا: ناشىء عن كون هذه الأعراف المستعملة كانت معمولاً بها منذ زمن بعيد، وذلك **بموافقة ضمنية** من قبل الجميع(٢).

وقت ولادة العرف قيام ظروف خاصة.

١٠ - وأما فيما يتعلق **بوقت ولادة العرف** فقد قيل في ذلك: إنه إنما يولد غالباً تبعاً **لقيام ظروف خاصة تقتضيها**، وذلك نتيجة لتغير في أوضاع الحياة الاقتصادية أو اتصال بجماعات أخرى من الشعوب(٣).

زمن اكتسابه السلطة الإلزامية هو زمن الاعتراف به في المجتمع.

١١ - وأما فيما يتعلق **بتحديد الوقت** الذي يكتسب فيه العرف سلطته الإلزامية فإن الأبحاث الاجتماعية قد دللت على أن العرف لا يكتسب سلطة إلزامية إلا في الوقت الذي تأمر به أو **تعترف به هيأة اجتماعية معروفة**، وأن الذين كانوا ينطقون

---

(١) انظر كتاب Précis de Droit Romain لمؤلفه Giffard، الجزء الأول، الصفحة ٢٣، طبع داللوز في باريس سنة ١٩٣٣.

(٢) انظر كتاب Manuel Elémentarie de Droit Romain لمؤلفه Monier، الجزء الأول، الصفحة ٣٠، طبع باريس سنة ١٩٤٧.

(٣) نفس المرجع قبله: Monier، الجزء الأول، الصفحة ٣٠.

بالحقوق ويعرفون الأعراف والعادات في روما كانوا هم هيأة الكهنة[1].

الملوك والكهنة لدى جميع الشعوب لعبوا دوراً في تكوين العرف وإعطائه الصفة الإلزامية.

١٢ ـ ومما لا شك فيه أن الملوك والكهنة في روما، وفي غيرها من بقية الأمم والشعوب القديمة:

ـ قد لعبوا دوراً كبيراً في **تكوين الأعراف** الحقوقية،

ـ وهم الذين أعطوها أيضاً هذه **الصفة الإلزامية** بما أصبغوا عليها من صفة دينية،

وذلك **منذ اتخذوا** هذه الأعراف المستعملة أساساً لأحكامهم القضائية في الوقائع الحقوقية المحدثة، **ومنذ وفقوا** ما بين هذه الأعراف وبين تطورات الحياة الاجتماعية[2].

العرف يلازم الجماعة منذ نشأتها.

١٣ ـ والعرف في نشأته **يلازم الجماعة** قطعاً منذ أول نشأتها في المجتمع البشري:

ـ إذ يستحيل على **الجماعة** أن تحتفظ بكيانها من غير نظام،

ـ ولا وجود **للنظام** بغير قواعد من أحكام تضمن للجماعة أن يعايش بعضهم بعضاً.

العرف قد يختلف من جماعة لأخرى تبعاً لاختلاف الظروف والشروط.

١٤ ـ غير أن قواعد العرف **قد تختلف** في جماعة عنها في أخرى تبعاً لاختلاف الظروف والشروط التي استدعتها وأوجدتها في كل جماعة؛

ولكنها ينبغي أن يكون جوهرها في **الجماعة الواحدة** واحداً على كل حال.

---

(١) انظر كتاب Giffard الأسبق، الجزء الأول، الصفحة ٢٣.

(٢) انظر كتاب مونييه Monier الأسبق، الجزء الأول، الصفحة ٣٠.

١٥ ـ وقد يدخل في الأعراف **ما تواضع عليه الناس** وتوافقوا عليه في زمنهم من صور السلوك مما وجدوه نافعاً لحياتهم، **ولو لم يستعمل من قبل الأجداد**، لأن هذ **التوافق الصريح** في زمن ما من قبل جماعة من الجماعات هو في قوته فوق **التوافق الضمني** الذي افترضناه في الأجيال السابقة ولدى الأجداد السابقين.

ويدخل في الأعراف ما توافق عليه الناس ولو لم يستعمله الأجداد.

١٦ ـ وأرى أن العرف المستعمل من قبل الأجيال المتتابعة بتوافق ضمني **إنما يستمر سلطانه من قانون الانتخاب الطبيعي** الذي يبقي على الصالح، ويزيل الفساد خلال ما يصادفه الناس من تجاربهم في الحياة، وذلك لأن الأعراف والتقاليد ما هي إلا: «الانتخاب الطبيعي لألوان السلوك التي ثبت صلاحها في خبرة المجتمع»[١].

أرى أن سلطان العرف مستمد من قانون الانتخاب الطبيعي الذي يُبقي على الصالح.

١٧ ـ وهكذا تغدو **هذه الأعراف** في الجماعات البدائية التي لا تعرف القانون المكتوب **تقاليد حيوية**:

- تنظم كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية،
- وتكسب النظام الاجتماعي اطراداً وثباتاً،
- ويخلع عليها الزمن بانقضائه سحره شيئاً فشيئاً،
- وتصبح للفرد باستمرار تكرارها **طبيعة ثانية**[٢].

وهكذا فالأعراف البدائية هي تقاليد حيوية وطبيعة ثانية للإنسان.

١٨ ـ وإذا أصبحت الأعراف طبيعة ثانية للإنسان **شعر بالخوف والقلق والعار كلما جاوز حدودها**، وذلك هو أصل الضمير أو **الحس**

القلق من مجاوزة الأعراف أصل الحس

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الأول، الصفحة ٥٠، طبع مصر سنة ١٩٤٩.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٦٥.

الأخلاقي الفاصل بين الإنسان والحيوان.

الأخلاقي الذي اختاره داروِن ليكون أظهر فارق يميز بين الحيوان والإنسان[١].

تقاليد الآباء إذا أيَّدها الدين أصبحت فوق سلطان القانون.

١٩ ـ وإذا أضيف إلى هذا الأساس الطبيعي في الأعراف والتقاليد **تأييد يأتيه من السماء** عن طريق الدين، كما كان الشأن في المجتمعات الفطرية القديمة، وأصبحت أعراف الآباء وتقاليد الأجداد هي أيضاً ما تريده الآلهة من سلوك، أصبح سلطان هذه التقاليد عندئذ فوق ما نعرفه اليوم من سلطان للقانون[٢].

مجاوزة القانون قد تكسب الإعجاب.

٢٠ ـ بل إنك إذا جاوزت اليوم **حدود القانون** فقد تكسب إعجاب نصف الناس الذي يحسدون في أعماق أنفسهم كل مَنْ يستطيع أن يتغلب بذكائه على هذا العدو القديم؛

ولكن مجاوزة التقاليد تكسب مقت الجميع.

ولكنك إذا جاوزت **حدود التقاليد** فأنت قمين أن تصطدم بمقت الجميع، **لأن التقاليد** تنشأ من **الناس أنفسهم وأما القانون** فيفرض عليهم فرضاً[٣].

الأعراف أساس مستقر تحت الظواهر الاجتماعية كلها.

٢١ ـ وهكذا ترى أن الأعراف والتقاليد هي أساس ثابت مكين، ومستقر تحت الظواهر الاجتماعية كلها، وهي بمكان الصخرة الراسخة في أسفل البناء.

الأعراف ألوان من الفكر خلع عليها الزمان هالة من تقديس ومنحت المجتمع الثبات والنظام.

٢٢ ـ وما قوام الأعراف والتقاليد **إلا ألوان من الفكر**، وضروب من الفعل التي خلع عليها مرور الزمان هالة من تقديس؛

فهي التي تمد المجتمع بشيء من الثبات والنظام إذا ما انتفى القانون، أو تغير، أو اضطرب؛

---

(١) المرجع السابق، الصفحة ٦٥.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ٤٩ـ٥٠.

(٣) نفس المرجع السابق.

وهي فيما تعطيه للجماعة من استقرار تشبه الوراثة والغرائز فيما تعطيانه من استقرار للنوع البشري.

وستظلُّ الأعراف كامنة وراء الكثير من القوانين.

٢٣ ـ وستظل الأعراف والتقاليد حتى النهاية القوة الكامنة وراء الكثير من القوانين:

ـ حين يقرر الإنسان أي نوع من السلوك ينبغي أن يسلك،

ـ وحين يحكم على أنواع السلوك بالخير والشر[١].

---

(١) المرجع السابق، الصفحة ٤٩ـ٥٠.

د ـ المرحلة القانونية المكتوبة لفكرة الحق

المرحلة المكتوبة آخر صور القانون وظهرت في الأزمنة التاريخية مسجلة للأعراف أولاً.

١ ـ هذه المرحلة إنما هي مرحلة أخيرة لصور القانون، ولم تظهر إلا في الأزمنة التاريخية كما تقدم معنا، وذلك منذ عرف الإنسان الكتابة واستعملها؛

ولم تكن هذه المرحلة في **بدء ظهورها إلا تسجيلاً** لنفس الأعراف والتقاليد، **وتسجيلاً** لما دخل فيها من الأوامر الإلٰهية التي أصبحت جزءاً منها.

فكرة الحق إنما وصلت إلى صورتها الحاضرة المدونة بعد تطور طويل من أوامر إلٰهية فأعراف غير مدونة.

٢ ـ وذلك لأن فكرة الحق والقانون لم تصل إلى صورة شبيهة بها في العصر الحاضر: أي إلى صورة **نصوص مدوّنة مضمونة من قبل السلطات العامة**، إلا بعد تطور طويل المدى كانت في خلاله كما سبق معنا:

أولاً ـ **أوامر إلٰهية** يختص باستطلاعها أفراد صالحون ذوو بصيرة وحكمة وروية، أو ملوك وكهنة يستلهمونها،

ثانياً ـ **أعرافاً غير ثابتة**، وتقاليد غير مدونة ولا محدودة، تمتزج فيها العناصر والطقوس الدينية في أكثر الأحيان، وتختص بتطبيقها وتأويلها طبقات اجتماعية خاصة.

الضامن للحق في الحالتين الإلٰهية والعرفية هو الخوف من الآلهة.

٣ ـ وفي كلتا الصورتين السابقتين كان **الضامن الأساسي** لتلك القواعد والأحكام الإلٰهية والعرفية هو الخشية من غضب الآلهة وسخطهم إذا حادوا عن أوامرها.

٤ ـ ويشير هوميروس الشاعر اليوناني (٩٠٠ ق. م.) فيما تركه لنا في **الإلياذة** Ilaide والأوديسة Odyssée[(١)] إلى ما يصيب الملك من غضب الآلهة إذا ظلم في حكمه ولم يسمع لصوت الآلهة، وإلى نزول الإله الشمس إلى الأرض إذا لم يقض بالثأر على مَنْ قتل ماشية «أوذيس»[(٢)].

هوميروس يشير إلى ما يصيب الملك من غضب الآلهة إذا ظلم.

٥ ـ وكذلك كان السائد عند قضاة إرلندة القديمة Brehions: أن القاضي الذي يظلم في حكمه ولا يحكم بالعرف الذي تكوّن من الأحكام الملهمة يصاب بأورامٍ في وجهه، ويسبب سقوط ثمار الزرع من الغضب الإلٰهي ليلة صدور حكمه[(٣)].

وكذلك كان الاعتقاد عند قضاة إرلندة القديمة.

٦ ـ ولكن هذا الشعور الديني قد **ضعف مع الأيام**، واشتركت في إِضعافه عوامل مختلفة في أنفس الدعاة والمدعوين:

ضعف هذا الشعور الديني بسبب أدعياء الدين واستعلاء الطاغين.

ـ ومنها **أدعياء الدين** الذين لم يمتازوا عن غيرهم بشيء مما يرفعهم في أنظار العامة عن مستوى الناس ليستمعوا إليهم ويتبعوا إرشاداتهم، فشك فيهم الضعيف، وتعالى عنهم القوي؛

ـ ومنها **استعلاء الطغاة** عن الخضوع للحق، والتنكر للضعفاء.

٧ ـ ونشأ عن هذا وذاك:

ونشأ عن ذلك ضعف

---

(١) انظر معنى الكلمتين في الصفحة ١١٤ من هذا الكتاب.

(٢) انظر كتاب Notes on Ancient Law، لمؤلفه بولوك Pollock الصفحة ٢١، ـ نقلاً عن علي بدوي من كتابه **أبحاث التاريخ العام للقانون**، الجزء الأول، الصفحة ٣١، الحاشية/ ١/، طبعة ثالثة، القاهرة سنة ١٩٤٧.

(٣) نفس المرجع السابق.

سلطة الملوك وانتقال الحكم إلى طبقة أرستقراطية احتكرت العرف وحكمت بأحكام كيفية.

أولاً ـ **ضعف سلطة** الملوك والرؤساء والمتحكمين الذين كانوا يستمدون سلطتهم من سلطان الآلهة،

ثانياً ـ **انتقال الحكم** في حقيقته، على الرغم من اختلاف أشكاله، إلى طبقة أقلية ارستقراطية من ذوي القدرة حاولت بدورها أن تحل محل أولئك في السلطة، وكان لا بد لها من **احتكار معرفة القواعد العرفية** لنفسها، لتضمن مصالحها وتثبت أوضاعها الشاذة عن أحكام القانون الطبيعي، وتحكم باسم العرف وسلطانه ولكن **بأحكام كيفية ظالمة**.

نشأ عن احتكار العرف جهالة قواعده وشعور العامة بالغبن.

٨ ـ وتولد من **احتكار** الطبقة الحاكمة الارستقراطية لمعرفة القواعد العرفية أن غدت هذه القواعد **مجهولة** من عامة الشعب، **وغامضة** عليهم؛

وترتب على هذا الغموض **شعور العامة بالغبن**، وبأن طبقة الأقلية الحاكمة تستفيد من هذه الحالة، وتفسّر التقاليد العرفية بما يتفق ومصالح طبقتهم[١].

وزاد في شعور الغبن رغبة العامة في التساوي مع الطبقة الحاكمة.

٩ ـ وزاد في شدة هذا الشعور **رغبة العامة في التساوي** مع الطبقة الحاكمة في الحقوق، وفي الاشتراك معهم في الحكم؛

وهذا ما حدث في إيطاليا، وآسيا، وفي اليونان على الأخص: حيث توصلت طبقة الأشراف في أثينا ـ بسبب احتكارهم تفسير التقاليد وتطبيقها في تحديد سعر فائدة الدين وفي المعاملات الخاصة بالأراضي الزراعية ـ إلى إثقال

---

(١) **أبحاث التاريخ العام للقانون**، علي بدوي، الجزء الأول، الصفحة ٣٢، طبعة ثالثة، مصر سنة ١٩٤٧.

العامة بالديون، وإلى الاستئثار بالأراضي، مما أثار سخط العامة على نظام الحكم[1].

١٠ ـ وبذلك تمهد الطريق لثورة العامة؛

تمهد للعامة بذلك طريق الثورة، وسهّل اكتشاف الكتابة تحقيق الآمال.

وسهل عليهم تحقيق آمالهم اكتشاف فن الكتابة وانتشاره، فطالبوا بتدوين القواعد العرفية، ووضعها في نصوص محدودة، كي تكون معرفتها في متناول الجميع، وكي يعلم كل فرد حقوقه وواجباته بطريقة لا لبس فيها.

وبتدوين الأعراف تمت مرحلة التقنين.

١١ ـ وبتدوين الأعراف **تمت المرحلة الأخيرة** التي وصلت إليها القواعد الحقوقية في العصور القديمة، وسميت **بمرحلة التقنين** أو تدوين القواعد العرفية في نصوص محدودة ثابتة.

وقام في كل أمة مَنْ دَوّن أعرافها وتولت الحكومة إصدارها.

١٢ ـ وهكذا قام في كل أمة من الأمم السابقة، تبعاً لتطورها ودخولها في تاريخ الحضارة، مَنْ جمعَ تقاليدها وأعرافها في نصوص مدونة منقوشة على الأحجار، أو على ألواح من الخشب أو البرنز أو الفخار، وتولت حكوماتها إصدارها ونشرها على العامة في أمكنة مخصصة لذلك.

غير أن حلول القانون محل الأعراف لم يكمل قط، وستظل الأعراف كامنة وراء القانون حين الحكم على السلوك بالخير أو الشر.

١٣ ـ غير أن حلول القانون محل الأعراف والتقاليد لم يكمل في يوم من الأيام وستظل التقاليد حتى النهاية هي القوة الكامنة وراء القانون كما نقلنا ذلك من قبل حين تكلمنا عن المرحلة العرفية لفكرة الحق، وذلك في حالين على الأقل:

ـ حين تقرر الجماعات أي نوع من السلوك يجب أن تسلك،

(١) نفس المرجع السابق.

- وحين تلفظ حكمها على أنواع السلوك بالخير أو بالشر.

ويرى بعض الباحثين أن القانون المكتوب ملازم للمجتمعات الراقية، وفقدانه من خصائص انحطاطها.

١٤ - ويرى بعض الباحثين:

- أن القانون «يأتي مصاحباً للملكية والزواج والحكومة،

- وأن «أحط المجتمعات تدبر أمرها بغير قانون»[١]؛

ويعني بذلك أن القانون المكتوب حين ظهوره لدى الإنسانية كان ملازماً لمجتمعاتها الراقية، ولم يعرفه الإنسان إلا صحبة ظهور الحكومة، وصحبة ظهور نظام الملكية والزواج!

كما يعني أن فقدان القانون المكتوب هو من خصائص المجتمعات المنحطة!

ولست أرى ذلك.

١٥ - ولست أرى ذلك لا في الأمر الأول، ولا في الأمر الثاني.

ودليلنا على ذلك أن جميع شعوب الأزمنة التاريخية المتحضرة عرفت الحكومة وأنظمة الزواج والملكية قبل معرفة القانون المكتوب.

١٦ - **أما فيما يتعلق** بأن القانون المكتوب ملازم للتقدم الذي **يرافق ظهور الحكومة وأنظمة الزواج والملكية** قطعاً فإنه لا يتفق مع الواقع؛

وذلك لأنه من الثابت أن جميع الشعوب المتحضرة في الأزمنة التاريخية قد عرفت وجود الحكومة وأنظمة الزواج والملكية قبل أن تعرف القانون المكتوب؛ وكانت جميعها محكومة في كل ذلك بأعراف وتقاليد لم تكن في صرامتها وفي صعوبة الخروج عليها دون القوانين، بل كانت أشد تأثيراً، وأعظم حرمة ورهبة في النفوس كما مر معنا.

وكذلك فقدان القانون

١٧ - **وأما فيما يتعلق** بأن فقدان القانون المكتوب هو من

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الأول، الصفحة ٤٨، طبع مصر سنة ١٩٤٩.

خصائص المجتمعات المنحطة فهو أيضاً لا يتفق مع الواقع الذي شاهده الكثيرون من أهل الملاحظة كما نرى في الأخبار التالية.

المكتوب لا يدلُّ على الانحطاط.

١٨ ـ يقول «الفرد رسل ولاس»: «لقد عشت مع جماعات الهمج في أمريكا الجنوبية وفي الشرق، ولم أجد بينهم قانوناً ولا محاكم سوى الرأي العام الذي يعبر عنه أهل القرية تعبيراً حراً، فكل إنسان يحترم حقوق زملائه احتراماً دقيقاً، والاعتداء على هذه الحقوق يندر وقوعه أو يستحيل، وأن الناس جميعاً في مثل هذه الجماعة متساوون تقريباً»(١).

دليل ذلك في جماعة الهمج حيث تُحتَرم الحقوق من غير قانون مكتوب.

١٩ ـ وكذلك كتب هرمان ملفيل Herman Melville شيئاً مثل هذا عن جزيرة ماركساس Marqusas فقال: «أثناء وجودي بين قبيلة التايبي Types لم يُقَدَّم أحد قط للمحاكم بتهمة الاعتداء على غيره من الناس، وسار كل شيء في الوادي سيراً هادئاً على صورة لا تجد لها مثيلاً في الجماعات المسيحية مهما انتقيت منها خيرها وأصفاها وأتقاها؛ وإِن في هذا القول مني لجرأة استبيحها لأنه قول الصدق»(٢).

دليل ذلك أيضاً في أهل جزيرة ماركساس.

٢٠ ـ ولقد أقامت حكومة روسيا القديمة دوراً للمحاكم في جزر ألوشيا، لكنها لم تصنع شيئاً قط مدى خمسين عاماً؛

ودليل ذلك أيضاً في سكان جزر الوشيا.

ويقول برنْتون Printon: «كانت الجرائم والاعتداءات في قبيلة إِراكوا من القلة في ظل نظامهم الاجتماعي بحيث لا

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع السابق.

تجد ما يبرر أن تقول: إن لهم قانوناً للعقوبات»[1].

بل ذهبت الفلسفة الصينية إلى اعتبار ظهور القوانين مرافقاً للانحطاط.

٢١ ـ بل ذهبت الفلسفة الصينية القديمة إلى اعتبار ظهور القوانين مرافقاً للانحطاط لا للتقدم كما كنا نقلناه في محله (الصفحة ٩٥ ـ ٩٦)، وقالوا:

ـ كلما كثرت الشرائع والقوانين كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق،

ـ وإن العاقل من يبتعد عن التيه المفسد: تيه القوانين والحضارة، ويختفي بين أحضان الطبيعة.

ويتضح مما سبق أن فقدان القانون ليس من خصائص المجتمعات المنحطة رغم أن القانون المكتوب مرحلة في التقدم.

٢٢ ـ ويتضح لنا من عرض هذه الأخبار أن القول بأن القانون المكتوب «يأتي مصاحباً للحكومة والملكية والزواج، وأن المجتمعات المنحطة تدبر أمرها بغير قانون»، كأن فقدان القانون المكتوب ملازم للانحطاط ـ هو قول لا يتفق مع الواقع، رغم أننا نعتقد في القانون المكتوب أنه مرحلة لا شك فيها من مراحل التقدم الإنساني في هذا المضمار.

(١) نفس المرجع السابق.

الباب الثالث

النظم القانونية في المجتمع الفطري

أ ـ نقطة الانطلاق في هذا البحث.

ب ـ مجمل نظم المجتمع الفطري.

ج ـ الغذاء والإباحة.

د ـ المرأة والزواج.

هـ ـ الأسرة وشخصية الفرد فيها.

و ـ الأشياء والملكية.

ز ـ الخصومات والفصل فيها.

ج ـ السلطة ذات السيادة والدولة.

أ ـ نقطة الانطلاق في هذا البحث

الكلام عن نظم المجتمع الفطري طريف ولا يزال تخميناً وظناً.

١ ـ إن الكلام عن **النظم القانونية في المجتمع الفطري** حديث وطريف، وفيه كثير من المتعة التي لا تشبع النهم العلمي في الإنسان للبحث عن ماضيه، وللكشف عن سير خطواته فيه؛

ومعظم القول فيه، وربما كله من غير استثناء، لا يزال افتراضاً وظناً وتخميناً: وذلك لفقدان كل الأدلة المادية التي تشرح لنا حقائق الإنسان في عصور **ما قبل الأزمنة التاريخية**.

يجب الحذر من رد أوضاع بعض همج اليوم إلى عهود الفطرة.

٢ ـ ولكننا رغماً عن اضطرارنا في هذا الموضوع للاعتماد على الظن والافتراض، يجب علينا أن نكون حذرين أشد الحذر، ونحن نبحث عن **المجتمع الفطري الأول**، من أن ننسب إلى عهود الفطرة الأولى ما هو **عارض وطارىء** عليها من أوضاع لدى بعض الهمج في أزمنة متأخرة جداً عن نشأة الإنسان الأول، وخاصة أوضاع بعض الهمج اليوم.

الإنسان أقدم من هذه الأوضاع، وعدم معرفة مبتداها وعواملها لا يكفي لردّها إلى عهد الفطرة.

٣ ـ فقد تكون هذه الأوضاع **إرثاً قديماً** نشأت تحت ضغط عامل من العوامل وظرف من الظروف، ولكن الإنسان أقدم من هذه **الأوضاع العارضة**، والظروف الطارئة؛

ولا يكفي أن تكون هذه الأوضاع قديمة متوغلة في التاريخ، وأن نكون جاهلين مبتداها، وغير عارفين العوامل التي استدعتها أو الظروف التي أنشأتها، حتى نردها بسبب **قدمها** هذا إلى عهد الفطرة الأولى: حيث نشأ آدم وحواء،

وحيث أنجبا ما أنجبا من الأولاد وكوّنا أول أسرة، وأقاما أول مجتمع فطري: تحت سلطة الرئيس الأول للأسرة البشرية، وأجنحة الأم الأولى للمجموعة الإنسانية.

الواصفون لأقزام أفريقيا يرون في شيوعية المرأة لديهم مرحلة ابتدائية زالت من تاريخ الإنسانية مبكرة.

٤ ـ فقد وصف الواصفون أقزام أفريقيا[١]:

ـ بأنهم لا يعرفون أنظمة الزواج في حياتهم،

ـ وأنهم يشبعون غرائزهم الحيوانية إشباعاً كاملاً بغير ضابط؛

ثم عقبوا على ذلك وقالوا: «ولكن هذا **التأميم للنساء** الذي يقابله **الشيوعية البدائية في الأرض والطعام** قد زال في مرحلة مبكرة من تاريخ الإنسانية بحيث لم يبق من آثاره اليوم إلاّ قليل[٢].

يرى هؤلاء أن الزواج من ابتكار الحيوان.

٥ ـ بل ذهب هؤلاء الواصفون إلى أبعد من ذلك وقالوا: إن الزواج إنما كان من ابتكار أجدادنا الحيوان!! فبعض الطيور يعيش عيشة الأزواج التي تنسل في رباط بين الزوجين لا يعرف الطلاق[٣].

يرى هؤلاء الواصفون من خلال بعض الأقزام أن الحيوان أرقى من الإنسان في هذه الأحوال.

٦ ـ وهكذا يرى هؤلاء من خلال وقائع بعض الأقزام التي لها عواملها الخاصة:

ـ إن الإنسانية مرّت في مرحلة انتقال من الفوضى الجنسية، وشيوعية المرأة الواحدة بين جميع الرجال،

ـ وأن الحيوان الأدنى في بعض حالاته قد لفت نظر الإنسان ليقلّده في إقامة الأسرة، واختصاص كل ذكر بأنثاه!!

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الأول، الصفحة ٦٧، طبع القاهرة سنة ١٩٤٩.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٦٧.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٦٦.

فالحيوان إذن في مثل هذه الأحوال أرقى من الإنسان لدى هؤلاء الباحثين، وهو الذي علّمه ما كان يجهل، وعرّفه ما لم يعرف!

رد بعض شذوذ الهمج إلى عهود الفطرة دون البحث عن عوامله الخاصة هو ضلال في التخمين.

٧ ـ وهكذا يكون الخطل والضلال في الدراسة والتخمين:

ـ ذلك الضلال الذي دفع البعض لأن ينسبوا إلى عهود الفطرة ماهو عارض وطارىء عليها،

ـ وأن يتصوروا عهود الفطرة بمجرد التخمين، وبالاعتماد على طارىء عارض لا على أصل ثابت،

ـ وأن يعتبروا عهود الفطرة عهوداً همجية دونها همجية الحيوان، اعتماداً على بعض الوقائع في الانحلال والشذوذ لدى بعض الهمج اليوم، دون أن يكلّفوا أنفسهم البحث عن عوامل ذلك الانحلال والشذوذ.

لا بدّ لنا من دليل أصيل لمعرفة الأوضاع الفطرية الأولى.

٨ ـ لذلك لن نعتمد على شيء من الأوضاع الحاضرة لدى بعض المجتمعات البدائية لنرى من خلالها الأوضاع الفطرية الأولى، ما لم يؤيد ذلك دليل فطري أصيل لدى الإنسان الأول الذي نبحث عنه وعن مجتمعاته الفطرية.

ويقول دوكوجي في هذا المقام، وحول ما وضع من نظريات عن النظم الحقوقية للأسرة في المجتمعات الأولى من خلال عادات القبائل الهمجية الحاضرة والشعوب الحديثة المتحضرة: «إن معظم هذه النظريات لم تصمد أمام النقد، وفقدت اليوم اعتبارها»[١].

---

(١) كتابه في **مراحل الحق**، الجزء الأول، الصفحة ٤٢، طبع باريس سنة ١٩٤٢.

لذلك لن نعتمد على حاضر الأسكيمو وشذوذهم لنحكم منه على عهود الفطرة الأولى.

٩ ـ ولهذا لن نعتمد أيضاً على ما نقله المخبرون أيضاً عن أبناء الأسكيمو من سكان المنطقة القطبية: حيث لا مندوحة لدى هؤلاء من قتل والديهم إذا ما أصبح هؤلاء من الشيخوخة بحيث لا يقوون على شيء، ولا يصلحون لشيء؛ وأن الامتناع عن قتلهم في مثل هذه الحالات يعتبر مجافاة لواجب البنوة(١).

ولن نحكم، أخذاً من هذا الوضع الشاذ الحاضر، على البشرية في عهودها الفطرية الأولى بأنها كانت تفعل ذلك!! ولو قلنا بهذا القول لارتكبنا ضلالة في الدراسة لا تعدلها ضلالة!

بل نبحث عن عوامل هذا الشذوذ.

وإنما الواجب في مثل هذه الحال أن نبحث عن عوامل هذا الوضع وأسبابه وظروفه، وقد قال في ذلك الباحثون: إنها غلاء الطعام وندرته، وكذلك الأمر حيث يغلو الطعام ترخص الحياة(٢)؛ وقد يكون لذلك لدى هذه القبائل عوامل أخرى، ودوافع أقوى.

في دراسة عهود الفطرة لا يجوز البدء بالجزم بهمجيتها ففي ذلك بخس لها مخالف للواقع.

١٠ ـ بل يجب علينا في مثل هذه الدراسة أن لا نبدأ من نقطة نقطع بها قطعاً ونقول إنها **هي الهمجية وحدها** التي رافقت عهود الفطرة الأولى، فإننا إن فعلنا ذلك نبخس كثيراً من قيمة هاتيك العهود الأولى «التي تستطيع أن تعلّمنا كثيراً جداً من الجود وحسن الخلق؛ ولو أننا أحصينا أسس المدنية ومقوماتها لوجدنا أن الأمم العريانة قد أنشأتها، أو أدركتها جميعاً»(٣).

---

(١) **قصة الحضارة**، السابق، الصفحة ٩٣.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٩٣.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٩.

١١ ـ ونرى أن نقطة **الانطلاق الخاطىء** التي انطلق منها الباحثون حين بحثوا عن المجتمع الفطري الأول هي أنهم بحثوا في مجتمعات الإنسان **في الأزمنة التاريخية** بعد أن مضى على وجود الإنسان عشرات الألوف من السنين، بل مئات، وقيل ملايين، حيث انتشر النوع الإنساني في كل مكان على الأرض في عهود حسبوها ـ لقدمها وتأخرها عن مألوفنا ومجتمعاتنا ـ أنها عهود الفطرة الإنسانية الأولى، ونسبوا ما في بعض أوضاعها من تأخر، بل نسبوا ما هو معروف اليوم أيضاً لدى أقزام أفريقيا وأمريكا من أوضاع متأخرة وحشية، نسبوا كل ذلك إلى بقايا العهد الفطري للإنسان الأول!! رغم ما بين هذا الإنسان وبين هذه الأوضاع الطارئة من عهود وأزمان متباعدة لا يمكن تحديدها.

أخطأ الباحثون في عهود الفطرة بالاعتماد على أوضاع طارئة هي مجتمعات الأزمنة التاريخية رغم ما بين هذه وعهود الفطرة من بعد.

١٢ ـ إن هذه المجتمعات ليست قطعاً هي المجتمعات الفطرية الأولى، بل هي مجتمعات عارضة وطارئة، وقد عمل في تكوينها عوامل حديثة مختلفة: سواء ما طبع منها **بطابع حضاري**، أو ما طبع منها **بطابع متأخر وحشي**.

مجتمعات الأزمنة التاريخية رغم قدمها هي حديثة.

وقد شغل الباحثون **بسعة آفاق** هذه المجتمعات القديمة عن البحث **في نواتها الأولى** منذ كانت تحت سلطان أبي البشر آدم وأمهم حواء، وضاعوا في تيهها، عوضاً عن الرجوع إلى مصدرها في نواتها الأولى، ومتابعة تطور الحياة الفطرية من هذه **النقطة الأولى للانطلاق الصحيح**.

وقد شغل الباحثون فيها عوضاً عن البحث في نواتها الأولى.

١٣ ـ مثل واحد يوضح لنا مقدار التفاوت العظيم في عرض النتائج العلمية الصحيحة عن المجتمع الفطري الأول، هو مشكلة البحث عن **نشأة نظام الزواج**، واختصاص الرجل بزوجته ومتى كان؟ وذلك فيما لو ابتدأنا بعرضه:

بحث مشكلة الزواج في مجتمعات قديمة لكنها متأخرة في نشوئها عوضاً

عن بحثها في النواة الأولى يوضح التفاوت بين النتائج العلمية.

- إما من **المجتمعات القديمة**، ولكن **منذ ملأ** البشر في أزمنة متأخرة عن نشوئه جميع بقاع الأرض بطوائفه وبقبائله وبشعوبه العديدة المختلفة في أعرافها وتقاليدها وشعائرها وأديانها، **ومنذ ظهر** في بعض قبائله المتأخرة وقائع تدل على فقدان نظام الزواج وعلى شيوعية المرأة الواحدة بين جميع الرجال؛

- وإما ببدء عرضه من **الأُسرة البشرية الأولى** تحت رئاسة آدم وأمومة حواء.

بحث المشكلة لدى الأسرة الأولى يقطع الطريق على القول بفوضى الصلات الجنسية.

١٤ - إن البدء بدراسة مشكلة نشأة نظام الزواج منذ الأسرة الأولى **في أسرة آدم وحواء** يقطع الطريق على كل افتراض، ولا يبقي لنا إلا حقيقة واحدة هي اختصاص آدم بحواء، وذلك لعدم وجود غيرها حينذاك من النساء، ولعدم وجود غيره من الرجال؛

وليس هناك حينئذ من إمكان لافتراض فوضى الصلات الجنسية وشيوعية المرأة الواحدة بين جميع الرجال.

الاختصاص بالزوجة حينذاك أنشأ تقاليد بين الأحفاد على الأقل.

١٥ - ولمّا كان من آدم وحواء ما كان من أولاد وأحفاد نشأوا في ظل هذين الأبوين الوحيدين، ورأى هؤلاء ما رأوا من وضع أبويهم، من اختصاص الرجل بزوجته، أصبح ذلك عرفاً وتقليداً على الأقل؛ والأعراف والتقاليد في نظام الأسرة والصلات الجنسية هي فوق القوانين حتى في هذه الأيام.

هذا البدء الطبيعي في الدراسة يحكم بأصالة

١٦ - ولذلك لا نستطيع على ضوء هذا البدء الطبيعي في دراسة أصول البشرية، ونشأة نظمها الاجتماعية، إلا أن نحكم:

ـ بأن الزواج، أي اختصاص الرجل بزوجته، كان هو النظام الأول، واستمر حتى الآن؛

الاختصاص بالزوجة وبأن شيوع المرأة عارض شاذ.

ـ وأن الفوضى الجنسية إذا وجدت وقائعها بعد ذلك لدى الهمج من القبائل المعروفة اليوم، فليست هذه الفوضى إلا عارضة وشاذة عن الأصل: فليبحث عن عواملها وأسبابها.

١٧ ـ **ولكن التغاضي** عن هذا البدء الطبيعي في دراسة الموضوع،

لكن التغاضي عن البدء الطبيعي والانتقال إلى مجتمعات شاذة بعد ذلك بعشرات الألوف أفضى إلى القول بشيوعية المرأة في الأصل وأن الزواج من ابتكار الحيوان.

والانتقال إلى دراسته بعد آدم وحواء بعشرات الألوف من السنين أو ملايينها: بعد انتشارهم في جميع بقاع الأرض،

وعروض ظروف وأوضاع أسروية لم يمكن تصورها في أسرة آدم وحواء الأولى،

ووجود وقائع من فوضى الصلات الجنسية لدى بعض المتأخرين من قبائل البشرية.

كل ذلك فتح مجالاً لدى بعض الباحثين لأن يتخذوا من هذه الوقائع ـ لدى بعض هؤلاء المتأخرين عن ركب البشرية ـ أمارة على أنها من بقايا المجتمع القطري الأول، وعلى أن الزواج فيه واختصاص الرجل بامرأته لم يكن معروفاً حينذاك، وإنما كان الزواج من ابتكار الحيوان الذي لم يلبث الإنسان أن قلَّده فيه، وحارب ما كان نشأ عليه من شيوعية الصلات الجنسية.

١٨ ـ **وهكذا يتضح** لنا مقدار التباين العظيم ما بين النتائج تبعاً لدراسة المشكلة:

المثل السابق يوضح اختلاف النتائج بسبب دراسته في عهود متأخرة

ـ **في عهود متأخرة** جداً عن عهد الأسرة الأولى، والقول فيها بأن الأصل هو الفوضى الجنسية وشيوع المرأة،

شاذة عوضاً عن عهود الأسرة الأولى.

ـ **أو في عهد الأسرة الأولى**، والقول فيها بأن الأصل هو الزواج واختصاص الرجل بزوجته؛

كما يتضح لنا خطأ الفرض الأول لابتنائه على وقائع متأخرة وشاذة، وعلى مجرد الظن والتخمين الذي لا يؤيده الوضع المادي في الأسرة الأولى الفطرية، ولا ما نشأ عنها من أوضاع انقلبت إلى أعراف وتقاليد أصلية على الأقل؛

كما يتضح أخيراً صحة القول الثاني: لأنه لم يكن لآدم غير حواء، ولم يكن لحواء غير آدم.

١٩ ـ هذا، ولا بدَّ من التنبيه هنا إلى أن نظرية بدء الإنسان من أسرة واحدة، كما هو اعتقاد جميع الأديان السماوية، لم يضعفها حتى الآن شيء من شكوك بعض الباحثين، ولم ترتكز هذه الشكوك على أساس علمي.

ب ـ مجمل نظم المجتمع الفطري

من الأسرة الأولى وأولى المجتمعات فقط نستوحي مجمل هذه النظم.

١ ـ والآن نقف معكم على عتبة باب **الأسرة الأولى** لا غير، وأول مجتمع من المجتمعات البشرية الأصلية ـ وذلك قبل أن تعرض عليها الطوارىء في عهود لاحقة قديمة أيضا ـ **لنستوحي منها فقط ومباشرة** ماذا كان من الممكن أن ينشأ عند هذه الأسرة من **مجمل النظم الأساسية** في هذه الحياة الفطرية الأولى التي لا شك في أصالتها، على أن نخوض في البحث في كل منها بعد ذلك بصورة موجزة فيما يلي من المباحث الآتية.

نقف عند أولى المجتمعات للتعرُّف على نظم الفطرة حذراً من أن نرد إلى عهود الفطرة نظماً طارئة لظروف خاصة.

٢ ـ وإننا إذا وقفنا عند باب الأسرة الأولى وأولى المجتمعات نستوحي منها فقط ما كان من **مجمل نظم الحياة الأولى الفطرية**، فذلك حذراً من أن ننسب إليها **نشوء نظم** إنما نشأت في **حياة طارئة** بعد تلك الحياة الأولى بكثير، حين انتشر النوع الإنساني في كل مكان على هذه الأرض:

ـ **مسهماً في حضارة جديدة** اقتضتها ظروف، وكوَّنتها عوامل فوق عوامل الفطرة الأولى،

ـ **أو متراجعاً عن حياة الفطرة** إلى حياة أخرى شاذة ونابية عن فطرة الإنسان الأولى، تحت ضغط ظروف أيضاً وعوامل اقتضتها وكونتها.

النظم الطارئة ولو كانت قديمة لا تصور حقيقة النظم الفطرية.

٣ ـ وأن ما قد ينشأ عندئذ من نظم قديمة أيضاً في هذه **الحياة الطارئة**:

ـ تقدمية كانت، لتساند الفطرة وتدعمها،

ـ أو رجعية لتتأخر عن الفطرة وتحاربها،

لا تعبر أبداً عما عرفه المجتمع الإِنساني الأول من نظم، ولا تصور لنا حقيقة ما كانت عليه **فطرته الأُولى**.

قدم النظم الطارئة وهمجيتها لا يشفع لها كي ننسبها إلى عهود الفطرة.

٤ ـ ولا يشفع عندئذ لمثل هذه النظم الطارئة **قدمها أو رجعيتها** الموغلة في الهمجية لكي نعتبرها صورة عن **حياة أسرتنا الفطرية الأُولى**، وخاصة ما نراه اليوم لدى بعض أقزام أفريقيا وأمريكا وما ألفوه من نظم همجية غريبة: تعاون على تكوينها وتكوين نفوس أصحابها **عوامل وظروف خاصة** لم تكن هي ظروف أسرتنا الأولى في عهد آدم وحواء.

قدَّمنا بعض الوقائع لدى الهمج لظروفهم الخاصة وقلنا بعدم جواز رؤية أوضاع الفطرة من خلال تلك الأوضاع الخاصة.

٥ ـ وقد سبق لنا وأشرنا فيما تقدم من مباحث هذا الباب إلى بعض الأمثلة والوقائع من الحياة الهمجية لدى بعض هؤلاء الأقزام وبعض عوائد الأسكيمو:

ـ مثل شيوعية المرأة الواحدة لدى جميع الرجال عند بعض هؤلاء الأقزام، مما قد يكون سببه ندرة المرأة عندهم في ظرف من الظروف وتداعي تقاليدهم وأخلاقهم أمام جوعهم الجنسي؛

ـ ومثل قتل الوالدين إذا شاخا ولم يعودا صالحين لشيء عند بعض الأسكيمو من سكان المنطقة القطبية حيث يغلو الطعام وترخص الحياة؛

وقلنا في ذلك إِننا نرتكب ضلالة في الدراسة لا تعد لها

ضلالة فيما لو أردنا أن نرى من خلال هذه الأوضاع الهمجية أوضاع أسرتنا الأولى التي لم يكن في ظروفها ما يستدعي هذا الانحلال وهذا الشذوذ.

فما هو مجمل تلك النظم الأولى وما تبعها في الوجود.

٦ ـ وبعد فما هو **مجمل تلك النظم** التي طبعت حياة أسرتنا الأولى في عهدها الفطري؟.

وما هي **أولى تلك النظم** في النشوء؟

وما هي **بقية تلك النظم** التي تبعتها في الوجود؟

للإجابة على ذلك يجب الاستيحاء من طبيعة الحياة حينذاك وحاجاتها الغريزية وترك التخمين.

٧ ـ إن الإجابة على هذه الأسئلة يجب أن تخرج عن نطاق التخمين والظن؛

وللخروج عن هذا النطاق يجب أن نستوحي الإجابة عندئذ من **طبيعة تلك الحياة** ومن **حاجاتها المتنوعة**:

ـ يجب أن نستوحيها أولاً من **الحاجات الغريزية** الملازمة للإنسان منذ أول وجوده، ثم من بعد ذلك من **الحاجات الاجتماعية الطارئة**،

ـ وأن نتدرج فيها من **البسيط إلى المركب**،

ـ وأن نعتمد على **المعلوم الأول** الذي لا شك فيه، لنصل إلى **معرفة المجهول** الذي يستلزمه المعلوم الأول ويقتضيه.

القول بظهور قواعد البيع مثلاً حينذاك ضلالة.

٨ ـ إننا لا شك نرتكب ضلالة كبيرة لو قلنا مثلاً ونحن نتكلم عن أوضاع أسرتنا الأولى: أنهم عرفوا أول ما عرفوا قواعد البيع والشراء!

قواعد البيع هي استجابة لحاجات اجتماعية طارئة على الحاجات الغريزية.

٩ ـ وذلك لأن قواعد البيع والشراء لا تنشأ إلا استجابة **لحاجات اجتماعية تابعة** وطارئة على الحاجات **الغريزية**:

ـ حياة تعددت فيها الأسرات،

ـ وتنوعت فيها الحاجات،

- وظهرت فيها الملكيات الخاصة،

- وضاقت بالإنسان الأسباب ليكون في أسرته الوحيدة، أو في شخصه الفريد، قادراً على إنتاج جميع ما هو في حاجة إليه من مختلف شؤون حياته، فعمد عندئذ إلى التبادل، ثم إلى التجارة؛

وذلك كما نرى هو مرحلة جديدة من **حاجاته الاجتماعية الطارئة**، وهو فوق مطلوب حاجاته **الغريزية في** مجتمعه الفطري الأول: عندما كان في أسرة والديه البسيطة، الفطرية الأولى، وقد خلق الله لهم ما في الأرض جميعاً من غير مزاحم، فأكلوا مما أنبته لهم شاكرين، وعبدوه مخلصين.

الحاجات: غريزية، واجتماعية تابعة وضامنة للأولى.

١٠ - وهكذا نميز ما بين نوعين من الحاجات الإنسانية:

أولاً - **الحاجات الغريزية**، وهي تلك الحاجات التي تكونت لدى الإنسان **بنداء غريزته** منذ أول ظهوره؛ وهي في الجملة تلك **الحاجات الأساسية الضرورية** لحياة الإنسان واستمرارها؛

ثانياً - **الحاجات الاجتماعية**، وهي تلك الحاجات التي تكونت لدى الإنسان **بنداء العقل**، وهي ضرورية أيضاً، ولكنها في النشوء تبع للحاجات الغريزية، وهي في الجملة تلك **الحاجات التابعة** للحاجات الغريزية، وذلك لضمان الحاجات الغريزية نفسها في أمن وسلام.

لكل من الحاجات الغريزية والاجتماعية نظم تسودها وزمن يحدد ظهورها.

١١ - وإذا ميزنا ما بين هذين النوعين من الحاجات واعترفنا **للحاجات الغريزية** بالأصالة والتقدم على الحاجات الاجتماعية، كما اعترفنا **للحاجات الاجتماعية** بأنها ما هي إلا حاجات تابعة لضمان نفس الحاجات الغريزية في أمن وسلام،

وجب أيضاً أن نعترف بأن لكل نوع من هذه الحاجات:

- **نظماً تسودها** وتقتضيها وتتطور معها،

- **وزمناً يحدد ظهور هذه النظم** تبعاً لظهور تلك الحاجات في الوجود سبقاً وترتيباً.

فما هي الحاجات الغريزية وما هي نظمها وكيف وجدت سبقاً وترتيباً.

١٢ - نما هي تلك الحاجات الغريزية التي رافقت الإنسان في وجوده، وأخذت بيده تهديه لما فيه بقاؤه وصلاحه؟

وما هي تلك النظم التي رافقت هذه الحاجات الغريزية، وكيف كان وجودها سبقاً وترتيباً؟.

طبيعة الحياة الفطرية تحدد لنا الحاجات الغريزية.

١٣ - إن طبيعة الحياة الفطرية في الأسرة الأولى هي التي تحدد لنا تلك الحاجات الغريزية التي تكونت **بنداء الغريزة**، من دون حاجة إلى ظن وتخمين، بل بكل ما عرفنا من وسائل الجزم واليقين.

طبيعة غرائز الإنسان تدفعه للعيش الشخصي والاستمرار النوعي.

١٤ - فالإنسان خلق لعيش، وليستمر نوعه في البقاء؛ وقد ركب المبدع لخلقه طبيعته من **غرائز تدفعه** دفعاً:

- إلى تلبية حاجات العيش الشخصي،

- وإلى تلبية حاجات **الاستمرار النوعي**.

في مقدمة الغرائز: الإحساس بالجوع وبدوافع الجنس.

١٥ - وكان في مقدمة هذه الغرئز الضامنة للعيش والبقاء:

- **غريزة الإحساس بالجوع** ليأكل ويعيش،

- **وغريزة الإحساس بدوافع الجنس** ليمارس الحياة الجنسية فيبقى في نوعه ويستمر.

مجمل نظم المجتمع الفطري هو ما استجاب لهاتين الغريزتين.

١٦ - وعلى هذا فإن **مجمل النظم** التي يمكن أن نتصورها **لحاجة الأسرة** الأولى **وشؤون المجتمع** الفطري الأول، إنما هي تلك النظم التي تستجيب لهاتين الغريزتين.

هذه النظم هي ما تضمن حاجات الغذاء والجنس والأسرة والأشياء والقضاء والسلطة ذات السيادة.

١٧ ـ وهذه النظم في الجملة لن تتجاوز النظم التي **تضمن اعداد الحاجات** الضرورية، **وتحمي استمرار الشؤون** الأساسية، وهي الأمور التالية:

ـ الغذاء.

ـ والجنس،

ـ والأسرة،

ـ والأشياء اللازمة للأسرة،

ـ والفصل في الخصومات عند حصولها،

ـ وأخيراً السلطة ذات السيادة.

هل نظم هذه الحاجات قديماً هي نفس نظمنا اليوم؟

١٨ ـ فما هي أسس **تلك النظم** التي سادت هذه **الحاجات والشؤون الضرورية** في ذلك العهد الفطري، وتحكّمت فيها؟

وهل هي نفس النظم والأسس التي عرفها العالم الحديث، وكذلك جميع العوالم القديمة المتحضرة؟

أم أنها نظم وأسس ومبادىء أخرى؟

المباحث التالية تتولى الإجابة بعيدة عن الظنون.

١٩ ـ المباحث التالية هي التي ستتولى الإجابة على ذلك بطريقة أقرب ما تكون إلى الصواب، وأبعد ما تكون عن الظن والتخمين المجردين عن كل ما يؤيدهما: من وحي فطرة الإنسان، وعوامل طبيعته.

ج ـ الغذاء والإباحة

بنيان الإنسان صممه مبدعه على أساس يضمن حياة شخصه واستمرار نوعه بدافع الغريزة.

١ ـ إن الذي أبدع الكون، وخلق الإنسان، قد أقام تركيب هذا الأخير، وصمم بنيانه على أساس يضمن له:

- **حياة شخصية،**
- **واستمراراً في النوع،**

وذلك بأن جعله يندفع **اندفاعاً غريزياً** وراء حاجاته التي تكفل له تلك الحياة وذلك الاستمرار.

الغذاء في مقدمة الحاجات الغريزية كلما فرغت المعدة.

٢ ـ وكان في مقدمة تلك الحاجات الغريزية **حاجة الإنسان إلى الغذاء،** كلما فرغت معدته، وتمثلت ما استقر فيها من طعام؛

بل ذهب الدارسون لطبائع الإنسان إلى القول بأن «آخر ما نصل إليه في تحليل المدنية هو أنها قائمة على تهيئة الإنسان لطعامه»(١).

ما هو ذلك الغذاء، والنظام المتحكم فيه في المجتمع الفطري.

٣ ـ **فما هو ذلك الغذاء** الذي لجأ إليه الإنسان الأول في أسرته الأولى؟.

وما هو ذلك النظام الذي تحكَّم في سعي الإنسان للحصول على ذلك النظام في مجتمعه الفطري الأول؟

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الأول الصفحة ١٤، طبع مصر سنة ١٩٤٩.

مراحل الإنسان لدى الباحثين: صيد فحرث فصناعة.

٤ ـ إن الدارسين لنشأة الإنسان وحضاراته يتكلمون لنا دائماً عن مراحل الإنسانية في حياتها: من مرحلة **الصيد**، إلى مرحلة **الحرث**، وأخيراً إلى مرحلة **الصناعة** التي هي آخر طور من أطوار نشوء الحضارات.

ولكن واقع الإنسان كان نباتياً قبل التجهز بأدوات الصيد.

٥ ـ غير أن الإنسان الأول في واقعه لم يصبح صياداً إلا بعد أن تمكن من تجهيز نفسه بأدوات الصيد، ولذلك لا بد أنه قد مر على الإنسان إذن مرحلة سابقة لمرحلة الصيد:

ـ حيث كان غذاء الإنسان في هذه المرحلة هو فقط ما تصل إليه يده من **ثمار الأشجار** التي استطابها قبل أن يهتدي إلى وسائل الصيد والقنص،

ـ وحيث كان الإنسان في هذه المرحلة **نباتياً صرفاً** في غذائه إلى أن تمكن من الصيد.

الغذاء الأولي للإنسان كان من الثمار بحكم الدراسة والعقائد المتوارثة.

٦ ـ ويتضح من هذا أن غذاء الإنسان الأول، وفي أسرته الأولى، وفي مجتمعه الفطري، إنما ابتدأ بما قدمته له الطبيعة من ثمار؛

وهذا الذي تهدينا إليه الدراسة التحليلية، وفقاً لقدرة الإنسان الأول قبل أن يخترع أدوات الصيد، هو الذي توارثته أيضاً عقائد الأديان السماوية حول غذاء آدم وحواء في جنتهما.

ما هو النظام الذي تحكم بذلك الغذاء من الثمار: ملكية أم إباحة؟.

٧ ـ وبعد، فإذا كنا قد توصلنا إلى معرفة الغذاء الأول الذي عرفه الإنسان في أسرته الأولى ومجتمعه الفطري، وأنه هو الثمار التي عمت أرض الإنسان **وفاضت عن حاجة أسرته** الأولى حينذاك، فما هو النظام الذي تحكم في سعي الإنسان للحصول على ذلك الغذاء الطبيعي في تلك المرحلة؟:

- هل هو قواعد **الملكية والاختصاص**؟

- أم هو مبدأ **الشيوع والإباحة**.

واقع الملكية أنها أثر للجهد الخاص ولظهور الفردية.

٨ - الواقع أن «الملكية الخاصة» إنما هي في الجملة:

- أثر **للجهد الخاص** الذي تبذله لإنتاج ما أنت في حاجة إليه،

- وأثر **لظهور الفردية** في المجتمع.

لا جهد للإنسان الأول في تكوين ما وجده من الثمار.

٩ - وما دام **الغذاء الأول** الذي عرفه الإنسان الفطري في أسرته الأولى إنما كان ما قد وجده من الثمار التي قدمتها الطبيعة للإنسان من غير جهد، فقد انعدم الشرط الأول لوجود الملكية.

ولا فردية في المجتمع الفطري لضعف الفرد عن الدفاع عن نفسه حينذاك.

١٠ - وكذلك كان الأمر في **الفردية** لدى المجتمع الفطري، فقد كانت مفقودة أيضاً، لأن «العادة في الطبيعة أنه إذا ما كان الكائن العضوي ضعيف الإعداد للدفاع عن نفسه وهو فرد، لجأ إلى الاعتصام بأفراد من نوعه، لتعيش الأفراد جماعة تستعين بالتعاون على البقاء في عالم تمتلىء جنباته بالأنياب والمخالب والجلود التي يستحيل (على الإنسان) ثقبها (حينذاك)،

«وأغلب الظن أنه قد كانت هذه هي حالة الإنسان في أمره... ولم يصح للفرد وجود واقعي متميز من وجود مجموعته إلا بعد أن ظهرت الملكية الخاصة»[1].

شروط ملكية الغذاء غير متوفرة في المجتمع

١١ - وهكذا فإن شروط ظهور **الملكية الخاصة للغذاء** لم تتوفر في المجتمع الفطري الأول؛

---

(١) **قصة الحضارة**، السابق، الصفحة ٥٥، ٥٦.

الفطري لذلك لم تكن فطرية.

ولذلك قيل فيها، «إن فكرة الملكية ليست فطرية في الإنسان»[1].

الغذاء نظامه حينئذ الإباحة لا الملكية.

١٢ ـ ويتضح من ذلك أن الإنسان الأول في مجتمعه الفطري لم يعرف الملكية في غذائه، وإنما عرف نظام الإباحة والشيوع فيه للجميع، إذا صح أن نعتبر ذلك نظاماً.

لاحظ الباحثون أن الشعوب الابتدائية حتى اليوم تعتبر الأرض مشاعة.

١٣ ـ لذلك لاحظ الباحثون أن الشعوب الابتدائية حتى اليوم تعتبر الأرض مشاعة بين المجتمع بأسره: فالهنود في أمريكا الشمالية، وأهالي بيرو، وقبائل الهنود التي تقيم على تل تشيتا جونج، وأهل بورنيو، وسكان الجزر في البحر الجنوبي، كانوا يملكون الأرض جماعة، ويحرثونها جماعة، ويقتسمون الثمار جماعة؛ وفي ذلك قال هنود أوماها: «إن الأرض كالماء والهواء لا يمكن أن تباع».

ولاحظ الباحثون في الهمج أنهم يقتسمون الطعام مع مَنْ ليس لديه طعام.

١٤ ـ ولاحظ الباحثون أيضاً أنه من المألوف عند الهمج أن من عنده طعام ما يقتسمه مع من ليس عنده شيء منه؛

وأنه من المألوف لديهم أيضاً أن المسافرين إذا ما أرادوا طعاماً وقفوا عند أي دار يشاؤون في طريقهم؛

وأن الإنسان كان إذا جلس في غابة ليأكل وجبته توقع منه الناس أن ينادي مَنْ يشاطره الطعام قبل أن يبدأ هو في تناوله، وبغير ذلك لا يكون الصواب في جانبه؛

ولما قص «تيرنر» على رجل من «ساموا» قصة فقير في لندن، سأله الهمجي في دهشة: وكيف هذا؟ أليس هناك طعام؟ أليس له أصدقاء؟ أليس في المكان بيت للسكنى؟ أين إذن نشأ هذا الفقير؟ أليس لأصدقائه منازل؟

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٣١.

وكان الجائع من الهند ما عليه إلا أن يسأل فيجاب سؤاله بالعطاء؛ ومهما يكن مورد الطعام ضئيلاً عند المعطي فإنه لا بد أن يعطي منه هذا السائل ما دام محتاجاً؛ ويستحيل أن تجد إنساناً يعوزه القوت ما دامت الغلال موجودة في مكان ما بالمدينة[1].

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٣٢.

د ـ المراة والزواج

غريزة الإحساس بدوافع الجنس تأتي في الدرجة الثانية بعد غريزة الإحساس بالجوع.

١ ـ غريزة الإحساس **بدوافع الجنس** في نشوئها تأتي في الدرجة الثانية بعد غريزة **الإحساس بالجوع**، لأن إرادة المبدع لهذا الإنسان، التي أرادت له **حياة شخصية** فجعلته يندفع اندفاعاً غريزياً نحو طلب الغذاء ليأكل ويعيش، أرادت له أيضاً **الاستمرار في النوع** وجعلته يندفع اندفاعاً غريزياً أيضاً نحو ممارسة الحياة الجنسية في سبيل بقاء نوع الإنسان واستمراره.

هل نظام الإباحة أم نظام الزواج تحكّم أولاً في الإحساس بدوافع الجنس.

٢ ـ **فما هو النظام** الذي تحكّم وساد غريزة إحساس الإنسان **بدوافع الجنس** في مجتمعه الفطري الأول؟.

هل **ابتدأ الإنسان بنظام الإباحة** أيضاً استجابة لنداء غريزة الإحساس بدوافع الجنس **كما كان ابتدأ** في الغذاء إجابة لنداء غريزة الإحساس بالجوع؟

أم أنه **ابتدأ بنظام الزواج**، أي اختصاص الزوج بزوجته، كما هو النظام الذي ساد ويسود العالم المتحضر اليوم ومن قبل؟

يرى بعض الباحثين أن الزواج ينافي طبيعة الشعوب الفطرية اعتماداً

٣ ـ يرى بعض الباحثين من خلال وقائع لدى كثير من القبائل الهمجية في أمريكا وأفريقيا وآسيا:

ـ **أن الزواج**، ونعني به اختصاص الرجل بامرأته، «ينافي

الطبيعة»[1] لدى الشعوب الفطرية الابتدائية؛

على وقائع بعض الهمج اليوم وأن الزواج من ابتكار الحيوان.

ـ وأن المرأة في تلك العهود **كانت مباحة** لجميع الرجال؛

ـ وأن هذا «**التأميم للنساء**» الذي يقابل الشيوعية البدائية في الأرض والطعام قد زال في مرحلة مبكرة، ولم يبق من آثاره اليوم إلا القليل[2]؛

ـ وأن «**الزواج من ابتكار أجدادنا من الحيوان**» اقتباساً من بعض الطيور والحيوانات التي تعيش في رباط بين الزوجين لا يعرف الطلاق، وتعاقب أنثاها عقاباً صارماً إذا ما حاولت هذه الاتصال بذكرٍ آخر[3]؛

ـ وأن الزواج **أعمق في التاريخ من بني الإنسان**[4]، لأن الحيوان أسبق من الإنسان في الوجود، وقد عرف الزواج بعض الحيوان.

المجتمعات الإباحية نادرة، ويرى بعض الباحثين أنها مرحلة انتقال عند الإنسان البدائي.

٤ ـ ويرى ول ديورانت: «أن المجتمعات التي تخلو من الزواج نادرة؛ لكن الباحث الخبيث يستطيع أن يجد منها عدداً يكفيه ليصور به مرحلة انتقال من **الفوضى الجنسية** التي تسود الحيوان الأدنى إلى **صنوف الزواج** التي أخذ بها الإنسان البدائي»[5].

بعض الشعوب الإباحية.

٥ ـ ثم يروي لنا ول ديورانت:

ـ أن معظم الناس في («فوتونا» Futuna و «هواي» لم يتزوجوا إطلاقاً؛

---

(١) **قصة الحضارة**، المرجع السابق الصفحة ٦٧.

(٢) نفس المرجع السابق، ونفس الصفحة.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٦٦.

(٤) نفس المرجع السابق، الصفحة ٦٧.

(٥) نفس المرجع السابق.

ـ وأن أهل «لوبو» Lubu تعاشروا في إباحية وبغير اختيار أو تحديد، ولم تكن في رؤوسهم فكرة الزواج؛

ـ وأن بعض القبائل في «بورنيو» كانت تعيش حياتها الجنسية بغير أن يكون الزواج هو الرباط الذي يربط الزوجين، ولذلك كانت العلاقة بين العشيرين أسهل انحلالاً مما نراه بين الطيور؛

ـ وأن بعض شعوب روسيا البدائية كان رجالهم يستعملون النساء بغير تمييز، وأنه لم يكن لامرأة زوج معلوم؛

ـ وأن أقزام أفريقيا لا يصطنعون أنظمة الزواج في حياتهم، بل تراهم يشبعون غرائزهم الحيوانية إشباعاً كاملاً بغير ضابط!!

من قال بفقدان الزواج في العهد الفطري اعتمد على واقع هؤلاء الهمج وزعم زوال الإباحة في مرحلة مبكرة.

٦ ـ وأنت ترى أن الذين ذهبوا إلى أن الإنسان الفطري لم يعرف نظام الزواج في صلاته الجنسية إنما اعتمدوا في مذهبهم هذا على حالات لدى بعض الشعوب والقبائل الهمجية اليوم، وتصوروا أن ذلك بقايا إرث عن الإنسان الفطري!!

غير أنهم يرون أن «**هذا التأميم للنساء** قد زال في مرحلة مبكرة، ولم يبق من آثاره اليوم إلا قليل»:

ـ منه ما عددوه لنا في وقائع بعض الشعوب الهمجية كما ذكرناه أعلاه،

ـ ومنه ما أشاروا إلى بقاياه **ولو بصورة ضعيفة** في بعض الأعياد التي أشار إليها ول ديورانت في بلاده: «حيث يتحللون فيها من القيود الجنسية مؤقتاً!»[١].

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٦٧.

٧ ـ وهذا هو الظن القبيح الذي لا يعتمد إلا على مجرد التخمين، دون أن ينظر هؤلاء الباحثون في العوامل التي دعت إلى وجود مثل هذه الأعراف والتقاليد لدى بعض الهمج وغيرهم أحياناً:

هذا ظن يعتمد على مجرد التخمين دون البحث عن عوامل الإباحية لدى بعض الهمج وعن حال الأسرة الأولى.

ـ فقد تكون إرثاً كما يقولون،

ـ ولكنها قد تكون شذوذاً على أصل، وطارئاً عارضاً لظروف وعوامل خاصة؛

ولا يردنا إلى الصواب فيها إلاّ استقراء حال الأسرة الأولى، والمجتمع الفطري الأول.

٨ ـ ونحن إذا رجعنا إلى الأسرة الإنسانية الأولى التي كانت النواة لما انبثق عنها بعد ذلك من أسر لا يحيط بها الإحصاء، ولما نشأ عنها من قبائل وشعوب وأمم فوق التعداد، وتجنبنا فرضية القول بأن أصل الإنسان حيوان لعدم استقرارها، لرجعنا بطبيعة الحال إِلى أبوي البشرية الأولين، وليكن إسماهما ما يكون: حيث لم يكن للرجل إلا امرأته ولم يكن للمرأة غير رجلها، وذلك أبسط ما يمكن تصوره لحالة البدء والفطرة؛ **وفي ذلك كما نرى اختصاص الرجل بامرأته** اختصاصاً فرضته طبيعة الأشياء من غير شك.

بالرجوع إلى أبوي البشرية نجد اختصاص الرجل بزوجته ثابتاً لعدم وجود غيرها.

٩ ـ وإن هذا الاختصاص فيما بين الأبوين الأولين **بحكم طبيعة الأشياء**، وخلال زمن طويل وعلى مرأى من الأولاد والأحفاد، قد أنشأ على الأقل وبلا شك **تقاليد عائلية** في نظام الصلات الجنسية، وقد استمرت هذه التقاليد صامدة مع الأزمان، وخلال سائر الأجيال والأيام حتى الآن، إلى أن بلغت من القوة فوق شذوذ الشاذين، وانحلال المتحللين، مهما كانت عوامل ذلك الشذوذ، ودوافع ذلك التحلل.

هذا الاختصاص الأول أنشأ دون ريب تقاليد راسخة.

دعم هذا الاختصاص طبيعة الإنسان التي أحوجته إلى أسرة بعينها للعناية به.

١٠ ـ وقد دعم هذا الاختصاص أنه **منبثق عن طبيعة خلق الإنسان**، تلك الطبيعة التي **أحوجت كل إنسان إلى أسرة معينة في ذاتها**: من أب بعينه وأم بعينها كما مر معنا[١]:

ـ لأن الإنسان يولد وهو في حاجة، مدة أطول ما عرفت في حياة كل مخلوق، إلى العناية غير المأجورة من قبل بني جنسه في كل شيء من شؤون حياته، ليتكامل، وليكون بعد ذلك قادراً على البقاء؛

ـ ولن يقوم بهذه العناية غير المأجورة، والمحفوفة بالصعاب والآلام والتضحيات، غير الأم التي كان الطفل جزءاً منها، وغير الأب الذي ارتبط بالأم برابطة الاختصاص والزواج والإنس، كما ارتبط بالطفل برابطة الدم والقرابة والحب.

عزز هذا الاختصاص الصفة الدينية التي رافقت الأسرة: من تقديس الجدود ووجود آلهة خاصة بالأسرة.

١١ ـ وعزز هذا الاختصاص أيضاً **الصفة الدينية** التي رافقت الأسرة الابتدائية في كل خطوة من خطواتها؛

ولولا تلك الصفة الدينية **للاختصاص بالمرأة** والزواج بها لما قامت في القديم **أسرة**:

ـ فما **تقديس جدود** الأسرة، بل عبادتهم أحياناً، إلا دليل على **قيام الأسرة** قبل قيام الدولة وعلى **مرافقة الصفة الدينية للأسرة** منذ وجودها؛

ـ وكذلك ليس وجود الآلهة **الخاصة بالأسرة**، والقائمة في كل بيت من بيوتها في القديم، لتقدم لها الشعائر ولتطلب منها الحماية والرعاية، إلا دليل آخر لا شك فيه على **مرافقة الصفة**

(١) الباب الأول من هذا الفصل، المبحث: د ـ الفطرة وفكرة الحق في الأسرة الأولى، الصفحة ٢٦٦ ـ ٢٦٧، الفقرات ٢٠ـ٢٥.

الدينية لقيام الأسرة، تلك الأسرة التي لا يمكن تصورها من غير زوج وزوجة ارتبطا برباط العيش معاً من غير انفصام.

ما تقدم يؤيد نظام الزواج لا الإباحة.

١٢ ـ وهذا ما يجعلنا نعتقد من وراء هذه الصورة الأولى التي لازمت بلا شك الأسرة البشرية الأولى، ونقول: إن النظام الذي ابتدأ به الإنسان في صلاته الجنسية إنما قام على نظام الزواج، لا على نظام الشيوع والإباحة.

نظرية لينان في شيوع المرأة:

استعراض نظرية لينان المعاكسة ورأي العلماء فيها اليوم.

١٣ ـ غير أن هذا الموضوع قد شغل علماء الاجتماع شغلاً أحاط بجميع بحوثهم حول طباع الإنسان، وخاصة منذ ظهرت **نظرية ماك لينان** Mac Lennan العالم الاجتماعي من شبه جزيرة إيكوسية Ecosse من بريطانيا، وذلك في كتابه الذي نشره سنة ١٨٦٥ وعنوانه «الزواج الابتدائي Primitive Mariage»؛

ولذلك يتوجب علينا أن نستعرض هذه النظرية، وأن نستعرض الردود عليها فيما يلي:

نظرية لينان في شيوع المرأة استهوت بعض العلماء في العصر الماضي.

١٤ ـ لقد أراد **ماك لينان** المذكور دراسة نظام التوالد في العهود البدائية لدى الإنسان، وأراد أن يفرغ على دراسته صبغة علمية، فخرج على العالم بنظريته في **شيوع المرأة** لدى الجماعات البشرية الأولى(١)، واستهوت هذه الفرضية عدداً من كبار علماء الاجتماع في العصر الماضي(٢)، وكان في مقدمتهم «لوبّوك Lubbock».

---

(١) كتاب **مراحل الحق**، Les Etapes du Droit، لمؤلفه H.Decugis، الجزء الأول، الصفحة ٤٢ـ٤٣، طبع باريس سنة ١٩٤٢.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٤.

ثم اصطدمت بكبار العلماء حتى أُهملت اليوم.

١٥ ـ ولكن **نظرية ماك لينان** لم تلبث أن اصطدمت بحملات عنيفة جداً من قبل العالم الاجتماعي هربرت سبنسر Herbert Spencer، ومن غيره من كبار العلماء الذين أخذ عددهم في ازدياد، إلى أن أهملت هذه النظرية اليوم نهائياً[١].

ارتكزت نظرية لينان على ندرة الأطعمة ووأد البنات لعجزهن عن كسب الغذاء.

١٦ ـ وقد ذهب **ماك لينان** في شرح نظريته إلى أن ندرة الأطعمة التي كانت في حوزة الرجال الأولين قادتهم قطعاً إلى **وأد البنات**، وذلك تخلصاً من أفواه لا يستفاد من أصحابها[٢] في كسب الغذاء المحفوف حينذاك بكثير من الأخطار.

البدء بحياة الصيد رغم سوء الأسلحة أحوج إلى رجال أشداء.

١٧ ـ ولفت **ماك لينان** النظر إلى أن الأقوام الرحل الأولين ما كانوا يعرفون **الزراعة، ولا تربية الحيوانات**،

وكان عليهم أن يعيشوا إذن من غنائمهم من الحيوانات الوحشية التي يصطادونها، رغماً عن سوء أسلحتهم للدفاع عن أنفسهم أو لاقتحام غنيمتهم؛

وكان هؤلاء الأقوام وهم على هذه الحال في أشد الحاجة إلى رجال أشداء وصيادين ماهرين.

المصلحة إذن إنشاء صبيان لا إناث.

١٨ ـ فكان من مصلحة هؤلاء إذن أن ينشئوا صبياناً أقوياء، لا إناثاً هنَّ أقل أهلية لأن يجدن بأنفسهنّ ما هنَّ في حاجة إليه من الرزق.

وأد البنات لذلك السبب

١٩ ـ وهكذا ذهب ماك لينان إلى القول بأن: «ممارسة **وأد البنات** في الأزمنة الأولى جعلت المرأة نادرة، ودفعت إلى

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٢.

الأخذ بشيوعية المرأة وإباحتها لجميع الرجال في داخل كل مجموعة من الناس»[1] بحيث أصبحت الأسرة الابتدائية في رأيه مؤلفة من مجموعة من الرجال اتخذوا لأنفسهم جميعاً امرأة واحدة!!

جعل المرأة نادرة ودفع إلى إباحتها.

٢٠ ـ وأخذ ماك لينان على ضوء ذلك الافتراض يستنتج بكثير مما أوتي من البراعة نتائج خطيرة جداً في تاريخ حياة الإنسان ومعرفة نظمها الأصلية، ويرد كل ما استنتجه وكل شذوذ رآه في الأقوام الهمج إلى ذلك النبع الذي اهتدى إليه واستقى منه!

استنتج لينان من فرضيته نتائج خطيرة في نظم الإنسانية.

٢١ ـ وهكذا استنتج، وبرر بحكم طبيعة الوضع الذي تخيله، جميع النتائج التالية:

استنتاجاته الغريبة:

أولاً ـ إن هذا القحط الذي أصاب النساء قد دفع الناس **إلى اختطاف نساء** المجموعات المجاورة، **وجعل ذلك أمراً معتاداً**.

خطف النساء،

ثانياً ـ انتهى الأمر نتيجة لذلك أن أصبح اتخاذ الرجال امرأة لأنفسهم **من داخل** مجموعتهم **حادثاً استثنائياً**، بل مخالفاً للعرف المعتبر؛

والاتصال بالمرأة من داخل المجموعة مخالف للعرف،

ثالثاً ـ اعتبر فيما بعد ذلك فكرة الزواج من الغرباء عن المجموعة أمراً قائماً على أعراف اكتسبت **قوة الحكم الديني**، وأن الخروج على **هذه الأعراف** يستوجب عقوبة مفروضة من قبل أرواح الأجداد الذين أزعجهم أن يروا أحفادهم قد هتكوا حرمة تقاليد أصبحت مقدسة لأنها عادات أزلية سبقت كل تاريخ؛

وفكرة الزواج بعد ذلك من الغرباء أصبحت عرفية دينية،

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٣.

وجهالة نظام الأبوة بسبب إباحة المرأة أولاً، والأخذ بنظام الأمومة.

رابعاً ـ اعتبر ماك لينان أيضاً أن ندرة النساء في العشائر الابتدائية وما نتج عن ذلك من اتصال جميع الرجال بامرأة واحدة قد أنتج بطبيعة الحال **جهالة الأبوة**، وخاصة أن النساء اللاتي جرى اختطافهن كنَّ يرجعن إلى ذويهن السابقين بالاختطاف أيضاً، ومن ثم يُختطَفن مرة ثالثة، وهكذا دواليك في طول مدة الحمل؛ وهذا ما أوجب الوصول إلى **نظام الأمومة** في الأسرة: الذي اعتبر الأم هي الوسيلة الوحيدة للدلالة على النسب، وذلك بسبب حادث الولادة المادي الذي لا يمكن الجدال فيه،

ويرجع إلى نظام شيوع المرأة فكرة رجحان الولد البكر وغيره من النظم.

خامساً ـ ورد أيضاً إلى ندرة المرأة وشيوعها بين الرجال كثيراً من النظم الحقوقية الأخرى المعروفة لدى بعض الأمم مثل فكرة **رجحان الولد البكر** على بقية أخوته، لأن الأخوة في بادىء الأمر كانوا يشتركون في امرأة واحدة في زعمه، وكان أكبرهم أقدمهم في الاتصال بها، وهذا ما أوجب ترجيح نسب الأولاد إلى الأخ البكر بصورة مصطنعة في الغالب.

(الردود على ماك لينان):

نظرية شيوعية المرأة في عهد الفطرة رُفِضَت نهائياً اليوم.

٢٢ ـ غير أن هذه النظرية التي استهوت الكثيرين من رجال القرن التاسع عشر، قد رفضت اليوم رفضاً باتاً كما كنا نقلناه من قبل، وذلك بما وجه إليها من حملات عنيفة، وردود كثيرة قويمة.

الرد الأول: أن شيوع المرأة افتراض قائم على

٢٣ ـ ومن هذه الردود أن **شيوع المرأة** promiscuité sexuelle - communisme sexuel في حياة الرجال الأولين إنما هي **افتراض قائم على وقائع شاذة**، نظير زواج الأخ من أخته في مطالع الأزمنة التاريخية وخاصة في اليابان وبيرو Pérou، ونظير ما ينقل

أيضاً من أن زواج الأخ بأخته لا يزال معروفاً اليوم في الطبقة الاجتماعية العليا من جزر هاواي Hawai.

وقائع شاذة نظير زواج الأخ بأخته.

٢٤ ـ ومثل شيوع المرأة **تعدد الأزواج** polyandrie، فهو إنما يُعْرَف أيضاً بصورة شاذة: عند بعض قبائل الأسكيمو Esquimaux لا جميعهم، وعند بعض القبائل الجبلية في الهند ممَّنْ انحطت إنسانيتهم dégradées، وعند بعض سكان التيبت tibet من الفلاحين، وعند جماعة الواهوماس Les wahumas من أفريقيا الشرقية، وكذلك عند الأقزام السود Négritos من سكان جزر آنداماان Andaman في خليج البنغال في الهند ممَّنْ هم أكثر فساداً وانحلالاً وكادوا ينقرضون اليوم.

ومثل شيوع المرأة في الشذوذ تعدد الأزواج عند بعض الهمج.

٢٥ ـ «وفي الحقيقة **إن شيوع المرأة وتعدد الأزواج** في الوقت الحاضر هما وقائع استثنائية وشاذة، ولا توجد إلا لدى بعض القبائل المنحطة جداً عن البشرية، أو لدى بعض القبائل التي هي في وضع اجتماعي بلغ غاية الفساد والانحطاط؛

شيوع المرأة وتعدد الأزواج يُشاهَد في نهايات بعض القبائل ولا دليل على وجوده لديهم في الابتداء.

وإنها لغرائب **نشاهدها في نهايات بعض الفروع البشرية** لا في أوائلها، ونجهل فيما إذا كانت تعود إلى عهود البشرية الابتدائية الأولى[1].

٢٦ ـ بل إن مثل هذه الوقائع لدى الحيوانات «ما هي بالوقائع العامة الشاملة لدى الحيوانات العليا القريبة الشبه من الإنسان: فهي قطعاً غير موجودة لدى كبار القرود الشبيهة

هذه الوقائع لدى الحيوان ليست شاملة.

---

(١) **مراحل الحق**، دوكوجي، الجزء الأول، الصفحة ٤٤، طبع باريس سنة ١٩٤٣.

بالإنسان والتي لا تختلف كثيراً في طراز حياتها عن الرجال؛ فهذه القرود تعيش في حياة كثيرة التنقل، ضمن جماعات صغيرة: مؤلفة من ذكر وأنثى أو أنثيين مع صغارها؛ وأن وحدة الذكر والأنثى لدى هذه القرود قد تكون غير دائمة، وقد تنفصم من غير شك بسرعة، غير أن هذه الوحدة لم يُشَاهد فيها شيء من مظاهر الشيوع الجنسي»[١].

لذلك كله لا يمكن التدليل على شيوع المرأة لدى الأولين.

٣٧ ـ «ولذلك كله لا يمكن التدليل بشيء ما على أن **شيوع الأنثى** الواحدة بين الذكور Promicsuité **أو تعدد الأزواج** قد وجدا لدى الرجال الأوليين».

الرد الثاني على شيوع المرأة: أن الأسرة هي الخلية الأولى كما أثبتته الحفريات وذلك دليل الزواج.

٢٨ ـ بل من الثابت تقريباً (من بقايا الإنسان في الطبقات الأرضية السفلي) أن الجماعات الإنسانية الأولى إنما هي هذه المجموعات الصغيرة من الأسرة؛

«ولذلك كانت خلية الأسرة إذن هي **الخلية الاجتماعية الأولى**[٢]»، والأسرة دليل اختصاص الرجل بزوجته.

الرد الثالث على شيوع المرأة: أن الكثير من الهمج يمارسون اليوم

٢٩ ـ وزيادة على ذلك «فإن كثيراً من قبائل اليوم، ممَّن هم في نفس الحياة الابتدائية المعروفة لدى القبائل التي تمارس **شيوع المرأة** وتعدد الأزواج، إنما يمارسون في صلاتهم الجنسية **نظام وحدة الزوجات**، وذلك مثل الكثيرين من

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٥.

(٢) نفس المرجع السابق ٤٥، وكذلك الصفحات ١٠٨ـ١١٠ حيث ثبت أن بقايا الإنسان في الطبقات الأرضية السفلى من العصر الحجري القديم إنما كانت بقايا إنسانية في مجموعات مؤلفة من شخصين أو ثلاثة بصورة عامة مما لا يدل على حياة تكتلات إنسانية كبيرة كما قد كشفت عنها خلافاً لتلك طبقات الأرض الأقرب عهداً عندما نشأت الطائفة والقبيلة بعد الأسرة.

أقزام أفريقيا pygmées d'Afrique، وجماعة الفيداس في سيلان Les Veddas de ceylan»؛

نظام الزواج فأي ترجيح للقول بأن شيوع المرأة هو الأصل.

فما هو المرجع إذن للقول بأن شيوع المرأة وتعدد الأزواج هو الأصل في المجتمعات الابتدائية دون وحدة الزوجات واختصاص كل رجل بزوجته؟.

وبرهنت المدنية على زيادة حرية الصلات الجنسية.

٣٠ ـ هذا وإننا لا بدَّ من أن نسجِّل في هذا المقام ملاحظة ويسترماك Westermarck من علماء الاجتماع: بأن **حرية الصلات الجنسية** «قد برهنت بنفسها على أنها تزداد مع التقدم في المدنية»[١].

وهذا دليل آخر أيضاً على أن شيوع المرأة ليس من خصائص الحياة الابتدائية.

الرد الرابع على شيوع المرأة قديماً هو ملاحظة ظهور انحطاط معظم نظم الزواج عند انحطاط الشعب.

٣١ ـ بل «قد لوحظ أيضاً (في بعض الحالات) بأن شعباً ما عندما ينحطُّ تنحلُّ معه شيئاً فشيئاً **نظم الزواج** والاختصاص بالزوجة، وتشيع فيه **حرية الصلات الجنسية** بصورة متزايدة من يوم إلى آخر حتى تصبح شبيهة جداً **بشيوع المرأة** ذلك الشيوع الذي اعتبره ماك لينان ولوبّوك من **خصائص الحياة الابتدائية الأولى**» بينما هو **طارئ وحديث** كما نرى، رغماً عن جزم هذين الباحثين بأن شيوع المرأة الواحدة بين الرجال هو «المرحلة الأولى» وهو نقطة الانطلاق من أسفل السلم، **عند الخروج من الحيوانية** للوصوف إلى الزواج بالمرأة الواحدة في حضارة الجنس الأبيض السامي»[٢].

---

(١) كتاب Eléments de sociologie، لمؤلفيه C.Bouglé و J.Raffault، الصفحة ٩٥-٩٦، الطبعة الثالثة، باريس سنة ١٩٣٨.

(٢) **مراحل الحق** السابق، الجزء الأول، الصفحة ٤٥.

الرد الخامس: أن تعدد الأزواج نادر وتابع للفقر ولا دليل على بدائيته.

٣٢ ـ «**أما تعدد الأزواج** فإنه في غاية من الندرة ولا شيء يسمح للتأكيد بأنه قد كان مرحلة ابتدائية لدى جميع البشرية؛

«وأنه إنما مارسه بعض القبائل النادرة **والشديدة الفقر** ممَّن كاد أن يكون وأد البنات لديهم عاماً».

والفقر فيما يظهر قد دفعهم لوأد البنات فكثر الرجال، ولا يجوز تعميم هذه الحال.

٣٣ ـ ويظهر أن ظروف الحياة لدى هؤلاء حين تصبح قاسية، وتشتدُّ الفاقة، تدفعهم إلى **التضحية بالبنات** لأنهن أقل استعداداً من الرجال في مطاردة الصيد؛

وينتج عن ذلك زيادة في الرجال لدى هذه الأقوام الرحل البائسة، وهذا ما يضطرهم إلى تعدد الأزواج؛

غير أن هذه الحالة النادرة لا يمكن أن يستنبط منها أنها كانت قانوناً عاماً»[١].

الرد السادس: ضرورة التمييز بين البدائية والشيخوخة، وعدم تعميم حالة الشيخوخة على البدائية.

٣٤ ـ وللاستدلال بالأمثلة التي تقدمها لنا الشعوب الهمجية يجب أن نعرف فيما إذا كانت هذه الشعوب:

ـ شعوباً **ابتدائية**، أو شعوباً **انحطت** عن الشعوب الابتدائية؟

ـ وشعوباً حقيقية **ناشئة رشابة**، أو شعوباً **توقفت** قبل الأوان، **وشاخت** قبل أن تبلغ المراحل العليا للإنسانية؟».

الاجتماعيون لم يفعلوا ذلك بل اعتبروا كل همجي ابتدائياً، وكذلك كل قديم.

٣٥ ـ ومن المؤسف «أن أكثر علماء الاجتماع لا يسائلون أنفسهم عن ذلك»!

«**بل يعتبرون** كل شعب همجي شعباً ابتدائياً لا شك فيه! **كما يعتبرون** ابتدائياً أيضاً كل حالة من حالات الحضارة التي تسبق أكثر من ألفي عام أو ثلاثة آلاف عام»!!

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٦.

٣٦ ـ غير أن ذلك «مشكوك فيه على الأقل»؛

سبنسر يشكُّ في ذلك ويجزم كثيراً بتقدم أجداد المنحطين.

«ويقول هربرت سبنسر Herbert Spencer بحق:

ـ إن أكثر الرجال من الأنماط المنحطة الموجودة اليوم، إنْ لم تقل كلهم، قد كان لهم أجداد وصلوا إلى مرحلة أعلى من المرحلة الحاضرة لدى هؤلاء الرجال اليوم؛

ـ وإنه يوجد في بعض عقائد أولئك الأجداد أفكار قد أحكمت خلال أحوال أسمى من أحوال هؤلاء اليوم؛

ـ وإن وقائع الانحطاط والتقهقر لدى جميع الشعوب هي محتملة وكثيرة أيضاً، وهي في ذلك مثل وقائع التقدم في احتمالها وكثرة وقوعها»[١].

شيخوخة البشرية بعد عهد البرونز والجزم بتقلب أطوارها قبلاً.

٣٧ ـ ثم يتابع دوكوجي قائلاً: «وعلى كل حال، فإن العهد الحجري القديم لما انتهى، ثم أعقبه العهد الحجري الجديد، ثم عهد البرونز (النحاس مخلوطاً مع القصدير)، كانت البشرية قد شاخت، ومرت في كثير من الأطوار المختلفة قبل أن تصل إلى الأزمنة التاريخية»[٢].

بقايا العهد الحجري القديم دللت على طيب القدماء ودينهم.

٣٨ ـ وهكذا فإن البقايا الكثيرة من صناعة العهد الحجري القديم وفنونه قدمت لنا بعد دراستها معلومات ثمينة جداً عن حياة الإنسان في ذلك العهد، وأثبتت:

ـ «أن أجدادنا من سكان الكهوف كما قال مارسلين بول Marecellin Boule كانوا أصحاب أخلاق سالمة ووديعة،

ـ وكانوا على اعتقاد بما وراء الطبيعة من قوى غيبية لأن كهوفهم المزخرفة قامت فيما يظهر مقام «المعابد المقدسة»؛

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٧.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٧ـ٤٨.

ـ وكان لديهم **شعائر دينية**؛ لأن مدافنهم تشهد بما كان لديهم من صلوات جنائزية أو تقديس حقيقي للأموات»(١).

فكيف يستحوذ أهل الطيب والدين نساءهم بالخطف ويشيدون بما بني عليه من نظام.

٣٩ ـ ويتابع الباحثون في ذلك فيقولون: فكيف يمكننا إذن أن نؤكد بأن هؤلاء الأجداد الموغلين في القدم والطيب والدين كانوا يستحوذون على نسائهم **باختطافهم** من القبائل المجاورة، ويشيدون بهذا **الاختطاف** إلى أن يرفع إلى مقام **نظام شرعي في الأمومة** كما أراده بعض علماء الاجتماع؟!

يضيف الباحثون أنه لا بد من معرفة النظم المفقودة القديمة لنستطيع معرفة الأصل في حقوق الأسرة.

٤٠ ـ ثم يضيف هؤلاء الباحثون:

ـ أن من **وراء أولئك** الأجداد من رجال **العصر الحجري القديم** الذين وصلتنا آثارهم **ماضياً طويلاً غير معروف**؛

ـ وأن الإنسانية فيمن **بعد أولئك** الأجداد وبعد انقراضهم قد تطورت وتقدمت كثيراً خلال الأجيال وطيلة العهد **الحجري الحديث**؛

ـ وأن **عهد العصر الحجري الحديث**، الذي تميز بتأهيل الحيوانات وبصناعة الفخار وبالزراعة وكذلك بكثير من العقائد الدينية الراسخة، قد شاهد تطورات النظم الأسروية وتقدمها، تلك النظم التي استمرت ألوفاً من السنين، وعنها نشأت الحضارات في الأزمنة التاريخية؛

ـ وأنه يجب معرفة هذه النظم المفقودة لنستطيع مع معرفة أسبابها التكلم عن **الأصل** في حقوق الأسرة(٢).

ويجب اجتناب ما لا

٤١ ـ ويجب في كل الأحوال **اجتناب المفاهيم النظرية** التي

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٨.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٨.

قامت على أسس من الحجج الواهية التي لا تصمد أمام الدراسة والتحقيق؛

يصمد أمام الدراسة وعدم تعميم بعض الوقائع.

كما أنه من الحكمة والعقل في بحوثنا أن نقف بها **عند الوقائع التي أدركناها** دون أن نقوم باستنباط نتائج شاملة في عمومها لجميع الأزمان والأقوام[1].

٤٢ ـ ذلك لأن الجماعات التي اتصل بها علمنا كما يقول أولئك الباحثون:

علمنا إنما اتصل بجماعات معاصرة أو تاريخية في مراحلها الحديثة وهي لا تذكر بالنسبة لما سبق من عهود طويلة.

ـ إنما هي **الجماعات المعاصرة** ومن تقدمها من **جماعات الأزمنة التاريخية**،

ـ وإن هذه الجماعات كلها هي **جماعات واحدة** في الحقيقة، وذلك بالنظر لقصر أَزمنتها جميعاً إذا ما قورنت بأزمنة من تقدمها من الجماعات الإنسانية في عصور ما قبل الأزمنة التاريخية؛

ـ وإننا لم نتصل بهذه الجماعات إلا في مراحلها الحديثة جداً من تاريخ تطورها؛

ـ وإن هذه الأزمنة التاريخية المعروفة منذ ستة آلاف سنة ليست بشيء يذكر إلى جانب مئات الآلاف من السنين غير المعروفة[2].

٤٣ ـ وفوق ذلك: إننا نعلم أن أجدادنا قد عاشوا آلافاً من العصور في **مواطن مختلفة** من هذه الأرض الفسيحة؛

الرد السابع: مواطن أجدادنا وشروط حياتهم مختلفة.

كما نعلم أن **شروط الحياة** التي فرضت على أجدادنا فرضاً

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٨ـ٤٩.

تبعاً لمواطنهم الجغرافية كانت أشد اختلافاً وتباعداً[١].

الاختلاف في المواطن وشروط الحياة لا يسمح بوحدة المراحل والأعراف في مختلف الأزمان.

٤٤ ـ وبناءً على هذا الاختلاف الكبير في مواطنهم وفي شروط حياتهم:

ـ ليس من الصحيح أن نتصورهم جميعاً بأنهم قد اجتازوا نفس المراحل الاجتماعية والحقوقية، وخضعوا لنفس الأعراف والتقاليد؛

ـ وليس من الصحيح بأن نتخذ مما وجدناه لدى جماعة خاصة من أعراف وعادات، وأن نزعم بأنه كان قانوناً عاماً لدى جميع الجماعات في مختلف الظروف والأمكنة والعصور.

لا يصحُّ الادعاء بوحدة المراحل الاجتماعية لدى سكان المناطق الاستوائية والقطبية ونحوها رغم اختلاف مناطقهم.

٤٥ ـ إذ كيف يصحُّ الادعاء بأن سكان الأحراش الاستوائية من سود أفريقيا قد اجتازوا نفس المراحل الاجتماعية والحقوقية التي اجتازها:

ـ سكان المناطق القطبية،

ـ أو سكان الجزر المحيطية،

ـ أو سكان الكهوف،

ـ أو الرعاة الرحل في سهول مونغوليا،

ـ أو سكان المناطق الساحلية في مختلف القارات؟

الادعاء بوحدة مراحل الجماعات على اختلاف ظروفها مجانب للحق.

٤٦ ـ **وإن الادعاء بالوحدة الكاملة لمراحل التطور** لدى الإنسان في جميع نظم جماعاته على اختلاف مناطقها وشروط حياتها وعصورها ليس إلا فرضية سهلة في تصورها لبساطتها،

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٩.

ولكنها في مجانبتها للحق تقود إلى الوقوع في المستحيلات[1].

٤٧ ـ ولقد حاول بعض الباحثين تأييد تلك **الوحدة الخيالية** في مراحل التطور، وزعم أن حياة الإنسان قد ابتدأت **بمرحلة الرحيل** والبداوة في كل مكان وسبقت **حياة الإقامة** والاستقرار؛

زعم البعض بدء الحياة بالرحيل وأن اختطاف المرأة ملازم له وأن الزواج ملازم للاستقرار.

كما زعم هؤلاء أن اختطاف المرأة يعود إلى حياة **الأولين الرُحَل**، وأن الزواج يعود إلى الآخرين المستقرين[٢].

٤٨ ـ ولكن هذه النظرية أيضاً يجب طرحها وعدم الالتفات إليها، لأننا لا نعرف شروط الحياة التي فرضت على الرجال الأولين، وبالتالي لا نعرف ظروف المكان الذي نشأوا فيه:

يجب طرح هذه النظرية لعدم معرفة ظروف حياة السابقين.

ـ فهل عاشوا في الأحراش؟

ـ أم عاشوا في السهول؟

ـ أم عاشوا على سواحل المياه[٣]؟

٤٩ ـ وإن كلاً من حياة الرحيل وحياة الاستقرار مفروض على الجماعات البشرية:

الرحيل والاستقرار مفروضان بعوامل متغيرة.

ـ بعوامل قابلة للتغير في الزمان وفي المكان،

ـ وبظروف إقليمية ليست أيضاً بثابتة على الدوام.

٥٠ ـ وهكذا فإن **المفازات** steppes و**السهول العشبة** savanes العظيمة في آسيا وأفريقيا وأمريكا:

حياة الرحيل مفروضة

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٩.
(٢) نفس المرجع السابق.
(٣) نفس المرجع السابق.

بوسائل الحياة المتنقلة كصيد الطرائد الشاردة.

ـ حيث كانت مسرحاً للقطعان الكبيرة الهائمة من مختلف الحيوانات من البقر الوحشي والوعول والأفيال والحصن والجمال والجواميس والأغنام،

ـ وحيث كانت حياة الإنسان فيها متوقفة على ما يصيده من هذه الطرائد الشاردة،

لم تكن فيها قطعاً **حياة الاستقرار** هي الأصل لدى سكان مثل هذه المناطق، بل كانت حياة **الرحيل والبداوة** هي الأصل لديهم، وذلك تبعاً لوسيلتهم في الحياة التي فرضت عليهم حياة الرحيل، وحرمت عليهم حياة الاستقرار.

وكذلك الأمر بعد تأهيل قطعان الحيوان تبعاً للبحث عن المراعي صيفاً وشتاء.

٥١ ـ وكذلك كان الأمر أيضاً لدى هؤلاء السكان عندما ابتدأوا يؤهّلون قطعان الحيوانات الوحشية: إذ أنهم كانوا مضطرين في كل سنة للرحيل ولمتابعة حيواناتهم من مرعى إلى آخر تبعاً لفصول الشتاء والصيف.

أما حياة الاستقرار فمفروضة بوسائل الحياة المستقرة كصيد البحيرات وسكنى الجزر.

٥٢ ـ **ولكن الأمر هو على عكس ذلك:**

ـ لدى السكان العائشين على صيد الأنهر والبحيرات والسواحل،

ـ أو لدى سكان الجزر والمثلثات الأرضية التي تحتضنها مصبات مياه الأنهر (الدلتات les deltas)،

فإن **حياة الاستقرار** مفروضة على هؤلاء الرجال بحكم طبيعة الأشياء.

وكذلك الأمر في حياة الزراع.

٥٣ ـ وكذلك كان الأمر أيضاً لدى الزرّاع الذين عرفوا **حياة الإقامة والاستقرار** منذ عرفوا ممارسة الزراعة الدائمة في مكانهم عوضاً عن مغادرة الحقول التي كانوا فيها بعد استنفاد خيراتها إلى حقول أخرى لينزلوا فيها.

٥٤ - هذا وقد حدث كثيراً في التاريخ الماضي كما يحدث اليوم أيضاً أن جماعة من الخاضعين **لحياة الإقامة** قد اضطروا إلى الانتقال **لحياة الرحيل**، وذلك تحت ضغط عوامل مختلفة من جفاف السماء أو تدمير الحروب؛

قديماً وحديثاً قد يضطر المقيم للرحيل والعكس تبعاً لعوامل الجفاف والحروب.

وكم اكتشف تأييداً لذلك من بقايا الإنسان في العهد الحجري القديم أو الحديث في مناطق من الأرض هي اليوم غير صالحة للسكن.

٥٥ - وعلى كل حال فإن ما نعرفه من حياة الإنسان في العهد الحجري لا تسمح لنا أبداً بأن نجزم بأن حياة الشعوب في أزمنة ما قبل التاريخ قد ابتدأت بحياة البداوة والرحيل قبل حياة الإقامة والاستقرار، أو بالعكس.

ما نعرفه عن العهد الحجري القديم لا يسمح للجزم بسبق حياة الرحيل على الاستقرار.

٥٦ - **وبذلك تنهار** أيضاً نظرية هؤلاء الذين افترضوا جازمين بأن حياة الإنسان في كل مكان ابتدأت **بحياة الرحيل** وعدم الاستقرار؛

تنهار بذلك نظرية سبق حياة الرحيل وما بني عليها من نظم الاختطاف والشيوع.

كما ينهار معها ما بنوه على هذه الفرضية من نظم أساسية للصلات الجنسية: وأنها كانت **نظم الاختطاف** للمرأة، بعد أن قال بعضهم كما أسفلنا: أنها **نظم شيوع المرأة** وفوضى الصلات الجنسية.

هـ ـ الأسرة وشخصية الفرد فيها

شخصية الفرد الحقوقية تبع لما يُعْتَرف له من حقوق خاصة.

١ ـ إنما يعترف **بشخصية الفرد** في الأسرة **كشخصية حقوقية مستقلة** في وجودها عن غيرها من أفراد وجماعة **تبعاً لما يعترف للفرد** في أحضان الأسرة من **حقوق خاصة به**؛

ـ إنْ قام بها وأحسن فله وحده خيرها،

ـ وإِنْ أهملها وأساء التصرف فيها فعليه وحده وزرها.

ما هي تلك الحقوق؟

٢ ـ فما هي تلك **الحقوق الخاصة** التي تمنع بها الإنسان الأول **في مجتمعه الفطري**، وكان له وحده خيرها، وعليه وحده شرها؟

يرى الاجتماعيون أن الفرد إنما تميز عن مجموعته بعد ظهور الملكية والدولة.

٣ ـ يرى علماء الاجتماع اليوم أن **الفرد من الإنسان** «لم يصبح له **وجود واقعي متميز** من وجود مجموعته:

ـ إلا بعد أن ظهرت **الملكية الخاصة** التي هيأت له سلطاناً اقتصادياً،

ـ وإلا بعد أن **ظهرت الدولة** التي اعترفت له بوجود قانوني، وحقوق محددة»[١].

بعضهم لا يرى للفرد في

٤ ـ ويقول دوكوجي في كتابه «مراحل الحق»[٢]:

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الجزء الأول، ترجمة عربية، الصفحة ٥٤، طبع القاهرة سنة ١٩٤٩.

(٢) H.Decugis, Les Étapes du droit، الجزء الأول الصفحة ٤٠٣، طبع باريس سنة ١٩٤٢.

«لم يكن للفرد في نشأة الجماعات الأولى أي حق من الحقوق الشخصية **تجاه المجموعة** التي هو جزء منها؛

«وإن المجموعة سواء أكانت أسرة محدودة، أو فيما بعد طائفة أو قبيلة، لم يكن منها في الحقيقة غير **وحدة جامعة**، وهي وحدها التي ترعى مع المجموعات الأخرى صلات ذات صفة حقوقية».

نشأة الجماعات حقوقاً تجاه مجموعته، ويرى في المجموعة وحدة شاملة.

٥ - ويقول ول ديورانت[1]: «**إن حقوق الفرد في المجتمع الفطري أقل منها في حالة المدنية**، فأينما وجهت النظر وجدت الإنسان يولد مكبلاً بالأغلال: أغلال الوراثة والبيئة والتقاليد والقانون؛

ويرى آخرون أن حقوق الفرد في الجماعة الفطرية أقل منها في حالة المدنية وكان محاطاً بشبكة من التقاليد.

«والفرد في الجماعة البدائية يتحرك في شبكة من القوانين التي تبلغ بصرامتها وتفصيلاتها حداً يجاوز المعقول: فألف تحريم يحدد سلوكه، وألف إرهاب يشلُّ إرادته».

٦ - ثم يتابع ول ديورانت قوله ليقول: «إن أهل زيلندة الجديدة كانوا فيما يبدو للعين يعيشون بغير قانون، لكنهم في حقيقة أمرهم كانت التقاليد تتحكم في كل مظهر من مظاهر حياتهم؛

أهل زيلندة والبنغال لم يكن لهم قوانين ولكن التقاليد تتحكم في مظاهر حياتهم كلها.

«وكذلك أهل البنغال تسيّرهم التقاليد التي لا قبل لهم بتغييرها أو معارضتها: فتحدد لهم طريقة الجلوس والقيام والوقوف والمشي والأكل والشرب والنوم؛ فالفرد أوشك أن لا يكون في عرفهم كائناً **بذاته في البيئة الفطرية**».

٧ - وأخيراً يقول ول ديورانت: «ولم يكن يتمتع بالوجود الحق:

الوجود الحق إنما هو

(١) **كتاب قصة الحضارة** الأسبق الصفحة ٥٣.

للأسرة والقبيلة والمجتمع القروي.

- إلا الأسرة،

- وإلا القبيلة والعشيرة والمجتمع القروي؛

فهذه الهيئات هي التي تملك الأرض أو تباشر السلطان».

الحقوق الخاصة لم تدخل في عقول الجماعات الابتدائية وكل شيء كان مشاعاً لديهم.

٨ - وفي هذا المعنى يقول دوكوجي أيضاً: «**إن معنى الحقوق الخاصة** بكل فرد من أفراد كل جماعة لم يكن قط ممكناً تصوره في عقول رجال الجماعات الابتدائيين:

- لأن **الحياة المشتركة** لدى الرحل من الصيادين والرعاة،

- وكذلك **المسؤولية الجزائية الجماعية** لدى العشائر،

- وكذلك **الزراعة المشتركة** للأرض المشغولة من قبل مجموعات مستقرة،

لم تكن هذه إلا دلائل على خصائص **الحياة الشيوعية الابتدائية** لدى الجماعات البشرية الأولى، تلك الحياة التي قد عفّى عليها الدهر، وهي حالة لا تتفق مع مفهوم **الحقوق المتمايزة** المملوكة من قبل كل فرد بصفة شخصية»(١).

الفردية في داخل الجماعة إنما ولدت متأخرة تبعاً لظهور تقسيم العمل.

٩ - ثم يتابع دوكوجي ويقول:

- «إن **مفهوم الفردية في داخل الجماعة** لم يولد في الفكر الإنساني إلا متأخراً، وذلك بفضل البدء بالتمييز المتزايد من يوم إلى آخر فيما بين أنواع الأعمال التي نشأت **من توزيع العمل** وتقسيمه(٢)...؛

- «**وإن الفردية** إنما استيقظت ببطء، ثم تطورت

---

(١) كتاب **مراحل الحق** السابق، الجزء الأول، الصفحة ٤٠٣-٤٠٤.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٠٣-٤٠٤.

وتوسعت. . . إلى أن اعترف لكل فرد بشخصية مستقلة: **مؤيدة بمجموعة من الحقوق والواجبات**، المتزايدة والمتمايزة مع الزمن من يوم إلى آخر بأكثر من ذي قبل، والتي كونت مجموعة الحقوق العامة»[1].

والخلاصة أن الفرد كان ذائباً في الجماعة، والأسرة هي أول جماعة، وكل شيء كان مشتركاً غير الزوجة.

١٠ ـ وهكذا يذهب علماء اليوم الباحثون في حياة المجتمعات الفطرية الأولى ويرون:

ـ **أن شخصية الفرد** لدى الجماعة الإنسانية الأولى كانت ذائبة في شخصية الجماعة.

ـ **وأن الأسرة** قد كانت في نشوئها أول مظهر من مظاهر الجماعات.

ـ **وأن كل شيء كان مشتركاً** فيما بين أفراد الأسرة، بعد استثناء اختصاص الرجل بزوجته كما سبق بيانه أيضاً.

ماذا كان وحي الفطرة تجاه هذه النظرية.

١١ ـ غير أننا على عادتنا نتساءل ماذا كان وحي الفطرة الأولى تجاه هذه النظرية التخمينية؟ وذلك كي لا نبقى في حدود الظن والتخمين.

لسان حال طبيعة الإنسان في هذا المقام فوق الكلام.

١٢ ـ وإذا رجعنا إلى طبائع الخليقة الإنسانية، وتتبعناها في مجتمعاتها الفطرية الأولى:

ـ حيث لا منظمة عامة تحمي الفرد وتضمن له البقاء،

ـ وحيث لا دولة تأخذ على عاتقها صيانة هذا الكائن الحي، **نجد لسان الحال** في هذا المقام فوق عبارة النطق والكلام.

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٠٤.

حاجة الإنسان إلى بني جنسه خلافاً للحيوان.

١٣ ـ لقد شاءت إرادة الخالق للإنسان كما مرَّ معنا أن يختلف عن الحيوان اختلافاً بيناً في خلقه وطبيعته منذ ظهوره للوجود(١)؛

وكذلك شاءت إرادة الخالق أن يولد الإنسان وهو في حاجة في كل شيء إلى ما سبقه على طريق الحياة من أبناء جنسه(٢) خلافاً للحيوان.

تولد البهيمة مكتسية مسلحة خلافاً للإنسان وهو في حاجة أطول ما تكون إلى بني جنسه في سبيل البقاء.

١٤ ـ **فبهيمة الحيوان** منذ تولد **تكون مكتسبة** بما يدفع عنها أذى الحر والقرّ، **ومسلحة** بما هي في حاجة إليه لمتابعة بقائها في الحياة دون الحاجة إلى العناية بها من قبل أفراد نوعها في ذلك إلاَّ قليلاً جداً؛

أما الإنسان فيولد مجرداً مما منحته الطبيعة للحيوان، وهو لذلك في حاجة إلى عناية أفراد من بني جنسه مدة أطول ما عرفت في حياة المخلوقات الحية، كي يستطيع الاستمرار بعد ذلك في البقاء.

حاجة الإنسان إلى بني جنسه للعناية بصحته وغذائه وتعليمه وعقله ومنطقه.

١٥ ـ وهكذا فإن الإنسان يولد وهو في حاجة إلى العناية به من قبل بني جنسه في كل شيء ليتكامل ويكون بعد ذلك قادراً على البقاء:

ـ فهو في حاجة أولاً إلى مَنْ يُعنَى **بصحته وغذائه** بضع سنوات، لا كالسمكة تولد وهي مستغنية عن غيرها وقادرة على السباحة والبحث بنفسها عن رزقها،

ـ وهو في حاجة بعد ذلك إلى مَنْ **يعلّمه كيف يعيش**،

---

(١) الصفحة ٢٦٤ من هذا الكتاب، الفقرة ١٧.

(٢) الصفحة ٢٦٥ من هذا الكتاب، الفقرة ٢١.

- بل هو في حاجة بعد ذلك إلى **تقوية قواه العقلية** ليكون قادراً بنفسه على معرفة ما هو ضروري لبقائه؛

- وكذلك هو في حاجة إلى **تعلم المنطق والكلام** ليعبِّر عمَّا في نفسه لمصلحته.

هذه الحاجات ربطت الإنسان بمَنْ يُعْنَى به.

١٦ - إن هذه الحاجات الكثيرة والضرورية لحياة الإنسان وبقائه **قد ربطت كل إنسان** - بحكم طبيعة الأشياء - **بمَنْ يَعنَى به**: مولوداً وطفلاً وحدثاً وشاباً، **وتلك هي أُسرته**، وفي خلال مدة لا تقل عن **خمسة عشر عاماً**.

لذلك نشأ الإنسان لا يعرف وجوداً له إلاَّ من خلال أسرته التي عُنيت به وارتبط بها.

١٧ - وهكذا نشأ الإنسان ودَرَج خلال خمسة عشر عاماً على الأقل:

- وهو **لا يعرف وجوداً لنفسه** إلا من خلال أسرته التي **عُنيت به**،

- ولا **يملك شيئاً لشخصه** يقوم بدفع حاجته إلا ما كان في حوزة أسرته ومشتركاً بين الجميع، وفقاً للمبدأ الاجتماعي القائل **«كل واحد للجميع، والجميع لكل واحد**: Chacun pour tous, tous pour chacun»[١].

فكان ذلك كافياً لربطه بالأُسرة، والإشعار بأنه جزء منها لا يتجزأ.

صعاب الحياة الابتدائية زادت في ذوبان الإنسان في أسرته.

١٨ - ويُضَاف إلى ذلك أن الحياة الابتدائية في عهود الفطرة كانت محفوفة بأنواع كثيرة من **الصعاب والأخطار** التي لا يجد الإنسان لنفسه فيها معيناً على مجابهتها إلا أسرته التي أنجبته، وإلا جماعته التي أنشأته، **وهذا ما يوجب عليه أيضاً**:

- الاستمساك **برابطة الأُسروية** حتى فيما بعد عهد القوة والشباب،

---

(١) كتاب **مراحل الحق**، دوكوجي، الجزء الأول، الصفحة ١٠٤، طبع باريس سنة ١٩٤٢.

ـ والذوبان نهائياً في **مجموعته الأسروية** والعيش معها عيشاً مشتركاً طول حياته.

فحاجة الإنسان لمَنْ يُعْنَى به، وصعاب حياته الابتدائية، جعلته مدنياً بالطبع.

١٩ ـ لذلك كان **الإنسان الأول اجتماعياً بالطبع**، وذائباً في كيان أسرته الأولى من مجتمعه الفطري **تحت ضغط عوامل الطبيعة** التي أنشأته؛

وتلك العوامل هي كما رأينا:

ـ **حاجة الإنسان للعناية به** عناية لا بدَّ منها منذ ولادته حتى شبابه،

ـ ثم **صعاب الحياة الابتدائية** وأخطارها التي لا يجد معيناً له على مجابتها إلا أسرته التي أنجبته، وجماعته التي عاش فيها.

لذلك سيظل الإنسان ذائباً في مجتمعه صغر هذا أو كبر كلما اشتدَّت حاجته إليه.

٢٠ ـ وسوف تبقى **هذه العوامل** وحدها هي عوامل ذوبان الفرد في مجتمعه الصغير (أسرته) أو في مجتمعه الكبير (دولته):

ـ كلما اشتدَّت حاجة الإنسان إلى عناية الغير بشخصه، أو تعقَّدت وسائل الحياة أمام الأفراد،

ـ أو كلما تزايدت صعاب الحياة وأخطارها على حياته حتى لم يعد قادراً وحده على مجابهتها بدون جهد بارز للجماعة التي نشأ فيا.

ظهور الملكية الخاصة والدولة لن يمنعا ذوبان الفرد في جماعته إذا

٢١ ـ وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بأن **ظهور الملكية الخاصة وظهور الدولة** اللذين دعما شخصية الفرد، وأثبتا وجوده المتمايز عن وجود مجموعته (كما تقدم معنا في الفقرة الثالثة من هذا المبحث)، **لن يحولا دون** ذوبان الفرد في الجماعة

كلما اشتدت حاجته إليها، وذلك لأننا نجد اليوم عودة من جديد نحو **حياة الجماعة وذوبان الفرد فيها** تحت شعار الاشتراكية، مهما اختلفت ألوان الاشتراكية شكلاً وحكماً، وشدة وضعفاً، وذلك بالرغم من وجود **الدولة** ومن وجود **الملكية الخاصة**.

اشتدت حاجته إليها كما نراه اليوم.

٢٢ ـ لذلك كانت العودة إلى ذوبان الفرد في الجماعة من جديد إنما هو ناشيء عن **تعقد الحياة الحديثة** تعقداً غريباً: أعاد للعناية بشخص الفرد ـ ولمجابهة ما يحيط به من صعاب فوق قدرته وقدرة أسرته الصغيرة ـ قيمة لم تعرف من ذي قبل؛

تعقد الحياة الحديثة هو سبب عودة الفرد للذوبان في مجتمعه رغم حقوقه الكثيرة.

لذلك أخذ شخص الفرد بالذوبان من جديد في كيان المجموعة بالجملة، رغم ما نجد للفرد من **حقوق** كثيرة في مجتمعنا الحديث فوق **حقوقه** في مجتمعه الفطري.

٢٣ ـ غير أن الصراع كان ولا يزال يدور في مختلف الجماعات القديمة والحديثة **ضد ذوبان الفرد في جماعة** عندما يهدف الذوبان إلى جعل الإنسان:

لكن سيظل الصراع ضد ذوبان الفرد وجعله حيواناً مقطوراً من غير إرادة ولا كرامة.

ـ حيواناً مقطوراً بالركب،

ـ ومقهوراً بالقصد،

ـ ومجرداً **من حقه في الإرادة والكرامة**.

٢٤ ـ ولم يكن هذا الشكل من الذوبان شأن الفرد في أسرته الأولى ولا من طبيعة فطرته السليمة:

ـ فقد بدأ الفرد، وبحكم طبيعة الأشياء حينئذ، بذوبان شخصه في كيان أسرته الأولى، وفي مجتمعها الفطري الأول، ولكنه كان **محاطاً بشعور الحب والمساواة** وكان **إنساناً مريداً**

وفقاً لقاعدة: «أن الجميع لكل واحد، وأن كل واحد للجميع».

ـ وانتهى **أحياناً** هذا الذوبان لدى بعض الجماعات القديمة، كما في روما البدائية، مطوقاً بالسلطة العليا التي تفرَّد بها سيد الأسرة، مع الحق المطلق في الحياة والموت على كل فرد من أَفراد الأسرة المجردين من الإرادة: من غير سائل ولا محاسب، وعلى أساس أن الجميع للواحد!!

إنما الفضل لجماعة توفق بين مطالب الطبيعة بالعيش المشترك وبالحق في الحياة والكرامة.

٢٥ ـ وسوف يبقى الفضل والخلود للجماعات التي استطاعت أن توفق ما بين مطالب طبيعة الإنسان **بالعيش في جماعة مشتركة**، وبين مطالب طبيعته أيضاً **بحقه في الحياة وفي المساواة وفي الكرامة**، حتى إذا ما ذاب شخصه فيها:

ـ سمت كرامته،

ـ وبرزت إنسانيته،

ـ وتفتحت مواهبه،

ـ وظل فيها إنساناً مريداً لا حيواناً مقطوراً؛

ولذلك فليعمل العاملون.

نلاحظ على الباحثين أنهم لم يميزوا بين عدم استقلال الفرد وبين حقوقه.

٢٦ ـ ولا بد لنا وقد أنهينا الكلام على شخصية الفرد في الأسرة الفطرية من أن نبدي ملاحظة تراءت لنا: وهي أن الباحثين في هذا المقام لم يميزوا ما بين **عدم استقلال شخصية الفرد** في الجماعات الفطرية الأولى، وبين **حقوقه فيها**:

ـ فقد حكموا، لعدم استقلال شخصية الفرد في الجماعات الفطرية الأولى، **بفقدان كل حق** من الحقوق الخاصة به والمميزة له عما عداه؛

ـ كما حكموا **بنشوء حقوقه** فقط عندما نشأت فرديته وتميزت عن الجماعة.

يجب التمييز بينهما في الجماعة.

٢٧ ـ ولكننا في الواقع لا بد من التمييز:

ـ ما بين **اشتراك الإنسان** في جماعة ما **وعدم استقلاله** وتميزه عنها، كما هو شأن الفرد في الجماعات الفطرية الأولى؛

ـ وبين **حقوق الإنسان** في تلك الجماعة.

تمييزنا بينهما في حقوقنا الحديثة.

٢٨ ـ ففي حقوقنا الحديثة نميز بكل وضوح ما بين الحالتين كما هو ظاهر من الاشتراك في شركة مساهمة مثلاً:

ـ فكل مساهم غير مستقل في تصرفه عن شركائه في تلك الشركة،

ـ ولكنه من ناحية ثانية له حق معلوم فيها لا ريب فيه.

لا يلزم لوجود الشخصية الحقوقية قديماً أن يكون لها جميع حقوقنا المعروفة اليوم.

٢٩ ـ هذا، ومن جهة أخرى: لا يلزم لكي نحكم بوجود شخصية الفرد الحقوقية في المجتمع الفطري أن تكون له **جميع الحقوق التي نعرفها اليوم**، إذ من المعلوم أن الحقوق الشخصية المعروفة اليوم لم تظهر دفعة واحدة منذ ظهور شخصية الإنسان الحقوقية في التاريخ؛

وآخر ما شاهدنا من حقوق ظهرت حديثاً واعترف بها في مختلف القوانين هو **حق التأليف والاختراع**، فكما أن عدم الاعتراف بهذا الحق في العصور الماضية من عهود شخصية الفرد الحقوقية، رغم وجود التأليف والاختراع، لا يلزم منه عدم الاعتراف بشخصية الفرد الحقوقية حينذاك، فكذلك لا يلزم من عدم ظهور حق الملكية الفردية في عهود الفطرة الأولى القول بعدم ظهور الشخصية الحقوقية للفرد حينذاك أيضاً.

لذلك لا نقول بفقدان حقوق الفقرد في جماعته الفطرية رغم ذوبانه فيها.

٣٠ - وبناء على هذا: فإننا إنْ ذهبنا إلى **ذوبان شخصية الفرد** في الجماعات الفطرية الأولى كما شرحناه من قبل، وقلنا بعدم استقلال الفرد عن الجماعة، غير أننا لا نستطيع القول **بفقدان كل حق** من حقوق هذا الفرد في تلك الجماعة بصورة يتميز به عما عداه.

وأن القول بعدم ظهور الملكية الفردية حينذاك لا يجيز القول بفقدان كل الحقوق.

٣١ - فإن جاز لقائل أن يقول بعدم ظهور **الملكية الفردية** كحق من الحقوق الخاصة في عهود الفطرة الأولى، وأنها إنما ظهرت متأخرة لعوامل وظروف اقتصادية واجتماعية، فإننا لا نستطيع أن نقول معه لفقدان هذا النوع من الحقوق حينذاك **بفقدان سائر الحقوق الخاصة** التي تميز الفرد عن سائر جماعته، إذ إننا قد أثبتنا فيما سبق: اختصاص الرجل بزوجته في أسرته الأولى، وهو بهذا الاختصاص **قد تميز قطعاً** عن جميع مَنْ عداه من أفراد أسرته أو غيرها من الجماعات الفطرية الأولى، وهذا **حق خاص** من الحقوق لا شك فيه.

و ـ الأشياء والملكية

١ ـ **الملكية** في حقيقتها ما هي إلاَّ **الاختصاص بالشيء** دون الآخرين:

الملكية اختصاص فرد أو جماعة بالشيء.

ـ سواء أكان في صورة **اختصاص فرد بشيء**، وهو الملكية الفردية،

ـ أو في صورة **اختصاص جماعة بشيء**، وهو الملكية الجماعية.

٢ ـ **وحاجة نوع الإنسان** إلى الأشياء اللازمة له، بل كل فرد منه إلى تلك الأشياء، **هي حاجة أصيلة** في طبيعته، ومرافقة له في **وجوده المتمايز في واقع الحال** عن وجود كل فريق آخر من جماعات الإنسان، أو كل فرد من أفراده.

حاجات الإنسان إلى ما يلزمه من أشياء أصيلة في طبيعته.

٣ ـ لذلك لا نشكُّ بأن **اختصاص الإنسان بالشيء** قديم قدم الإنسان نفسه وحاجته إلى الاختصاص بذلك الشيء.

اختصاص الإنسان بأشيائه قديم.

٤ ـ ولكن الشك هو قائم في **قدم نوع تلك الأشياء**:

ـ التي رافقت وجوده في عهود الفطرة والجماعات الأولى،

ـ والتي احتاج إليها في عهده الأول.

ولكن الشك في قدم نوع تلك الأشياء التي احتاج إليها.

٥ ـ فما أكثر الأشياء التي رافقت وجود الإنسان في مجتمعه الفطري؛

الأشياء القديمة كثيرة

ولكن كثيراً منها لم يحتج الإنسان إليها حينذاك.

ولكن ما أكثر الأشياء منها أيضاً التي لم يكن في حاجة إليها في أول الأمر، لأنه لم يعرف الاستفادة منها حينذاك.

كذلك الأشياء الحديثة كثيرة ولكنها لا تهمنا هنا.

٦ - وكذلك ما أكثر الأشياء التي لم ترافق وجوده الفطري، ولكنه اخترعها بعد ذلك وصنعها في عهود متأخرة عن عهود الفطرة: مثل أدوات الصيد والزينة؛

وهذه أشياء لا نهتم بها الآن في هذا العهد الفطري الأول: لأنها لم تكن موجودة فيه.

الملكية للأشياء حاجة طبيعية وتنشأ منذ اختصاص الإنسان بها مع وجود المزاحم.

٧ - وهكذا نجزم بأن **الملكية للأشياء حاجة طبيعية** لدى الإنسان، ولكنها تنشأ **منذ يشعر الإنسان بالحاجة إلى الاختصاص** بشيء من تلك الأشياء:

- فالجماعة لا تشعر بالحاجة إلى **الملكية الجماعية** إلا بعد **تعدد** الجماعات، وبعد نشوء **دواعي التزاحم** فيما بين هذه الجماعات على نفس الأشياء لتستأثر بها جماعة دون بقية الجماعات؛

- والفرد لا يشعر بالحاجة إلى **الملكية الفردية** إلا بعد الشعور **بالحاجة الخاصة** به إلى تلك الأشياء دون بقية الأفراد.

نرى أن الملكية الفردية قد سبقت الجماعية.

٨ - وهكذا نذهب نحن، ما دامت حاجة الإنسان إلى الأشياء اللازمة لحياته وبقائه قديمة بقدمه، ونرجح القول بأن **الملكية قديمة** ومعروفة لدى الإنسان منذ عهود الفطرة، وبأن **الملكية الفردية** فيما يظهر قد سبقت **الملكية الجماعية** في الوجود.

علة سبق الملكية الفردية في الوجود وجود

٩ - ذلك لأن الفرد لا بدّ له من أخذ **نصيبه الخاص به** من أي شيء من الأشياء اللازمة لحياته حينذاك، **والمزاحم له** في ذلك الشيء موجود في نفس أسرته؛

ولكن **الجماعة المزاحمة** للجماعة الأولى في أشيائها لا بد لنشوئها من أن يسبقها تكامل الجماعة الأولى ثم انقسامها؛

المزاحم فيها قبل المزاحم في الجماعة.

ولذلك كانت **الملكية الجماعية** لتأخر عناصر وجودها متأخرة في الحدوث عن حدوث **الملكية الفردية**.

١٠ ـ هذه هي خلاصة ما نعتمده نحن في هذا المبحث؛ ولكن الواجب يقضي علينا أن نعرض للقارىء ألواناً أخرى من البحث، لأن الباب مفتوح للباحثين، وفوق كل ذي علم عليم.

ذلك ما اعتمدناه وفيما يلي ألوان أخرى من البحث.

١١ ـ فقد قال الباحثون في حق الملكية: إن الكشف عن **منشأ حق الملكية** ليس بأقل صعوبة من الكشف عن منشأ **حقوق الأسرة**، لأن كلاً من نظم الملكية والزواج يرجع بلا شك إلى أبعد العهود في عصور ما قبل الأزمنة التاريخية[1].

منشأ الملكية مثل حقوق الأسرة في صعوبة الكشف عنه.

١٢ ـ ويرى بعضهم أنه:

ـ من المحتمل جداً أن تكون **الملكية** أسبق في الوجود من **الحياة الجماعية** نفسها؛

ـ وأن الملكية انبعثت من **فعل مقاومة الفرد** ضد مَنْ يريد الاستيلاء على ما في حوزته.

يرى البعض أن الملكية أسبق من الحياة الجماعية: لانبعاث الملكية من مقاومة الفرد.

١٣ ـ وإن **هذه المقاومة** لم يكن لها في البدء **أية صفة حقوقية**، وإنما كانت من فعل غريزة الدفاع عن الحياة، أي من الاندفاعات impulsions التي ما هي إلا **انفعالات عضوية** كلما تعرضت الأعضاء الحية إلى المساس بها، كما نشاهد ذلك لدى جميع الحيوانات العليا.

المقاومة ضد استيلاء الغير غريزة وانفعالات عضوية حية.

(١) انظر كتاب **مراحل الحق** Les Etapes du droit لمؤلفه Henri Decugis، الجزء الأول، الصفحة ١٠٧، طبع باريس سنة ١٩٤٢.

مثال ذلك لدى الكلب.

١٤ ـ فالكلب مثلاً لديه **حس بالملكية** لا شك فيه:

ـ «فهو لا يكتفي بالدفاع بشدة عن العظمة التي يراد انتزاعها منه،

ـ «أو بالدفاع عن مأواه الذي يراد إخراجه منه،

ـ «بل يحرس بأمانة بيت سيده، وماشيته، وجميع الأشياء التي يأتمنه عليها لحفظها والدفاع عنها».

واستشهاد داروين بقرد حديقة الحيوانات بلندن.

١٥ ـ واستشهد داروين في هذا المقام بما وقع من قرد في حديقة الحيوانات بلندن، ولم تكن أسنانه في نموذها الضعيف بقادرة على كسر الجوزات التي تُقدَّم له، فاستعان على كسرها بحجر كان يخفيه تحت القش، وما كان ليسمح قط لقرد آخر بأن يمسَّ ذلك الحجر.

ومثل ذلك بعض الحيوانات الأخرى.

١٦ ـ ومثل ذلك: الديك وبعض أنواع القرود في أفريقيا، والوعل، والجاموس، إِذا اختصوا بأنثى لهم أو بعدد من الإناث، فإِنهم يدافعون عنها بعنف ضد كل الذكور الآخرين الذين يحاولون الاستيلاء عليها.

لذلك يرى بعض الباحثين أن الملكية كانت فعلاً حيوانياً قبل أن تصبح عملاً حقوقياً.

١٧ ـ ويرى هؤلاء الباحثون:

ـ أَن الإنسان لا يعمل إِلا مثل ذلك في سبيل الدفاع عن أشيائه؛

ـ وأَن فكرة الملكية عند الإنسان الأول قد نشأت هكذا فيما يظهر منذ أزمنة ما قبل التاريخ، أي أن الملكية لم تكن في بادىء الأمر إِلا **فعلاً حيوانياً خالصاً وغريزياً**،

ـ وأَن الملكية لم تدخل في نطاق الحق إِلا شيئاً فشيئاً؛

ـ وأنها تطورت بعد ذلك منذ فجر الحياة الاجتماعية بواسطة النظام القضائي في الأسرة وفي الطائفة.

١٨ ـ وقد تناقش العلماء كثيراً حول معرفة النوع الأول من الملكية فيما إِذا كان:

اختلاف العلماء في أقدم نوعي الملكية: الفردية والجماعية.

ـ هو الملكية الفردية،

ـ أو هو الملكية الجماعية.

١٩ ـ وقد استندت مناقشاتهم:

مستند الخلاف والمناقشة شعوب ووثائق ليست ابتدائية.

ـ «إِلى مراقبة الشعوب الهمجية الحاضرة المعاصرة،

ـ «وإِلى دراسة الوثائق الخاصة بأجدادنا منذ أربعة آلاف سنة أو خمسة آلاف، وقد نعتوهم خطأً **بالابتدائيين**»[١].

٢٠ ـ وهنا أيضاً يجب أن نتمكن من الرجوع إِلى أقصى ظلمات التاريخ من ماضي البشرية لنبحث عن النشأة الحقيقية لحق الملكية؛

الملكية قطعاً سبقت الأزمنة التاريخية.

فإن **حق الملكية** قد نشأ قطعاً منذ عشرات الألوف من السنين، وقد تطور خلال الألوف العديدة منها قبل إدراكه عهد **الأزمنة التاريخية** التي نكرر القول فيها ونقول إِنها لا تؤلف في مجموعها إلا جزءاً ضئيلاً جداً من أزمنة ما قبل التاريخ[٢].

٢١ ـ «فإن عهود أزمنة ما قبل التاريخ قد عرَّفتنا على الإنسان الابتدائي في صورة **كائن حي، منعزل تقريباً وعار**:

أزمنة ما قبل التاريخ وحياة الإنسان الابتدائي فيها: تائها أو مستقراً.

ـ ناهج **حياة تيه وعدم استقرار** تبعاً للسعي وراء صرف الصيد وجني الثمار وجمع أصول الأعشاب التي يقتات منها،

---

(١) **مراحل الحق** السابق، الصفحة ١٠٨.

(٢) نفس المرجع السابق.

ـ أو ناهج أحياناً **حياة استقرار** عندما كان يأوي إِلى كهف أو كوخ صغير»[1].

الملكية الفردية لأدوات الصيد كانت الشكل الأول.

٢٢ ـ «وأن **الملكية الفردية** لأدوات الصيد، ولجلود الحيوانات التي كان يلبسها الإنسان، وللمأوى الذي كان يأوي إليه، كانت في طبيعة الحال هي **الشكل الأول** الذي أرشد الإنسان إِلى حق الملكية؛

لا فائدة من البحث عن سبق المنقولات أو العقارات.

«وأن هذه الفرضية فيما يظهر لنا هي الأقرب للحقيقة إذا ما نظرنا إلى **القليل مما عرفناه** عن حياة قدماء العصر الحجري القديم»[2]؛

«وأنه ليس هناك من فائدة كبرى في البحث عما إِذا كانت ملكية **المنقولات** سبقت ملكية **العقارات**، أو بالعكس»[3].

ذهبنا مع دوكوجي إلى سبق الملكية الفردية.

٢٣ ـ وهكذا يفترض دوكوجي أن **الملكية الفردية** سبقت **الملكية الجماعية**، وأن ذلك أقرب إِلى الحقيقة؛

وهكذا ما ذهبنا إليه أيضاً في الفقرات السابقة أعلاه (٧ـ٩) من هذا المبحث.

لكن حجة دوكوجي في ذلك هي سبق حياة العزلة على الجماعة خلافاً لغيره.

٢٤ ـ غير أن دوكوجي يصل إِلى القول **بسبق الملكية الفردية** للملكية الجماعية بغير الحجة التي استندنا إليها:

ـ فقد استخرجنا نحن حجتنا من صميم الحياة الجماعية كما أشرنا إليها في الفقرة التاسعة أعلاه؛

ـ أما دوكوجي فقد استخرج حجته مما قد ترجَّح لديه بأن

---

(١) المرجع السابق، الصفحة ١٠٨.
(٢) نفس المرجع السابق.
(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ١١٠.

مرحلة حياة العزلة لدى الإنسان الأول قد سبقت حياة التكتل الإنساني، وأن الحياة الفردية قد سبقت الحياة الجماعية[1]، وهو مخالف لما جرى عليه آخرون من علماء الاجتماع[2]، ولما ذهبنا إِليه أيضاً في مبحثنا السابق (هـ ـ الأسرة وشخصية الفرد فيها، الفقرات ١٦ـ١٩).

حجة دوكوجي في سبق حياة العزلة هي بقاياه المنفردة.

٢٥ ـ ويحتج دوكوجي لسبق حياة العزلة والانفراد بأنه لم يوجد في بادىء الأمر لدى قدماء العصر الحجري القديم قبور مشتركة، وإِنما الذي وجد هو بقايا إنسانية منفردة، أو بقايا إنسانية في مجموعات مؤلفة من شخصين أو ثلاثة بصورة عامة؛ وأن هذه أمارات يتمسك بها في متابعة دراستنا[3].

يشك دوكوجي في سبق حياة الجماعة خوفاً من اجتذابهم للوحوش.

٢٦ ـ ثم يتابع دوكوجي دراسته ويشك في أن يكون من السهل في بدء حياة الإنسان الأول إمكان لبقاء المجموعات الإنسانية الكثيرة العدد، لأن تجمعهم هذا يجذب إِليهم فوراً أعداداً كبيرة من سباع الوحوش الضارية، تلك الوحوش التي كثيراً ما كان الإنسان فريسة لها حين لم يكن يعرف صناعة الأسلحة المناسبة للدفاع.

ويرى في عزلة البدائي ضمانة أكثر لسلامته.

٢٧ ـ وينتهي دوكوجي بعد ذلك إِلى القول بأن الإنسان الابتدائي، وهو في عزلة واختفاء مع زوجته وأولاده، كان في مأمن أضمن منه فيما إِذا انضم إِلى جماعات آخرين، وأن التفرق والتشتت l'éparpillement كان الضمان الأساسي لسلامته»[4]!

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٠٨ـ١٠٩، وكذلك الصفحة ٤٠٣.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٠٩.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٠٨ـ١٠٩.

(٤) نفس المرجع، الصفحة ١٠٩.

٢٨ ـ ولذلك ذهب دوكوجي بعد هذه الدراسة إلى القول بأنه «يبدو من ذلك فيما يظهر أن التكتل الإنساني لم يكن النموذج الأول للحياة الابتدائية، وأنه من المحتمل جداً أن تكون مرحلة الفردية قد سبقت مرحلة الجماعة، وهذا على خلاف ما ذهب إليه بعض علماء الاجتماع»(١).

بقية علماء الاجتماع يرون حياة الجماعة أسبق.

٢٩ ـ ثم يتابع ويقول: «من المحتمل أن هذه الحياة المنعزلة لدى الرجال الأوائل قد استمرت خلال الجزء الأعظم من العصر الحجري الأسفل، أي مدة عدة مئات من ألوف السنين؛

يرى دوكوجي استمرار حياة العزلة خلال الجزء الأعظم من العصر الحجري الأسفل.

«وأن ما قد وجد من بقايا حيوية هؤلاء (في تلك الطبقات الأرضية من العصر الحجري الأسفل) لا تدلُّ أبداً على حياة **تكتلات إنسانية** كما قد كشفت عنه خلافاً لتلك **طبقات الأرض الأقرب عهداً**»(٢).

٣٠ ـ وأخيراً يستنتج دوكوجي من ذلك ويقول: «وبناء على ذلك فإن **مفهوم الملكية الفردية** إنما نشأ وتكامل في الألوف الأولى من عصور الإنسانية فيما قبل الأزمنة التاريخية؛

ولذلك يرى سبق مفهوم الملكية الفردية لحياة الجماعة، ثم استمرارها.

وأن الملكية الفردية فيما بعد قد استمرت خلال **الحياة الجماعية** التي نشأت بكل وضوح بعد ذلك بكثير»(٢).

٣١ ـ ويرى دوكوجي في **استمرار** الملكية الفردية منذ القديم **حدثاً واقعياً** ذا نتائج عظيمة، لأن الملكية الفردية قد دوَّى صوتها خلال كل العصور، وأثرت باستمرار في كل المدنيات الإنسانية؛

ويرى أن المفاهيم القديمة المستمرة هي التي تكون العقليات الثابتة، وكذلك شأن المفاهيم المنبعثة عن انفعالات عضوية حية.

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ١١٠.

وكذلك يكون **شأن المفاهيم والمدركات المستمرة** والموغلة في القدم، فهي وحدها التي تؤلف وتكوّن **الأُسس الثابت في عقليتنا**: لأن هذه المفاهيم إنما انبعثت من الانفعالات العضوية[1] كما مر معنا أعلاه (في الفقرات ١٢-١٧)، وستستمر وتدوم هذه المدركات والمفاهيم القديمة ما دامت هذه الانفعالات في الأعضاء الحية قائمة.

قد تتوارى هذه المفاهيم القديمة ولكنها تعود بثبات.

٣٢ - وكثيراً ما يعرض لهذه **المدركات القديمة** أن تتوارى أو تتراجع تحت ضغط مفاهيم أخرى أحدث منها، ولكنها لا تلبث أن تعود للظهور وتخرج للوجود بثبات وبغير انقطاع.

وهكذا حال النزاع الدائم ما بين مفاهيم الملكية الفردية والجماعية.

٣٣ - وهذا هو حال **النزاع الدائم** الخالد ما بين مفاهيم **الملكية الفردية** وبين الاتجاهات نحو **الملكية الجماعية** التي حدثت فيما بعد، والتي استدعى النزاع فيما بينها تعاقباً متكرراً من غير انقطاع فيما بين الفكرة الفردية والفكرة الجماعية كما يقصُّ التاريخ علينا أخبارها.

الهمج المعاصرون اجتازوا الفردية إلى الجماعية منذ القديم واستقر فيها بعضهم وتطور آخرون.

٣٤ - فالشعوب الهمجية في العصر الحاضر قد اجتازوا المرحلة الفردية الابتدائية منذ زمن بعيد، ووصلوا إلى مفهوم **الملكية الجماعية** منذ أصبحت الحياة المشتركة لديهم ممكنة؛

غير أن بعض هذه الشعوب قد استقرَّ في الحياة المشتركة، **بينما بعضهم** تابع تطوره.

اتخذ الباحثون الكثيرون من اندراس الملكية الجماعية لدى

٣٥ - وأن الكثيرين من علماء الاجتماع الدارسين لأوضاع القبائل الأوسترالية، وقبائل الجزر في شرقي أوستراليا، والقبائل السود والآسيوية، وجدوا أن **الملكية الجماعية** لدى

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١١٠.

هؤلاء قد أصبحت أثراً بعد عين، فاستدلوا من انقراضها لدى هذه القبائل على أن الملكية الجماعية هي **الشكل الأول** من تاريخ تطورهم.

الأوستراليين وأمثالهم دليلاً على أنها الشكل الأول.

ويرى دوكوجي أن استنتاجهم خاطىء لأن الملكية الجماعية لا تمثل حالة ابتداء.

٣٦ ـ ويرى دوكوجي في استنتاج هؤلاء العلماء وذهابهم إلى أن **الملكية الجماعية** هي أقدم الأشكال القديمة، أنه استنتاج خاطىء، لأن الملكية الجماعية لا تمثل في حال من الأحوال مرحلة ابتداء[١].

لأن الرجال لم يستطيعوا العيش المشترك الكبير إلا بعد قدرتهم على رد الوحوش.

٣٧ ـ كما يرى أن الرجال لم يستطيعوا أن يعيشوا في **جماعات كثيرة الأشخاص**، وأنهم لم يستطيعوا أن ينظموا **الملكية الجماعية**، إلا بعد أن أصبحوا أهلاً لرد هجمات الوحوش المفترسة، وأهلاً لتأهيل الحيوانات المفيدة؛ وأن **الملكية الجماعية** إنما نشأت حينئذ من الاستعمال المشترك لموارد حياتهم.

ويرى في القطعان المشتركة وأسوار القرى أول مراحل الملكية الجماعية.

٣٨ ـ ويرى أيضاً أن تكوين **القطعان المشتركة**، وإنشاء **أسوار القرى** المأهولة كلها بقبيلة واحدة، هي فيما يظهر أول مراحل الملكية الجماعية قبل البدء بالزراعة.

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١١٠ ـ ١١١.

ز ـ الخصومات والفصل فيها

الخصومة ملازمة لمفهوم الملكية لأن هذه منبعثة عن المقاومة.

١ ـ إذا كانت **الملكية** إنما انبعثت من **فعل مقاومة الفرد** ضد مَنْ يريد الاستيلاء على ما في حوزته، فإن **الخصومة ملازمة إذن لمفهوم الملكية** في نشوئها، بل ملازمة لكل نوع من **أنواع الاختصاص**، سواء أكان اختصاصاً بزوجة أو بشيء، وذلك منذ ظهور **أول مزاحم** من الأفراد، أو أول مزاحم من الجماعات.

خلافاً للملكية والخصومة، فالفصل في الخصومات إمارة على وجود الجماعة والسلطة القسرية.

٢ ـ **غير أن الملكية** إذا أمكن **تصور مفاهيمها** على السواء في كل من المرحلتين من حياة الإنسان: المرحلة الفردية والمرحلة الجماعية،

وكذلك إذا أمكن تصور **وقائع الخصومة** في كل من المرحلتين أيضاً،

فإن **الفصل في الخصومات** والقضاء فيها أمارة بلا شك على **وجود جماعة** تخضع في صلاتها إلى سلطان العدل، وأمارة أيضاً على **وجود سلطة** يخضع إليها المتخاصمان قسراً.

فهل خضع الإنسان الفطري إلى قضاء؟ وكيف؟.

٣ ـ فهل خضع الإنسان الأول من الجماعات الفطرية في خصوماته إلى **قضاء فاصل**؟

ومن هو **الذي فصل** في الخصومات حينذاك؟

٤ ـ وما هو **مستند الحكم**؟

وما هو **سبب الخضوع** القسري لما يصدر من أحكام؟

الإجابة على ذلك هي خلاصة مفاهيم النظم القضائية وتاريخ الخصومة.

٥ ـ إن الإجابة على ذلك إنما هي خلاصة عن **مفاهيم النظم القضائية** في تلك العهود الأولى من حياة الإنسانية، وهي في الجملة تاريخ الخصومة:

ـ فيما بين الوحدات الصغيرة الاجتماعية من أفراد وأسر من جهة،

ـ وبين الوحدات الاجتماعية الأكبر من جهة ثانية، كالقبيلة والمدينة والدولة، وأخيراً الدولة الاتحادية(١).

البحث عن ذلك في عهود الفطرة تغيبت عنا أخباره.

٦ ـ وإن البحث عن **النظم القضائية** لدى الجماعات البشرية في عهود الفطرة هو مثل بقية البحوث عن النظم الأخرى في ذلك المجتمع: قد تغيَّبت عنا جميع أخبارها، ولا أمل في العثور على شيء من آثارها.

دَرَجَ الباحثون على اتخاذ اليونان والرومان أساساً وذلك لجهلهم حقوق الآخرين أو لعدم بدائيتها.

٧ ـ وقد درج العلماء الباحثون في هذا الموضوع كما هي عادتهم على أن يلتقطوا من **الحقوق اليونانية والرومانية** جميع الحبات التي يجعلون منها ـ من غير تحفظ ـ تاريخاً للنظم القضائية **الابتدائية** وتطوراتها المتعاقبة(٢)؛

وذلك: إِما لأن شرائع الأمم الأخرى لم تُعرَف أخبارها إلا جزئياً فلا يمكن الاعتماد عليها، وإِما لأن ما عُرِف منها كما هو الحال في الشرائع المصرية والبابلية ـ رغم قدمها النسبي ورغم سبقها للحقوق اليونانية والرومانية ـ لا تدل

---

(١) كتاب **مراحل الحق** Les Étapes du Droit لمؤلفه دوكوجي H.Decugis الجزء الأول، الصفحة ٢٤٧، طبع باريس سنة ١٩٤٢.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٤٧.

على شيء من النظم الابتدائية الفطرية المبحوث عنها، بل تبرهن عن مدنية متطورة ومتقدمة جداً(١).

أما الحقوق اليونانية والرومانية فقد اتصلوا بجميع مراحلها.

٨ ـ أما الحقوق اليونانية والرومانية فهي على عكس ذلك، فقد عرفوها معرفة أتم من غيرها، وتمكنوا لحداثتها من أن يتصلوا بأصولها عن قرب(٢)، وأن يتعرفوا على جميع مراحلها.

كيفية الدفاع عن الحق قديماً وحديثاً.

٩ ـ ويجمع هؤلاء الباحثون على أن الشعوب القديمة وفي عهدها الابتدائي ما كانت تعرف وسائل الدفاع القضائي عن الحقوق كما هي عند الأمم اليوم، وما كان الدفاع عن الحقوق يخضع إلى نظام **قضائي حكومي** ويتبع أحكاما تصدر بواسطة موظفين رسميين من قبل الدولة(٣).

الدفاع عن الحق قديماً بالتقاضي الخاص، ومحاذيره في الوصول إلى حرب حقيقية بين الأشخاص والجماعات.

١٠ ـ وإنما كان **الدفاع عن الحقوق** حينذاك يتحقق بوسائل أصحابها الخاصة، فمَنْ كان يعتقد بأنه قد تضرر أو هُدِّد بالإضرار من قبل أشخاص آخرين كان يقوم نفسه بإحقاق حقه، ويعتمد في ذلك بصورة عامة على أسرته أو قبيلته؛

وكثيراً ما كان هذا الأسلوب في **(التقاضي الخاص)** La justice privée لإحقاق العدالة **يستدعي** حرباً حقيقية ما بين شخص وآخر، أو ما بين جماعة وأخرى، كما عرف ذلك في عادات اليونان القديمة، وتعامل الجرمان(٤).

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٤٧.

(٢) نفس المرجع، الصفحة ٢٤٩.

(٣) انظر كتاب Manuel Élémentaire de Droit Romain لمؤلفه مونييه Raymond Monier، الجزء الأول، الصفحة ١٢٧ طبع باريس سة ١٩٤٧.

(٤) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٢٧.

مراحل التقاضي من الخاص إلى العام أربع.

١١ ـ ولقد استطاع العلماء الباحثون في **تاريخ الدفاع عن الحق** وتطوره من أسلوب **التقاضي الخاص** la justice privée إلى أسلوب **التقاضي العام** la justice publique أن يسجلوا **أربع مراحل** في تاريخ هذا التطور[١].

المرحلة الأولى: التقاضي الخاص عدا القاضايا الدينية.

١٢ ـ **المرحلة الأولى** ـ فالمرحلة الأولى هي **التقاضي الخاص** la justice privée، حيث لم يكن للدولة تدخل ما في البتّ في الخلافات التي تقع بين الأفراد، **إلا حينما تُبحَث القضية بشكل ديني**.

العنف المشروع والعدواني في العادات.

١٣ ـ وكان للأعراف والعادات حينئذ بعض القواعد التي يميز بها ما بين استعمال **العنف المشروع** للدفاع عن الحق ولقمع الاعتداء، وما بين استعمال **العنف الكيفي** العدواني.

المرحلة الثانية: التحكيم الاختياري لرجال الدين أو المسنين.

١٤ ـ **المرحلة الثانية** ـ وأما المرحلة الثانية فهي مرحلة **التحكيم الاختياري** l'arbitrage facultatif حيث كان المُعتَدى عليه حراً ما بين اختيار **الانتقام الخاص** la vengeance privée وما بين **الاتفاق مع المعتدي** على تعويض ما؛

والاتفاق إِمَّا أن يتم مباشرة ما بين المتخاصمين، وإِمَّا أن يتم بواسطة الحَكَم الذي يتفق الطرفان على الاحتكام إليه؛ وهذا الحَكَم هو في الغالب رجل من رجال الدين، أو رجل من الشيوخ المسنين.

التحكيم الاختياري أصل القضاء.

١٥ ـ وإِن فكرة **التحكيم الاختياري** هي الأصل **لفكرة القضاء** لدى جميع الشعوب المتمدنة، وهي لا تزال مستعملة في هذه الأيام في العلاقات الدولية.

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٢٨.

١٦ ـ **المرحلة الثالثة** ـ وأما المرحلة الثالثة فهي مرحلة **التحكيم الإجباري** l'arbitrage obligatoire الذي تفرضه الدولة، وذلك عندما بلغت السلطة الاجتماعية مبلغاً من القوة كافياً لمنع **التقاضي الخاص**، وأخذت على عاتقها معالجة الخلافات: بأن أجبرت الخصمين على حل الخصومة بينهما بواسطة حكم يتفقان عليه، وإلا فبواسطة مَنْ تعينه الدولة عندئذ للبتّ في الخلاف بعد أن تحدد الدولة نفسها جميع ما يحتاجه الحَكَم من ضوامن ضد المحكوم عليه، ويبقى على الحَكَم أن يتبين فقط الجانب المعتدي ليحكم عليه بما حددته السلطات العامة من تعويض وضمانات.

المرحلة الثالثة: التحكيم الإجباري.

١٧ ـ وإن الحقوق الرومانية في عهد الألواح الإثني عشر كانت بلغت هذه المرحلة الثالثة؛

غير أنها احتفظت مع ذلك في بعض أحكامها بشيء من بقايا المرحلة الثانية، بل ومن بقايا المرحلة الأولى: وذلك ضد السارق **في الجرم المشهود**، حيث أذنت بأسلوب التقاضي الخاص (المرحلة الأولى) كما هو مأذون به أيضاً في الحقوق الحديثة، وكذلك أذنت للمُعتدَى عليه بأن يعقد اتفاقاً مع المجرم (المرحلة الثانية).

بلوغ المرحلة الثالثة عند الرومان في عهد الألواح مع الاحتفاظ ببقية من المرحلتين الثانية والأولى.

١٨ ـ وعلى كل: إن الحقوق الرومانية منذ عهد الألواح الإثني عشر حتى العصر الثالث بعد الميلاد قد فرضت بصورة عامة أسلوب **التحكيم الإجباري** الذي كان ينتهي بحكم الحكم؛

وكان الخصمان يشرحان أولاً مزاعمهما أمام **والي القضاء** Préteur، وكان على هذا بعد ذلك أن يعين طرائق الحكم

فرض التحكيم الإجباري عند الرومان من عهد الألواح حتى الثالث ب.م.

وضوامنه، وأن يرسل الخصمين أمام الحَكَم الذي يبتُّ هو وحده في القضية.

المرحلة الرابعة: القضاء الحكومي عدا حالات الدفاع المشروع والاتفاق الخاص.

١٩ ـ المرحلة الرابعة ـ وأما المرحلة الرابعة فهي مرحلة **القضاء الحكومي** la justice rendue par I'Etat؛ وقد استبعد في هذه المرحلة أسلوب **التقاضي الخاص** استبعاداً تامّاً إلا في حالة **الدفاع المشروع**، كما استبعد **أُسلوب التحكيم** إلا في الحالة **التي يتفق فيها** الطرفان على إخراج الخلاف فيما بينهما من نطاق محاكم الدولة إلى حكم المحكمين.

سلطة الدولة هي الوحيدة في القضاء الحكومي.

٢٠ ـ وفي أسلوب **القضاء الحكومي** اعتبرت الدولة هي السلطة الوحيدة التي تتمتع بفرض سلطانها على المتخاصمين بواسطة قضاة موظفين من أصحاب الأخصاء؛

بلوغ روما هذه المرحلة في الإمبراطورية السفلى، وهي المعمول بها في العالم.

والحقوق الرومانية لم تبلغ هذه المرحلة نهائياً إلا في عهد الإمبراطورية السفلى؛

وهذه المرحلة هي التي يُعمَل بها اليوم في جميع العالم.

تاريخ المراحل الأربع مقتبس عن روما ويظن أنه كذلك لدى جميع الشعوب.

٢١ ـ ويتضح من هذه المراحل الأربع التي ذكرها الباحثون في **تاريخ الدفاع عن الحق** وتطوره من أسلوب **التقاضي الخاص** إلى أسلوب **التقاضي العام** أنها **مراحل مقتبسة** في الغالب من واقع الشعب الروماني وممن جاوره؛

ويرى الباحثون من **غير تحفظ** كما هي عادتهم أنها **واقع جميع الشعوب**، وأن المرحلة الأولى أي التقاضي الخاص هي المرحلة الابتدائية لدى جميع المجتمعات الفطرية الأولى.

ويلاحظ أن المرحلة الأولى اعتداء ودفاع

٢٢ ـ ويلاحظ أن المرحلة الأولى وهي **التقاضي الخاص** ما هي إلا عبارة عن **اعتداء ودفاع**،

ولا يمكن تصور الخصومة والحاجة إلى الفصل فيها في كل زمن، مهما كان قديماً أو حديثاً، **إلا بعد تصور الاعتداء وإمكان الدفاع** الذي لم يوصل صاحب الحق إلى الاحتفاظ بحقه، وهذا القدر من اعتداء ودفاع ليس خاصاً بالعهود الابتدائية من حياة الإنسان.

وليس هذا خاصاً بالعهود الابتدائية.

٢٣ ـ ويبقى البحث قائماً بعد تلك الملاحظة لمعرفة ما إذا كان الإنسان الأول في مجتمعه الفطري:

هل وجد الإنسان الأول مَنْ يفصل بينه وبين خصمه.

ـ قد وجد مَنْ يفصل بينه وبين خصمه في ذلك المجتمع الأول ليرد الحق إلى نصابه،

ـ أو أنه لم يكن بعد قد وجده؟

٢٤ ـ **ونرى في الاحتمال الأول** أنه الأقرب للصواب، لأنه يتفق عندئذ مع ما قد أجمع عليه من أَن حياة الإنسان الأول **في عهود الفطرة** قد كانت ملازمة **للفكرة الدينية** ومصبوغة بها، وأن هذه الفكرة توجب أقل مفاهيمها الاجتماعية **الخضوع لسلطة رعاتها** من الآباء ودعاة الدين لصيانة العدل والسلام في الأرض.

الأقرب أنه وجد وذلك لملازمة الفكرة الدينية لتلك العهود.

٢٥ ـ ويدعم هذا الاحتمال أن طبيعة الإنسان الأول تبعاً لغذائه النباتي فقط في أول الأمر تجعله مسالماً حلو الطبائع: شأن كل حي يتغذى من النبات، كما نشاهد آثار ذلك في طباع الحيوانات النباتية دون الحيوانات المفترسة النامية أجسامها على التهام اللحوم؛

ويدعم ذلك أن الإنسان الأول مسالم في طبيعته تبعاً لغذائه.

فإذا حدث الشذوذ على هذه **الطبيعة المسالمة**، والشذوذ ممكن في كل أمر معتاد، وله أسبابه ودواعيه:

ـ رَدَّ الإنسانَ عن شذوذه صيحة رجال الدين،

ـ وأخضع المعتدي لأحكامهم خوفُه من غضب مَنْ هو وراء الطبيعة من قوىً آمن بها واستسلم إليها.

القول بفقدان الفصل في الخصومات حينذاك يقتضي استمراره زمناً.

٢٦ ـ أما الاحتمال الثاني والادعاء بأن الإنسان:

ـ لم يكن بعد قد وجد من يفصل في الخصومات في عهود الفطرة الأولى،

ـ وأن الإنسان الأول لم يكن يعرف في حياته الفطرية من ضابط في تصرفاته **غير القوة**،

ـ وأنه لم يكن للعدالة في العصور الفطرية من أساس خلقي، **فهذا الاحتمال** يقضي بأن سلطان القوة قد استمر عهداً طويلاً!

هذا القول يناقضه الإجماع على الصفة الدينية لحياة الإنسان الأول.

٢٧ ـ وبناء على هذا الاحتمال الثاني فإن هذه المرحلة: أي مرحلة **التقاضي الخاص** والاعتماد على القوة فقط، تكون مرحلة واقعة **لولا ما يرد عليها** من أنها متناقضة مع ما قد أجمع عليه مما ذكرناه في الاحتمال الأول: وهو الصبغة الدينية لحياة الإنسان في مجتمعاته الفطرية، وما يدعم ذلك من أن طبيعة الإنسان حينذاك كانت حلوة سهلة مسالمة.

يرى بعض الباحثين أن القدماء أخضعوا أنفسهم لقواعد الحق قبل وجود المحاكم.

٢٨ ـ ولذلك يرى بعض الباحثين أن الشعوب القديمة قد كانت أخضعت نفسها لقواعد الحق خلال آلاف من السنين قبل أن يتوصلوا إلى إيجاد المحاكم المكلفة بتفسير قوانينهم وبالحكم بالعقوبات الجزائية أو المدنية على أولئك الذين يهتكون حرمة تلك القوانين.

القضاة كانوا رؤساء الأسر

٢٩ ـ ويرى هؤلاء أن **القضاة الأولين** قد كانوا هم رؤساء الأسر، أو رؤساء القبائل؛

وقد كان هؤلاء الرؤساء في البدء كهنة **في الدين وقضاة في الحق**؛ **ويصدرون** أحكامهم إمَّا بانفرادهم، وإمَّا بمعونة أقربائهم من الشيوخ الذين كانوا **حفظة لتقاليد الأجداد**[1].

والقبائل، وهم الكهنة أيضاً.

٣٠ ـ ويرون أيضاً أن أولى **الضوامن الاجتماعية القسرية** لتنفيذ الأحكام إنما نشأت **أصولها** في أزمنة ما قبل التاريخ؛

ضوامن الأحكام ترجع إلى الخوف من غضب الأجداد.

وأن هذه الضوامن كانت مستمدة من فكرتين:

ـ **فكرة الخوف** من الإساءة إلى الأجداد وإثارة غضبهم،

ـ **وفكرة الرغبة** بالنزول عند إرادة الأجداد في كل الأمور.

٣١ ـ ومَنْ هو أدرى من الكهنة في معرفة هذه الإرادات المقدسة؟

الكهنة أدرَى بإرادة الأجداد وأقدر على التعريف بها.

ومن هو أكثر استعداداً وأهلية منهم لتعريف الشعب بهذه الإرادات، ولا يضاحها لهم كي يتمكنوا من تطبيقها؟

٣٢ ـ فقد كان رئيس الأسرة في الأزمنة الأولى كاهناً حقاً:

رئيس الأسرة كان كاهناً حقيقة.

ـ لأنه كان يرأس الأسرة في حفلات عبادة الأجداد المؤلهين،

ـ ولأنه كان يعرف كيف يجب أن يسلك لاجتناب غضب هؤلاء الأجداد.

٣٣ ـ وقد كانت السلطة المعنوية لرئيس الأسرة فوق كل شخص في الأسرة:

رئيس الأسرة فوق كل شخص فيها.

ـ لأنه كان الحفيظ على الأعراف والعادات القديمة المحترمة،

---

(١) كتاب دوكوجي، **مراحل الحق**.

ـ ولأنه كان الوسيط الدائم ما بين الآلهة وبين الناس.

ظل رئيس الأسرة قاضياً حتى ظهور السلطة الملكية ضد رئيس الأسرة.

٣٤ ـ لذلك مارس رئيس الأسرة **وظائف القاضي** في الأسرة، وكذلك **وظائف الحَكَم** المختار من قبل الأطراف المتنازعين.

وظل رئيس الأسرة في ممارسة هذه الأعمال إلى أن انتصبت السلطة الملكية ضد الأسرة وضد رئيسها.

ضَمَّ الملك لشخصه الوظائف القضائية تعزيزاً لسلطته.

٣٥ ـ ومنذ ظهرت **السلطة الملكية** ضد الأسرة ورئيسها ضمَّ الملك إلى شخصه الوظائف القضائية: ليوطِّد سلطته بشكل أحسن، وليجعل النظام سائداً لدى رعاياه.

مارس الملك القضاء بنفسه أولاً.

٣٦ ـ **وقد مارس** الملك هذه السلطات بنفسه أولاً، **وأصدر أحكامه** بدون مراسم أو تعقيدات أو شكليات، **واستعمل وسائل** كيفية لا شك فيها، ولكنها سهلة في منتهى السهولة.

استرشاد الملك في ذلك بتقاليد الأسلاف وبالعقل.

٣٧ ـ وكان الملك يسترشد في أحكامه: «تارة **بتقاليد** أسلافه، وتارة **بالعقل الرشيد**: كما كان شأن سليمان الحكيم في أشهر أقضيته التي نقل إلينا التاريخ أخبارها، أو الملك الصالح القديس لويس الذي كان يجلس تحت شجرة السنديان في فانسين ويصدر أحكامه لكل قادم وبدون شيء من الشكليات»(١).

هذا الأسلوب قديم.

٣٨ ـ ولم يكن هذا الأسلوب إلا بقايا لحالات أقدم بكثير في ظهورها وفي زمنها.

وفي وقت مبكر نقلوا سلطاتهم إلى قضاة واحتفظوا ببعض القضايا.

٣٩ ـ غير أن الملوك قد نقلوا في وقت مبكر كل سلطاتهم القضائية أو بعضها إلى قضاة أخصائيين، واحتفظوا ببعض القضايا لديهم ليحكموا فيها بأنفسهم؛ **وبذلك أُنشئت محاكم منظمة**

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٣٤٦.

منذ أن ابتدأت السلطة الملكية **تنظم شؤونها** بشكل ثابت ودائم.

اتجه الملوك أولاً ضد عادات الثأر الخاص فيما بين الأسر.

٤٠ ـ ولمّا قام الملوك بأنفسهم بممارسة الوظائف القضائية من فوق آباء الأسر الذين كانوا يؤلفون الجماعة التي يسودها الملوك، اتجه جهدهم الأول ضد عادات **الثأر الخاص** للنفس، وخاصة فيما بين الأسر، فقد كان الثأر فيما بين الأُسر من أعظم الأشياء ضرراً. وهكذا نشأ **القضاء الحكومي**.

ثم حمت الدولة ما دامت قوية الأفراد من طغيان مجموعتهم.

٤١ ـ ثم وصلت الدولة تحت تأثير اندفاعات الديموقراطية إِلى حماية الأفراد من طغيان مجموعتهم، وذلك بتحطيم ما كان لقضاء الأسرة من **سلطان مطلق**.

وهكذا تمكنت محاكم الدولة بالقيام بما أُسند إليها ما دامت الدولة قوية.

ولكن ضعف الدولة قد يفقدها حقها في القضاء.

٤٢ ـ ولكن الدولة حينما تضعف كان يتبع ذلك بطبيعة الحال تضعضع في سيادتها، إِلى أن ينتهي الأمر بها لفقدان الدولة حقها في القضاء.

تاريخ النظم القضائية هو تاريخ النزاع في الجملة بين الأفراد والجماعات.

٤٣ ـ ونرى في هذا العرض الوجيز لتاريخ النظم القضائية عند الباحثين، من مرحلة **التقاضي الخاص** إِلى مرحلة **القضاء الحكومي**: أن قصة النظم القضائية في تطورها عندهم ما هي إِلا مصداق لما كنا نقلناه في مطلع هذا البحث (الفقرة ٥)، أي أنها في الجملة **تاريخ النزاع**:

ـ فيما بين الوحدات الصغيرة الاجتماعية من أفراد وأسر من جهة.

ـ وبين الوحدات الاجتماعية الأكبر من تلك من جهة ثانية، كالقبيلة والمدينة والدولة، وأخيراً الدول الاتحادية.

ويلحق بالوحدات الكبرى التجمعات الدولية ومحاولاتها لحل الخلاف.

٤٤ ـ ويمكن الإضافة إلى الوحدات الكبرى الأخيرة، وهي الدول الاتحادية، تلك التجمعات الدولية[١]:

ـ مثل تجمعات **الشعوب اليونانية الاثنتي عشرة** التي حاولت قديماً وعبثاً أن تنشىء فيما بينها **محكمة قضائية** للنظر في المصالح المشتركة وللبتِّ فيما يحدث بينهم من خلاف؛

ـ ومثل **الدول المسيحية** التي لجأت سابقاً عدة مراتٍ إلى **تحكيم البابا**،

ـ وأخيراً مثل **دول العصر العشرين** التي أنشأت سابقاً **المحكمة الدولية في لاهاي**.

(١) كتاب دوكوجي السابق، الجزء الأول، الصفحة ٢٤٧.

ح ـ السلطة ذات السيادة والدولة

تقدم معنا أن الإنسان الأول أكثر شعوراً بالعيش المشترك.

١ ـ تقدَّم معنا[1]: أن الإنسان **في المجتمع الفطري** على ما وصفناه، وما كان عليه من ضعف وعجز أمام عوارض الطبيعة مع حرصه على البقاء، ربما كان أكثر شعوراً **بالعيش المشترك** ضمن نظام يسوده **قانون التعاون الطبيعي ووجوب التطاوع**.

وتقدم أنه ذائب في كيان أسرته تحت ضغط حاجته.

٢ ـ وكذلك تقدم معنا[2] أن الإنسان الأول كان **مدنياً بالطبع**، وذائباً في كيان أسرته الأولى من مجتمعه الفطري تحت ضغط **عوامل الطبيعة** التي أنشأته؛

وأن تلك العوامل هي:

أولاً ـ **حاجة الإنسان للعناية به** عناية لا بد منها منذ ولادته حتى شبابه،

ثانياً ـ **صعاب الحياة الابتدائية** وأخطارها التي لا يجد معيناً له على مجابهتها إلا أسرته التي أنجبته، وجماعته التي عاش فيها.

فقيام الجماعة الأولى

٣ ـ ويتضح من ذلك:

ـ أن **قيام الجماعة الأولى** التي نشأ فيها الإنسان،

---

(١) الصفحة ٢٤٧، الفقرة ١٢.

(٢) مبحث: هـ ـ الأسرة وشخصية الفرد فيها، الفقرة ١٩، الصفحة ٣٤٨.

والخضوع إليها حاجتان طبيعيتان.

- وأن **خضوع الإنسان** إلى سلطة تلك الجماعة.

إنما هما **حاجتان طبيعيتان** من حاجات الإنسان الأول دون ريب.

تزايد صعاب الحياة يتطلّب لتذليلها قدرة فوق الفرد وأسرته.

٤ - وإذا لاحظنا:

- أن **سير الحياة** مع الزمن لا يزداد إلا تعقيداً،

وأن **لوازمها** من وقت إلى آخر تبتعد عن البساطة إلى التركيب،

فإن صعاب الحياة بطبيعة الحال سوف تتطلب تذليلها قدرة فوق قدرة الفرد وفوق قدرة أسرته الصغيرة.

وهكذا تدرّجت الجماعات في نشوئها من الأسرة إلى الدولة تحت ضغط العامل نفسه.

٥ - وهكذا تدرَّجت الجماعات في نشوئها وتطورها:

- من جماعة **الأسرة الصغيرة** إلى جماعة أكبر منها هي الطائفة،

- ثم من هذه إلى جماعة أقوى منها هي **القبيلة والعشيرة**،

- ثم من هذه أيضاً حتى وصل الإنسان إلى ما هو أكبر من كل ما مضى وأقوى وهو **الدولة**،

وكان كل ذلك تحت ضغط نفس العامل، واستجابة بطبيعة الحال إلى مطالب حياة الإنسان وحاجاته الضرورية.

فنشوء الدولة إذن ضرورة طبيعية.

٦ - ونرى من ذلك أن **الدولة** في نشوئها إنما كانت **استجابة لمطالب الطبيعة** في الحياة، وضرورة من ضروراتها التي فرضت وجود جماعة أكبر وأقوى من سائر الجماعات السابقة.

العامل نفسه يتطلّب اليوم سلطة فوق سلطة الدولة الواحدة.

٧ - **ولا يزال نفس العامل**، أي ازدياد تعقد شؤون الحياة من زمن إلى آخر، يعمل عمله، وفي زمننا اليوم أكثر من ذي قبل، ويتطلب اليوم **سلطة فوق سلطة الدولة الواحدة**،

ولذلك نشأت الاتحادات الدولية، ثم نشأت في هذا العصر عصبة الأمم عقب الحرب العالمية الأولى، ثم منظمة الأمم المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية في محاولة لإيجاد **جماعة فوق الدولة** وأقوى منها في حل مشاكل الحياة.

وكذلك يرى أفلاطون أن الدولة ثمرة الضرورة.

٨ ـ وإلى ذلك أيضاً يذهب أفلاطون في أصل نشأة الدولة فيقول[١]: «إن الذي ينشىء المدينة (الدولة) **هو عجز كل فرد عن أن يفي بنفسه حاجات نفسه**، ذلك لأن حاجات المرء تعد بالمئات: فكيف يتسنى للمزارع مثلاً أن يصنع بنفسه أدواته ويحيك ألبسته ويتدبر بنيان بيته الخ،

«إن ثمة اختلافاً في الأعمال يوجب تقسيمها وتفريقها؛ وإِن ثمة اختلافاً في أهلية الناس للعمل واستعدادهم ومواهبهم فيختص كل منهم بشأن يتقنه ويقدمه للآخرين مقابل ما يقدمونه بدورهم إليه؛

«هذا هو الأساس الطبيعي الذي تقوم عليه المدينة (الدولة) وهو **ثمرة طبيعة الأشياء**، ثمرة الضرورة، وليس ثمرة الاصطناع والاتفاق».

وكذلك يرى ابن خلدون أن الدولة خاصة طبيعية للإنسان.

٩ ـ وكذلك يقول ابن خلدون في أصل نشأة الدولة (الملك)، ويدلل على أنها «**خاصة للإنسان طبيعية**، ولا بد لهم منها»[٢]، وأن «الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء (الفلاسفة) عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع، أي لا

---

(١) **الفرد والدولة**، لمؤلفه الزميل الدكتور مصطفى البارودي، الصفحة ٢٢. طبع الجامعة السورية سنة ١٩٥٨.

(٢) **مقدمة ابن خلدون**، الفصل الأول من الكتاب الأول في العمران البشري، الصفحة ٢٥، المطبعة الخيرية، الطبعة الأولى.

بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران»[1].

«ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه، وتمَّ عمران العالم بهم، فلا بد من وازع يدفعهم بعضهم عن بعض. . . فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان، **وهذا هو معنى الملك**»[2].

ويرى أن الملك منصب طبيعي اقتضته طبيعة المجتمع البشري.

١٠ ـ ثم يتابع ابن خلدون في فصل آخر[3] ويقول: «الملك منصب طبيعي للإنسان، لأنَّا قد بيَّنا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم؛

«وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات. . . فيقع التنازع المفضي إلى المقاتلة، وهي تؤدي إلى الهرج وسفك الدماء وإذهاب النفوس المفضي إلى انقطاع النوع (الإنساني). . . فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع بعضهم عن بعض، واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم، وهو بمقتضى الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم».

الحكومة الأولى لم تقم على القوة بل على أساس

١١ ـ ويتضح من كل ما تقدم أن **الحكومة الأولى** لدى الجماعات البشرية الفطرية لم تقم على أساس من **القوة**

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٤.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٤.

(٣) نفس المرجع السابق: فصل في حقيقة الملك وأصنافه، الصفحة ١٠٢.

والقهر، وإنما قامت على **أساس من المصالح الشخصية المتبادلة**[1].

المصالح المتبادلة.

١٢ ـ **فما هي الدولة في خصائصها** التي تميزها عما عداها من الجماعات؟

فما هي خصائص الدولة وزمن ظهورها ومستند سلطانها.

وفي أي زمن برزت حاجة الجماعة إلى ظهور الدولة؟

وما هو مستند تلك السلطات التي اعترف بها للدولة فوق الأفراد وفوق سلطات من دونها من الجماعات: من قبيلة وطائفة وأسرة؟

١٣ ـ إن هذه الأسئلة قد شغلت كبار الباحثين، ولا تزال تشغلهم؛ وإن الإجابة عليها إنما هي خلاصة عن بحوث طريفة، وآراء متضاربة، ونظريات متباعدة، كما سوف نراها فيما يلي بإيجاز أولاً، ثم ببعض من التفصيل ثانياً.

هذه الأسئلة شغلت كبار الباحثين.

١٤ ـ فالدولة لدى جمهرة الباحثين إنما هي «مرحلة متأخرة في سلم التطور لم تكد تظهر قبل عهد التاريخ المدوَّن لأن قيام الدولة يقتضي تغيراً في مبدإ التنظيم الاجتماعي من أساسه:

الدولة لدى الجمهور مرحلة متأخرة في ظهورها تبعاً لتغير التنظيم الاجتماعي.

ـ فيكون المبدأ هو أن يكون **الحكم لمن يسيطر**،

ـ بدل أن يكون **لذوي القربى** كما كانت القاعدة السائدة في المجتمعات البدائية»[2].

١٥ ـ وكذلك كنا نقلنا في مبحث: **الفطرة والعيش في جماعة**

وهذا ما نقلناه في

(١) انظر كتاب Eléments de sociologie لمؤلفيه C.Bouglé و J.Raffault، الصفحة ١٥٠ـ١٥١، طبع باريس سنة ١٩٣٨.

(٢) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الصفحة ٤٥، الجزء الأول، طبع القاهرة سنة ١٩٤٩.

مبحث: الفطرة والعيش في جماعة مشتركة.

مشتركة (الفقرات ١ـ٢)[1]، وقلنا إن الإنسان الأول لدى بعض الباحثين قد أنقذ نفسه من أن يكون فريسة للكواسر الضاربة بالتماسك:

- في جماعة الصيد أولاً،
- ثم في القبيلة ثانياً،

ثم **في الدولة** ثالثاً: بعد أن **حلّت العلاقات الاقتصادية والسيادة السياسية محل القربى** في التنظيم الاجتماعي، ففقدت **القبيلة** نهائياً مكانها في قوام المجتمع، وحلّت **الدولة** محلها في قمته، بعد أن أخذت **الأسرة** مكاناً لها في أسفل البناء عوضاً عن القبيلة التي اختفى أثرها في نظام الدولة.

تولّت الحكومة في الدولة مشكلة استتباب النظام.

١٦ ـ **وفي هذه الحالة** الأخيرة (الدولة) تولّت الحكومة عندئذ مشكلة **استتباب النظام** بين جماعاتها وأفرادها، لأن مجرد وجود هذه الجماعات وكثرة عددها في قرية ما يستلزم تدخل قوة فوقهم جميعاً:

- تنظم ما بينهم من علاقات،
- ثم تنسج هذه العلاقات في شبكة اقتصادية أوسع؛

والدولة هي التي سدّت هذه الحاجة، وهي لم تعد قوة منظمة وكفى، بل أصبحت كذلك أداة توائم بين مصالح مئات الجماعات المتضاربة التي منها يتألف مجتمع ما في صورته المركبة[2].

الدولة ثبتت السلام

١٧ ـ وعلى الرغم من أن الدولة قد صيَّرت الحرب

---

(١) الصفحة ٢٥٢.

(٢) **قصة الحضارة**، الجزء الأول السابق، الصفحة ٤٦، ٥٦.

الخارجية أكثر تخريباً مما كانت قبل تكوينها، فقد استطاعت أن توسّع السلام **الداخلي** وتثبت أركانه.

الداخلي رغم جعلها الحرب الخارجية أكثر تخريباً.

وهذا ما جعل البعض يعرِّف الدولة بأنها: «**سلام في الداخل استعداد للحرب في الخارج**»[1].

١٨ ـ وإِذا أردت أن تعلم ماذا عسى أن يقع في مجتمع تعوَّد أن تقوم عليه حكومة، وماذا عسى أن يقع في مثل هذا المجتمع إِذا خلا من الحاكم لفترة من الزمن، فانظر ماذا صنع جماعة «الباجَندا» التي اضطر كل رجل فيها حين مات الملك أن يسلِّح نفسه: لأن الخارجين على القانون أنشبوا أظفار الفوضى والقتل والنهب في أرجاء البلاد جميعاً؛ وقد صدق «سبنسر» حين قال: «إِنه بغير حكم أوتوقراطي (فردي مطلق) كان يستحيل على المجتمع أن يبدأ مرحلة تطوره»[2].

بغير حكم يستحيل على المجتمع أن يتطور.

١٩ ـ لذلك «لم يلبث الناس أن يتبينوا أن دفع الضرائب للدولة خير لهم من التقاتل بعضهم مع بعض؛ وأنه خير لهم أن يدفعوا الجزية للصٍ واحد عظيم من أن يدفعوا الرشوة للجميع»[3].

وكذلك تبين للناس أن الدولة خير لهم.

٢٠ ـ ونرى من هذه الخلاصة السريعة عن نشأة الدولة لدى الباحثين:

الخلاصة أن الدولة سيادة سياسية، وأن ظهورها تبع

ـ أن الدولة في جملتها **إنما هي سيادة سياسية** حلَّت محل

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤٦.
(٢) نفس المرجع السابق.
(٣) نفس المرجع السابق.

لتغير التنظيم الاجتماعي، وأن مستندها حاجة المجتمع إلى الأمن.

صلات القربى في التنظيم الاجتماعي؛ وهذه هي أبرز خصائصها التي تميزها عن غيرها من الجماعات التي هي من دونها؛

ـ وإن الزمن الذي برزت فيه حاجة المجتمع إلى ظهور الدولة إنما هو منذ اقتضت العلاقات الاقتصادية بين الجماعات التي تعيش في أرض واحدة تغيراً في التنظيم الاجتماعي من أساسه: ليكون الحكم لمَن استطاع أن يسيطر بدلاً من أن يكون للأكبر من ذوي القربى،

ـ وأن مستند تلك السلطات التي اعترف بها للدولة فوق الأفراد والجماعات فيها إنما هو حاجة المجتمع الكبير بجميع جماعاته وأفراده إلى إستتباب الأمن والنظام فيما بينهم جميعاً.

أهمية الموضوع تقضي بعرض مختلف نظريات الباحثين.

٢١ ـ غير أن أهمية هذا الموضوع في تاريخ البشرية يستحق منا أن نستعرض فيما يلي زيادة على ما تقدم بعض التفصيلات، ومختلف ما أبدعه سائر الباحثين من نظريات على ما فيها من اختلاف في وجهاتها، وتباعد في أسس منطقها وفلسفتها.

يتساءل البعض متى يمكن الكلام عن جماعة سياسية؟.

٢٢ ـ يتساءل مؤلفا «كتاب عناصر علم الاجتماع Éléments de sociolgie»(١) قائلين: منذ أي لحظة يمكن التكلم عن وجود جماعة سياسية متمايزة عن المجموعة البيتية؟

ويجيب بأن الدولة هي الحالة الأولى للجماعة البدائية وأن الأسرة

٢٣ ـ ثم يجيبان بأن بعض المؤلفين ومنهم إدوار ماير Edouard Meyer يرى:

ـ أن الدولة هي الحالة الأولى للجماعة البدائية،

ـ وأنه لا جماعة من غير حكومة كما قال بونالد Bonald،

---

(١) الصفحة ١٤٧، الطبعة الثالثة، باريس سنة ١٩٣٨.

- وأن الأسرة فيما يظهر إنما تألفت بانفصالها عن مجموعة أكبر: هي التي تشرف على تنظيم الأسرة.

منفصلة عن الدولة فيما بعد.

٢٤ - **ولكن أكثر المؤلفين** يذهبون إلى أنه لا يمكن التكلم عن وجود الدولة إلا بعد **وجود سلطة ذات سيادة**، ومتميزة تمام التمايز عن الجماعة.

ويرى الأكثرون أنه لا دولة إلاّ بعد وجود سلطة ذات سيادة.

ويبحث هؤلاء في جهات مختلفة عن أصول **هذه السلطة** ذات السيادة:

- فيرى بعضهم أن أصولها ترجع إلى **تقاليد الأسرة** نفسها، وبذلك قال المؤرخ الألماني مومسين Th.Mommsen في كتابه التاريخ الروماني Histoire romaine(١)؛

وأن سلطتها ترجع إلى تقاليد الأسرة،

- ويراها آخرون أنها ترجع إلى **ضرورات الحروب**، وبذلك قال فوان إيهرينك Von Ihering في كتابه: روح الحقوق الرومانية في مختلف مراحل تطورها L'Esprit du droit romain dans les diverses phases de son dévelopement(٢)؛

وقيل إلى السلطات الدينية.

- ويراها غيرهم أنها ترجع إلى **أثر السلطات الدينية** ذات الخصائص السحرية لدى الملوك الأولين، وبذلك قال السير جيمس فريزر Sir James Frazer(٣).

وقيل إلى ضرورات الحروب،

نظرية

أن الدولة هي الحالة الأولى في المجتمع الفطري وما يرد عليها

٢٥ - أما الذين ذهبوا إلى أن **الدولة هي الحالة الأولى** للجماعة

أينما استفسرنا عن حياة

---

(١) ترجمة فرنسية، الجزء الأول، الصفحات ٨٧-٨٩، طبع باريس سنة ١٨٦٣.

(٢) ترجمة فرنسية، الصفحة ٢٥٣-٢٥٥، طبع باريس سنة ١٨٨٦.

(٣) كتاب: **من الطوائف إلى الدول** Des Clans aux empires لمؤلفه A.Moret و G.Davy، الصفحات ١٦٨-١٧٨، طبع باريس سنة ١٩٢٣.

الإنسان الأول وجدنا تكتلات متداخلة أو متنافرة لا تكتلاً واحداً.

الابتدائية فيرون: أنه أينما ولينا وجهنا للاستفسار عن طريقة حياة الإنسان لم نجد **تكتلاً اجتماعياً واحداً** منفصلاً عن غيره تمام الانفصال كما هو الشأن عند الحيوانات التي تعيش في قطعان متمايزة، وإنما نجد **كثرة من التكتلات:**

- **المتداخلة:** حيث تضم الكبرى منها الصغرى في حياة مشتركة،
- أو **المتنافرة** حيث يخاصم بعضها بعضاً.

هناك مجموعات قبلية مستقرة أو راحلة إتحدت مع بعضها.

٢٦ ـ فهناك مجموعات صغيرة: **من قبائل راحلة أو مستقرة** في وحدات محلية، قد انضم بعضهم لبعض في حياة مشتركة، أو اتحدوا مباشرة في دولة واحدة تشملهم جميعاً، أو شعروا على الأقل بأنهم جزء من كل أوسع منهم: هو الشعب.

وفي داخل هذه القبائل بطون وطوائف وأسر قد تحدث صلة مشتركة مع غيرها فتصبح فئة عسكرية أو دينية أو مهنية.

٢٧ ـ **وفي داخل هذه القبائل:** بطون des phratres وطوائف des clans، وأسر، قد تتصل هي بدورها مع عدد من القبائل والأفخاذ الأخرى، وتحدث فيما بين أفراد منها **صلة مشتركة،**

ثم لا تلبث **هذه الصلة المشتركة** بينهم أن ينشأ عنها فيما بعد:

- فئات سياسية وعسكرية،
- أو جماعات عقائدية دينية،
- أو مجموعات مهنية.

مكان السكن يجمع بين سكانه ويفصلهم عمَّن عداهم.

٢٨ ـ وفوق ذلك هناك **مكان السكن** لكل جماعة من الجماعات:

- في أقاليم مختلفة،
- أو في قرى متعددة؛

وإن مكان السكن هذا على اختلافه من جماعة إلى أخرى

يشعرنا بما يحدثه أيضاً من آثار مختلفة واضحة في سكانه فيجمع بينهم ويفصلهم عمَّنْ عداهم.

التكتلات البشرية تتمايز عن بعضها تحت تأثير صلاتها المشتركة أو أمكنة سكنها تبعاً للاختلاف في الأهداف وصلابة الأعمال.

٢٩ ـ وهكذا نجد أنفسنا ونحن نفتش عن طريقة حياة الإنسان الأول أننا أمام تكتلات **ومجموعات متمايزة** عن بعضها تحت تأثير:

ـ **صلاتها المشتركة،**

ـ **أو أمكنة سكنها المتباينة،**

وأن هذا التمايز بين هذه التكتلات والمجموعات إنما هو ناشىء:

ـ إِما عن **اختلاف الأهداف** التي تعمل لها كل من هذه التكتلات في صلاتها المشتركة،

ـ وإِما عن **التفاوت في صلابة الأعمال** التي التحق بها كل من أفراد هذه المجموعات.

كل فرد ينتسب لإحدى هذه التكتلات المختلفة في أهدافها وأعمالها ويخضع لأحكامها.

٣٠ ـ فإلى هذه التكتلات والمجموعات المختلفة في أهدافها، والمتفاوتة في صلابة أعمالها، **ينتسب كل فرد** بلا شك؛

وإِلى هذه التكتلات والمجموعات **يخضع كل فرد فيما فرضته** عليه هذه الجماعات من **حقوق لها عليه** وفقاً لطبيعة الهدف وحاجة العمل.

هذه الأحكام قد تؤدي إلى نزاع بين الجماعات والأفراد.

٣١ ـ غير أن **هذه الحقوق** المفروضة من قبل التكتلات، ثم ما ينشأ عنها من واجبات على الأفراد، كثيراً ما تؤدي إِلى نزاع عنيف حاد ما بين حقوق الجماعات وحقوق الأفراد؛

وفي هذه الحالة ليس من السهل معرفة أي من الحقوق سوف تكون لها الغلبة والقوة على الأخرى.

٣٢ ـ فكثيراً ما تكون الغلبة **للتكتلات الصغرى**، الأقل عدداً، والأكثر تفاهماً وتضامناً، التي تستطيع منذ ظفرها أن تحطم المجموعة الكبرى، بل أن تأخذ محلها؛

قد تكون الغلبة في هذا النزاع للتكتلات الصغرى ولكن العكس هو الأكثر.

غير أن الغالب هو العكس، وهو أن المجموعة الكبرى هي التي تفرض إرادتها.

٣٣ ـ وكيفما كان الحال فهنالك على الدوام في هذه الجماعات المختلفة **مَنْ يسود** الآخرين سيادة كاملة، وغاية في الحسن؛ وذلك هو الذي يعتبر جميع التكتلات الصغرى كأنها أعضاؤه الخاضعة إليه، وكأنها فروع في داخل جماعة واحدة؛

وعلى كل حال هناك مَنْ يسود الجميع ويفرض عليهم التبعية بالقسر.

وهو نتيجة لذلك يتطلب أن يكون لديه مجموعات وأفراد خاضعين لسلطانه، وأن يفرض عليهم بالقسر **التبعية لإرادته** وللأهداف التي يعمل لها مهما كلفهم الأمر.

٣٤ ـ **ويمكن لهذا السيد** في جماعته، باعتباره هو الكل من غير منازع له فيمَنْ خضع إلى سلطانه، أن يبرم طوعاً أو كرهاً، عهداً فيما بينه وبين مجموعات أخرى مماثلة لجماعته، لمدة مؤقتة أو دائمة، وأن يقيد إرادته بإرادة أخرى غريبة عنه وأقوى منه.

ولهذا السيد أن يبرم عهداً فيما بينه وبين مجموعات أخرى.

٣٥ ـ وعلى العكس من ذلك، ففي حالة نزاع فيما بين هذا السيد وغيره من الأجانب، لا يعترف هذا السيد بشيء من الواجبات على أفراد جماعته تجاه الجماعة الأجنبية، بل يفصل أفراد جماعته عن غيرهم من الرجال الأجانب بصورة قاطعة جازمة.

وفي حال النزاع فيما بينه وبين الغرباء لا يعترف بحق لهم على جماعته.

٣٦ ـ وهكذا يصور لنا إدوار ماير Ed. Meyer في كتابه

خلاصة حياة الإنسان

«تاريخ العصور القديمة» حياة الإنسان في الجماعات الابتدائية الأولى(١) وهي تتلخص فيما يلي:

الابتدائي عند ماير: جماعات الإنسان ليست منفصلة تماماً عن بعضها كالحيوان، بل متداخلة أو متنافرة،

- إن جماعة الإنسان ليست كجماعات الحيوان منفصلة بعضها عن بعض تمام الانفصال،

- بل هي جماعات من القبائل: متداخلة في بعضها في حياة مشتركة، أو متنافرة متخاصمة،

الاختلاف بينهم إمّا في الأهداف أو صلابة الأعمال.

- وإن ما قد يلحظ من تمايز واختلاف ما بين بعض التكتلات يرجع في حقيقته إلى اختلاف في الأهداف أو تفاوت في صلابة الأعمال،

كل فرد ينتسب لإحداها ويخضع لأحكامها.

- وإنه لا فرد إلا وهو منتسب لإحدى هذه التكتلات التي تفرض عليه حقوقاً وواجبات وفقاً لطبيعة الهدف وحاجة العمل،

قد يحدث نزاع ولكن هناك مَنْ يسود.

- وإن هذه الحقوق المفروضة قد تؤدي كثيراً إلى نزاع عنيف، وإن هناك دائماً لدى هذه الجماعات المختلفة مَنْ يسود الآخر سيادة كاملة، ويفرض عليهم بالقسر إرادته،

قد يبرم السيد عهداً، وفي حال النزاع لا يعترف بحق على جماعته لأجنبي.

- وإن هذا السيد المطلق قد يبرم بحكم سيادته على جماعته عهداً مع غيره من الأجانب طوعاً أو كرهاً، وإنه في حالة الخلاف مع جماعة أجنبية يفصل أتباعه عن غيرهم من الرجال، ولا يعترف بشيء من الواجبات عليهم تجاه الأجانب.

هذه الصورة من السيادة

٣٧ - ثم يقول الباحثون عن هذا الواقع من السيادة:

---

(١) انظر كتابه Histoire de L'antiquité، ترجمة فرنسية، طبع باريس ١٩١٢، الصفحة ١١٨، نقلاً عن كتاب Éléments de sociologie، لمؤلفيه C.Bouglé و J.Raffault طبع باريس سنة ١٩٣٨، الصفحة ١٤٧-١٤٨.

هي ما يسمونها بالدولة.

«إن هذه **الصورة من السيادة** في المجموعة الاجتماعية التي تحوي في جوهرها على الشعور بالوحدة الكاملة ـ تلك الوحدة المستندة إلى تلك الصورة من السيادة نفسها ـ هي **ما نسميها بالدولة**.

والدولة هي الحالة الأولى للإنسان.

«ويجب علينا تبعاً لذلك:

ـ أن نعتبر **الجماعة السياسة**، ليس في **معناها الذهني** فقط بل في **واقعها التاريخي**، هي الصورة الأولى للمجموعة الإنسانية، وذلك على مثل التكتل الجماعي في القطيع الحيواني،

وهي في أصولها أقدم من الإنسان.

ـ وأن نعتبر الجماعة السياسية في **أصولها** (لوجودها لدى الحيوان) أقدم من النوع الإنساني نفسه، **وأن تطور الإنسان لم يصبح ممكناً إلا فيها وبواسطتها**[1].

اتفاق هذا المفهوم للدولة مع تعريف أرسطو.

٣٨ ـ «إن هذا المفهوم للدولة يتفق تماماً مع التعريف المشهور عن أرسطو:

ـ الذي جعل من الإنسان **كائناً سياسياً بالطبع**،

ـ والذي جعل من الدولة **هيأة اجتماعية** تحتضن الجميع وتتفوق عليهم في الكفاءة، وتختلف عمن عداها بقدرتها على الاستمرار في الوجود بنفسها، وبأنها وجدت لتعيش، ولكن لتعيش عيشة منظمة تنظيماً حسناً[2].

خلاصة مذهب هذا الفريق من الباحثين.

٣٩ ـ وهكذا يذهب هذا الفريق من الباحثين إلى أن الدولة:

ـ هي **الشكل الأول** للجماعات الإنسانية الفطرية،

---

(١) انظر كتاب Éléments de sociologie السابق، الصفحة ١٤٨ـ١٤٩.

(٢) نفس المرجع السابق.

ـ وأن شكلها أقدم في وجوده من النوع الإنساني، وذلك لوجوده لدى الحيوان في قطعانه.

ردود هذا الفريق على اشتراط عنصر الأرض في مفهوم الدولة.

٤٠ ـ ويدعم هؤلاء الباحثون نظريتهم بالرد على نظرية مخالفيهم من كثرة العلماء الذين اشترطوا **عنصر الأرض** في مقدمة الشروط لصحة الكلام عن وجود الدولة في التاريخ، أي أنهم اشترطوا لتصور الدولة في وجودها أن تكون لها أولاً أرض محدودة مغلقة دون غيرها، وأن تكون منظمة تنظيماً موحداً، وذلك كما قال به راتزل Ratzel(١).

ويقولون إن الصلات بالأرض لم تكن قط مفقودة عند الإنسان،

٤١ ـ ويقولون في الرد على مخالفيهم:

ـ «إن الصلات بالأرض لم تكن قط مفقودة عند الإنسان، ولو عند القبائل الرحل أو عند أولئك الذين يسكنون مع ماشيتهم في أراض مختلفة تبعاً لفصول السنة، لأن هؤلاء يعتبرون تلك الأراضي بمراعيها وبأمكنة الصيد فيها وبينابيعها كأنها ملك لهم، ويعملون على إقصاء كل قبيلة أجنبية عنها، هذا من جهة؛

وإن مفهوم الدولة لا يتوقف على تملك أراض محدودة.

ـ ومن جهة ثانية فإن **تصور مفهوم الدولة** لا يتوقف على تملك أراض محدودة بكل وضوح، إذ إنه من الممكن أن نتصور دولة متقدمة منفصلة تماماً عن عنصر الأرض وبدون أن تفقد شخصيتها وذاتها».

ويضيفون أن العناصر الحقيقية للدولة قد تُشاهد

٤٢ ـ ويضيفون على ذلك قائلين: «وبالعكس فإن **جميع العناصر الحقيقية** المكونة للدولة:

ـ من وحدة الإرادة،

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٤٩.

لدى الرحل وذلك كوحدة الإرادة.

- وتنفيذ الأحكام القضائية،
- والتنظيم العسكري والسياسي،
- والشعور بخلود الجماعة قبل كل شيء...

كل ذلك يُشَاهد لدى القبائل الرحل والصيادين، وغالباً ما يكون هؤلاء في أوضاع متقدمة جداً؛ ولذلك لا يوجد هنا أي سبب يدعو إلى اجتناب عبارة الدولة أو الجماعة السياسية»[1].

هذا المذهب يقوم على إنكار الأسرة كنواة أولى.

٤٣ - غير أنه يجب أن لا ننسى هنا أن هذا المذهب الذي ذهب إليه إدوار ماير في أن الدولة هي الحالة الأولى للجماعة الابتدائية إنما هو مذهب قائم على إنكار الأسرة كنواة أولى للمجتمع الإنساني كما تقدم بيانه في الفقرة ٢٣ من هذا المبحث، وأن الأسرة إنما نشأت متأخرة عن الدولة وبانفصالها عن الدولة.

ويرد على هذا المذهب ما سبق معنا في مبحث المرأة والزواج.

٤٤ - ويرد عندئذ على هذا المذهب بالنسبة لما قام عليه من أساس - وهو إنكار تقدم الأسرة على لدولة - جميع ما قد أوردناه:

- على نظرية إنكار الزواج في المجتمع الفطري،
- وعلى القول بشيوع المرأة حينذاك،

كما تقدم معنا في مبحث: «د - المرأة والزواج» من هذا الباب الثالث وخاصة ما أثبتته الحفريات عن بقايا الإنسان في الطبقات الأرضية السفلى لدى قدماء العصر الحجري القديم، وأنها بقايا مجموعات صغيرة هي الأسر، لا بقايا تكتلات كبيرة كما

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٤٩-١٥٠.

قد كشفت عنها خلافاً لتلك طبقات الأرض الأقرب عهداً(١).

لذلك ذهب أكثر الباحثين إلى أن الدولة مرحلة متأخرة تبعاً لتغير في التنظيم الاجتماعي.

٤٥ ـ لذلك ذهب أكثر الباحثين كما مر معنا إلى أن الدولة مرحلة متأخرة في سلم التطور البشري، وأن قيام الدولة يقتضي تغيراً في مبدأ التنظيم الاجتماعي من أساسه، وأن الدولة إنما ظهرت منذ حلّت العلاقات الاقتصادية والسيادة السياسية محل القربى في التنظيم الاجتماعي، ففقدت القبيلة نهائياً مكانها في قوام المجتمع، وحلّت الدولة محلها في قمته، بعد أن أخذت الأسرة مكاناً لها في أسفل البناء عوضاً عن القبيلة التي اختفى أثرها في نظام الدولة.

غير أن هؤلاء اختلفوا في أصول سلطة الدولة على ثلاث وجهات.

٤٦ ـ غير أن هؤلاء الكثرة من الباحثين قد اختلفوا في أصول هذه السلطة ذات السيادة التي اعترِف بها للدولة:

- فمنهم مَنْ يردّها إلى تقاليد الأسرة،
- ومنهم مَنْ يردّها إلى ضرورات الحروب،
- ومنهم مَنْ يردها إلى أثر السلطات الدينية.

من الأسرة إلى الدولة:

مومسين يبرهن على أن الأسرة هي أنموذج الدولة ومادتها.

٤٧ ـ وهكذا فإن المؤرخ الألماني «مومسين Th.Mommsen» يحاول أن يدلل في كتابه: التاريخ الروماني Histoire romaine على أن الأسرة هي في آن واحد:

- الأنموذج الذي أقامت الدولة مثالها عليه،
- والمادة التي كوَّنت بنيانها منه(٢).

---

(١) انظر ما تقدم معنا في هذا الكتاب الصفحة ٣٣٢ والفقرة ٢٧، والصفحة ٣٥٩ والفقرة ٢٥ والصفحة ٣٦٠ والفقرتين ٢٨ـ٢٩.

(٢) انظر كتاب Éléments de sociologie السابق، الصفحة ١٥٤ـ١٥٦.

الدولة تبنت أشكال الأسرة.

٤٨ ـ ويقول: «بما أن الدولة تستند في بنيان أساسها على **عنصر الأسرة**: في الجملة وفي التفصيل، فإنها قد تبنت **أشكالها**».

واتخذت الدولة رئيساً لها على مثل رئيس الأسرة.

٤٩ ـ ويقول أيضاً: «إِن الطبيعة قد منحت الأسرة رئيساً لها وهو الأب الذي انبثقت عنه، والذي لولاه لزالت وقضي عليها؛

«غير أن الجماعة السياسية التي لا يجوز أن تزول ويُقضى عليها فإنه لا يوجد فيها رئيس بموجب قانون الطبيعة».

ولذلك أخذت الجماعات السياسية تتخذ لها رئيساً على مثل رئيس الأسرة لضمان بقائها، كما ضمنت الأسرة بقاءها بوجود رئيسها.

مثال ذلك في المجتمع الروماني الذي اتخذ من الملك رئيس أسرتهم السياسية.

٥٠ ـ ويضرب «مومسين» على ذلك مثلاً المجتمع الروماني حين تألفَّ في البدء من جماعة من الفلاحين: كلهم متساوون، وكلهم أحرار، وبدون تمايز في الطبقات لعدم وجود طبقة أشراف تستند في وجودها إِلى الحقوق الإِلٰهية؛

فقد اضطر أن يكون له رغماً عن ذلك أحد يقوده وهو الملك الذي كان يصدر إِليهم أوامره بصفته سيد الشعب، وقد اختاروه من بينهم ليكون **رئيس أُسرتهم السياسية** الكبرى، **وأُصبح له في الدولة سلطة رئيس الأُسرة في بيته**.

وغدا الملك كرئيس أسرة.

٥١ ـ وهكذا غدا الملك كرئيس الأسرة: يقضي بالعدل، ويعاقب المجرمين، ويجرِّدهم من الحرية، ويحكم عليهم بالموت، ويدعو الشعب إِلى الحرب، ويقود الجيش.

وغدا الملك هو الوحيد الذي يمارس سلطة

٥٢ ـ وبعبارة أخرى: كما أن رئيس الأسرة وأباها لم يكن فقط أقوى مَنْ في بيته، بل كان الوحيد في القوة وفي

السلطة فيه، غدا الملك الجهاز الأول والوحيد الذي يمارس سلطة الدولة؛

الدولة وإذا استعان فالسلطة منه.

وإذا استعان الملك بأحد من أتباعه لممارسة بعض السلطات فما ذلك إلا على أساس أن تلك السلطات منبثقة منه، وصادرة عنه، شأنه في ذلك شأن رئيس الأسرة إذا ما استعان ببعض أولاده وبمن في أسرته.

سلطة الدولة ومصادرها العسكرية:

وذهب إيهرينك إلى أن الدولة استمدت سلطاتها من ضرورات الحروب لا من تقاليد الأسرة.

٥٣ ـ ولكن فون إيهرينك Von Ihering ذهب في كتابه «روح الحقوق الرومانية في مختلف مراحل تطورها» L'Esprit du droit romain dans les diverses phases de son développement إلى أن الملك هو على عكس ذلك: هو **رئيس عسكري** قبل أي شيء آخر[1]؛

ومعنى ذلك أن الدولة وسلطاتها إنما نشأت واستمدت خصائصها من **ضرورات الحروب**، ولم تنشأ على مثال الأسرة ولا من تقاليدها وسلطاتها.

وسُمّي الملك كذلك لأنه يقود عسكرياً.

٥٤ ـ ويرى أن الملك **يسمى ملكاً**:

ـ **لا لأنه يحكم** بما في الحكم من **معنى حقوقي**،

ـ **بل لأنه يقود** بما في القيادة من **معنى عسكري**.

وأن عمل الملك كقائد عسكري أقدم من عمله كقاض وأهم.

٥٥ ـ ويرى أن الحال في ذلك لدى الملك هو كالحال لدى شعب محارب:

ـ **فالنظام العسكري** لدى الشعب المحارب هو الأهم،

(١) نفس المرجع السابق، الصفحات ١٥٦ـ١٥٨.

والأقدم، بل هو نقطة الانطلاق منه إِلى **النظام السياسي**،

- وكذلك هو عمل القائد العسكري الذي وضع **نظام الدولة المادي** وصانه باليد، فهو أهم من عمل القاضي الذي يسهر على حماية قانون الدولة **ونظامها المعنوي** وأقدم منه.

وحاجة الشعب لقائد أهم من حاجته لأمير فيلسوف.

٥٦ - وإِن حاجة الشعب البدائي المحارب إِلى **قائد شجاع** ماهر هي أكثر منها إِلى حاجته **لأمير فيلسوف** مسالم، ولذلك انقاد الشعب إِلى الأول بسهولة أكثر منه إِلى الثاني.

يؤيد ذلك ما حدث في عهد الجمهورية لدى الرومان في تأخر ظهور الحقوق عن ظهور النظام العسكري ثم العودة عند كل مهمة إِلى النظام العسكري.

٥٧ - ويضرب إِيهرينك مثلاً على سبق النظام العسكري في القدم وأهميته بالنسبة لظهور القانون وحمايته لدى شعب ما **ما حدث لدى الرومان**:

- من **الفكرة الجمهورية** التي قضت على الملكية وأظهرت الحقوق الرومانية،

- ومن **فكرة الحرية** الشخصية،

- ومن **التنسيق** فيما بين علاقات الأفراد،

- ومن النفور من تدخلات موظفي الدولة... الخ؛

ثمَّ ما كان يحدث لديهم من العودة إِلى مبدإِ **التبعية المطلقة للقيادة**، وهذا المبدأ هو الملكية نفسها أي **النظام العسكري** وذلك في أول كل مناسبة كانت الحاجة المحتومة تدعو إِلى العودة لذلك المبدأ.

أي أن الجمهورية التي وزَّعت سلطات الملك على ثلاثة قناصل كانت

٥٨ - ويشير إِيهرينك في ذلك إِلى أن الفكرة الجمهورية في الدولة الرومانية، بعد أن قضت على النظام الملكي ومبدأ وحدة السلطات في شخص الملك من دينية وعسكرية وقضائية، أقامت جهازاً سياسياً جديداً بدلت فيه شخص

الحاكم الفرد المنتخب مدى الحياة وجعلت في مكانه ثلاثة أشخاص ينتخبون كل سنة وهم القناصل، ووزعت فيما بينهم السلطات الثلاث، فكان أحدهم للشؤون الدينية، وآخر للشؤون القضائية، وثالثاً للشؤون العسكرية.

عند كل مهمة تعود إلى وحدة السلطات والقيادة في شخص.

غير أنه كلما أوجبت بعض الظروف الاستثنائية الخطيرة توحيد مقام هؤلاء الحكام في مقام واحد وشخص واحد، عاد الرومانيون فوراً إلى مبدإ التبعية المطلقة للقيادة الموحدة، فذهب القناصل وحلَّ محلهم حاكم مطلق هو الديكتاتور Le dictateur، وجمع في شخصه جميع السلطات.

٥٩ - ويرى إيهرينك أن الملك الأول في روما إنما كان قائداً انتخب للقيادة العليا بسبب ما كان يتمتع به من قيمة عسكرية.

ويرى إيهرينك أن الملك الأول انتُخِب للقيادة بسبب قيمته العسكرية.

وقد اعترف له بالسلطة التي لا بد منها لمقامه، أي بالسلطة المطلقة غير المحدودة L'imperium.

٦٠ - ولمَّا كان الشعب بكامله واقفاً دائماً على قدم الدخول في الحرب فقد وجب أن يكون منصب القائد العام دائماً أيضاً.

وكان القائد دائماً وعاماً بحكم الحاجة إلى ذلك.

وكان الملك قائداً عاماً مستمراً، ولم يكن هناك واحد فوقه ليتقدمه.

٦١ - ويرى إيهرينك أيضاً أن صفة الملك الدينية وسلطته الدينية لم تكن إلا كسلطته السياسية، وكل ذلك لم يكن غير نتاج سلطته العسكرية ومحصولها التابع لها.

وسلطات الملك الدينية والسياسية هي نتائج السلطة العسكرية.

٦٢ - ومعنى ذلك أن الرتبة الملكية لم تكن في حال من

ومعنى ذلك أن الملك هو

رئيس جيش فقط وله بموجب ذلك أن يعمل لغاية سياسية ودينية.

الأحوال عبارة عن جمع لثلاث سلطات متمايزة ومستقل بعضها عن بعض: سلطة عسكرية، وسلطة سياسية، وسلطة دينية؛

وكذلك الملك لم يكن شخصاً يجمع بين ثلاثة أشخاص في نفسه: شخص رئيس الجيش، وشخص المرجع الأعلى في السياسة، وشخص الكاهن في الدين؛

وإنما كان الملك رئيس جيش فقط، وهو بموجب ذلك كان له في نفس الوقت أن يحشد الجيش **لغاية سياسية**، وأن **يقدم الأضاحي** للآلهة من أجل الجيش.

أما التمييز بين تلك الصفات الثلاث فثمرة لتطورات كثيرة.

٦٣ ـ أما التمييز بين هذه الصفات الثلاث، والفصل بين السلطات المختلفة المشتقة من تلك الصفات، وإِحداث الوظائف المتنوعة العائدة لكل من تلك السلطات، فما هي إلاَّ ثمار لتطورات في عصور كثيرة وطويلة.

وما سلطة الملك المطلقة إلا القيادة العسكرية.

٦٤ ـ ولذلك لم تكن **السلطة المطلقة** L'imperium المعترف بها للملك بالنظر لطبيعتها الأصلية إلا **القيادة العسكرية العليا**.

سلطة الدولة ومصادرها الدينية:

لكن فريزر لفت النظر إلى صفة الملك الدينية أكثر من العسكرية.

٦٥ ـ غير أن بحوث السير جايمس فريزر Sir James Frazer قد لفتت نظر الباحثين إِلى **المسحة الدينية السحرية** التي لازمت الملوك الأولين أكثر من **المسحة العسكرية** التي أشار إليها إيهرينك أعلاه.

موريه ودافي يؤيدان فريزر بوقائع مصر القديمة.

٦٦ ـ وقد ذهب المؤلفان موريه ودافي A. Moret et G.Davy في كتابهما «من الطوائف إِلى الدول Des clans aux empires» يبرهنان على صحة نظريات فريزر اعتماداً على وقائع مصر القديمة.

٦٧ ـ ولقد أثبت سير جايمس فريزر أن أكثر المجتمعات الابتدائية يُسنَد فيها إلى الملوك سلطة إشعاع الشمس، وإنزال المطر، وإنماء الزرع، ولذا يسمون: «ملوك الزمن، وملوك النار، وملوك الماء، وملوك الحصاد»، وهذا ما يُنسَب إلى فراعنة مصر كما جاء في التقاليد المتوارثة طوال العهود التاريخية[١]، وهذا ما جعل منهم آلهة.

أثبت فريزر أن الفراعنة كان يُسْنَد إليهم فعل الأعاجيب السحرية.

٦٨ ـ فقد كان يُنسَب إلى فرعون، في نهوضه كل صباح وصعوده إلى عرشه، **نهوض الشمس** وإشراقها كل يوم لإخصاب الطبيعة، كما كان يقال عنه بأنه **سيد المفاتن السحرية**[٢].

ويُنْسَب إلى فرعون إشراق الشمس في كل صباح.

٦٩ ـ وكذلك كان يمثل فرعون في شخصه **إله النيل والإنبات**، وإليه يُنسَب أول موجة من فيضان النيل، ويدعى «بواهب المياه للأرض»؛

ويُنْسَب إليه فيضان النيل وهو الذي يأمره خطياً بالفيضان كلما كان يجفُّ.

وفي حالة العسر والضيق حيث تهبط مياه النيل ويكاد أن يسيطر عليه الجفاف، كان فرعون يلقي في النهر أمراً مكتوباً ليبدأ بالفيضان، وإذا بالفيضان يبدأ تبعاً لذلك: لأن فرعون وأعوانه كانوا على علم بظروف الفيضان وأوقاته التي لم تكن بعد داخلة في معارف الشعب وتجاربه.

٧٠ ـ وكذلك كان فرعون **ملك الحصاد والغلال**، لأن الفراعنة كانوا يضعون في مقدمة أعمالهم العناية بزراعة الأرض وبجمع محاصيلها وبخزنها في مستودعات متينة، وكذلك

ويعتبر فرعون ملك الحصاد والغلال فهو

---

(١) انظر كتاب Éléments de sociologie السابق، الصفحة ١٥٨ـ١٥٩.

(٢) نفس المرجع السابق.

مـالـك الأرض ومـمـوّن الشعب.

العناية بمضاعفة الإنتاج الحيواني، وكانوا يموِّنون شعبهم من مستودعاتهم، وكانت الأرض كلها ملكاً لهم، ولا يتركون للعمال فيها إلا ما كان ضرورياً لحياتهم.

ويعتبر فرعون بأسراره السحرية هو المنتج لكل نوع من الغلال.

٧١ ـ وكان الشعب يعتقد في الملك أنه **يملك أسراراً سحرية في منتهى القدرة**، وأن الإنتاج من أي نوع كان يستجيب إلى ندائه منذ ينطق بالكلمات الخاصة، ولذلك كان الملك هو المعيل الأكبر لشعبه، وكان يرأس توزيع المؤن لكل الأحياء.

وهكذا فليس فرعون جندياً فقط بل اتخذ لنفسه وجه ساحر ومَثَّل في شخصه الآلهة التي يوجهها.

٧٢ ـ وهكذا نجد أن الملك لم يكن فقط جندياً سعيداً، وحامياً باسلاً لشعبه في المعارك الحربية، وإنما اتخذ لنفسه أيضاً وجه ساحر، **وأقام سلطته على سلسلة من العمليات السحرية**:

ـ فهو الذي يمثل في نفسه شخص الآلهة، وهو الذي يوجهها،

ـ وهو الذي يعطي شعبه الماء والغلال،

ـ وهو الذي يضمن لهم الأمن والسلام.

وبذلك أقام الفراعنة سلطتهم على وحدتهم مع الآلهة في قدرتها.

٧٣ ـ وبذلك أوجد الفراعنة لأنفسهم **حقاً لأسرتهم في التاج**، وأقاموا هذا الحق على **وحدتهم مع الآلهة**، وتأكد ذلك بالتقاليد وبالطقوس الدينية التي أعطت للملك كل ما يُعطَى للآلهة من قدرة مادية ومعنوية.

الفصل الرابع

فكرة الحق والقانون

في مطلع الأزمنة التاريخية

لدى أقدم الأمم في القانون والحضارة

من مصر إلى بابل

ومن أقصى جنوبي الجزيرة العربية إلى أقصى بلاد الشام

(وفيه مقدمة وخمسة أبواب)

مقدمة ـ ملاحظات عامة

الباب الأول ـ حقيقة هذه الشعوب وعوامل سبقهم في الحضارة

الباب الثاني ـ مجمل النظم الحقوقية لدى هذه الشعوب وما قامت عليه من مبادىء

الباب الثالث ـ مصادر النظم الحقوقية لدى هذه الشعوب

الباب الرابع ـ مكان الشريعة اليهودية من تلك النظم الحقوقية

الباب الخامس ـ أثر حضارات هذه الشعوب العربية القديمة فيمن بعدهم من يونان ورومان وغيرهم

مقدمة ـ ملاحظات عامة

هذا الفصل دراسة للحلقة الأولى من فكرة الحق في الأزمنة التاريخية.

١ ـ في هذا الفصل الرابع من كتابنا نصل إِلى دراسة **أول حلقة** من حلقات التاريخ العام **لفكرة الحق والقانون في الأزمنة التاريخية**: هذه الأزمنة التي تبدأ منذ **عرفت البشرية الكتابة** واستخدمتها؛

وإن الكتابة في أقدم استعمالها كما مرَّ معنا[١] لا ترجع إلاَّ إِلى ستة آلاف سنة أو سبعة آلاف سنة تقريباً من تاريخنا الحاضر، أو في عبارة أخرى إِلى أربعة آلاف سنة أو خمسة آلاف سنة قبل السيد المسيح.

فكرة الحق في هذه الأزمنة تبدأ لدى أقدم الأمم في الحضارة: من مصر إلى بابل ومن اليمن إلى بلاد الشام.

٢ ـ وقد تقدَّم معنا أيضاً[٢] أن البحث في تاريخ فكرة الحق والقانون في هذه **الأزمنة التاريخية** يجب أن يبدأ لدى **أقدم الأمم في القانون والحضارة**، وأن أقدم هذه الأمم إِنما هي الشعوب التي سكنت «**مثلث الحضارات القديمة**»؛ أي مصر واليمن وبابل والشام، وفي عبارة أخرى: هي الشعوب التي سكنت فيما بين وادي النيل في مصر إِلى أراضي الرافدين في العراق وما بينهما من اليمن إلى نهاية بلاد الشام.

يلاحظ أن الكتابة في

٣ ـ وهنا يجب أن نلاحظ: أن الكتابة إِذا كانت في زمننا

(١) الصفحة ٢٤، الفقرة ١٠؛ والصفحة ٤٧، الفقرة ١.

(٢) الصفحة ٤٧ ـ ٥٣.

زمننا وسيلة إلى مدنية، ولكنها لدى تلك الشعوب القديمة حصيلة لمدنية، وفن تصويري لأمور مادية ومعنوية.

الحاضر **وسيلة إلى مدنية،** فإنها كانت لدى هذه الشعوب القديمة في مثلث الحضارات القديمة، **حصيلة لمدنية** لا وسيلة إليها، لأن الكتابة لدى الأمم التي سبقت في تاريخ الحضارات القديمة إنما ابتدأت عندهم باعتبارها **رسماً وفناً تصويرياً** يعبرون به أولاً **عن أمور مادية** من أشياء أو أشخاص، ثم أخذوا يعبرون بها **عن أمور معنوية** مما يجول في نفوسهم من معان وأفكار.

اختراع الكتابة لتخليد المرئيات والأفكار كان مرحلة بعد طواف طويل في فنون الحضارة ولوناً جديداً في الإبداع.

٤ ـ والكتابة إذا اعتبرناها في بدء ظهورها **رسماً وفناً تصويرياً** فهي إذن أثر لحضارة قديمة متطورة، وحصيلة لمدنية سابقة متشعبة؛

وإن وصول هذه الأقوام والشعوب القديمة إلى مرحلة اخترعوا فيها الرسم والتصوير ليخلّدوا به مرئياتهم أولاً، ثم ليعبّروا به عن أفكارهم ثانياً، كان بلا شك مرحلة جاءت بعد مطاف طويل في فنون الحضارة، ولوناً جديداً من أنواع الإبداع في الفكر والثقافة.

لذلك لن تكون دراستنا لحقوق الأقوام المخترعين للكتابة هي دراسة لحقوق بدئية.

٥ ـ لذلك لا ينبغي لنا أن ننتظر من دراستنا لتاريخ فكرة الحق والقانون لدى مخترعي الكتابة من شعوب مثلث الحضارات ـ في مطالع الأزمنة التاريخية وفيما وصل إلينا منها ـ أن نرى فيها **حقوقاً بدئية** تعبر عن أقوام بدائيين كما رأينا ذلك لدى اليونان والرومان في عهودهم التاريخية، وإنما هي حقوق جماعة قد طال عهدهم في الحضارة، ورسخت أقدامهم في المدنية، واستقر فيهم نظام الجماعات السياسية المنظمة منذ أزمان، وتغيَّبت عنا أخبارهم البدائية لأنها دخلت في أزمنة **ما قبل التاريخ،** خلافاً لأخبار اليونان والرومان البدائية التي هي **من أخبار الأزمنة التاريخية.**

فمَنْ هم هؤلاء الأقوام وما هي أحوالهم ونظمهم الحقوقية ومبادئهم فيها.

٦ ـ فمَنْ هم هؤلاء الأقوام والشعوب؟

ـ ومن أين أتوا؟

ـ وما هي لغاتهم؟

ـ وما هي عقائدهم ودرجة ثقافتهم؟

ـ وكيف كانت أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ـ وما هي نظمهم الحقوقية في الجملة من خلال هذه الأوضاع؟

ـ وما هي الأسس والمبادىء التي قامت عليها تلك النظم؟

الدراسات الحديثة لفكرة الحق لدى أمة تتوقف على معلومات حول مختلف أوضاعها وخصائصها.

٧ ـ وهكذا فإن الدراسات الحديثة لفكرة الحق والقانون لدى جماعة من الجماعات، وكذلك تفهم نظمها الحقوقية، يتوقف اليوم على مجموعة من المعلومات لا بد أن تتقدم لدى الباحث على المجهول الأخير منها، لأن الحقوق لدى أمة من الأمم، وشعب من الشعوب، ما هي إلا الصورة الحقيقية لمختلف هذه الأوضاع ولمختلف هذه الخصائص: في الحياة وفي الأرض وفي الدين وفي الثقافة وفي الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية؛ وكثيراً ما يتوقف فهم بعض نظم الأمة ومبادئها الحقوقية على معرفة ما كانت عليه من أوضاع، وما كان لديها من خصائص.

إنما ندرس في هذا الفصل فكرة الحق لدى جميع شعوب مثلث

٨ ـ ونحن إذ نجمع في هذا الفصل دراسة فكرة الحق والقانون لدى جميع هذه الشعوب في مثلث الحضارات القديمة، فذلك لأنها شعوب ذات حضارات متعاصرة متماثلة،

الحضارة مجتمعة لأنها ذات حضارات متعاصرة متماثلة.

ولذلك شكَّ العلماء في أي الحضارتين أَقدم: أهي حضارة مصر، أم هي حضارة بابل؟ وللعلماء الباحثين في ذلك رأيان، وسوف ندلي برأينا أيضاً حينما نصل إِلى هذا المبحث.

ويبرر أيضاً هذه الدراسة لجميع هذه الشعوب مجتمعة أنهم من أصل واحد.

٩ ـ ويضاف إِلى مبررات دراسة فكرة الحق والقانون لدى جميع هذه الشعوب في فصل واحد، كأنهم أمة واحدة، **ما سوف نراه** من خلاصة دراسة علماء الآثار ومحققيهم الذين ذهبوا اليوم فقط **إلى وحدة أُصول هذه الشعوب**، ووحدة أصول لغاتهم، ووحدة أصول تفكيرهم وأوضاعهم، وردِّهم جميعاً إِلى هجرات صَدَرت من جزيرة العرب، بل من جنوبيها في اليمن وما جاورها.

الدارسون للآثار الشرقية تجاهلوا سابقاً عن عمد وحدة هذه الشعوب فيتوجب على العرب إعادة النظر فيما انتهى إليه أولئك.

١٠ ـ ويؤسفنا أن الدراسات الأثرية الشرقية السابقة للدراسات الحديثة قد قام بها الأثريون الأوروبيون والأميركيون، وتجاهلوا فيها عمداً وحدة هذه الشعوب العربية خلال الأجيال المغرقة في القدم، فجزأوا تاريخها إِلى عشرات التواريخ! ونسبوها إِلى عشرات الأمم! وهذا ما أوجب على جميع المؤرخين العرب في عصرنا أن يعيدوا النظر الآن في كل النظريات التي انتهت إِليهم من قبل، وأن يعلنوا أن وحدة الوجود العربي فيما بين جميع تلك الشعوب، وخلال جميع تلك الأجيال والحضارات الرفيعة، هو أمر لا يجوز أن يرقى الشك إِليه(١).

---

(١) **مجلة الحوليات الأثرية السورية**، المجلد السابع لسنة ١٩٥٧، الصفحتان ٤، ٥، الآثار في خدمة القومية العربية للدكتور سليم عبد الحق مديرالآثار العام.

١١ ـ وسوف تتولى الأبواب التالية الإجابة على كل ذلك جملة وتفصيلاً: سواء على ما أشرنا إِليه من أسئلة، أو على ما أشرنا إِليه من أبحاث، وما يتبعه من دراسات.

الأبواب التالية تجيب على ذلك جملة وتفصيلاً.

الباب الأول

حقيقة هذه الشعوب وعوامل سبقهم في الحضارة

أ ـ أراضي هذه الشعوب وعوامل سبق الحضارة فيها.

ب ـ سكان وادي النيل ومنشؤهم.

ج ـ سكان وادي الرافدين ومنشؤهم.

د ـ سكان بلاد الشام ومنشؤهم.

هـ ـ سكان جنوبي شبه جزيرة العرب.

و ـ الاسم الأصلي لهذه الشعوب ولمنشأهم.

ز ـ عوامل استقطاب هذه الشعوب في جنوبي شبه جزيرة العرب ثم هجرتهم منه.

ح ـ لغات هذه الشعوب.

ط ـ عقائد هذه الشعوب.

ي ـ ثقافة هذه الشعوب وأثرها في اليونان والرومان وفي عالمنا الحديث.

ك ـ الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لهذه الشعوب.

ل ـ النظم السياسية لهذه الشعوب.

أ ـ أراضي هذه الشعوب وعوامل سبقهم في الحضارة

١ ـ تقدم معنا في مطالع الكتاب[١] أنه: «قد استقر الرأي العلمي على حقيقة هي:

استقر الرأي العلمي على أن حضارتي مصر والعراق وما بينهما في سوريا أقدم حضارات العالم.

ـ أن الحضارتين **المصرية والعراقية هما أقدم حضارات العالم وأهمها**؛

ـ وأن ما ظهر من حضارات أو ثقافات أخرى كان أقل منهما شأناً، واعتمد على إحداهما أو على كلتيهما معاً؛

ـ وأن هاتين الحضارتين كانتا **تلتقيان في سوريا**، ولذلك جعل مؤرخو تلك الحضارتين **لدراسة الآثار السورية** أهمية كبرى».

٢ ـ ويقول في ذلك سارتون[٢]: «إن الحقيقة القائلة: إن مهد المدنية الغربية كان ضفاف النيل والفرات ودجلة، لم تكن تُفهَم حق الفهم قبل عصرنا الحاضر!

يقول سارتون نستطيع أن نجزم اليوم بأن مهد علوم المدنية الغربية كان على ضفاف النيل ودجلة والفرات.

«أما الآن فإنها أصبحت واضحة أجلى الوضوح، بل نحن اليوم نستطيع أن نجزم بلا تردد بأن العلوم الغربية ولدت في تلك البلاد المحظوظة».

٣ ـ وتغلب لدى الأميركيين بصورة خاصة تسمية هذه البقعة من الأرض التي نشأت فيها أول حضارات الإنسان

بدأ تاريخ العلم في هذه

(١) الصفحة ٥٠، الفقرة ٧.

(٢) الصفحة ٥٠ من هذا الكتاب، الفقرة ٥.

البقعة المسماة بالشرق الأوسط.

باسم **الشرق الأوسط** ويقول في ذلك جورج سارتون[1]: «إِن الإجماع واقع على أن تاريخ العلم بدأ ـ على التحقيق ـ في المكان الذي تواضعنا على أن نسميه **الشرق الأوسط**،

ولا نعلم مَنْ الأسبق مصر أم ما بين النهرين.

«وأنه من المستحيل علينا أَن نجزم في أي قسمي هذا المكان بدأ:

ـ أَفي القسم الغربي منه، في مصر؟

ـ أَم في القسم الموغل نحو الشرق، فيما بين النهرين؟».

ويسمي شفاينفورت هذه المنطقة مثلث الحضارات بما فيها اليمن وبلاد الشام.

٤ ـ ويسمى جورج شفاينفورت G. Schweinfurth هذه المنطقة ذاتها من الأرض «مثلث الحضارة القديمة»[٢] ويريد منها: بابل واليمن ومصر، وما بينهما من بلاد الشام، على اعتبار أن اليمن في جنوبي شبه الجزيرة العربية هي رأس هذا المثلث، وعلى اعتبار أن بابل ومصر هما ضلعاه.

التسمية الأخيرة أوضح من اسم الشرق الأوسط وأرجح.

٥ ـ وإِنني أرجح هذه التسمية الأخيرة وهي «مثلث الحضارة القديمة» على التسمية الأولى وهي «الشرق الأوسط» وذلك لوضوح المراد منها، إِذ إن لمفهوم الشرق الأوسط مفهوماً نسبياً وغير ثابت لدى الغربيين، فهو يضيق ويتسع تبعاً لمقاصد سياسية وعسكرية، وقد يسمونه أحياناً بالشرق الأدنى، وقد يدخلون فيه تركيا وإيران، وقد يخرجون منه تركيا، وكل ذلك لأسباب وعوامل سياسية وعسكرية[٣].

---

(١) **العرب: تاريخهم بين الوحدة والفرقة**، الصفحة ٢١، طبع القاهرة سنة ١٩٥٦.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٦.

(٣) انظر تفصيل ذلك في كتاب **«دفاع عن العروبة»** لمؤلفه الأستاذ ساطع الحصري، الصفحات ١٣١ـ١٤٢، الطبعة الأولى، بيروت سنة ١٩٥٦.

أما «مثلث الحضارة القديمة» فقد أراد منه شفاينفورت منطقة حضارية قديمة بالذات: تبدأ من اليمن وحضرموت في أقصى الجنوب على رأس هذا المثلث، ويحدُّها وادي النيل في أحد أضلاع المثلث إلى الشمال الغربي، ثم وادي الرافدين في بابل والعراق في الضلع الآخر من المثلث إلى الشمال الشرقي، ثم بلاد الشام في نهاية قاعدة المثلث؛ وإن الأراضي التي نريد تحديدها باعتبارها مهد الحضارة الأولى القديمة هي بالضبط هذه المنطقة التي يشتمل عليها هذا المثلث.

ظهور الإنسان وحضارته في هذه المنطقة كان وليداً لظروف طبيعية.

٦ ـ ويرى العلماء أن ظهور الحضارة القديمة في هذه المنطقة من الأرض لم يكن وليداً لصدفة عابرة، وإنما كان وليداً لظروف ولأوضاع طبيعية جعلت من أراضي هذا المثلث أول أرض تهيأت فيها دون غيرها من بقاع العالم[1]:

ـ أسباب ظهور الإنسان،

ـ وعوامل حضارته الأولى؛

وهذا ما سنقوم بإيضاحه فيما يلي من الفقرات.

يرى علماء الجيولوجيا أنه قد مرَّ على الأرض أربعة عهود جليدية غزت الأرض من الشمال.

٧ ـ يرى علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) وتطوراتها أنه قد مرَّ على الأرض منذ وجدت **أربعة عهود جليدية**، وكان كل عهد منها يغزو الأرض بجليده آلافاً من السنين، ويدفع القطب المتجمد إلى التوسع في الأرض حتى يغطي بجليده الزاحف شمالي أوروبا إلى ما بعد جبال الألب، فينهزم

(١) المرجع الأسبق للأستاذ محمود كامل، الصفحة ١٤ ـ ١٧ نقلاً عن دافي وموريه: A. Moret and G. davy: From Tribe to Empire
ـ وعن ده موركان J. De Morgan: Prehistoric Man.

الإنسان إلى البقاع الجنوبية من الأرض، ويلتجىء إلى الكهوف اتقاء الزمهرير القاسي؛

وكان يفصل بين عهدٍ جليدي وآخر فترة يعتدل فيها المناخ، ويتراجع الجليد إلى الشمال(١).

رافق كل عهد جليدي ظهور عصور ممطرة في الشرق الأدنى عمَّت جزيرة العرب وصحارى أفريقيا وتمكَّن فيها الإنسان والحيوان من العيش.

٨ ـ وكان كلما حلَّ عهد جليدي في أوروبا وأمريكا وآسيا ظهر في **الشرق الأدنى وفي أفريقيا** وغيرها من البقاع الآسيوية الجنوبية زمن تكثر فيه الأمطار والرطوبة، وسُميت مثل هذه الأزمان **بالعصور الممطرة**.

وقد كثرت الأمطار في هذه الأزمان حتى **عمت جزيرة العرب ومنطقة الصحاري في أفريقيا**، ومكنت الإنسان والحيوان أن يعيشا فيها(٢).

ورافق انسحاب الجليد إلى الشمال عصور جفاف في الشرق الأدنى، ونحن نعيش في فترة جليدية رابعة.

٩ ـ أما الفترات بين العصور الجليدية في أوروبا وآسيا، وانسحاب الجليد فيها إِلى الشمال، فكان يقابلها في أنحاء الشرق الأدنى عصور جفاف.

ونحن الآن نعيش في فترة جليدية رابعة، وفي مرحلة أعقبت عصراً جليدياً لم يحسب تاريخ نهايتها حساباً دقيقاً(٣).

---

(١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة عربية، الجزء الأول، الصفحة ١٥٦، طبع القاهرة ١٩٤٩؛ **ومقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الأول، الصفحة ٣٣، طبعة ثانية في بغداد سنة ١٩٥٥؛ **والعرب**، محمود كامل، الصفحة ١٥، القاهرة سنة ١٩٥٦..

(٢) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، الجزء الأول السابق، الصفحة ٣٣.

(٣) المرجع السابق لطه باقر، الصفحة ٣٣؛ وكذلك الجزء الأول من قصة الحضارة السابق، الصفحة ١٥٦.

١٠ ـ وقد حددت النظرية الجيولوجية القائمة الآن عصور الجليد الأربعة وفتراتها كما يلي[١]:

حدود عصور الجليد الأربعة وفتراتها:

ـ حددت **عصر الجليد الأول** بسنة ٥٠٠,٠٠٠ ألف قبل الميلاد، والمرحلة الأولى التي توسطت عصرين جليدين بسنة تقع بين ٤٧٥,٠٠٠ و ٤٠٠,٠٠٠ ألف قبل الميلاد؛

حدود العصر الأول.

ـ وحددت **عصر الجليد الثاني** بسنة ٤٠٠,٠٠٠ قبل الميلاد، والمرحلة الثانية التي توسطت عصرين جليديين بسنة بين ٣٧٥,٠٠٠ و ١٧٥,٠٠٠ ألف قبل الميلاد؛

حدود العصر الثاني.

ـ وحددت **العصر الجليدي الثالث** بسنة ١٧٥,٠٠٠ قبل الميلاد، والمرحلة الثالثة التي توسطت عصرين جليديين بسنة تقع بين ١٥٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ ألف قبل الميلاد؛

حدود العصر الثالث.

ـ وحددت **العصر الجليدي الرابع** بسنة تقع بين ٥٠,٠٠٠ و ٢٥,٠٠٠ ألف قبل الميلاد؛ ونحن الآن في فترة رابعة أعقبت العصر الجليدي الأخير، ولا نعرف بعد حساب نهايتها المفاجئة وما قد تجرُّ وراءها على البشرية الحاضرة من ويلات.

حدود العصر الرابع، ونحن الآن في فترته ولا نعرف نهايتها المفاجئة بويلاتها.

١١ ـ وقد كان الجليد في عهود الجموديات يستر الكثير من أوروبا وآسيا:

ـ فقد غطت طبقات الجليد الزاحفة شمالي أوروبا إلى ما بعد جبال الألب[٢] كما مر معنا،

ـ وانتشرت الجموديات في الصين[٣]،

اجتاح الجليد في عصوره شمالي أوروبا إلى ما بعد الألب، وانتشر في الصين وفي جبال أرمينيا.

---

(١) **قصة الحضارة** السابق.

(٢) **مقدمة الحضارات القديمة**، الجزء الأول السابق، الصفحة ٣٣.

(٣) **تمهيد في علم الجغرافيا**، عمر الحكيم، الكتاب الأول، الصفحة ٣٨، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٨ دمشق.

ـ واجتاح الجليد أيضاً بزحفه أرمينيا حتى لامس رؤوس جبال آرارات: تلك المنطقة التي جرت على مسرحها أعظم كارثة حلّت في الجنس البشري، وهي كارثة الطوفان التي تتحدث عنها الكتب السماوية(١)،

ـ وجاور هذه المناطق الجليدية مناطق ثلجية دائمة بطبيعة الحال، وجاء بعد المناطق الثلجية مناطق باردة.

وجاور الجليد مناطق ثلجية في أوروبا وآسيا وفي هضبة إيران، وكان مناخ الهضبة بارداً.

١٢ ـ وهكذا: ففي الوقت الذي كانت الجموديات منتشرة في الصين وفي أوروبا إلى ما بعد جبال الألب وفي أعالي جبال أرمينيا من آسيا الصغرى، «كانت معظم النواحي الأوروبية وشمالي آسيا تغطي أرضها الثلوج... وكانت هضبة إيران تغطيها الثلوج التي تحول دون تكوين مواطن صالحة للأحياء»(٢)، وكان مناخ الهند بارداً(٣).

ويتضح تعذر عيش الإنسان البدائي في مناطق جليدية أو ثلجية أو باردة.

١٣ ـ ويتضح من ذلك أنه كان من المتعذر على الإنسان البدائي العيش والاستقرار في مناطق جليدية، أو ثلجية، أو باردة، وهو بعد مجرد من وسائل الحماية والوقاية من هذه العوارض الطبيعية القاسية؛

وبالتالي لا يتصور نشوء حضارة في هذه المناطق قبل حضارة مَنْ كان في بُعْدٍ عنها.

وبالتالي فإنه لا يجوز أن نتصور إمكان نشوء حضارة للإنسان البدائي في مثل هذه النواحي من الأرض غير الملائمة للحياة وأن تسبق حضارتهم حضارة الآخرين الذين كانوا يعيشون في بعد عن هذه الأنواء «والتي جعلت من المنطقة المعتدلة

(١) تاريخ الأمة الأرمنية، عثمان الترك، الصفحة ١٩، طبع حلب سنة ١٩٦٠.
(٢) تاريخ العرب، جواد علي، الجزء الأول، الصفحة ١٥٩، طبع بغداد، سنة ١٩٥٠ ـ ١٩٥١.
(٣) تمهيد في علم الجغرافيا الكتاب الأول السابق، الصفحة ٣٨.

اليوم منطقة متجمدة مدى آلاف من السنين»[1]، أو مهبطاً لأنهار من الثلوج كانت تحدث طوفاناً يجتاح السهول ويلجىء الناس إلى الفرار أمامها، ويقضي على كل أثر للإنسان فيها.

١٤ ـ وهكذا كانت ظروف أوروبا: حيث هبطت الأنهار الثلجية من الجبال في شمال البحر المتوسط، واجتاحت سهولها، وألجأت الناس إِلى سكنى الكهوف والجبال[2].

لذلك لم يتعلم الأوروبيون وسائل الحضارة إلا بعد آلاف من السنين وفي الألف الأول ق.م.

١٥ ـ «ولذلك لم يتعلم الأوروبيون إلا في عهد متأخر جداً أية وسيلة من وسائل الحياة غير المرعى والصيد؛

«ولم يصبحوا مزارعين، كما لم يتعلموا صنع الفخار أو استخدام المعدن إلا بعد آلاف من السنين؛

«ولم يظهروا في تاريخ البشرية إِلا في الألف الأولى قبل الميلاد»[3].

اعتدال أجواء جزيرة العرب ومصر وشمالي أفريقيا في العصور الجليدية خلافاً لأوروبا والصين والهند.

١٦ ـ أما ظروف جزيرة العرب في جنوبي غربي آسيا، وكذلك ظروف مصر وما جاورها من شمالي أفريقيا فقد كانت مختلفة تمام الاختلاف عن أوروبا وأمثالها في الصين والهند، ولم يكن هناك جليد ولا أنهر ثلجية في هذه المناطق التي أصبحت فيما بعد مسكناً لأهل الشرق القديم[4]؛

بل «كانت جزيرة العرب ذات جو معتدل، وأمطار

---

(١) **قصة الحضارة**، الجزء الأول، الصفحة ١٥٦، طبع القاهرة سنة ١٩٤٩.
(٢) **العرب** للأستاذ محمود كامل، الصفحة ١٥، طبع مصر سنة ١٩٥٦.
(٣) **العرب** للأستاذ محمود كامل، الصفحة ١٥، طبع مصر سنة ١٩٥٦.
(٤) نفس المرجع السابق.

غزيرة، وأشجار وزروع»[١].

لذلك ظهر الإنسان ونما في تلك المناطق المعتدلة ووجد فيها ما ساعده على رقيه.

١٧ - وهكذا ظهر الإنسان في جزيرة العرب وفي مصر وفي الأقطار المجاورة لها قبل أن يظهر في غيرها من بقاع العالم؛ وكانت الأمطار الغزيرة تروي السهول المنبسطة فتنمو فيها النباتات وتعيش فيها الحيوانات؛ وبذلك وجد الإنسان كفايته من الطعام، ووجد الجنس البشري هناك تربة خصبة ساعدت على رقيه، ولم يشهد قرون النمو المشلول الذي فرضته الطبيعة على غير هذه المنطقة من أنحاء العالم[٢].

لذلك كان تاريخ الإنسانية في الشرق القديم مبكراً آلافاً من السنين عنه في غيره.

١٨ - «لذلك فإن تاريخ الإنسانية يمكن - بل يجب - أن يدرس بين شعوب الشرق القديم (هنا) مبكراً بضع آلاف من السنين عن ذلك التاريخ في أية منطقة أخرى»[٣].

تغير الأجواء في شمالي أفريقيا والجزيرة العربية نحو الجفاف عقب انسحاب الجموديات.

١٩ - بيد أن هذه المنطقة المحظوظة **من شمالي أفريقيا والجزيرة العربية وبلاد الشام** (سوريا) لم تلبث الأمطار فيها أن قلّت عقب انسحاب الجموديات في عصرها الرابع، وتغير فيها المناخ الممطر، وتهددت حياة الإنسان البدائي في كل من ليبيا والجزيرة العربية وبلاد الشام[٤].

بقاء الظروف ملائمة في

٢٠ - غير أن الظروف **ظلت ملائمة للحياة** في كل من مصر

---

(١) **تاريخ العرب** لجواد علي، الجزء الأول السابق، الصفحة ١٥٩.

(٢) نفس المرجع الأسبق لمحمود كامل، الصفحة ١٥؛ وكذلك **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة** الجزء الأول، الصفحة ٣٣، طبعة ثانية، بغداد سنة ١٩٥٥.

(٣) نفس المرجع السابق لمحمود كامل، الصفحة ١٥.

(٤) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٥؛ وكذلك **مقدمة في الحضارات القديمة** لطه باقر، الجزء الأول، الصفحة ٣٣، طبعة ثانية، بغداد سنة ١٩٥٥.

والعراق، وذلك بفضل النيل في الأولى، وبفضل الرافدين: دجلة والفرات في العراق؛

أودية النيل والرافدين، ولذلك ظهرت بينهما أول حضارتين رئيسيتين دان لهما العالم قديماً وحديثاً.

ولذلك قام في هذين الواديين في مصر والعراق، وتحت ضغط ظروفهما الجغرافية وبيئتهما الطبيعية، **أُول حضارتين رئيسيتين**[1] عرفهما التاريخ حتى اليوم؛

وأخذت هاتان الحضارتان تشعان من واديهما مباشرة وفيما بينهما من بلاد الشام أول نور مزَّق حجب الظلمات، وأرسى قواعد المدنيات، وجعل العالم القديم والحديث مديناً إلى هذه الأقطار في كل ما نشأ بعدها من حضارات.

لذلك أجمع الباحثون على أن هذه المنطقة بفضل ظروفها هي مهد الحضارة الإنسانية.

٢١ ـ وهكذا أجمع الباحثون اليوم على أن هذه المنطقة من العالم هي مهد الحضارة الإنسانية، وذلك بفضل تلك الظروف والعوامل في نشوء الحضارات القديمة، تلك الظروف والعوامل التي استأثرت بها هذه المنطقة حينذاك، وتم لها بها السبق على غيرها في إنشاء الحضارة وإنضاجها.

وتقرر اليوم علمياً أن أثر البيئة الطبيعية قديماً أشد منه في الأزمان الحديثة: حيث تضاءل مع تقدم الإنسان.

٢٢ ـ وقد أصبح من المقرر لدى العلماء الباحثين أن هنالك حقيقة حضارية هامة لا يجوز إغفالها: «وهي أن أثر البيئة الطبيعية في حياة الإنسان كان في الأزمان القديمة أشد منه في الأزمان الحديثة التي تقدم فيها الإنسان في أساليبه العلمية الفنية، بحيث نستطيع أن نضع لذلك قاعدة، وهي أن أثر البيئة الطبيعية في حياة الإنسان سار على أساس التضاؤل بالنسبة إلى تقدم الإنسان الحضاري: **نحين كانت (البيئة الطبيعية) تتحكم في الإنسان** في عصوره الحجرية القديمة،

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٥.

وكان طفيلياً عليها وخاضعاً لأعظم التأثيرات، **صار مشاركاً لها** في الإنتاج في العصر الحجري الحديث حيث صار مثلها ينتج القوت والزراعة بيده، **وأخذ يقل أثر البيئة المطلق** بانتقاله إلى الحضارة حيث بدأ يسيطر عليها، منتقلاً بذلك إلى السيطرة على بيئته الاجتماعية بإيجاد الحلول لمشاكل المجتمع الناشىء بعد تعقد الحياة الاجتماعية بظهور الحضارة»[1].

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، الجزء الأول السابق، الصفحة ٧٥.٧٦.

ب ـ سكان وادي النيل ومنشؤهم

(مقدمـة)

يحتوي مثلث الحضارة على أربع مناطق متمايزة:

١ ـ اتضح لنا من المبحث السابق في الكلام عن أراضي أقدم الأمم والشعوب في الحضارة: أن هذه الأراضي هي «أراضي مثلث الحضارة القديمة»، وأن هناك أربع مناطق على الأقل متمايزة عن بعضها في مواقعها:

وادي النيل،

ـ فهناك **وادي النيل** في غربي هذا المثلث،

جنوبي جزيرة العرب،

ـ وهناك **جنوبي شبه الجزيرة العربية** في رأس هذا المثلث،

وادي الرافدين،

ـ وهناك **وادي الرافدين**: دجلة والفرات في شرقي هذا المثلث،

بلاد الشام.

ـ وأخيراً هناك **شمالي الجزيرة العربية** إلى أقصى بلاد الشام (الشمال).

عُرِفت شعوب هذه المناطق قديماً بأسماء مختلفة:

٢ ـ وقد سكن هذه المناطق المتمايزة في **مطالع الأزمنة** التاريخية شعوب عرفت بأسماء مختلفة:

مصريون وقبط،

ـ ففي وادي النيل عرف السكان باسم **المصريين** وباسم **القبط**،

ومعينيون وقتبانيون وسبئيون وحضرميون،

ـ وفي جنوبي الجزيرة العربية عرف بعض السكان باسم **المعينيين**، وبعضهم باسم **القتبانيين**، وبعضهم باسم **السبئيين**، وبعضهم باسم **الحضرميين**،

وأكديون وآشوريون،

- وفي وادي الرافدين عرف بعض السكان باسم **الأكديين**، وبعضهم باسم **البابليين**، وبعضهم باسم **الكلدانيين**، وبعضهم باسم **الآشوريين**.

وعاموريون وكنعانيون وآراميون.

- وفي بلاد الشام عرف بعض السكان باسم **العاموريين (الآموريين)**، وعرف بعضهم باسم **الكنعانيين أو الفينيقيين**، وعرف بعضهم باسم **الآراميين**.

سكان وادي النيل ومنشؤهم:

يسمي العرب وادي النيل بمصر، وسكانها بالمصريين وبالقبط.

١ - يطلق العرب على وادي النيل اسم «**مصر**»، وينسبون إليه سكانها فيقولون «المصريون»؛

وقد يسميهم العرب «**بالقبط**» كما جاء في كتب الدعوة إلى الإسلام التي وجهها محمد ﷺ إلى الملوك، فقد جاء في رسالته إلى المقوقس في مصر: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد اللّه ورسوله إلى المقوقس **عظيم القبط**. سلام على مَنْ اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فإنْ توليت فعليك **إثم القبط**...».

وقد جاء في جواب المقوقس: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، لمحمد بن عبد اللّه، من المقوقس **عظيم القبط**».

كلمة «مصر» عربية، ومن معانيها «المدينة» ثم تغلبت هنا على الصقع كله.

٢ - أما كلمة «**مصر**» فالمرجح فيها أنها في النشأة من كلمات شعوب شبه الجزيرة العربية، وأنها تعني ما تعنيه الكلمة العربية «مصر» من معنى[١]، وهو في اللغة العربية «المدينة» و «الصُقع» و «الحد بين الأرضين»؛ **والمراد من هذه المعاني** هو الأول فيما يظهر، ومنه قول العرب «المصران»

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، الجزء الثاني، الصفحة ٣، طبع بغداد سنة ١٩٥٦.

ويعنون به مدينتي البصرة والكوفة؛ ثم تغلبت كلمة «مصر» على الصُقع كله لتصبح علماً عليه بسبب شمول الحضارة له كله وقيام دولة واحدة فيه كأنه مدينة واحدة.

فكلمة مصر إذن قديمة وقد وَرَدَت في الوثائق الآشورية وغيرها.

٣ ـ وبناء على ذلك فإن كلمة «مصر» في الدلالة على هذه المنطقة قديمة لدى شعوب مثلث الحضارة، وقد ورد هذا الاسم بصيغة «مُصُر» بضم الميم والصاد، وبصيغة «مصري» في الوثائق الآشورية وفي رسائل العمارنة الشهيرة؛ وورد أيضاً في الآداب السامية الأخرى ولا سيما في التوراة (سفر التكوين الإصحاح العاشر) بصيغة التثنية «مصرايم»[١] اسماً لابن حام بن نوح.

ويرى البعض أن كلمة «مصر» مشتقة من «مصرايم» بن حام بصيغة التثنية إشارة إلى قسمي البلاد السفلي والعلوي.

٤ ـ وهكذا يرى بعض المؤرخين أن كلمة «مصر» مشتقة من كلمة «مصرايم» بن حام بصيغة التثنية، وذلك إشارة إلى قسمي البلاد: السفلي والعلوي[٢] فقد كان من الألقاب الرسمية للفراعنة لقب «ملك مصر السفلى والعليا»[٣] وأن مصرايم أبو المصريين[٤]؛

ولعل صيغة «مصرايم» السامية كما وردت في التوراة ترجمة لكلمة «تاوي» أحد أسماء مصر القديمة التي تعني «الأرضين»: إشارة إلى مصر السفلى ومصر العليا[٥]. وكل ذلك يحتاج إلى تحقيق دقيق، وقد أوردناه للاطلاع عليه.

---

(١) (٢) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الثاني، الصفحة ٣، طبعة ثانية، بغداد سنة ١٩٥٦.

(٣) نفس المرجع، الصفحة ٣٠.

(٤) **تاريخ الجنس العربي**، محمد عزة دروزة، الجزء الثاني، الصفحة ٥، طبع بيروت سنة ١٩٥٩.

(٥) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، المرجع الأسبق، الصفحة ٣-٤.

٥ ـ وهناك اسم آخر شائع لدى قدماء المصريين هو «تو ـ ميري to-Mere»، أو تاميري، ومعناه أرض الفيضان؛

ولمصر عند قدماء المصريين اسم آخر «توميري» أي أرض الفيضان.

وكذلك «قيم» أو «قيمي» (وبالقبطي خم، خيمي)، ويعني الأرض السوداء إشارة إلى لون تربة وادي النيل الخصبة(١).

٦ ـ أما كلمة «قبط» فيظن بعض الباحثين أنها حديثة، وأنها لم تطلق على أهلها إلا لما دخلوا في الديانة المسيحية؛ وتغلبت عليهم هذه التسمية يوم اعتبر الدين المسيحي ديناً رسمياً للأمة المصرية في سنة ٣٨١(٢).

ويُظَنُّ أن كلمة «قبط» حديثة منذ تنصر مصر.

٧ ـ وهكذا يطلق الأوروبيون على وادي النيل اسم «إيجيبت Egypt»، وهذا مأخوذ من اسمها في اللاتينية «أيجيبتوس Aegyptus» المأخوذ بدوره من الاسم اليوناني «أيكوبتوس Aiguptos»؛ وليس لهذه اللفظة في اليونانية معنى فيما يظهر، وإنما هي النطق اليوناني لكلمة «القبط»؛

ومنها كلمة «إيجيبت» عند الأوروبيين.

والراجح في هذه الكلمة لديهم أن أصلها مأخوذ من أحد أسماء مدينة «منفس» القديمة «حت ـ كا ـ فتاح Het -Ka - Ptah»، ويلفظ «آيكو فتاح» ويعني معبد «كا» العائد إلى الإلٰه «فتاح»(٣).

وقيل «قبط» مأخوذة من «حت ـ كا ـ فتاح» اسم مدينة «منفس».

٨ ـ ويرى بعض المؤرخين العرب أن كلمة «قبط» ربما كانت محولة عن كلمة «قفط» وهي اسم لمدينة عربية في

ويظن بعض العرب أن «قبط» محولة عن «قفط»

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) **دائرة المعارف**، فريد وجدي، المجلد السابع، الصفحة ٦١٣، طبعة ثانية في مصر سنة ١٩٢٤.

(٣) نفس المرجع السابق، من **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**.

طريق الحجاز[1]، ويخمن أن المهاجرين جاءوا إلى مصر من شبه جزيرة العرب ودخلوها عن طريق البحر الأحمر من جهة «قفط»[2].

مدينة في طريق مصر إلى الحجاز.

٩ ـ وعلى كل حال فإن العرب في عهد الفتح الإسلامي هم الذين أحيوا من جديد كلمة «مصر» بعد أن تغلبت عليها كلمة «القبط» لدى اليونان والرومان، وهم منذ ذلك أول من تسمى بالمصريين بعد الحكم الروماني واليوناني، «ولم يأنفوا من مساواة أبناء البلاد بالانتساب إليها كما أنف الرومان واليونان من قبلهم»[3]، وذلك لأن القادمين العرب الجدد على إخوانهم السابقين إنما كان بعضهم من بعضهم كما سوف نرى.

العرب المسلمون هم أحيوا كلمة «مصر» التي تغلّبت على «قبط».

١٠ ـ لقد جاء في كتاب «تاريخ السودان القديم» للدكتور كمال حسن: «أن المصريين والسودانيين من أصل واحد، وأنهم جاءوا إلى وادي النيل من بلاد العرب عن طريق الصومال على ما تدل عليه البحوث والاستقراءات»[4]؛

دلّت البحوث والتاريخ على أن المصريين والسودانيين من أصل واحد وأنهم جاءوا بلاد العرب.

ونقل هذا المؤلف عن ديودور الصقلي ـ وقد عاش في حدود ٤٠ قبل الميلاد ـ: «أن أصل المصريين القدماء هم من بلاد العرب الجنوبية: نزلوا إلى شواطىء أثيوبيا (الحبشة) ثم تقدموا نحو الشمال حتى دخلوا مصر»[5].

١١ ـ وقال جوستاف جيكي أستاذ الأثريات المصرية في

مؤرخو مصر وعلماء

---

(١) **العرب**، محمود كامل، الصفحة ١٠٦، طبعة مصر سنة ١٩٥٦.

(٢) **تاريخ الجنس العربي**، محمد عزة دروزة، الجزء الثاني، الصفحة ١١، طبع بيروت سنة ١٩٥٩.

(٣) المرجع الأسبق، محمود كامل، .

(٤) (٥) **تاريخ الجنس العربي**، محمد عزة دروزة، الجزء الثاني، الصفحة ٧، طبع بيروت سنة ١٩٥٩.

الأثريات يؤيدون مجيء المصريين من جزيرة العرب ومنهم الفراعنة في أسرهم الأولى.

كلية نيوشاتل في كتابه «تاريخ المدنية المصرية»: إِن سكان مصر القدماء جاءوا إليها من جزيرة العرب قبل ستة آلاف سنة، وأن الأسر الفرعونية الأولى من هؤلاء القادمين(١)، وقال مثل هذا هنري بروخ الألماني وهنري جونسون الإنكليزي في كتابيهما تاريخ مصر أيضاً(٢).

بريستد من علماء الآثار المصرية يؤيد مجيء العرب إلى مصر وصبغهم لها بصبغتهم وتعميم لغتهم وأن هجراتهم الأولى بدأت قبل التاريخ.

١٢ ـ وجاء في كتاب «تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي» لجمس هنري بريستيد من مشاهير علماء الآثار المصرية والتاريخ المصري وترجمة الدكتور حسن كمال: «أن جماعات من الليبيين والجالا والصومال والبجا كانوا يطرأون على مصر منذ أقدم الأزمنة، وأنه من المعروف أن أقواماً ساميين من عرب آسيا طرأوا على وادي النيل، **وعمموا فيه لغتهم** وصبغوه بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة؛ وأن لغتهم حافظت على ساميتها (عروبتها) بمرور الزمن بالرغم مما طرأ عليها من تغيير وتحريف باختلاط السكان؛

«وأن تاريخ الهجرات السامية الأولى يرجع بلا مراء إلى **ما قبل العصور التاريخية** المعروفة؛ وأنه من الثابت أن هذه الهجرات قد تكررت مراراً في العصور التالية؛ وأنه إذا كان من الصعب معرفة الطريق التي سلكوها فإن الأقرب للذهن أن يكونوا أتوا من برزخ السويس كما فعل العرب في بداية الإسلام»(٣).

الأثري أحمد نجيب يثبت

١٣ ـ وجاء في كتاب «الأثر الجليل لسكان وادي النيل»

---

(١) (٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٩ـ١٠.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٦.

للعالم الأثري أحمد نجيب: «ومَنْ تأمل في التماثيل القديمة المصرية المحفوظة بدار التحف علم يقيناً أن هذه الأمة من الجنس الأبيض القاطن في آسيا، وأن كثيراً من أصول لغتهم مشتق من اللغة العبرانية والآرامية، كما أن الضمائر المتصلة والمنفصلة منهما متشابهة»[١].

من التماثيل قدوم المصريين من آسيا وأن لغتهم مشتقة من العبرانية والآرامية.

١٤ ـ وقال أحمد كمال العالم الأثري المشهور في كتابه «العقد الثمين»: «إن المصريين القدماء كانوا يطلقون على بلاد حضرموت واليمن اسم بون وكانوا يعتقدون أن أصلهم منها»[٢].

المصريون يطلقون على اليمن وحضرموت اسم «بون» ويعتقدون أصلهم منها.

١٥ ـ وقال المؤرخ التركي أحمد رفيق في الجزء الأول من كتابه (التاريخ العام الكبير) نقلاً عن مصادر ألمانية مثل (تاريخ مصر القديم) لإدوار ماير، و (مصر وحياتها في العصور القديمة) لآدولف أرمان، و (تاريخ مصر) لويدمان، و (تاريخ مصر في حكم الفراعنة) لبورغش، و (التاريخ العام) لشبامر، و (تاريخ الأمم القديمة) لماكس دوفكر: «أن معظم علماء تاريخ مصر يقررون أن المصريين القدماء قد جاءوا من آسيا الغربية: منهم مَنْ جاء عن طريق باب المندب من الجنوب، ومنهم مَنْ جاء عن طريق برزخ السويس من الشمال، وأن بين لغتهم واللغات السامية في مفرداتها وصرفها ونحوها مشابهة كبيرة»[٣].

المصادر الألمانية التاريخية تقرر قدوم المصريين من آسيا الغربية وأن لغتهم مشابهة للغات السامية.

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٨٧.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٨؛ وانظر أيضاً اسم «بَوْن» في كتاب **ملوك حمير وأقيال اليمن**، لنشوان بن سعيد، الصفحة ١٥٩، طبع القاهرة، المطبعة السلفية سنة ١٣٧٨ هـ.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٨.

سفيدج يقرر أن المصريين ساميون من آسيا، وأن العنصر السامي يغلب على لغتهم، وأنهم دخلوا مصر بحضارة أرقى ومعهم الكتابة الهيروغليفية وفن التحنيط.

١٦ ـ وجاء في (تاريخ مصر إلى الفتح العثماني) لسفيدج الإسكندري: أن أساس مدنية المصريين الذين تكونت منهم الأسر المختلفة، والذين وصلوا بمصر إلى أعظم درجات الرقي، قد ثبت أنهم «قوم ساميون قدموا إلى مصر من آسيا، ولا يُعْلَم يقيناً من أين دخلوا: فهناك مَنْ يقول إنهم دخلوا من برزخ السويس، وهناك مَنْ يقول إنهم جاءوا من طريق الجنوب»؛

«وعلى كل فالمعلوم يقيناً أن الذين نشأ منهم مينا ـ وهو أول مَنْ عُرِف من ملوك المملكة المصرية المتحدة قبل نحو أربعين قرناً ـ كانوا قبل ظهوره يقطنون الجهة الجنوبية؛ ومما يدل على أن أجداده من الساميين أن أقدم ما وصل من لغتهم يغلب فيه العنصر السامي على الإفريقي، وقد دخلوا ومعهم حضارة أرقى مما في مصر، وهم الذين جاءوا بفن التحنيط والكتابة الهيروغليفية»[١].

الأبراشي يقرر أن العنصر الغالب في مصر عربي وهو الذي أنتج أول مدنية

١٧ ـ وجاء في كتاب (الأساس في الأمم السامية ولغاتها) لعطية الأبراشي ورفقاه: «أن المدنية الإنسانية العامة قد ابتدأت في وادي النيل؛ وأن سكان هذا الوادي وإنْ كانوا مزيجاً من عناصر مختلفة فالعنصر السائد فيها، والذي أنتج أول مدنية إنسانية، هو العنصر السامي أي العربي، وأنه على أي تقسيم قسمت اللغات السامية فإن الحقيقة الكبرى أنها لغات جماعة بشرية كوَّنت جنساً بشرياً واحداً، وهو الجنس الذي عُرف باسم الجنس السامي، والذي عُرِفت شعوبه باسم الشعوب السامية، ولغاته باسم اللغات الساميةَ، والتي

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٩٨.

تحضَّرت في أطراف جزيرةَ العرب، وفيما وراء هذه الأطراف مع بقاء وحدة التفكير والخيال جامعة بينها؛ وقصارى القول إِن الجماعة السامية هي الجماعة العربية، وإن مهدها الأول هو نجد والحجاز والعروض واليمن وما وَالىٰ هذه البقاع، ومنها كانت الهجرات الأولى إلى شمال الجزيرة والشام والعراق ثم إلى بلاد الحبشة ومصر»[1].

وأنه تحضَّر في جزيرة العرب ومنها خرجت هجراته إلى العراق والشام والحبشة ومصر.

١٨ ـ وقال المؤرخ الشهير مسبيرو Maspero: «إِن لأصول المصريين الأقدمين والعرب الفينيقيين والكنعانيين روابط تشدُّ بعضها إلى بعض، وليس المصريون الأقدمون غير ساميين انفصلوا عن مهد الساميين قبل غيرهم»[2].

بين المصريين والعرب روابط في أصولهم وهم ساميون ومن مهد الساميين.

١٩ ـ وجاء في كتاب «تاريخ العرب» للدكتور فيليب حتي[3] أن موجة من المهاجرين الساميين انساحت إلى مصر عن طريق أفريقيا الشرقية أو عن طريق الساحل الغربي من جزيرة العرب نحو الشمال حيث يتفرع عنه شبه جزيرة سيناء إلى وادي النيل الخصيب، وذلك «حوالي سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد، واستقروا في مصر مع سكانها الحاميين، واختلطوا بهم، فكان من نتيجة هذا الاختلاط أن ظهر المصريون القدماء الذين وضعوا كثيراً من العناصر الأساسية في مدنيتنا: فكانوا أول من شادوا الأبنية الحجرية وأنشأوا التقويم الشمسي».

فيليب حتي يقرر أن العرب انساحوا إلى مصر عن طريق الجنوب والشمال حول ٣٥٠٠ ق.م. وهم واضعوا أساس مدنيتنا.

٢٠ ـ وجاء في المصادر العربية من كتاب «ملوك حمير

المصادر العربية تقرر فتح

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٩.

(٢) **محاضرات عن القومية العربية**، للأمير مصطفى الشهابي، الصفحة ٢٩، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية لجامعة الدول العربية، طبع مصر سنة ١٩٥٩.

(٣) الجزء الأول الصفحة ١٠ـ١١، طبع بيروت سنة ١٩٥٨.

وأقيال اليمن» أن سبأ بن يشجب بن يعرب كان ملكاً عظيماً واسمه عامر، وكان يعبد الشمس فسمي عبد شمس، وقد فتح بلاد بابل حتى بلغ خراسان ثم رجع إلى أرمينيا من ناحية الديلم والخزر، ثم إلى بلاد الشام، ثم إلى مصر حتى بلغ أقصى المغرب، وأنه هو الذي بنى المدينة التي سماها بابليون باسم ابنه بابليون الذي خلفه والياً على مصر وعلى أولاد حام(١).

مصر من قبل سبأ وأنه بنى مدينة بابليون باسم ابنه الوالي عليها.

٢١ ـ وجاء في كتاب «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة» للأستاذ طه باقر: «ويرى الباحثون في أصول أقوام الشرق الأدنى أن هجرات مهمة من الساميين ذهبت إلى مصر في حدود الألف الرابع قبل الميلاد، فنتج منها ومن السكان الأصليين الحاميين المصريون كما نعرفهم في التاريخ»(٢).

الباحثون يرون أن المصريين تكوّنوا من هجرات عربية كبرى إلى جانب الحاميين.

٢٢ ـ وقال والس بدج مؤلف كتاب «سواء السبيل في سكان أهل النيل»: إن الذي حققه العلماء «أن الذين ملكوا مصر ووضعوا شرائعها منذ البدء جماعات هاجروا إليها من المشرق منذ بضعة ألوف من السنين قبل التاريخ المسيحي»، وليس في مشرق مصر إلا جزيرة العرب من الجنوب والشرق، وسيناء المتصلة بالجزيرة من الشرق الشمالي كما لا يخفى(٣).

حقق العلماء أن مالكي مصر وواضعي شرائعها جاءوا لمصر من جزيرة العرب.

٢٣ ـ وجاء في الجزء الأول من كتاب «مصر القديمة»

يخمّن الأثري سليم حسن

---

(١) الصفحة ١٠ ـ ١١، طبع القاهرة، المطبعة السلفية سنة ١٣٧٨ هـ.

(٢) الجزء الثاني، الصفحة ١٩٢، طبع بغداد سنة ١٩٥٦؛ وكذلك الجزء الأول منه الصفحة ١١٦، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٥.

(٣) **تاريخ الجنس العربي**، الجزء الثاني السابق، الصفحة: ١٠.

لسليم حسن العالم الأثري المصري الكبير أنه يخمن أن المهاجرين الفاتحين جاءوا إلى مصر من شبه جزيرة العرب ودخلوها عن طريق البحر الأحمر من جهة «قفط»، أو عن طريق أعالي وادي النيل، أو عن طريق فلسطين فسيناء فشرقي الدلتا؛

أن مجيء الفاتحين المصريين من جزيرة العرب وأنهم أدخلوا معهم مدنية أرقى من مدنية الحاميين.

وقد أدخلوا معهم مدنية أرقى من مدنية الجنس الحامي الأصلي الذي لم يكن يعرف إلاَّ الآلات والأواني الحجرية؛ **كما أدخلوا** معهم معرفة المعادن، وخاصة النحاس؛ **وأدخلوا كذلك** عباداتهم **للأموات** **وديانتهم** **وكتابتهم** وفنونهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية؛

وكانت نهاية هذا الفتح على ما يظهر **اتحاد كل البلاد**[1] من أسوان إلى البحر الأبيض المتوسط تحت صولجان ملك واحد اتفقت كل المصادر التاريخية على أنه الملك منا (Ménès مينيس باليونانية)؛ وغدا الاندماج بين المهاجرين الجدد والسكان الأصليين عظيماً منذ العصر التاريخي: حتى أنه أصبح من الصعوبة بمكان معرفة الفوارق بينهما[2].

اتحدت مصر في نهاية الفتح تحت صولجان الملك «منا»، واندمج الأصليون مع المهاجرين.

٢٤ ـ وننبه على أن الأقوال التي أوردناها إنما هي حول هجرة الجماعات من شبه جزيرة العرب إلى مصر **قبل التاريخ**،

ما نقلناه من هجرات

---

(١) ويظهر أن عدد دويلات المدن المصرية قبل توحيدها في عهد «منا» قد كان نحواً من(٤٢)، منها (٢٢) في مصر العليا، ومنها (٢٠) في مصر السفلى (انظر **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة** لطه باقر، الجزء الثاني، الصفحة ٢٨.٢٩، طبع بغداد سنة ١٩٥٦).

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٠.١١؛ وكذلك **تاريخ العرب** لمحمود كامل، الصفحة ٢٣.٢٤، طبع مصر سنة ١٩٥٦.

العرب إنما كان قبل التاريخ.

وقبل اتحاد مصر في مملكة واحدة وقيام الأسر الحاكمة على رأسها، واحدة بعد أخرى؛

أما الهجرات العربية بعد التاريخ إلى مصر فلا شك فيها.

أما هجرة الجماعات العربية بعد ذلك فليس موضع شك أو خلاف؛ وقد سجَّل التاريخ المصري الوثيق في مدوَّناته ونقوشه القديمة محاولات عديدة، واهتمام ملوك مصر لصدِّها، ونجاح هذه المحاولات أكثر من مرة في التسرُّب والاستقرار في مصر السفلى والعليا[1].

أهم هذه الهجرات بعد التاريخ هي في الألف الثالث ق.م.

٢٥ ـ وكان أهم هذه المحاولات الناجحة **موجات متلاحقة** من ناحية سيناء فالدلتا في النصف الأول من الألف الثالث قبل السيد المسيح في عهد الأسر: السادسة والثامنة والتاسعة، بأعداد كبيرة استطاعت أن تستولي على الدلتا وتغمرها وتحكمها؛

وتلتها موجة الهكسوس في مطلع الألف الثاني.

ثم تلتها موجة الرعاة الكبرى ـ الهكسوس ـ التي طرأت على مصر من هذه الناحية أيضاً في المئة الأولى من الألف الثانية قبل السيد المسيح؛ واستطاعت بدورها أن تغمر الدلتا وأن تفرض حكمها على جميع مصر رَدْحاً من الزمن، وأن يبقى غالبها في الدلتا بعد تقويض حكم الهكسوس؛

وتلتها موجات من الرابع عشر حتى الثاني ق.م.

ثم تلتها موجات صغيرة وكبيرة في القرون: الرابع عشر، والثالث عشر، والثاني عشر، والحادي عشر قبل الميلاد في عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين[2].

هذه الهجرات العربية فيما

٢٦ ـ وإن ما قدمناه يجعلنا نقرر بأن الموجات القادمة من شبه جزيرة العرب إلى مصر قد أخذت تنساح في مصر منذ

---

(١) نفس المرجع السابق، الجزء الثاني، الصفحة ١٣.

(٢) نفس المرجع السابق، الجزء الثاني، الصفحة ١٣-١٤.

عصور ما قبل التاريخ، ثم ظلت تنساج إِليها خلال العصور التاريخية بدون انقطاع، وكذلك في عهد الفتح الإسلامي بصورة فردية أو قبلية جماعية، حتى غدت العنصر الغالب من سكان مصر القدماء، وأصبح تاريخها جزءاً من تاريخ الموجات العربية وأصولها في شبه جزيرة العرب[١].

قبل التاريخ وبعده جعلت من تاريخ مصر جزءاً من تاريخ العرب في الجزيرة.

٢٧ ـ وإنني إِنْ ألححت على نقل نصوص الباحثين والمؤرخين حول أصول المصريين، وأنهم من شبه جزيرة العرب منذ ما قبل التاريخ وبعده، وأن أسرات الفراعنة بأجمعها هي منهم وهم منها، فذلك لنقضي على آخر ما تركه الاستعمار من أثر لدى بعض من الكتَّاب والمثقفين في مصر، وجعلهم يعتقدون، بل يجهرون أحياناً، بأن بلدهم ليس بلداً عربياً، بل بلداً فرعونياً!! وأن العرب غزوه مثلما غزاه اليونان والفرس والرومان والترك وغيرهم من الأقوام، وأن العرب استطاعوا أن يجعلوا لسانه عربياً، ودينه إسلامياً، على حين أن دماءه وقوميته فرعونية: لا صلة لها بالعرب ولا بالعروبة[٢]!!

إنما ألححنا في نقل أدلة عروبة مصر منذ ما قبل التاريخ وبعده لنقضي على ما خلَّفه الاستعمار من مزاعم مخالفة.

٢٨ ـ ويقول في ذلك سيادة الأمير مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق في محاضراته في معهد الدراسات العربية العالية لجامعة الدول العربية سنة ١٩٥٩[٣]: «وأتذكر أنني عندما كنت آتي مصرفي كل شتاء

آثار الاستعمار شككت المصريين في حقيقتهم التاريخية العربية.

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٠ و ١٤.

(٢) **محاضرات عن القومية العربية**، للأمير مصطفى الشهابي، الصفحة ٢٠٣، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية لجامعة الدول العربية، طبع مصر سنة ١٩٥٩.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٠٣.

منذ سنة ١٩٣١ فأحاضر في أنديتها، وأكتب في صحفها، وأذاكر أدباءها في موضوع القومية العربية وعروبة مصر، كنت ألاقي عرق الجبين في إقناعهم بالحقائق التاريخية التي أثبتها أكبر المؤرخين الأوروبيين:

«وخلاصتها أن معظم مَنْ سكنوا مصر في فجر التاريخ وقبله كانوا من العنصر السامي الأبيض لا من الزنوج، وأنهم دخلوا مصر على موجات: إما بطريق باب المندب جنوبي عَرَبة، وإما بطريق برزخ السويس شماليها؛ وأن اللغة المصرية القديمة تشبه اللغات السامية شبهاً كبيراً في مفرداتها وصرفها ونحوها، وأن أصل تلك اللغات واحد».

فالمصريون القدماء عرب مثل سكان الشام والعراق الأقدمين وجددوا عروبتهم بالفتح الإسلامي.

٢٩ ـ ثم يضيف سيادة الأمير مصطفى الشهابي قائلاً: «فهؤلاء المصريون الأقدمون الذين أنشأوا تلك الحضارة المعروفة هم إذن من العنصر السامي، **أي العنصر العربي القديم**، شأنهم في ذلك شأن سكان الشام والعراق الأقدمين؛ **وقد جددوا جميعاً عروبتهم بعد الفتح الإسلامي**، واختلطوا بالقبائل العربية التي هاجرت إلى مصر قبل الفتح وبعد الفتح، واقتبسوا جميعاً اللغة الضادية المضرية، وأصبحوا أهم فرع في دوحة الأمة العربية، ولا سيما بعد أن جمعهم التاريخ منذ أربعة عشر قرناً هم وسائر الشعوب بالأمجاد والآلام، وجمعهم الحاضر جميعاً بالمصالح والآمال».

لبثت مصر تحت اليونان

٣٠ ـ ونرى من المفيد أن نختم هذا المبحث عن أصول المصريين بالملاحظة القيمة للأستاذ عزة دروزة في كتابه «تاريخ الجنس العربي» وفي الجزء الثاني منه حول الموجات العربية إلى وادي النيل ومآثرها فيه، حيث قال(١): «لقد

(١) الصفحة ٢١، طبع بيروت سنة ١٩٥٩.

لبثت مصر تحت حكم اليونان والرومان نحو ألف سنة (٣٣١ ق.م - ٦٤٠ ب.م)، وقدم إليها منهم وخاصة من اليونانيين الآلاف المؤلَّفة، وتوطنوا فيها، ونشروا لغتهم وثقافتهم، وقد جمع بينهم وبين المصريين الدين النصراني نحو أربعة قرون، وترجمت كتبه المقدسة إِلى اليونانية وصارت لغة عبادة وطقوس، ومع ذلك لم يستطيعوا أَن يفرضوا طابعهم على مصر، بل ظل المصريون كما ذكرنا آنفاً منقبضين عنهم ويعتبرونهم أَنجاساً ويتجنبون معاشرتهم على ما ذكره المؤرخون استناداً إِلى الروايات والمدوَّنات القديمة[١]، فضلاً عن الامتزاج أو الاندماج فيهم؛ في حين أنه لم يمض على قدوم موجة الفتح العربية الكبرى وما بعدها تحت راية الإسلام إلا بضعة أجيال (ونقول بل جيل واحد) حتى أخذ الطابع العربي الصريح يطبع مصر وأهلها إِلى أن تمت له السيادة الخالدة المقدسة».

والرومان نحو ألف سنة انقبض فيها المصريون عن الفاتحين، ولكنهم اندمجوا مع العرب المسلمين خلال قرن وأخذوا طابعهم.

٣١ - ثم يضيف الأستاذ دروزة إِلى ذلك قائلاً: «وليس من تفسير معقول لهذه الظاهرة إلا وحدة الأرومة والروح والدم والجنس والمنبت التي تجمع بين هذه الموجة وما بعدها، وبين معظم سكان مصر القدماء».

ليس لذلك من تفسير إلا وحدة الجنس العربي.

(١) انظر في ذلك القرون القديمة لبريستيد، والكافي لشاروبيم، والتاريخ العام الكبير (بالتركي) لأحمد رفيق.

ج ـ سكان وادي الرافدين ومنشؤهم

سكان العراق في مطالع التاريخ: السومريون والعيلاميون، والأكديون والبابليون والكلدانيون، والآشوريون.

١ ـ لقد سكن وادي الرافدين في مطالع التاريخ شعوب **ذات حضارات كبرى** عرفت بالشعوب:

ـ «السومرية» في جنوبي العراق، و «العيلامية» في شرقي دجلة من أطراف بلاد إيران،

ـ و «الأكدية» في شمالي الشعوب السومرية،

ـ و «البابلية والكلدانية»،

ـ و «الآشورية».

السومريون:

نزوح السومريين لجانب الأكديين إلى جنوبي العراق وكوّنوا حضارة أصلية.

٢ ـ **أما الشعوب السومرية** فقد عرف عنهم أنهم نزحوا إلى جنوبي العراق في أقدم الأزمان جنباً إلى جنب مع **الأكديين**[١] وكونوا **حضارة أصلية**[٢] أي غير متفرعة عن غيرها، وسموا بالسومريين أو الشومريين نسبة إلى الجزء الخاص في جنوبي العراق الذي سُمي باسم «سومر» أو «شومر»؛ وكذلك سماهم الأكديون باسم «مات شوميريم» أي بلاد السومريين، وكذلك سمى السومريون أنفسهم[٣].

(١) انظر الصفحة ٥٩ ـ ٦٠ من هذا الكتاب.

(٢) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، لطه باقر، الجزء الأول، الصفحة ٨١، الطبعة الثانية، بغداد سنة ١٩٥٥.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٨٩.

٣ ـ ويتجه الرأي العلمي في السومريين إلى أنهم ليسوا من جزيرة العرب، ولكن دون الوصول إلى معرفة أصلهم؛

جهالة أصل السومريين، لكن مدير الآثار العراقية يرى إمكان أنهم من البحرين في جزيرة العرب.

غير أن الأستاذ طه باقر مدير الآثار القديمة في العراق يرى في كتابه «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة» وفي الجزء الثاني منه[1]: أنه لا يبعد احتمال أن منطقة البحرين من شبه جزيرة العرب هي من جملة البقاع التي يمكن اقتراحها مهداً للسومريين، وذلك للصلة الشديدة التي كانت للسومريين بالبحرين كما أثبتتها النصوص التاريخية القديمة[2]، ولتكلم السومريين عنها في أساطيرهم كأرض ذات عجائب في خيراتها[3] ومقدسة في موضعها[4].

٤ ـ وكيفما كان الأمر في منشأ السومريين، فقد اندمجوا أخيراً في الأكديين، وذابوا فيهم، واختفوا من التاريخ اختفاء تاماً، وأصبحت بلاد ما بين النهرين تسمى بعد ذلك «أكاد» أو «بابل» بعد أن انتقلت العاصمة إليها[5]، وتابع الأكديون طريقهم في الحضارة، ونشأ في عهد الأكديين روح جديدة في الفن: تتميز عما قبلها لدى السومريين بالقوة والحيوية والحركة كما تدل على ذلك الآثار المنحوتة التي جاءتنا[6].

وبالرغم من جهالة أصل السومريين فقد اندمجوا في الأكديين وذابوا فيهم وتفوقت حضارة الأكديين على السومريين.

العيلاميون:

٥ ـ وكذلك قام إلى جانب السومريين العيلاميون إلى الشرق

وقام العيلاميون في شرقي

---

(١) (٢) الصفحة ٢٠٥، الطبعة الثانية، بغداد ١٩٥٦.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٠٧.

(٤) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٠٨.

(٥) **العرب**، محمود كامل، الصفحة ٤٠ـ٤١، طبع مصر سنة ١٩٥٦.

(٦) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، الجزء الأول، الصفحة ١٢٣، طبعة ثانية، بغداد سنة ١٩٥٥.

دجلة في سوس، وهم ليسوا ساميين فيما يظهر، لكن هناك مَنْ يثبت عروبتهم.

من دجلة من أطراف بلاد إيران (بلاد خوزستان) وعاصمتهم مدينة «سوس»؛ وهم غير ساميين فيما يظهر، وقد كان لهم حضارة قديمة أيضاً، ولكنها في نظر العلماء **مشتقة من الحضارة السومرية**[1].

غير أن الأستاذ السيد محمد جميل بيهم يرى أن العيلاميين أعرق في العروبة من غيرهم كما تفيد التوراة وتؤيده الاكتشافات الأثرية[2].

سمّاهم الأكديون عيلامتو: أي البلاد العالية.

٦ ـ وقد سماهم الأكديون باسم «إيلامتو» وجاء هذا الاسم في التوراة مبتدئاً بحرف العين أي «عيلام»، وكذلك كان البابليون يسمون القسم القريب من بلادهم في الهضاب الشرقية «عيلام» أو «عيلامتو» أي البلاد العالية[3].

وسماهم السومريون «نم» أي المكان المرتفع، وهم يسمون أنفسهم «حاورتي» ولم يضبط لفظه.

أما السومريون فقد سموا هذا الإقليم باسم «نم Nim» أي المكان المرتفع؛ وسمى العيلاميون أنفسهم بلفظ لم يتفق بعد على ضبطه وهو «حاورتي» أو «حافرتي» أو «خاتمتي»[4].

عيلام جزء من جنوبي

٧ ـ وتعد «عيلام» جزءاً من جنوبي وادي الرافدين بخصائصه الجغرافية، وهي لا تبعد في الواقع عن بلاد

---

(١) نفس المرجع السابق، الجزء الأول: الصفحة ٨١؛ وكذلك الجزء الثاني الصفحة ٣٨٢.

(٢) **قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور**، جميل بيهم، الجزء الأول، الصفحة ١٠، طبع بيروت سنة ١٩٤٨.

(٣) الجزء الثاني من **تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الصفحة ٣٨١.٣٨٠؛ وكذلك **تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضاراته**، جورج حداد، الجزء الأول، الصفحة ٧٣، طبع جامعة دمشق سنة ١٩٥٩.

(٤) نفس المرجع السابق، الجزء الثاني، الصفحة ٣٨١.٣٨٠ طبعة ثانية، بغداد سنة ١٩٥٦.

سومر أكثر من «١٠٠» ميل، وكثيراً ما صارت ولاية تابعة إِلى الدول التي قامت في وادي الرافدين[١]؛ وبلغ نفوذ حضارة وادي الرافدين في عيلام في العهد الأكدي مبلغاً كثيراً، بحيث أن اللغة الأكدية حلت محل اللغة العيلامية في بلاد عيلام، وسمى كثير من السكان أنفسهم بأسماء أكدية[٢]؛

الرافدين وأثر فيها الأكديون بإحلال لغتهم فيها.

وأَحياناً قد غزت عيلام العراق أكثر من مرة في عهود ضعف دوله، وكانت واسطة للاتصال الثقافي بين حضارة وادي الرافدين وبين سائر جهات إيران من جهة، وبين الهند والتركستان وحتى الصين من جهة ثانية[٣].

وأحياناً غزت العراق في عهد ضعفه وكانت صلة الوصل بين ثقافته حتى الصين.

٨ ـ وقد استوطن عيلام أقوام لا نعرف عن أصلهم شيئاً مؤكداً، وهم ليسوا من الأقوام الإيرانية التي هاجرت إِلى إيران في بداية الألف قبل الميلاد، وإِن عهدهم قد سبق بالطبع العهد الإيراني، وإِن لغتهم تشبه اللغات القوقازية[٤].

العيلاميون ليسوا إيرانيين أمّا لغتهم فتشبه القوقازية.

الأكديون:

٩ ـ **وأما الأكديون** فقد جزم العلماء بأن أصولهم من شبه جزيرة العرب، وأن موجتهم كانت أولى الموجات القادمة إِلى وادي الرافدين؛

الأكديون من أولى الهجرات العربية إِلى العراق ولا نعلم متى، ولكنها فيما قبل التاريخ.

ولا نعلم متى كان قدومهم؛ ولكن مما لا شك فيه أن هجرة الموجات المتعاقبة من شبه جزيرة العرب إِلى وادي

(١) نفس المرجع السابق، الجزء الثاني، الصفحة ٣٨٢.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٣٨٥.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٣٨٢.

(٤) نفس المرجع السابق، الصفحة ٣٨٣.

الرافدين قد ابتدأت منذ أقدم الأزمان **في عصور ما قبل التاريخ**[1]، وكانت دولة الأكديين في العراق أقدم الدول التي كونتها هذه الموجات، وعرفت باسم **السلالة الأكدية** نسبة فيما يظهر إِلى العاصمة التي ابتناها سرجون الأكدي[2].

من المحقق نزوح الأكديين للعراق مع السومريين في القدم، وتغلبهم على السومريين مع تكوين دولة عظمى حتى البحر المتوسط وقسم من آسيا الصغرى.

١٠ ـ ومن المحقق:

ـ أن الأكديين نزحوا إِلى العراق منذ أقدم الأزمان جنباً إِلى جنب مع السومريين[3]؛

ـ ثم تغلبوا على جيرانهم السومريين خلال الألف الثالثة قبل الميلاد على يد سرجون الأكدي، وكوَّنوا بذلك دولة عظمى من العراق إِلى ساحل البحر الأبيض المتوسط مع قسم من آسيا الصغرى؛

ـ وأنه قد فني السومريون في الدم العربي الجديد واختفوا من التاريخ اختفاء تاماً[4].

حضارة الأكديين أصلية وليست فرعاً من السومرية.

١١ ـ ونرى أن حضارة الأكديين هي أيضاً من **الحضارات الأصلية** التي نشأت في العراق، وأنه لا مجال للقول بأن الحضارة السومرية هي الأساس وأن الحضارة الأكدية هي فرع عنها ومشتقة منها مثل بقية الحضارات في العراق ولدى الحثيين[5] ما دام الشعبان قد نزحا جنباً إِلى جنب منذ أقدم الأزمان؛

---

(١) نفس المرجع السابق، الجزء الأول، الصفحة ١١٥، طبعة ثانية، بغداد سنة ١٩٥٥.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٢١.

(٣) نفس المرجع السابق، الجزء الأول، الصفحة ٨٩.

(٤) انظر الصفحة ٥٩ ـ ٦٠ من كتابنا، وكذلك المرجع السابق، الصفحة ١٢٦.

(٥) انظر المرجع الأسبق، الجزء الأول، الصفحة ٨١.

ولذلك نعتبر حضارة الأكديين إلى جانب حضارة السومريين هي إحدى حضارتين أصليتين ساهمت كل منهما في نشوء تلك الحضارة الراقية في العراق القديم.

الأقرب إذن اعتبار الحضارتين أصليتين لا السومرية وحدها.

١٢ ـ وبناء على ذلك نرى أنه من الأقرب أن نعتبر الحضارتين السومرية والأكدية، لا السومرية وحدها[١]، هما أولى الحضارات البشرية الأصلية لجميع حضارات العراق القديم فيما بعد، ولحضارات أخرى نشأت في أنحاء الشرق الأدنى؛

واشتق منهما حضارات بابل وآشور وعيلام والحثيين.

وأنه من الحضارات التي اشتقت منهما حضارتان نشأتا في العراق بعد ذلك: هما الحضارة البابلية والحضارة الآشورية؛ وكذلك حضارة عيلام إلى الشرق من دجلة، وحضارة الحثيين في آسيا الصغرى[٢].

ومن مفاخر الأكديين أن دويلات وادي الرافدين لم تتوحَّد نهائياً في مملكة كبيرة إلاّ في عهد الأكديين.

١٣ ـ ومما يُسَجَّل في صحيفة الأكديين القادمين من جزيرة العرب إلى العراق: أن البلاد في وادي الرافدين لم تتوحد نهائياً في مملكة كبيرة واحدة قضي فيها على جميع دويلات المدن إلا في أواخر عصر فجر السلالات، وذلك بظهور سلالة سرجون الأكدي، فانتقل العراق بذلك من عهد دويلات المدن التي امتازت بها عصور فجر السلالات إلى طور المملكة الكبيرة والإمبراطورية العظيمة، واتحد في عهدها القسم الأوسط من البلاد وهو بلاد «أكد» والقسم الجنوبي وهو بلاد سومر[٣].

هذه المملكة العظيمة

١٤ ـ ولم يقتصر أمر هذه المملكة العظيمة على العراق

---

(١) المرجع السابق، الجزء الأول الصفحة ٨١.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٨١، والصفحة ١٢٢.

شملت إضافة للعراق معظم الشرق الأدنى: إيران وسوريا وقسماً من آسيا الصغرى وجزيرة كريت.

فحسب، بل شملت معظم أجزاء الشرق الأدنى بنتيجة فتوح سرجون وخلفائه: شملت معظم أجزاء الهلال الخصيب، وعيلام، وقسماً من آسيا الصغرى إلى ساحل البحر المتوسط، حتى التقى النفوذ المصري في عصر الأهرام والنفوذ الأكدي في مدن الساحل الفينيقية مثل جبيل، ولكن لم يحدث بين الحضارتين اصطدام مسلح(١)؛ وثبت حفيد سرجون نفوذه في إيران وجميع سوريا وغزا آسيا الصغرى، كما وصل سرجون نفسه إلى جزيرة كريت(٢).

توحيد دويلات الرافدين وسوريا بقيادة العرب الأكديين يذكِّرنا بوحدة دويلات النيل بقيادة «منا» من الفراعنة القادمين من جزيرة العرب.

١٥ ـ وتذكِّرنا هذه الوحدة لدويلات وادي الرافدين وسوريا التي ما تحققت إلا بقيادة القادمين من جزيرة العرب في عهد سرجون الأكدي ـ بوحدة دويلات مدن وادي النيل التي ما توحَّدت إلاَّ بقيادة القادمين من جزيرة العرب أيضاً في عهد الفرعون «منا» كما تقدم معنا في الفقرة «٢٣» من المبحث السابق: ب ـ سكان وادي النيل ومنشؤهم.

البابليون والكلدانيون:

وقضى على هذه الوحدة حين ضعف الأكديون غزوات القبائل الجبلية فظهرت دويلات المدن من جديد للكوتيين والسومريين.

١٦ ـ لقد عمَّ الاضطراب المملكة الأكدية في آخر عهدها، واستغلت بعض القبائل الجبلية من شمالي العراق وشرقيه ضعف الملوك الأكديين المتأخرين، فغزت هذه الأقوام البلاد الأكدية وقضت على وحدتها السياسية، وانتشر في البلاد من جديد **دويلات المدن** المتنازعة:

ـ فقام في الجزء الشمالي منها «**الكوتيون**» البرابرة القادمون من جبال الأقاليم الشمالية الشرقية، ولا يعرف لهم أصل، وكان عهدهم في البلاد عهداً مظلماً؛

(١) (٢) نفس المرجع السابق، الجزء الأول، الصفحة ١٢٢، والصفحة ١٢٦.

ـ وقامت سلالة من **الأمراء السومريين** في مدينة «الجش»؛

وقامت ثورة في مدينة «الوركاء» على الكوتيين ونشأ فيها سلالة بقيادة **أميرها السومري** «أوتو ـ حيكال» وأعلن نفسه ملكاً عليها وعلى ما جاورها من المدن؛

ـ ثم قامت ثورة في مدينة «أور» بقيادة حاكمها «أور ـ نمو» التابع لملك «الوركاء»، وانتهت الثورة بانتقال الحكم من الوركاء إلى مدينة «أور» وتكوَّنت فيها سلالة عُرِفت **بسلالة أور الثالثة**[(١)].

عهد سلالة «أور» آخر حياة السومريين: حيث ضمت من عيلام إلى دمشق، ومن البحرين إلى شمالي آسيا الصغرى.

١٧ ـ وكان **عهد سلالة أور** آخر عهد في حياة السومريين السياسية، وأقام إمبراطورية واسعة على طراز الإمبراطورية الأكدية ضمت البلاد من عيلام في الشرق إلى دمشق في الغرب، ومن البحرين في الجنوب إلى آسيا الصغرى في الشمال، ووجد حديثاً لمؤسس هذه السلالة نسخة من شريعته التي وضعها قبل حمورابي بنحو ثلاثة قرون، وهي **شريعة أور ـ نمو**[(٢)].

لم يطل عهد «أور» حيث غزاها العرب العاموريون من سوريا والعيلاميون من شرقي العراق.

١٨ ـ غير أن هذا العهد لم يدم طويلاً (٢١١٥ ـ ١٩٩٨ ق.م.) حتى فوجىء بالغزو المزدوج الذي قام به:

ـ «**العاموريون**» العرب القادمون من بلاد الشام ومن منطقة الفرات الأوسط،

ـ والعيلاميون من شرقي العراق[(٣)].

---

(١) نفس المرجع السابق، الجزء الأول، الصفحات ١٢٨ـ١٣٢.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٣٢؛ وانظر أيضاً فيما يتعلق بشريعة «أور ـ نمو» الصفحة ٦٥ـ٦٦ من كتابنا، الفقرتين ٩ـ١٠.

(٣) نفس المرجع السابق الجزء الأول، الصفحة ١٣٢ـ١٣٩.

وقام بعد سقوط «أور» دويلات مدن:

١٩ ـ وقام على هذا **الغزو المزدوج** بعد سقوط العاصمة «أور» سلالات كثيرة تألف منها من جديد دويلات المدن التالية:

منها سلالة «لارسة» وعاصرها سلالة «ايسن» التي تركت لنا شريعة «لبت عشتار» قبل حمورابي،

ـ منها سلالتان متعاصرتان ومتنافستان في جنوبي العراق، وهما **سلالة «لارسة»** نسبة إلى مدينة لارسة الخاضعة لنفوذ العيلاميين فيما يظهر، **وسلالة «إيسن»** العامورية نسبة إلى مدينة إيسن؛ وكانت الأخيرة أهم من جميع السلالات الأخرى، وقد نشر الباحثون حديثاً في سنة ١٩٤٧ أجزاء من شريعة لهذه السلالة دَوَّنها خامس ملوكهم «لبت عشتار»، وهي تسبق شريعة حمورابي بأكثر من قرن ونصف القرن[١]؛

ومنها سلالة «أشنونا» وتركت شريعة أسبق من «لبت عشتار» وهي أقدم شريعة اكتشفت،

ـ ومنها **سلالة مملكة «اشنونا»** نسبة إلى عاصمتها، وهي من دويلات المدن المهمة التي استقلَّت بعد سلالة «أور» الثالثة، وقد عثرت مديرية الآثار العراقية في «تل حرمل» على شريعة ثبت أنها **شريعة أحد ملوك أشنونا**، وهي تسبق **شريعة حمورابي** بنحو قرنين، كما تسبق **شريعة «لبت عشتار»** ملك «إيسن» بنحو نصف القرن؛ وهكذا فإن **شريعة «اشنونا»** هي أقدم شريعة معروفة في تاريخ البشر مما قد اكتشف حتى الآن[٢]؛

ومنها سلالة «ماري» العامورية،

ـ ومنها سلالة عامورية في **مدينة «ماري»** في منطقة الفرات الأوسط، وهي من المدن التي ازدهر تاريخها[٣]؛

ومنها سلالة «آشور»،

ـ ومنها أيضاً «سلالة آشور»، إذ بدأ الآشوريون مستفيدين

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحات ١٣٩ـ١٤١.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٤٢ـ١٤٤؛ وانظر أيضاً فيما يتعلق بشريعة «أشنونا» الصفحة ٦٢ من كتابنا، الفقرتين ٩ـ١٠.

(٣) المرجع السابق، الصفحة ١٤٠.

من انهيار سلالة أور يكوِّنون دولة مستقلة عن نفوذ الجنوب[١]؛

وأخيراً سلالة بابل الأولى.

ـ وأخيراً **سلالة بابل الأولى** نسبة إلى مدينة بابل؛ وقد تكوَّنت هذه السلالة من سلالة «إيسن» العامورية[٢].

عادت بذلك دويلات المدن كما كانت قبل الأكديين.

٢٠ ـ وهكذا عادت البلاد بعد نهاية سلالة «أور» الثالثة إلى نظام دويلات المدن مرة ثانية كما كان الحال في عصر فجر السلالات قبل أن يوحِّد سرجون الأكدي دويلات المدن ويؤلف منها إمبراطورية واسعة[٣].

لكن سلالة بابل الأولى لم تلبث أن وحَّدت الدويلات من عيلام وآشور وأشنونا ومعظم بلاد الشام.

٢١ ـ ولكن **سلالة بابل الأولى** لم تلبث أن تمكنَّت في عهد ملكها السادس حمورابي من القضاء من جديد على دويلات المدن، ومن توحيدها بما فيها عيلام وآشور ومملكة أشنونا ومعظم بلاد الشام[٤].

العهد البابلي فرعان:

٢٢ ـ وقد تواضع المؤرخون على تقسيم العهد البابلي إلى عهدين فرعيين هما:

القديم: ويشمل ايسن ولارسة وبابل الأولى ومنها حمورابي وهم عاموريون من الشام،

ـ **العهد البابلي القديم** (١٩٩٨ـ١٥٨٠ ق.م.) ويشتمل على «**سلالة إيسن**» وسلالة «**لارسة**» وسلالة «**بابل**» **الأولى** التي كان حمورابي أحد ملوكها وهم عاموريون من بلاد الشام، وقد قدموا إليها كما تقدم معنا من جزيرة العرب[٥]؛ وظلَّ هذا

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٣٩، ١٤٤.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٣٩، ١٤٢، ١٤٤.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٣٩.

(٤) المرجع السابق، الصفحة ١٣٤، ١٤٢، ١٤٤، ١٥٠.

(٥) نفس المرجع السابق، الصفحة ١١٧، ١٣٩.

والحديث بعد انهيار الكشيين والآشوريين وهم الكلدانيون.

العهد قائماً إلى أن غزاهم «**الحثيون**»(١) في أواخر سلالة حمورابي قادمين من جنوبي آسيا الصغرى الغربية، ثم حل محلهم «**الكشيون**» القادمون من شرقي العراق الشمالي، وهم قبائل جبلية وفرع من الأقوام الهندية الأوروبية فيما يظهر(٢)؛

ـ **والعهد البابلي الحديث أو الأخير** (٦٢٦ـ٥٣٨ ق.م.) وعرف باسم **الإمبراطورية الكلدانية**(٣)، وقد قام العهد البابلي الحديث عقب انهيار حكم «الكشيين» ثم حكم «الآشوريين» الذين سيطروا على بابل بالتعاقب بضعة قرون.

الكلدانيون قبيلة من الآراميين العرب من الشام.

٢٣ ـ **والكلدانيون** هم قبيلة من الآراميين الذين استوطنوا جنوبي العراق منذ المنتصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد؛ وهؤلاء الآراميون هم أيضاً من الموجات القادمة من جزيرة العرب في الألف الثاني قبل الميلاد إلى بلاد الشام ومنطقة الفرات الأوسط وأعالي الرافدين(٤).

الحضارة البابلية بلغت أوجها في العهد القديم، واعتبر بداية للعلوم البشرية، ووصلنا منه مجموعات أدبية ومعاجم وأسماء الحيوانات والنباتات بالإضافة إلى التشريع القضاء والإدارة.

٢٤ ـ وقد بلغت الحضارة البابلية أوجها وسلطانها السياسي في العهد البابلي القديم؛

وامتاز هذا العهد بحركة واتجاه في التأليف والنقل، وجمع الشرائع وتقنينها وتدوينها، ونشوء المحاكم المدنية بدلاً من محاكم القضاة الكهنة، وتنظيم الإدارة، وحدوث انقلاب عظيم في العلوم والمعارف البشرية حيث انتقلت من أطوارها العملية إلى طور التدوين والبحث؛

---

(١) انظر حقيقة الحثيين في الصفحة ٦٤ من كتابنا هذا، الفقرتين ١٦ـ١٧ وسوف نتكلم عنهم أيضاً حين الكلام عن سكان بلاد الشام.

(٢) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الأول السابق، الصفحة ١٥٧.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٠٣ـ٢٠٥.

(٤) نفس المرجع السابق، الصفحة ١١٧، ٢٠٣.

وصحَّ في هذا العهد أن يُعتبَر بداية للعلوم البشرية بعد أن أخذ العلماء بتدوين مآثر السومريين والأكديين؛ وجاءنا من هذا العهد مجموعات كبيرة من الآداب والمعاجم اللغوية وتدوين أسماء الحيوان والنباتات وغيرها من المواد في ألواح كبيرة وكثيرة(١).

انتشرت في هذا العهد مواطن الحضارة متجاوزة العراق ومصر حتى وصلت الأطلسي وجنوبي روسيا وبراري آسيا الوسطى.

٢٥ ـ ومما يُقَال عن تاريخ الحضارات في العهد البابلي القديم: هو اتساع البقاع والمواطن المتحضرة، وذلك بانتشار الحضارات واتساع رقعتها من وادي الرافدين ووادي النيل إلى جميع أنحاء الشرق الأدنى، وإلى بقاع أخرى نائية لم تكن قد وصلت إليها تأثيرات الحضارات القديمة فيما قبل هذا الزمن، حتى وصلت بطريق الأسفار التجارية تأثيرات هذه الحضارات إلى سواحل البحر الأطلسي والبحر الشمالي، وإلى براري آسيا الوسطى، وجنوبي روسيا(٢).

ومالت الحضارات بعد انتشارها إلى الوحدة بعد الهيكسوس.

٢٦ ـ وكان من اتساع نشر الحضارة بين الشعوب والأمم أن جعلها تميل إلى التوحيد، وقد ظهر ذلك جلياً بعد أن تأسست الإمبراطورية المصرية عقب انهيار حكم الهكسوس في مصر(٣).

الآشوريون:

ومن القادمين من جزيرة

٢٧ ـ واستوطن في حدود الألف الثالث قبل الميلاد وفي القسم الشمالي من العراق فرع آخر من القادمين من جزيرة

---

(١) نفس المرجع السابق، الجزء الأول، الصفحة ١٥٠ـ١٥٢.

(٢) نفس المرجع، الصفحة ١٥٢.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٥٦؛ وكذلك الجزء الثاني، الصفحة ٦٨، طبع بغداد سنة ١٩٥٦.

العرب على ما قال به جمهور الباحثين، وعرفوا باسم «الآشوريين» نسبة إلى «آشور» كبير آلهتهم؛ وأطلقت الكلمة نفسها على أقدم مدنهم «آشور» التي تقوم خرائبها الآن في قلعة «الشرقاط»(١).

العرب الآشوريون في شمالي العراق نسبة إلى كبير آلهتهم.

٢٨ ـ وعندما ضعف سلطان جنوبي العراق من أكديين فبابليين في العهد القديم قوي شأن الآشوريين من وجهة الحضارة والسياسة، وكوَّنوا بعد المنتصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد دولة ذات كيان مستقل، وتسلَّموا زعامة الشرق القديم بعد أن ضعفت بابل ولم تقو على الاستمرار بحملها(٢).

قوي الآشوريون حضارياً وسياسياً بعد ضعف البابليين في العهد القديم.

٢٩ ـ ويصحُّ أن نعد الحضارتين البابلية والآشورية حضارتين «أختين» تحدَّرتا من «أم واحدة» هي حضاة «سومر وأكد»، ولكنهما لم يكونا نسخة مطابقة للأم: بل كان لكل منهما «شخصيتها» الخاصة المميزة، وكان بين الحضارتين تشابه في الأصل، مع ملاحظة أن الحضارة الآشورية اعتمدت على الحضارة البابلية، واستفادت من تجاربها وأساليبها؛

حضارتا بابل وآشور تحدَّرتا من سومر وأكد، وكان لكل منهما شخصيتها.

ويمكن تمثيل علاقة الثقافة الآشورية بالثقافة البابلية أنها كانت كعلاقة الثقافة الرومانية بالثقافة اليونانية(٣).

خلاصة المبحث: ج:

٣٠ ـ وبذلك نختم الكلام عن الشعوب التي سكنت وادي الرافدين ملخصين لما تقدم: إِن هذه الشعوب الحية التي

خلاصة ما تقدم عن

---

(١) نفس المرجع السابق، الجزء الأول، الصفحة ١١٦، ١١٧، ١٦٤.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٦٧.

(٣) نفس المرجع، الصفحة ١٦٧-١٦٨.

أوجدت تلك الحضارات إنما هي:

شعوب حضارة العراق:

أولاً - الشعبان السومري والأكدي، ولم يُجْزَم حتى الآن بمنشأ الشعب السومري، وهناك مَنْ يقترح بلاد البحرين منشأ له، وقد تغلب الشعب الأكدي على الشعب السومري في مطالع الحضارة، وطبع الحضارة بطابعه، وهو شعب قادم من جزيرة العرب فيما قبل التاريخ؛

أولاً: السومريون والأكديون الذين تغلبوا على الأولين. الأكديون عرب قطعاً.

ثانياً - الشعوب البابلية، وهي في جملتها شعوب **عامورية وآرامية**، وكلاهما قدم من جزيرة العرب في العصور التاريخية عن طريق بلاد الشام؛

ثانياً: البابليون وهم عاموريون وآراميون عرب،

ثالثاً - الشعب الآشوري، وهو أيضاً قادم من جزيرة العرب في العصور التاريخية.

ثالثاً: الآشوريون وهم عرب أيضاً.

٣١ - **أمّا مَنْ عداهم** من الشعوب التي نزلت في أراضي الدولة الأكدية أو البابلية أو الآشورية: مثل الكوتيين والحثيين والكشيين والعيلاميين والسوباريين وغيرهم فإنما هم قبائل **متأخرة في الحضارة** عن الشعوب القادمة من جزيرة العرب ولا تتصل بهم **فيما يظهر** بنسب، **إلا العيلاميين** كما نقلناه أعلاه في آخر الفقرة «٦»، **ومثلهم الحثيون** كما سوف نتكلم عنهم أدناه مع سكان بلاد الشام بموجب نصوص التوراة أيضاً.

أما الكوتيون والحثيون والكشيون والعيلاميون وغيرهم فليسوا عرباً فيما يظهر.

٣٢ - وفوق ذلك فإن جميع هذه الشعوب الغازية لم يكن لهم حضارات أصلية، بل كانت حضاراتهم استمراراً لحضارات العراق القديم الأولى وفرعاً عنها[1]، ثم لم يلبث أهلها أن **ذابوا في الشعوب العربية الأولى** دون أن يتركوا لنا بعدهم حتى اليوم أية سلالة منهم.

هذه الشعوب غزت الرافدين وليس لهم حضارة أصلية، بل فرعاً عن العراق ثم ذابوا في الشعوب العربية.

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٨١.

د ـ سكان بلاد الشام ومنشؤهم

الموجات العربية التاريخية إلى الشام خمس:

١ ـ استطاعت الأبحاث الأثرية أن تسمي لنا خمس موجات اندفعت من شبه جزيرة العرب خلال العصور التاريخية[١] لتجد في بلاد الشام المدى الحيوي المنشود:

العاموريون، والكنعانيون والآراميون، والأنباط والمسلمون.

ـ فكان العاموريون أولى هذه الهجرات،

ـ ثم الكنعانيون الفينيقيون،

ـ ثم الآراميون،

ـ ثم الأنباط،

ـ وكان العرب المسلمون آخر هذه الموجات وأقواها قبل أربعة عشر قرناً[٢].

الشام قديماً: من شمالي الحجاز إلى الأناضول ومن مصر إلى العراق.

٢ ـ وتؤلف بلاد الشام قديماً سوريا اليوم مع أشقائها لبنان والأردن وفلسطين، وتمتد هكذا من شمالي شبه جزيرة العرب إلى مشارف الأناضول، ومن الحدود المصرية إلى بلاد الرافدين في العراق، متمتعة بمركز متوسط بين قارات العالم القديم الثلاث؛

(١) **مجلة الحوليات الأثرية السورية**، المجلد السابع لسنة ١٩٥٧، الصفحة ٤.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٤، ١١ـ١٩، وكذلك **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الأول، الصفحة ١١٧ـ١١٩، طبعة ثانية، بغداد سنة ١٩٥٥؛ وكذلك الجزء الثاني، الصفحة ٢٣٢، طبعة ثانية، بغداد سنة ١٩٥٦.

وهذا ما جعلها ملتقى البشر والأفكار، ونقطة تقاطع الطرق العالمية، وبؤرة انصهرت فيها كل المدنيات، ثم توزعت في كل الاتجاهات خلال كل العصور[١].

هي ملتقى البشر والأفكار ثم مركز التوزيع.

٣ - ولذلك طفحت أرضها بأوابد وآثار لا يُحْصَر عددها، ويرجع عهدها إلى أكثر من خمسين قرناً، مجتمعة على شكل متحف تمتد كنوزه الأثرية في كل بقاع بلاد الشام؛

لذلك كثرت آثار الشام ودلّت على أن للشام مدنية أصيلة مثل مصر والعراق.

وتدولّت هذه الكنوز على أن مدنية بلاد الشام كانت «**مدنية أصيلة**»[٢] مثل مدنية مصر ومدنية العراق **الأصيلتين** أيضاً، وأن مدنية بلاد الشام لم تكن كما كان يظن مجرد التقاء لتلك المدنيتين العربيتين أيضاً.

٤ - وتبيَّن بنتيجة الأبحاث الأثرية والدراسات العلمية أن العامل الأساسي في نشوء هذه المدنية في بلاد الشام، واستكمال أسبابها وتطورها وصياغة مراحلها المختلفة، هي الأقوام التي خرجت على دفعات متعاقبة خلال العصور من شبه جزيرة العرب[٣]، وكذلك كان الأمر في مدنية مصر وفي مدنية العراق.

العامل الأساسي في نشوء حضارات الشام وكذلك مصر والعراق هي شعوب خرجت من جزيرة العرب.

٥ - وكانت جميع هذه الأقوام منذ خروجها من شبه جزيرة العرب وبلاد اليمن خاصة لتتوزع في جميع هذه الأقطار قد ملكت أصول الحضارة[٤]، ولذلك تشابهت

جميع هذه الشعوب ملكت أصول الحضارة

---

(١) **مجلية الحوليات الأثرية السورية**، نفس العدد السابق، الصفحة ٨.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) **قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور**، جمل بيهم، الجزء الأول، الصفحة ٢٧، طبع بيروت سنة ١٩٤٨.

قبل خروجها من الجزيرة، ولذلك تشابهت حضاراتها وكانت حضارة الشام أصيلة مثل إخواتها.

حضاراتها، وأصبح في كل قطر منها حضارة تضاهي في قوتها وآثارها ما في القطر الآخر[1]: حتى ظنَّ بعض الباحثين أن مدنية مصر قد أَثَّرت في العراق، وظنَّ آخرون العكس، واستنتجوا جميعاً أن بلاد الشام كانت هي نقطة الالتقاء ما بين الحضارتين[2]، وأنه لم يكن لبلاد الشام حضارة أصيلة! ولكن الصحيح هو أن لبلاد الشام **مدنية أصيلة** كما أشرنا إليه في الفقرات السابقة، وما السبب في تلك الظنون إلاَّ الغفلة عن أصل منشأ جميع هذه الحضارات العربية، وأنه أصل عربي واحد، وهو مصدر تلك الحضارات وشعوبها من مهدها الأصلي في جنوبي شبه جزيرة العرب كما سوف نتكلم عنه في محله.

فاعلية هذه الشعوب ظهرت قبل التاريخ في كل من مصر والشام والعراق.

٦ ـ ومهما يكن فإن فاعلية العناصر البشرية الناشئة من شبه جزيرة العرب تظهر بجلاء **قبل فجر التاريخ**:

ـ في أطراف الهلال الخصيب على مشارف بلاد الشام والعراق،

ـ وفي بلاد الرافدين في العراق،

ـ وفي صحراء الشام،

ـ وفي وادي النيل[3].

والهجرات إلى الشام أسهمت في تطويرها ثم

٧ ـ واستمرت الهجرات المنبثقة من الجزيرة العربية على استيطان البلاد الشامية، وأسهمت في تطوير زراعتها، وإنشاء مكانتها التجارية، وتكوين دياناتها؛

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارة**، الموصوفة سابقاً، الجزء الأول الصفحة ٥٣.

(٢) **العرب**، محمود كامل الصفحة ١٢، طبع مصر سنة ١٩٥٦.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحتين: ١٠-١١.

ولم تكتف هذه الهجرات بضمِّ الهلال الخصيب إلى مدى الجزيرة العربية الحيوي، بل تطلّعت إلى وادي النيل، وقام مَنْ يُسمَّى منهم «بالهيكسوس»، وهم كنعانيون عرب، بالوصول إلى مصر، وراحوا يعملون للأخذ بأسباب مدنيتها، ويوثّقون العلاقات بين بلاد الشام ووطنهم الجديد، ويقدِّمون نماذج رائعة عن أدبهم الكنعاني إلى القصص الفرعونية، ويسعون إلى تطوير الكتابة ونقلها من شكلها التصويري إلى شكلها الألفبائي[١].

وصل الهيكسوس منهم إلى مصر ونقلوا الكتابة من شكلها التصويري إلى الألفبائي.

العاموريون:

٨ ـ ويمثّل لنا استطيان **العاموريين** في بلاد الشام أولى الهجرات العربية الكبرى إلى هذه البلاد في الألف الرابعة قبل الميلاد، وهي الهجرات التي أَطلق عليها الباحثون اسم الأقوام السامية الغربية.

العاموريون أولى هذه الهجرات إلى الشام في الألف الرابعة ق.م.

٩ ـ وأصل اسم «العاموريين» قد أطلقه عليهم سكان وادي الرافدين من المصطلح السومري «مارتو» أي الغرب، وصارت عبارة بلاد «عامورو = آمورو» تُطلَق على سوريا: أي الغرب، وكذلك يُقَال في أصل اشتقاق اسم المدينة العامورية «ماري»: تل الحريري اليوم[٢].

العاموريين نسبة إلى «عامورو» أي بلاد الغرب وهي سوريا.

١٠ ـ وقد طغى هؤلاء على ديار الشام والفرات الأوسط في منتصف الألف الثالث ق. م.، وكوَّنوا هناك دولاً؛

وجاء فرع من **العاموريين** إلى العراق في نهاية سلالة «أور»

طغى العاموريون على الشام والفرات الأوسط، وذهب فرع للعراق وكوَّن

(١) **مجلة الحوليات الأثرية السورية**، المجلد السابع، سنة ١٩٥٧، الصفحة ١٥.

(٢) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، الموصوفة سابقاً، الجزء الأول الصفحة ١١٧، والجزء الثاني، الصفحة ٢٣٣.

الثالثة، وكوَّن سلالة شهيرة عُرِفت باسم سلالة بابل الأولى، واشتهرت بملكها السادس «حمورابي»[١].

بابل الأولى ومنهم حمورابي.

الكنعانيون = الفينيقيون:

١١ ـ وكذلك استوطن **الكنعانيون** من الهجرات العربية بلاد الشام، وتمركزوا في السواحل، وهم الهجرات الثانية الكبرى بعد العاموريين إلى بلاد الشام[٢]؛

الكنعانيون ثاني الهجرات إلى الشام، ويُقَال إِنهم جاءوا والعاموريين معاً.

وهناك مَنْ يرجِّح أن الكنعانيين جاءوا أيضاً إلى بلاد الشام مع العاموريين في هجرة كبرى واحدة، غير أن العاموريين هم الذين اشتهروا قبل الكنعانيين بتكوينهم دولاً هامة[٣].

١٢ ـ **ويُظَن** أن «كنعان» يرجع في أصله إلى كلمة سامية عربية قديمة تعني «الشيء الواطىء» أي الأرض الواطئة إشارة إِلى موطنهم في الساحل من جذر «كنع» و «خنع»، بالمقابلة مع الأراضي الجبلية العالية المحاذية لموطنهم[٤].

يقال إِن «كنعان» تعني الشيء الواطىء إشارة إلى وطنهم الساحلي، فهل ولد جدهم كنعان في الساحل كذلك؟.

ولكن هذا الظن إِذا صحَّ مع موطنهم الأخير في سواحل بلاد الشام، فماذا نصنع مع اسم جدهم الأعلى «كنعان» الذي يُنسبون إليه؟ فإنه لم يولد في سواحل بلاد الشام الواطئة وإنما في جزيرة العرب، ولا نظن أن تسميته بذلك الاسم منذ ولادته كان يقصد به المعنى الاشتقاقي ما لم يكن قد ولد أيضاً في بلاد واطئة؟

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، الصفحة ١١٧.

(٢) المرجع السابق، الجزء الأول، الصفحة: ١١٧.

(٣) المرجع السابق، الجزء الثاني، والصفحة: ٢٣٢، والصفحة ٢٣٩ـ٢٤٠.

(٤) المرجع السابق، الجزء الثاني، الصفحة ٢٩٩، الحاشية رقم/٣/ .

١٣ ـ وأطلق اليونان على الكنعانيين اسم «**الفينيقيين**»، وقيل إن هذه الكلمة يونانية ومعناها «بلاد النخيل»[١] دلالة على البلاد التي جاءوا منها وفيها شجر النخيل، وسوف نرى في الفقرة «١٥» سبباً آخر لهذه التسمية.

سمَّاهم اليونان «الفينيقيين» أي أصحاب بلاد النخيل.

أما المصريون فكانوا يسمونهم «بوني» أو «فوني» فحرفَّها اليونان إلى فينيق[٢]، وهذا دليل جديد على أن أصل الفينيقيين هو من اليمن وحضرموت: لأن المصريين القدماء كما تقدم معنا في الصفحة ٤٦٧ كانوا يطلقون على بلاد حضرموت واليمن اسم «بون»[٣]، وكانوا يعتقدون أن أصلهم منها، وهذا هو السبب الذي جعل الرومان فيما أرى يطلقون على الحروب التي قامت بينهم وبين القرطاجيين الفينيقيين اسم «الحروب البونية»[٤] أخذاً عن المصريين فيما يظهر من كلمة «بوني»، وأما كلمة «فوني» فتصحيف.

وسمَّاهم المصريون «بوني» إشارة إلى أصلهم من «بون» في اليمن، ومنها الحروب «البونية».

١٤ ـ ويميل رأي الباحثين حديثاً إلى اشتقاق اسم «كنعان» من أصل غير سامي: حيث يرون اشتقاقه من كلمة «حورية» تعني الصبغ القرمزي، إذ يبدو أن هذا الإقليم اشتهر بصناعة هذا الصبغ لما اتصل الحوريون ببلاد الشام في القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد؛

ويرى الباحثون حديثاً أن كنعان مشتق من كلمة حورية وتعني الصبغ القرمزي الذي اشتهرت به الشام.

وكذلك قيل في اسم «فينيقيا ـ Phoinix»: حيث ارتؤي

وكذلك قيل «في فينيقيا»

---

(١) **قوافل العروبة** السابق، الجزء الأول الصفحة ١١.

(٢) نفس المرجع السابق.

(٣) انظر أيضاً فيما يتعلق باسم «بون» في كتاب **ملوك حمير وأقيال اليمن**، لنشوان بن سعيد الصفحة ١٥٩، طبع القاهرة، المطبعة السلفية سنة ١٣٧٨ هـ؛ وكذلك **معجم البلدان** في كلمة بون.

(٤) **مقدمة في تاريخ الحضارة** السابق، الجزء الثاني، الصفحة ٢٥٥.

إنها تعني الصبغ القرمزي وهي ترجمة للكلمة الكنعانية.

اشتقاقه من الكلمة اليونانية التي تعني القرمز أو الأرجوان، إشارة إلى صناعة الأصباغ القرمزية التي اشتهر بها الساحل، وصارت كلمة «فينيقي» تُستعمَل مرادفة لكلمة «كنعاني» منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد[1] فهي إذن ترجمة للكلمة إلى اللغة اليونانية.

وفي المصادر السريانية أن الفينيقيين نسبة إلى «فونيقوس» ابن باني مدينة صور وهو الأولى.

١٥ ـ وجاء في شذور التواريخ السريانية أن «أكنور» باني مدينة صور قد كان رُزِق ثلاثة بنين: سورس وهو البكر، وقلكوس، وفونيقوس وهو الثالث، وقد ملك أبوهم أكنور في صور ثلاث عشرة سنة، ولما دنت منيته قسم الأرض بين بنيه فأعطى فونيقوس فينيقيا، وقلكوس قيليقيا كلها، وسورس سوريا برمتها[2]، وسُميت أرض كل منهم باسم صاحبها، وهذا فيما أرى أولى ما يُذكَر من سبب لتسميتهم «فينيقيين» لأنه منقول عن أقربائهم العرب السريانيين، وهو أحق بالاعتبار.

الآراميون:

الآراميون ثالث الهجرات الكبرى في الألف الثانية

١٦ ـ وفي نحو السنة «١٥٠٠» قبل الميلاد حملت موجة ثالثة إلى بلاد الشام دفعة جديدة من الأقوام الناشئة في شبه جزيرة العرب.

وقد عُرِف هؤلاء باسم الآراميين، كما أُطلِقت عليهم أسماء

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات** السابق، الجزء الثاني، الصفحات ٢٣٩ـ٢٤٠، الحاشية رقم /٣/؛ وكذلك الصفحة ٢٤٧.

(٢) **المجلة البطريركية السريانية**، يصدرها دير مارقس للسريان بالقدس، السنة الخامسة ١٩٣٨، الصفحة ٢٥٨ـ٢٦١.

أخرى: منها «الأخلامو» و «الخاباطو» و «الخبيرو»[1]؛

ق.م. وهم «الأخلامو» و «الخاباطو» و «الخبيرو» وأخيراً «السريان» بعد تنصرهم.

ثم تغلّب عليهم بعد الميلاد اسم **السريان**، وعلى بلادهم اسم **سوريا**، وذلك منذ تنصَّرت مملكة الآراميين الأباجرة في عهد الملك الأبجر الأسود المعاصر للسيد المسيح[2]، وكان الأبجر ملك «الرها = حران = أورفة اليوم».

الآراميون ورثوا العاموريين والكنعانيين وأنشأوا الجنس البشري الأخير في سوريا حتى مجيء المسلمين الذين وصلوهم بعروبتهم من جديد ووحّدوهم.

١٧ ـ وكانت هذه الهجرة أصلح الأقوام الذين دخلوا بلاد الشام بعد العاموريين ليرثوا العاموريين ويتعايشوا مع الكنعانيين، ويحلوا في المدن الشامية الداخلية: الشمالية والجنوبية، وليسودوا هذه المنطقة وينشئوا **أُساسها البشري الأخير حينذاك**، ويمنحوها لغتهم، حتى مجيء الموجتين العربيتين الأخيرتين: **الرابعة والخامسة** اللتين حملتا إِلى بلاد الشام **الأنباط والمسلمين**[3] وجددتا فيمَنْ سبقهما صلتهم بأصلهم العربي، وتمَّ ذلك التجديد نهائياً على يد الموجة الإسلامية الأخيرة، حيث انتصر الاسم العربي الأصيل على كل الأسماء، ووحَّد ما بين الجميع تحت اسم العروبة: من مسلمين وغير مسلمين، لأول مرة في التاريخ.

ومن الآراميين الكلدانيون في العراق.

١٨ ـ ومن الآراميين قبيلة استوطنت في جنوبي العراق، عُرِف منها فيما بعد: **الكلدانيون** الذين كوّنوا آخر إمبراطورية

---

(١) **مجلة الحوليات الأثرية القديمة السورية**، المجلد السابع، سنة ١٩٥٧ الصفحة ١٩؛ وكذلك **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الأول، الصفحة ١١٧، طبع سنة ١٩٥٥، والجزء الثاني، الصفحة ٢٦٨، طبع سنة ١٩٥٦.

(٢) **مجلة الأبحاث**، إصدار الجامعة الأميركية في بيروت، عدد شهر آذار سنة ١٩٥٩ الصفحة ٤٢.

(٣) نفس المرجع الأسبق. **مجلة الحوليات**.

في تاريخ العراق القديم[1]؛

وكوّن الآراميون في الشام دولاً وإمارات من دمشق إلى ما بين النهرين.

وكوّن الآراميون دولاً وإمارات مهمة في بلاد الشام: منها مملكة دمشق، وحماة، وحلب، وحران[2]، وآرام النهرين أي نهري الفرات والخابور[3]، ولعل اسم «الخبيرو» الذي نقلناه في الفقرة السابقة هو اسم لِمَنْ سكن منهم حول نهر «الخابور» في شمالي بلاد الشام؟ ولا بدَّ من الرجوع في ذلك إلى رجال الاختصاص في اللغة السريانية.

كيف تغلّبت كلمة السوريين على الآراميين.

١٩ ـ ومن الواجب أن نلحَّ هنا في الكلام على كلمة **سوريا والسوريين**، وعلى أصلها، وكيف تغلّبت على كلمة آرام وآراميين.

منذ تنصر أهل الرها الآراميين تخلوا عن اسمهم وتسمّوا بالسريان لتكون مرادفة لمسيحيين.

٢٠ ـ يقول الأستاذ أنيس فريحة أستاذ اللغات السامية في الجامعة الأميركية في بيروت: «عندما تنصَّر أهل الرها تخلّوا عن اسمهم القديم ـ **آراميين** ـ وتسموا **بالسريان** أي السوريين، أهالي سوريا؛ وصارت لفظة آرامي مرادفة آنذاك للفظة وثني، ففي معاجمهم تجد لفظة **آرامي** مفسرة بلفظة وثني أو

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الأول السابق الصفحة ١١٧.

(٢) معنى حران في اللغات العربية القديمة «الطريق»، وفي الأكدية بصيغة «خرانو» وقد كانت حران ممراً لطريق تجاري كبير، وازدهرت فيها الثقافة الآرامية ازدهاراً كبيراً ـ انظر **مقدمة في تاريخ الحضارات**، طه باقر، الجزء الثاني السابق، الصفحة ٢٧٠ـ٢٧١، والحاشية رقم/ ٤/ ـ ويرى الأستاذ أنيس فريحة أستاذ اللغات السامية في جامعة بيروت الأميركية: أن معنى كلمة «حران» هو «ملتقى الطرق»، وأن حران كانت ملتقى طرق بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب ـ انظر **«الأبحاث»** عدد شهر آذار سنة ١٩٥٩، إصدار الجامعة الأميركية في بيروت، الصفحة ٣٥.

(٣) نفس المرجع السابق، وكذلك الجزء الثاني منه، الصفحة ٢٧٠ـ٢٧١.

صابئي؛ وكذلك أصبحت لفظة **سرياني** (أي من سوريا) مرادفة للفظة مسيحي. وطبيعي أن تجد رغبة عند الآراميين في تغيير اسمهم القديم الذي كان يذكِّرهم بأيام الوثنية إلى اسمهم الجديد: **سريان** أي سكان سوريا...

«ومن هنا كان اختفاء الأسماء **آرامي وآرامية وآراميون**، وظهور اسم جديد **سريان وسريانية**»[1].

ويرى فيليب حتي أن اسم سوريا يوناني في شكله، ولها معنى ضيق للدلالة على الجزء الشمالي الشرقي ومعنى واسع يشمل من الفرات إلى مصر.

٢١ ـ ويقول الأستاذ فيليب حتي في كتابه «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين»: إن اسم سوريا يوناني في شكله... وفي العصور اليونانية وما بعدها توسَّع استعمال هذا الاسم، وأُطلق على البلاد كلها واستخدم بهذا المعنى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى: وقد شمل المساحة الواقعة بين طورس وسينا، وبين البحر المتوسط والبادية... وكان اسم سيروس Syrus (سوري) بالنسبة للرومان يعني كل شخص يتكلم اللغة السريانية؛ غير أن **ولاية سوريا الرومانية** كانت تمتد من الفرات إلى مصر[2] في أوسع المعاني لكلمة سوريا، أما في معناها الضيق فكانت تقتصر على الجزء الشمالي الشرقي من هذه الولاية الرومانية، وذلك منذ قسم الإبراطور هادريان هذه الولاية: إلى فلسطين وفينيقيا وسوريا[3].

ليس في العهد القديم ذكر

٢٢ ـ ويقول لأستاذ فريحة أستاذ اللغات في جامعة

---

(١) **مجلة «الأبحاث»**، إصدار الجامعة الأميركية في بيروت، شهر آذار سنة ١٩٥٩، الصفحة ٤٢، وكذلك كتاب **لبنان في التاريخ**، للدكتور فيليب حتي، الصفحة ٢٥٠ـ٢٥١ طبع بيروت سنة ١٩٥٩.

(٢) الترجمة العربية طبع بيروت سنة ١٩٥٨، الصفحة ٦٢، ٦٣.

(٣) **موسوعة تاريخ العالم**، وليام لانجر، ترجمة عربية، الجزء الأول، الصفحة ٧٨، طبعة أولى مصر.

لسوريا وإنما لآرام التي ترجمت في السبعينية بلفظة سوريا في العهد اليوناني.

بيروت الأميركية[1]: «ليس في أسفار العهد القديم ذكر لاسم **سوريا**، بل إن كتَّاب العهد القديم كانوا يشيرون إلى بلاد الشام بقولهم **آرام**، ولم يشع **اسم سوريا** إلاَّ في العهد الإغريقي (السلوقيين)، وعلى وجه التدقيق بعد ظهور الترجمة السبعينية[2]، حيث نجد أن المترجمين ترجموا لفظة **آرام** بلفظة **سوريا**،

كذلك هوميروس يتكلم عن سوريا بلفظة آرام.

وأمَّا هو ميروس الشاعر اليوناني - في القرن التاسع ق. م. - فلا يعرف لفظة سوريا بل يستعمل لفظة آرام وآرامي عند كلامه عن البلاد السورية والشعب السوري»[3].

سوريا ليست يونانية بل بابلية تدل على مقاطعة في شمال غربي الفرات.

٢٣ - هذا وإنني بالرجوع إلى علماء اللغة اليونانية تأكدت بأن كلمة **سوريا** ليست يونانية، «بل الحقيقة أن كلمة سوريا هي بابلية الأصل، وأُطلقت على مقاطعة تقع في الشمال الغربي من نهر الفرات»[4]؛

وكذلك يقول الأستاذ أنيس فريحة في مجلة الأبحاث[5]: «إن سوريا اسم مقاطعة بابلية أشورية: سوري Suri، وكانت تقع في مناطق الفرات الشمالية؛ ولا علاقة لاسم أشور Assyria بسوريا».

---

(١) **مجلة الأبحاث** السابقة، الصفحة ٣٢؛ وكذلك كتاب **تاريخ سورية** السابق، فيليب حتي الصفحة ٦٣.

(٢) هي ترجمة أسفار العهد القديم من اللغة العبرية إلى اليونانية التي قام بها سبعون عالماً يهودياً.

(٣) وتكتب «سورية» في اللغة السريانية بألف «سوريا» والنسبة إليها سوريايا، واللغة «لساناً سوريايا، Leshâna suryâya» أي اللسان السوري.

(٤) **شريعة حمورابي**، الدكتور عبد الرحمن الكيالي، طبع حلب سنة ١٩٥٨، الصفحة ٢٩، نقلاً عن دائرة المعارف البريطانية.

(٥) الصفحة ٣٣.

لذلك كانت كلمة سوريا أقدم من اليونان ومن تنصر الأباجرة.

٢٤ ـ وبناء على ذلك: إن كلمة **سوريا** هي أقدم من اليونان، وأقدم من تنصُّرِ الأباجرة العرب الآراميين في مملكة «الرها»، وقد كانت تُستعمَل فقط للدلالة على موقع في مناطق الفرات الشمالية؛ ولكن لماذا؟.

المصادر السريانية تقول: تمتد سوريا من إنطاكية حتى الرها وسميت باسم سورروس بن ملك صور.

٢٥ ـ وللجواب على ذلك تحدثنا المصادر السريانية القديمة وتقول كما جاء في شذور التواريخ السريانية: «وسُميت سوريا باسم سورروس»(١). وأن ملك صور وبانيها بعد تقسيم الألسنة في أيام فالغ قد رزق ثلاثة بنين: «سورروس وهو البكر، وقلكوس، وفونيقوس وهو الثالث. وملك أبوهم في صور ثلاث عشرة سنة، ولمّا دنت منيته قسم الأرض بين بنيه، فأعطى فونيقوس فينيقيا، وقلكوس قيليقيا كلها، وسورروس سوريا برمتها»(٢).

وكذلك قال يشوع بن علي والحسن ابن بهلول النسطوريان من كتاب المئة العاشرة في قاموسيهما: «وسوريا يُرَاد بها البلاد الممتدة من إنطاكية حتى الرها، وإنما دُعيت سوريا نسبة إلى سورس الذي قتل أخاه وملك ما بين النهرين»(٣).

وتعميم سوريا على جميع بلاد الشام ظهر بعد تنصر الأباجرة.

٢٦ ـ *أما تعميم كلمة «سوريا»* بعد ذلك على جميع المناطق الواقعة بين طورس في تركيا وسيناء في مصر، وبين البحر المتوسط والبادية، فيظهر أنه تابع لتنصر دولة **الأباجرة العرب** من ملوك مدينة «الرها» الواقعة في المنطقة البابلية الآشورية

---

(١) **المجلة البطريركية السريانية**، يصدرها دير مارقس للسريان بالقدس، السنة الخامسة سنة ١٩٣٨، الصفحة ٢٦٠ـ٢٦١.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٥٨ـ٢٥٩.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة، ٢٦٢.

في الشمال الغربي من نهر الفرات، وقد تقدم معنا أن هذه المنطقة كانت تُسمَّى **سوري** Suri في اللغة البابلية (الفقرة ٢٣)، أو **سيروس** Syrus في التعبير الروماني (الفقرة ٢١).

الأباجرة دولة عربية في الرها نشأت سنة ١٣٢ ق.م. وقضى عليها كراكالا سنة ٢١٧ ب.م.

٢٧ ـ **ودولة الأباجرة** العرب في الرها هي نسبة إلى **الأبجر**، وهو اسم علم لعدد كبير من ملوكها وتسمى أيضاً بمملكة الرها؛ وقد نشأت هذه الدولة في سنة ١٣٢ قبل الميلاد، وظلت قائمة مدة ثلاثة قرون ونصف القرن حتى سنة ٢١٧ بعد الميلاد حيث قضى عليها الرومان في عهد الإمبراطور كراكالا وصيّروها ولاية يحكمها حاكم روماني أسوة ببلاد الشام ومصر، ولكن كراكالا لم يلبث أن اغتيل في نفس السنة وفي مدينة الرها نفسها.

هذا وقد لعبت دولة الأباجرة خلال وجودها دوراً كبيراً بين الروم وفارس[1].

أبجر الخامس عاصر السيد المسيح ودعاه للرها وآمن به.

٢٨ ـ وقد عاصر أبجر الخامس أشهر ملوك دولة الأباجرة السيد المسيح، وجاء في التقليد السرياني: أن الأبجر المشار إليه شكا من عاهة ألمت بجسمه وعجز الأطباء عنها، فبعث الى السيد المسيح، يسأله القدوم إلى الرها ليشفيه ويسكن في مدينته، فأجابه السيد المسيح برسالة باركه فيها، وبارك مدينته، ووعده بإيفاد أحد تلاميذه ليشفيه؛ وأن توما الرسول أنجز هذا الوعد فأرسل أخاه آدّى إلى الرها، وشفا ملكها

---

(١) **العروبة والشعوبيات الحديثة**، محمد جميل بيهم، الصفحة ١٦٠ طبع دار الكشاف في بيروت سنة ١٩٥٧؛ وكذلك الجزء الخامس من **تاريخ الجنس العربي**، الصفحة ٣٢٥، طبع المطبعة العصرية، صيدا سنة ١٩٦١؛ وكذلك **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الثاني سابقاً الصفحات ٤٨١، و ٤٢٢؛ **ومعجم لاروس**.

وعلّمه طريق الخلاص[1].

الأباجرة أول مَنْ حمل دعوة المسيح بعد اضطهاده وتخلوا عن اسمهم الآرامي الوثني ليختصوا بالسوري عَلَماً على المؤمنين وعلى بلادهم من آرام.

٢٩ ـ وقد كان العرب الأباجرة أول مَنْ **حمل دعوة السيد المسيح** وآمن بها بعد أن اضطهده اليهود والرومان، **وهذه حقيقة تاريخية**، وظلوا يناضلون من أجلها وتخلّوا عن اسمهم القديم **الآراميين**، وحملوا اسماً جديداً هو اسم منطقتهم **سوريا** في الشمال الغربي من الفرات، وواصلوا دعوتهم للنصرانية ضد الوثنية الآرامية التي أخذت تنهار أمام دعوة المؤمنين؛ وأصبح انتشار الإيمان بالنصرانية على أيدي سكان منطقة سوريا ينتشر معه اسم هؤلاء السوريين، إلى أن اكتسحت الدعوة النصرانية جميع بلاد الشام الآرامية، وأعطتها اسم المؤمنين بها، وهكذا تغلّبت لفظة «السوريين» على لفظة «الآراميين»، وحلّ اسم «سوريا» محل اسم بلاد «آرام».

تنصر الأباجرة دفع الفرس والرومان لاقتسامهم تخلصاً من النصرانية، ولكنها ازدادت قوة حتى تنصر قسطنطين على يد أمه هيلانة العربية.

٣٠ ـ ولا بد من أن نسجِّل أيضاً **حقيقة أخرى**: هي أن دولة الأباجرة العرب باعتناقهم النصرانية، وبحملهم راية الدعوة إليها في جميع الإمبراطورية الرومانية وعلى أطرافها في الإمبراطورية الفارسية، دفعوا الإمبراطوريتين على التعاون لاقتسام مملكة الأباجرة تخلصاً من النصرانية؛ غير أن سقوط دولة الأباجرة في مطالع القرن الثالث بعد الميلاد لم يزد النصرانية إِلاَّ انتشاراً وتحدياً وإقلاقاً للإمبراطورية الرومانية، وهذا ما حمل قسطنطين بعد ذلك بعصر تقريباً على أن يتنصَّر هو نفسه، ويوقف أعمال الاضطهاد ضد النصرانية

---

(١) نفس المرجع السابق: **العروبة والشعوبيات الحديثة**؛ وكذلك مجلة **الأبحاث**، إصدار جامعة بيروت الأميركية، شهر آذار سنة ١٩٥٩، الصفحات ٣٧ـ٤٠.

بفضل أمه **هيلانة العربية**، ابنة قسيس سرياني من الرها[1]؛ وهكذا اتخذ قسطنطين من تنصره قوة للإمبراطورية، بعد أن غدا الاستمرار في اضطهاد النصرانية توهيناً لسلطان الإمبراطورية في سوريا.

إسقاط ذكر العرب السريان من تاريخ نصرة النصرانية يفقدها أعظم سند تاريخي يصلها بالمسيح.

٣١ ـ **وهناك حقيقة أخرى** نسجلها أيضاً: هي أن الحقبة الأساسية من تاريخ العرب في نصرة النصرانية ضد طغيان اليهود والإمبراطورية الرومانية حينذاك لا تُذْكِر اليوم في تاريخ الكنيسة في أوروبا، وفي ذلك إسقاط لثلاثة عصور من عصور النصرانية الأساسية، بل إتلاف لأعظم حلقة تاريخية أساسية هي وحدها التي تصل نصرانية اليوم بعهد السيد المسيح، وبدونها تفقد النصرانية أعظم سند لها في التاريخ.

وكان للعرب الآراميين لا لإسرائيل والرومان شرف إيصال النصرانية إلى مَنْ يدينون بها اليوم.

ونرى ذلك فهناك إغفال لذكر العرب الآراميين الذين كان لهم وحدهم لا لإسرائيل والرومان شرف حمل النصرانية وإيصالها إلى جميع مَنْ يدينون بها اليوم في أرجاء هذه الأرض المسكونة، **وعسى أن يستدرك** النصارى العرب ما قد أغفله الأوروبيون من هذه الحقيقة التاريخية والشرف العظيم.

الأنباط:

الأنباط رابع الهجرات الكبرى وبعض المؤرخين يعتبرونهم آراميين.

٣٢ ـ ومن الموجات العربية الكبرى التي أعقبت الآراميين **دولة الإنباط**، ومن المؤرخين مَنْ يسميهم **الأنبات** لأنهم من سلالة **نابت بن إسماعيل**، وقد ذهب مؤرخو أوروبا إلى إدخال

(١) **تاريخ الكنيسة السريانية الإنطاكية**، تأليف سيادة سوبريوس يعقوب توما، الجزء الأول، الصفحة ١٨٠، طبع سنة ١٩٥٣.

دولتهم في عداد الدول الآرامية[1].

نزحوا عن الحجاز سنة ٦٠٠ ق.م. وحطوا في العقبة وسادوا بطرا إلى عهد تراجان.

٣٣ ـ ويرى المؤرخون أن الأنباط نزحوا عن الحجاز فيمن نزح من إخوانهم سنة ٦٠٠ قبل الميلاد، وحطوا رحالهم في أيلة (العقبة) وكانت وقتئذٍ لأنسبائهم الأدوميين، ثم توالت الأيام، وإذا بالأنباط يقومون على أنقاض سادة **بطرا عاصمة الأدوميين**، وظلوا كذلك إلى أن قضى على دولتهم الإمبراطور الروماني تراجان عام ١٠٦ بعد الميلاد[2].

«بطرا» لفظة يونانية ترجمة «سلع» وتعني الصخر لأنها منحوتة فيه.

٣٤ ـ **ولفظة «بطرا»** يونانية، وقد سُمي البلد بذلك لأن مبانيه منحوتة في الصخر، **واسمها في اللغات العربية** القديمة «سلع» و «سالع» ويعني الصخر؛ وفي بلاد العرب عدة أمكنة تُسمَى «سلع» لذلك المعنى[3].

ويسميها العرب أيضاً «الرقيم» لكثرة ما فيها من كتابه ونقوش.

٣٥ ـ **ويسميها العرب** أيضاً «الرقيم» أي «المرقوم» من «الرقْم» أي الكتابة، وذلك فيما يظهر لكثرة الكتابة والنقوش على أحجارها المنتشرة في وادي موسى، بل فيما أبعد من ذلك إلى العقبة والطور وقناة السويس.

وقال الاصطخري في وصف الرقيم: «الرقيم مدينة بقرب البلقاء، وهي صغيرة، منحوتة بيوتها وجدرانها في صخر كأنها حجر واحد»[4].

---

(١) **قوافل العروبة**، جميل بيهم، الجزء الأول، الصفحة ١٦، طبع بيروت سنة ١٩٤٨.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٦ـ١٧.

(٣) **العرب قبل الإسلام**، جرجي زيدان، الصفحات ٨٣، ٨٤ طبعة جديدة (من غير تاريخ).

(٤) المرجع السابق، الصفحة ٨٤.

«البتراء» بقرب المدينة ليست «بطرا».

٣٦ ـ وقد عثر بعض المعاصرين على لفظ «البتراء» في سياق غزوة النبي عليه الصلاة والسلام لبني لحيان، فتبادر إلى أذهانهم أنها بطرا التي نحن في صددها، ولكن المفهوم من مجمل الحديث أنها بقرب المدينة، وبينها وبين بطرا الأنباط نحو ٥٠٠ ميل[١].

و «بطرا» هي من البلاد العربية الحجرية في تقسيم اليونان الثلاثي.

٣٧ ـ ومما يذكر عن «بطرا» أن كتَّاب اليونان والرومان قد قسموا بلاد العرب إلى ثلاثة أجزاء مشهورة:

ـ دعوا القسم الأول بلاد العرب السعيدة (اليمن) Arabia Felix،

ـ والثاني بلاد العرب الحجرية ـ بلاد العرب البترية Arabia Patraea،

ـ والثالث بلاد العرب الصحراوية Arabia Deserta[٢].

مصدر أخبار الأنباط من آثارهم المنتشرة من السويس إلى العقبة.

٣٨ ـ وقد عُني الأوروبيون بتدوين أخبار دولة الأنباط استناداً إلى ما وجدوا في مدائن صالح من آثار الأنباط التاريخية الهامة، واعتماداً على ما عثروا عليه من نقوش على الأحجار المنتشرة فيما بين وادي موسى وقناة السويس، وبين العقبة والطور[٣].

آثار الأنباط تدل على

٣٩ ـ ويُستَدَلُّ من آثار دولة الأنباط أنها تمتعت ببسطة في الملك، ومدَّت سلطتها إبَّان ازدهارها على معظم الجانب

---

(١) المرجع السابق، الصفحة ٨٤٨٣.

(٢) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الثاني، الصفحة ٤٧١، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦؛ وكذلك **تاريخ العرب المطول**، فيليب حتي، الجزء الأول الصفحة ٥٦، طبع بيروت سنة ١٩٥٨.

(٣) **قوافل العروبة** السابق، الصفحة ١٦.

الشمالي من جزيرة العرب: من سيناء فحوران غرباً، إلى تخوم العراق شرقاً، ومنها إلى وادي القرى في الجنوب، ودخلت دمشق في نطاق مملكتها[1].

مملكة من سيناء إلى دمشق في نطاقها.

العرب المسلمون:

٤٠ ـ ومن الموجات العربية الكبرى والأخيرة **هي الموجة الإسلامية** التي انتشرت في العراق وفي بلاد الشام شمالاً، ثم في مصر وليبيا وتونس ومراكش وإسبانيا غرباً، وجددت صلة الموجات السابقة بأصلهم العربي، واسمهم العربي.

الموجة الإسلامية كانت الأخيرة والأكبر وانتشرت من العراق إلى مراكش وإسبانيا وجددت صلة الجميع بأصلهم العربي.

وسوف نتكلم عن هذه الموجات عندما نصل في كتابنا إن شاء الله إلى البحث عن تاريخ فكرة الحق لدى العرب المسلمين.

٤١ ـ غير أننا نرى من الواجب هنا أن نذكر مرة ثانية كما فعلنا عندما تكلّمنا عن الآراميين: بأن الآراميين إذا سبق لهم أن وحّدوا الجنس البشري في **سوريا فقط** ومنحوه اسمهم ولغتهم العربية الأخيرة حينذاك، فإن الموجة العربية الأخيرة الإسلامية هي التي كُتِبَ لها وحدها أن تردَّ الجميع إلى اسمهم العربي الأصيل، وأن تمنحهم لغتهم الأخيرة وأن يصبحوا بذلك لأول مرة في التاريخ شعباً عربياً واحداً، من مسلمين وغير مسلمين، وما السريان والروم واللاتين إلاَّ عرب من بقايا الآراميين، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فوحَّدت ما بين الجميع تحت نفس الاسم من مراكش إلى بغداد.

الموجة الإسلامية وحدها ردَّت الجميع إلى اسم عربي واحد ولغة واحدة من مراكش إلى بغداد.

---

(١) نفس المرجع السابق.

هجرات عربية أخرى:

هجرات صغيرة أخرى لبلاد الشام:

٤٢ ـ هذا وقد أهملنا ذكر الكثير من الهجرات الأخرى الصغرى الصادرة عن جزيرة العرب إلى بلاد الشام اكتفاء بما ذكرنا؛ ومن هذه الهجرات[١]:

منها الآدوميون سادة «بطرا».

ـ **الأدوميون** سكان الجنوب الشرقي من فلسطين وسادة **«بطرا» قبل الأنباط**[٢]؛ والآدميون هم من نسل إبراهيم، ذلك النسل الذي عرف بعد ذلك **بالاسمين التاريخيين**: «أدوميين» نسبة إلى «أدوم = عيسو»، و «إسرائيليين» نسبة إلى «إسرائيل = يعقوب»[٣]، غير أن الإسرائيليين خرجوا على كل ما عُرِف بين الأقرباء من صلة القرابة كما خرجوا على الأخلاق والأعراف العربية، وأصبحوا ينظرون إلى كل مَنْ لم يكن من إسرائيل فهو حيوان يُستبَاح منه كل شيء، فأسقطهم ذلك من صلة القرابة، وعاداهم العرب أجمعون كما يعاديهم اليوم الناس أجمعون بسبب هذه الخصائص غير الإنسانية؛

ومنها الإيطوريون في جنوبي دمشق والبقاع،

ـ **والأبطوريون** في جبال اللجاء بجنوبي دمشق، ثم نزحوا إلى جبل الشيخ واستقروا في البقاع، ووافق زمن وصولهم إلى مشارف الشام قيام العبرانيين على الفينيقيين لإزاحتهم عن شمالي فلسطين وجنوبي سوريا؛

ومنها التنوخيون،

ـ **والتنوخيون** الذين أقاموا دولتهم على أنقاض دولة الأنباط؛

ومنها الضجاعمة،

ـ وخلف التنوخيين **بنو سليح** من قضاعة، وملكوا مشارف الشام باسم الضجاعمة؛

---

(١) المرجع السابق، الصفحات: ١٦ـ٢١.

(٢) المرجع السابق، الصفحات ١٦.

(٣) **العرب**، محمود كامل، الصفحة ٤٣، طبع مصر سنة ١٩٥٦.

ـ **والغسانيون** الذين تغلبوا على إمارة الضجاعمة في البلقاء أواخر القرن الثاني بعد الميلاد، واتخذوا مدينة بصرى عاصمة لهم، وتمتعوا لدى الرومانيين بحظ كبير لحاجة هؤلاء إليهم لدفع الخطر الفارسي، وأغدق عليهم الرومان النعم والألقاب حتى أصبحوا ملوكاً وتخلوا عن الأوثان واعتنقوا النصرانية[1]؛

ومنها الغسانيون في بصرى من حلفاء الرومان،

ـ **واللخميون** وهم من التنوخيين الذين اتجهوا شطر العراق، واتخذوا الحيرة في النجف قاعدة لهم؛ وكان اللخميون عمالاً للفرس على أطراف العراق، عندما كان الغسانيون عمالاً للرومانيين في مشارف الشام؛ وكان أول ملوكهم عمرو بن عدي (٢٦٨ـ٢٨٨ ب.م.)، وآخرهم المنذر بن النعمان (٦٢٨ـ٦٣٢ ب.م.)[2].

ومنها اللخميون التنوخيون في الحيرة من حلفاء الفرس.

٤٣ ـ هذا وفي الجملة: أن الرومان لما افتتحوا سوريا وجدوا عرب الحجاز واليمن منتشرين فيها في كل مكان، وكان لهم على الأقل دولتان زاهرتان: هما دولة الأنباط ودولة آل السميذع بتدمر؛ بل تقدم العرب حتى بلغوا ديار بكر وديار ربيعة[3] التي يحدُّها شمالاً أرمينيا في الأناضول، بل بلغوا أكثر من ذلك حتى صاروا على مقربة من القفقاس كما يشير إلى ذلك «آسكيلوس Aesckylus» اليوناني (٥٢٥ـ٤٥٦ ق.م.)؛ ويؤسفنا أن بعض دوائر المعارف اليوم استجهلت أسكيلوس المذكور وظنوا أنه لا يعرف عن بلاد

عند الفتح الروماني كان عرب الجزيرة في كل مكان من سوريا بل وصلوا شمالاً إلى أرمينيا والقفقاس كما ذكر اليونان.

(١) **قوافل العروبة** السابق، الصفحة ٢٠.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ٢١.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٢٢.

العرب شيئاً[١] رغم مجاورة اليونان لهم في الأناضول، ونسوا توسع الموجات العربية التي بلغت شرقي الأناضول حينذاك، وأصبحت أعلام قبائلهم من بكر وربيعة علماً على تلك الأراضي، ومنها ما خُلِّد حتى اليوم.

سفورزا يقول إن سوريا في عهد الرومان إنما كانت قطراً عربياً يتولاه أمراء عرب.

٤٤ ـ وإن انتشار العرب في كل مكان من سوريا قبل الرومان هو الذي حد بالكونت سفورزا وزير خارجية إيطاليا سابقاً إلى القول في كتابه الذي نشر عام ١٩٣٩: «وإذا سألت الإمبراطورية الرومانية الشرقية لعلمت أنها كانت تسيطر على سوريا باعتبار أنها قطر عربي، يتولاه أمراء العرب الذين كانوا يؤلِّفون أكثرية السكان»[٢]، بل كلهم: لأن مَنْ عداهم من الشعوب الأخرى المجهولة الأصل كانت قد ذابت في الموجات العربية منذ زمن بعيد كما سوف نشير إليه أدناه.

دوسو يقول أيضاً: آثار سوريا في عهد الرومان هي آثار عربية.

٤٥ ـ وقد أَيَّد دوسو R. Dussaud ذلك وأشار إلى أن تلك الآثار ورسوم القرى الخربة التي تُشاهَد الآن في أطراف الشام، وتدلُّ على أنها ترجع إلى العهد الروماني، إنْ هي إلاَّ مساكن عربية، كان أصحابها يزاولون الزراعة، ويتعاطون التجارة بين البادية وبلاد الحضارة[٣].

شعوب أخرى غير عربية فيما يظهر:

شعوب أخرى في الشام

٤٦ ـ هذا وقد ظهر في بلاد الشام وأعالي الرافدين في

---

(١) **تاريخ العرب قبل الإسلام**، الدكتور جواد علي، الجزء الأول، الصفحة ١٧٦، طبع بغداد سنة ١٩٥١.

(٢) **قوافل العروبة السابق**، الصفحة ٢٢.

(٣) نفس المرجع السابق.

الشمال بضعة شعوب هي في جملتها غير عربية فيما يظهر، ولم يُبَتْ في أصل أكثرهم حتى الآن، وهم: | غير عربية فيما يظهر.

- السوباريون،
- والحوريون،
- والميتانيون،
- والحثيون،
- والفلستينيون أو الفلسطينيون.

٤٧ ـ وإن جميع هذه الشعوب لم يكن لهم حضارات أصلية، بل كانت حضاراتهم عند وجودها استمراراً لحضارات العراق وبلاد الشام وفرعاً عنها؛ ثم لم يلبث أهلها أن ذابوا أيضاً في الشعوب العربية التي نزلت بلاد الشام بموجات كثيفة: | حضارات هذه الشعوب استمرار للحضارات العربية، ثم ذابوا في الموجات العربية الشامية.

٤٨ ـ وكانت **جهات العالم** بموجب المآثر البابلية أربع جهات[1]! | جهات العالم عند البابليين أربع:

- «**سوبارتو**» أي جهة الشمال، | سوبارتو،
- وبلاد «**أكد**» أي الجنوب، | وأكد،
- وبلاد «**عيلام**» أي الشرق، | وعيلام،
- وبلاد «**عامورو**» أي جهة الغرب (سوريا فيما بعد). | وعامور.

٤٩ ـ وقد حار الباحثون في أصول «**السوباريين**» و«**الحوريين**» حتى ذهب بعضهم إلى أن الاسمين يُطلقَان على قوم واحد، غير أن أحدث الآراء وأصحها: أن هذين الاسمين يُطلقَان | السوباريون والحوريون قومان.

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الثاني، الصفحة ٣٦٢، طبع بغداد سنة ١٩٥٦.

على قومين متميزين بعضهما عن بعض[1].

السوباريون أقدم وعاصروا سومر وأكد دون كيان سياسي ثم ذابوا في الآشوريين.

٥٠ - أمَّا «**السوباريون**» فكانوا أقدم القومين، ويُستدَلُّ من بعض الإشارات على وجودهم جنباً إلى جنب مع السومريين والأكديين، ولا يُعلَم لبلادهم حدود بالضبط، إلاً أنهم في شمالي العراق، ولم يُعرَف عنهم أنهم كوَّنوا لأنفسهم كياناً سياسياً، وقد استحوذ الآشوريون على بلادهم فيما بعد وأذابوهم في كيان الآشوريين العرقي[2].

الحوريون لم يُعرَف أصلهم بعد.

٥١ - وأما «**الحوريون**» فإن أصلهم ونسبهم إلى الأقوام المعروفة لم يُبَتْ فيه بعد على وجه التأكيد، كما أن لغتهم لا يمكن القطع بكونها من اللغات الهندية الأوروبية[3].

وربما كان موطنهم الأصلي بلاد النايري في آرارات، و «وحورو» معناه إقليم الساحل.

٥٢ - وربما كان **موطن الحوريين** الأصلي في بلاد «النايري»، وهو الاسم الذي أطلقه الآشوريون على الإقليم الواقع إلى الشمال والشرق من بحيرة وان Van[4] في شرقي تركيا اليوم، وسميت بلاد «النايري» بعد ذلك بمملكة «أورارتو» بعد ظهورها في القرن التاسع قبل الميلاد[5]. كما سمَّاها العبرانيون في التوراة باسم «آرارات»[6] ومعناه جبل النار[7].

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٣٦١.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحات ٣٦١.٣٦٢.

(٣) نفس المرجع السابق الصفحة ٣٦٤؛ وكذلك **موسوعة تاريخ العالم**، وليام لانجر William Langer، الجزء الأول، الصفحة ٦١، ترجمة عربية، طبع مصر - أولى.

(٤) **موسوعة تاريخ العالم** السابقة، الجزء الأول، الصفحة ٦٠.

(٥) **مقدمة تاريخ الحضارات** السابقة، الصفحة ٣٦٦.

(٦) **تاريخ الأمة الأرمنية**، عثمان الترك، الصفحة ٣١.

(٧) **تاريخ الأمة الأرمنية**، عثمان الترك، الصفحة ٢٥، طبع حلب سنة ١٩٦٠.

واسم «حورو» معناه إقليم الساحل[١] ولعل سكناهم سواحل «بحيرة وان» هو سبب تسميتهم بالحوريين.

انتشر الحوريون بعد ذلك في السابع عشر ق.م في آشور وكونوا مملكة «ميتاني».

٥٣ ـ وقد تحرك الحوريون من ذلك الموطن في أوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد إلى شرقي آشور وغربيها وأسسوا عدداً من الإمارات التي اتحدت بعد ذلك تحت حكم ملوك «ميتاني» الذين هم من أصل هندي ـ إيراني فيما يظهر؛

وانتشروا في آسيا الصغرى وسوريا وفي بلاد العرب الصخرية ولم يكوِّنوا ممالك دائمة.

كما انتشر الحوريون بعد ذلك في أجزاء من آسيا الصغرى وسوريا دون أن ينظِّموا ممالك دائمة[٢]؛

وكذلك سكنوا بلاد الأدوميين العرب الذي تقدم ذكرهم في منطقة بلاد العرب الحجرية والصخرية، وظلوا فيها إلى أن غلبهم عليها الأدوميون، ويسمي اليونان أولئك الحوريين بسكان الكهوف القدماء Troglodytes[٣].

الميتانيون حوريون ولكن حكامهم بعد الحوريين هنود أوروبيون.

٥٤ ـ وأمّا «الميتانيون» فهم الدولة التي قامت على أنقاض الحوريين في شمالي ما بين النهرين بعد أن تقلص نفوذ الحوريين، وكان سكانها في الدرجة الأولى من الحوريين غير أن الطبقة الحاكمة فيها هم من الأقوام الهندية الأوروبية كما تدل عليه أسماؤهم[٤].

---

(١) **الحضارة الفينيقية**، ج: كونتنو، ترجمة عربية، الصفحة ٣٥، طبع دار الكتاب العربي بمصر.

(٢) **موسوعة تاريخ العالم** السابقة، الصفحات ٦٠ـ٦١.

(٣) **العرب قبل الإسلام**، جرجي زيدان، طبعة جديدة بإشراف الدكتور حسين مؤنس، الصفحة ٨١ـ٨٢.

(٤) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة** الموصوفة سابقاً، الجزء الثاني، الصفحة ٣٦٤.

لغتهم المحلية حورية لكن وثائقهم بالبابلية.

٥٥ ـ وقد اتخذ ملوك ميتاني اللغة البابلية والخط المسماري في أغلب وثائقهم ومراسلاتهم الدولية؛ ولكن المرجَّح أن اللغة الرسمية المحلية كانت اللغة الحورية.

دامت مملكة ميتاني قرنين ثم ذابت في الآشوريين كما ذاب السوباريون.

٥٦ ـ وقد دامت هذه المملكة، منذ تأسيسها (في حدود ١٥٠٠ ق.م.) إلى زمن ابتلاعها من جانب الآشوريين، نحواً من قرنين، ثم ذاب أهلوها في الآشوريين[١] كما ذاب فيهم السوباريون من قبل.

الحثيون نزلوا في آسيا الصغرى وأصلهم فيما يظهر هنود أوروبيون وحضارتهم في الألف الثاني ق.م.

٥٧ ـ **وأما «الحثيون»** فيذهب معظم الباحثين إلى أن أصلهم من الأقوام الهندية الأوروبية الذين نزلوا أولاً في آسيا الصغرى وكوَّنوا الدولة الحثية والحضارة الحثية في معظم الألف الثاني قبل الميلاد؛ وكانت عاصمتهم القديمة «حاتو شاش»، ويُعرَف الآن موضعها باسم «بوغاز كوي».

بانهيارهم في آسيا الصغرى انتقلت فلولهم إلى سوريا في جرابلس.

٥٨ ـ ولمَّا انهارت الدولة الحثية في عام ١٢٠٠ قبل الميلاد واختفى اسمها نهائياً في آسيا الصغرى تحت ضغط هجرات عظيمة من الأقوام الهندية الأوروبية مثل «الفريجيين» وشعوب بحر الأبيض المتوسط مثل «الإيجيين» انتقلت فلول الحثيين من آسيا الصغرى إلى شمالي سوريا وكوَّنوا هناك دولاً صغيراً ظلت نحواً من خمسة قرون، وكان من أشهرها مملكة «كركميش» نسبة إلى عاصمتهم وهي الآن «جرابلس»[٢].

ثم قضى عليهم

غير أن عهدهم هذا صادفه توسع الآشوريين وزمن عنفوانهم العسكري، فشددوا عليهم الخناق حتى قضوا على

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٣٦٥.

(٢) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، الجزء الثاني، الصفحة ٣٥٥؛ وكذلك **موسوعة تاريخ العالم** السابقة، الصفحة ٨٤.

كيانهم السياسي في عهد سرجون الآشوري حين غزا أهم مدنهم «كركميش» في عام ٧١٧ قبل الميلاد[١]، وبذلك دخل الحثيون هنا أيضاً في تاريخ النسيان وذابوا أخيراً في الموجات العربية الأخرى في سوريا دون أن يتركوا لهم أثراً، كما ذابوا من قبل في آسيا الصغرى في الهجرات الجديدة الهندية الأوروبية.

الآشوريون بعد خمسة قرون وذابوا في الآشوريين أيضاً.

٥٩ ـ هذا وإن بعض الباحثين اليوم يرجعون أصل الحثيين إلى بني حث ابن كنعان كما جاء في سفر التكوين والإصحاح العاشر عدد ١٥، ويعتبرون الشعب الحثي أحد الفروع الكنعانية العربية القادمة من جنوبي سوريا، وأنهم صعدوا من هناك حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد إلى آسيا الصغرى، ثم توطَّنوا في شمالي سوريا بين نهري بليخ والعاصي[٢]؛ ويشهد لعروبتهم نص المعاهدة الحثية المصرية التي اكتشفت حديثاً في «بوغاز كوي» مكتوبة باللغة البابلية العربية في عام ١٢٧٩ قبل الميلاد[٣] مما يدل على أن اللغة البابلية هي اللغة المشتركة بين هذه الأقوام جميعاً.

ويرى بعض الباحثين أن الحثيين هم من الفروع الكنعانية كما تدل عليه التوراة.

٦٠ ـ وقد تقدَّم معنا في كلمتنا المختصرة عن الحثيين (الصفحة ٦٨) أن حضارة الحثيين ما هي في الحقيقة إلا «حضارة فرعية من حضارة العراق القديمة الأولى».

حضارة الحثيين فرع من حضارة العراق العربية.

٦١ ـ **وأما «الفلستينيون» أو** «الفلسطينيون» فهم فرع من هجرة الأقوام «الإيجية» أي «المينية»، وقد تقدم معنا في الصفحة

الفلستينيون في فلسطين

---

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) **المجلة البطريركية السريانية**، يصدرها دير مارمارقس للسريان بالقدس، السنة الخامسة ١٩٣٨، الصفحة ٢٦٤ـ٢٦٥.

(٣) **العرب** لمحمود كامل، الصفحة ٦٤، طبع مصر سنة ١٩٥٦.

(١٠٥) والفقرة (١٠) أن القبائل الإغريقية هي التي قضت على آخر **دولة مينية** في حدود ١٢٠٠-١١٠٠ قبل الميلاد، وقد نشأ عن ذلك أن هاجرت فلول «المينيين» أي «الإيجيين» بعد القضاء على كيانهم السياسي إلى أنحاء الشرق الأدنى، وجاء فرع منهم واستوطن سواحل البحر المتوسط الجنوبي، وقد عرف هذا الفرع باسم «الفلستينيين» أو «الفلسطينيين»، ومنهم اشتق اسم «فلسطين»، وذهب فرع آخر منهم إلى آسيا الصغرى كما أشرنا إليه أعلاه في الفقرة (٥٢) وقضى على كيان الإمبراطورية الحثية في حدود (١٢٠٠) قبل الميلاد[١].

هجرة إيجية بعد قضاء اليونان على دولتهم المينية.

٦٢ - وإن الفلسطينيين هؤلاء كانوا هجرة مستضعفة فرَّت من القتل الذي أخضعهم إليه الإغريق، فذهبوا أولاً إلى مصر فطردهم رعمسيس الثالث، فالتجأوا إلى ساحل بلاد كنعان الجنوبية المعروفة اليوم بفلسطين حيث استقرَّ بهم الجلاء والتشريد، غير أنهم لم يلبثوا أن ذابوا في الموجات العربية الكبرى المستقرة هناك: من الكنعانيين والآراميين وغيرهم، ولم يُعرَف عنهم بعد ذلك أي أثر.

وهم هجرة مستضعفة استقروا في ساحل كنعان ثم ذابوا في الموجات العربية دون أثر.

٦٣ - ولفظ «فلسطين» مشتق كما قلنا من اسم «الفلستين»، وكان هيرودوت المؤرخ اليوناني أول مَنْ استعمله[٢] لإطلاقه على تلك الأراضي الساحلية من بلاد كنعان بعد أن نزل بها الإيجيون الفلستينيون، واستوطنوا في قسم من السهل الساحلي مدة حيث نظّموا خمس مستعمرات في خمس مدن: عسقلان، أشدود، أكرون، جات، غزة[٣].

فلسطين مشتقة من اسمهم وهيرودوت أول مَنْ أطلقها على ساحل كنعان.

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات** السابقة، الجزء الثاني، الصفحات ٥٢٥-٥٢٦، و ٥٣٠.

(٢) **موسوعة تاريخ العالم**، وليام لانجر، الجزء الأول، ترجمة عربية، الصفحة ٦٣.

(٣) نفس المرجع السابق، الصفحة ٦٥.

هـ ـ سكان جنوبي شبه جزيرة العرب

كلامنا فيما تقدم عن سكان مصر والشام والعراق أثبت لهم هجرات من جزيرة العرب أذابوا فيهم مَنْ عداهم.

١ ـ لقد انتهينا فيما سبق من الكلام عن السكان في كل من:

ـ وادي النيل في مصر،

ـ والرافدين في العراق،

ـ وبلاد الشام في سوريا،

إلى أن معظم السكان الذين استقرّوا في هذه الأقطار، وأذابوا فيهم مَنْ عداهم، إنما هم هجرات صادرة عن **جنوبي شبه جزيرة العرب** في موجات متعددة فيما قبل التاريخ وفيما بعده.

كلامنا الآن عن مهد العرب الأصلي وعن شعوبه.

٢ ـ وبذلك نصل الآن إلى الكلام في الحقيقة:

ـ عن المهد الأصلي للعرب.

ـ وعن شعوب ذلك المهد.

للعلماء في مهد العرب الأصلي مذاهب:

٣ ـ وقد اندفع العلماء بعد اعترافهم **بنظرية الجنس العربي (السامي)** يبحثون عن **المهد الأصلي للعرب**، وذهبوا في ذلك مذاهب[١]:

---

(١) **تاريخ العرب قبل الإسلام**، الدكتور جواد علي، الجزء الأول، الصفحة ١٥٠، طبع بغداد سنة ١٩٥١.

أنه أفريقيا، - فرأى فريق منهم أن **أفريقيا** هي وطن العرب الأقدم لما لاحظوه من وجود صلة بين اللغات العربية والحامية؛

أو أرمينيا، - ورأى آخرون أن **أرض أرمينيا** حول جبال آرارات فيما وراء مملكة الرها (أورفة اليوم) من المملكات العربية القديمة هي ذلك الوطن الأول للعرب؛

أو سوريا، - وذهب جماعة أخرى إلى أن ذلك الوطن الأصلي هو **أرض العاموريين** في سوريا؛

أو بابل، - وقال نفر آخر: إن **أرض بابل** كانت هي المهد الأول للعرب؛

وأكثرهم: أنه جزيرة العرب لأدلة كثيرة. - وذهب معظم العلماء إلى أن **جزيرة العرب** هي المهد الأول، وأَيَّدوا نظريتهم هذه بأدلة كثيرة: تاريخية، وجغرافية، ولغوية، ودينية[1].

والرأي العلمي المستقر أنهم من جزيرة العرب ومن جنوبيها. **٤** - وهكذا فإن الرأي العلمي الذي استقرَّ عليه العلماء اليوم هو القائل «بتكوين الأقوام العربية في شبه الجزيرة العربية»[2].

وقال في ذلك قائلهم: «وإلى أن يثبت أن الساميين (العرب) جاءوا إلى بلاد العرب من بلاد غيرها، يلزمنا أن نعتبر جزيرة العرب الوطن الأصلي للساميين (العرب)؛ ولعله من الممكن تحديد هذا الوطن في **القسم الجنوبي من هذه الجزيرة**»[3].

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٥٢-١٥٣.

(٢) **العرب**، محمود كامل، الصفحة ٣١، طبع مصر سنة ١٩٥٦.

(٣) نفس المرجع السابق نقلاً عن **تاريخ العرب**: «عصر ما قبل الإسلام»، لمؤلفه محمد مبروك نافع، الطبعة الثانية، الصفحة ١٣-١٤.

٥ ـ فمَنْ هم هؤلاء الأقوام العربية الذين كانت بلادهم في **جنوبي شبه جزيرة العرب** هي الخزان الذي يفيض بما يزيد عن طاقته في حقب متعاقبة، تبلغ الواحدة منها زهاء ألف عام، ويقذف بهم إلى تلك الأقطار التي تكلمنا عنها: فيما بين مصر إلى العراق، وفيما بين اليمن إلى أعالي بلاد الشام، بل وإلى أبعد من ذلك: «في أفريقيا الشمالية والبلقان وإيطاليا وإسبانيا»[١]؟.

فمَنْ هم هؤلاء الأقوام في جنوبي الجزيرة العربية؟.

٦ ـ لقد حصر ابن خلدون في كتابه العبر: أجيال العرب من مبدإِ الخليقة إلى عهده في أربع طبقات[٢]:

العرب أربعة أجيال عند ابن خلدون:

أولاً ـ العرب العاربة، أي الراسخة في العروبة أو المبتدعة لها، وقد تُسمَّى **العرب البائدة** لأنهم العرب القدماء الذين كانوا بعد الطوفان وعصر نوح ممَّنْ انقرضوا وبادوا: من عاد الأولى وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم ومَنْ ينتمي إليهم؛

العرب العاربة،

ثانياً ـ العرب المستعربة، أي الذين انتقلت إليهم ممَّنْ قبلهم من أقربائهم البائدين جميع السمات والشعائر العربية، وهم بنو حمير بن سبأ وكهلان وأعقابهم من التبابعة ومَنْ انتسب إليهم؛

العرب المستعربة،

ثالثاً ـ العرب التابعة، أي الذين تبعوا أولئك العرب من أبناء إسماعيل: من ربيعة ومضر وإِياد ونزار وعدنان ومَنْ انتسب إليهم؛

العرب التابعة،

---

(١) انظر الصفحة ١٦٦، والفقرة ٨

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الآلوسي، الجزء الأول، الصفحة ١٠٨، الطبعة الثانية، طبع مصر سنة ١٩٢٤.

العرب المستعجمة.

رابعاً - العرب المستعجمة: أي الذين استعجمت لغتهم بعد ذلك على اللسان المضري الذي نزل به القرآن.

الأجيال الثلاثة الأولى في مسكنها الجنوبي هي التي تهمنا.

٧ - والذي يهمنا من هذه الأجيال العربية الأربعة في هذا المقام إنما هي الأَجيال العربية الثلاثة الأولى ممَّنْ سكنوا بمعظمهم جنوبي شبه الجزيرة العربية، وما كان لهم من شأن في بلادهم ومهد العرب الأصلي.

لا نعرف شيئاً عن هذه المنطقة قبل مملكتي معين وسبأ إِلاَّ عمَّن ارتحلوا عنها.

٨ - ولكن من المؤسف جداً أنه حتى الآن «لا يُعْرَف شيء عن هذه المنطقة **قبل عصر مملكتي معين** وسبأ التاريخيتين في جنوبي بلاد العرب[١]» **إلا ما كان من أخبار فرعية** عن طريق الشعوب العربية القديمة في مصر وفي بلاد الشام وفي بلاد الرافدين في العراق، **إذ لم يعد فرضاً** بل أصبح ثابتاً أنه منذ عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد تدفقت موجات من هجرات قادمة من بلاد العرب وانتشرت في بلاد بابل وبلاد الشام ومصر[٢]، ويقول **ابن خلدون في ذلك:** «وكان لهذه الأمم ملوك ودول في جزيرة العرب، وامتدَّ ملكهم فيها إلى الشام ومصر في شعوب منهم»[٣].

الدولة المعينية هي الأولى المعروفة في التاريخ هناك.

٩ - هذا وقد أجمع المؤرخون للعرب قبل الإسلام على أن الدولة الأولى التي ظهرت في هذه الحقبة من التاريخ المعروف عن هذه المنطقة في شبه الجزيرة العربية **إنما كانت الدولة المعينية**؛

---

(١) **موسوعة تاريخ العالم**، وليام لانجر، الجزء الأول، الصفحة ٢٧، طبعة أولى، ترجمة عربية.

(٢) **الدولة العربية الكبرى**، محمود كامل، الصفحة ١٠٨، طبع دار المعارف بمصر.

(٣) **العرب قبل الإسلام**، جرجي زيدان، طبعة جديدة، الصفحة ٤٩.

غير أن هؤلاء المؤرخين اختلفوا في تاريخ ظهور هذه الدولة واندثارها: فذهب البعض إلى أنها بدأت عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد وانتهت عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، وذهب آخرون إلى أنها عاشت بين سني ١٣٠٠ و ٦٣٠ قبل الميلاد[١]؛ ونحن نستبعد الرأي الثاني. بدء تاريخها مختلف فيه.

١٠ - ومن الدول التي عرفها التاريخ في هذه المنطقة: ومن دول تلك المنطقة.

- **الدولة السبأية**، وينسب العرب تأسيسها إلى عبد شمس بن يشجب الذي يقولون فيه أنه لُقِّب بسبأ لأَنه أكثر من الغزو في أقطار العالم وسبأ خلقاً كثيراً، وكان يعبد الشمس فسمي عبد شمس، وهو باني مدينة «بابليون» في مصر باسم ابنه «بابليون» الذي خلفه والياً على مصر[٢]؛ وأن كلمة «بابليون» وكذلك «بابل» مأخوذة من لفظ سامي (عربي) معناه «باب إيلي» أي باب الآلهة[٣]، الدولة السبأية،

- **والدولة القتبانية**، وقد عاصرت الدولة المعينية؛ والقتبانية،

- **والدولة الحضرموتية** في حضرموت. والحضرموتية.

١١ - وهؤلاء جميعهم أصحاب دول ومدنيات لها شأنها العظيم في التاريخ، **ويقول صموئيل لاينع** حول الكلام عن آثار اليمن القديمة وعمرانها[٤]: «والأمر المهم من ناحية اكتشاف تلك الدول هي أصحاب مدنيات وعلم، وأحرف

---

(١) **الدولة العربية الكبرى**، المرجع الأسبق، الصفحة ١٠٠.

(٢) **ملوك حمير وأقيال اليمن**، الصفحة ١٠-١١، طبع مصر، المطبعة السلفية سنة ١٣٧٨ هـ؛ وكذلك **الدولة العربية الكبرى**، المرجع السابق، الصفحة ١٠٥.

(٣) **شريعة حمورابي** للدكتور عبد الرحمن الكيالي، الصفحة ٤٨، طبع حلب سنة ١٩٥٨.

(٤) **قوافل العروبة**، جميل بيهم، الجزء الأول، الصفحة ٢٧، طبعة أولى سنة ١٩٤٨.

هجائية يراها البعض أنها أصل الأحرف الفينيقية.

هذه الآثار العربية، ليس كونها كشفت لنا عن وجود مملكة عربية عريقة في القدم والتمدن والتجارة فحسب، بل كونها بيَّنت لنا أَنهم أصحاب علم، ولهم أحرف هجائية خاصة لا يقل قدمها عن الخطين الهيروغليفي والآشوري»؛ **وقد أضاف إلى ذلك**: أن الخط الذي وضعه المعينيون أقدم من الخط الفينيقي الذي هو أصل للحروف الهجائية الرومانية واليونانية، **وأشار إلى أن** بعض علماء اللغات يرون أن الفينيقيين نقلوا أحرفهم الهجائية من بلاد العرب.

اليمن عند هيرودوت أغنى قطر في العالم، وقصورها تأخذ بالألباب.

١٢ ـ ويروى أن هيرودوت المؤرخ اليوناني الشهير (٤٠٧ـ٤٨٤ ق.م) قد زار اليمن، وأنه قد أوحت إليه مناظرها أنها أغنى قطر في العالم؛ وأثار جمال قصورها قريحته فوصفها بما يأخذ الألباب.

وجرى مجرى هيرودوت «أغاثريدس» (١٦٥ ق.م.)، وسترابون (٢٤ ق.م.)، وبالغا في وصف تلك القصور، وما فيها من جواهر وذهب(١).

وعند العرب كان قصر مأرب معجزة المعجزات.

١٣ ـ وأمَّا العرب الذين أُتيحت لهم فرصة مشاهدة هياكل تلك القصور فقد بزّوا غيرهم في وصفها، وذكروا أن قصر غمدان كان مؤلفاً من عشرين طابقاً، وأن قصر مأرب معجزة المعجزات؛ وفي الواقع إِن مثل هذا كان قبل ألفي سنة أشد روعة في نظر الناس من بناية أمبير ستيت بنيويورك Empire State Building.

مؤرخو اليونان والرومان

١٤ ـ وإن ذلك العمران الحضاري الذي شاهده مؤرخو

---

(١) نفس المرجع السابق.

اليونان والرومان في شبه جنوبي الجزيرة العربية، وما شاهدوه فيها من رخاء عجيب، هو الذي حدا بهم على أن يطلقوا على تلك المنطقة وما جاورها: **اسم البلاد العربية السعيدة** (ترجمة لكلمة اليمن) في ذلك التقسيم الثلاثي الذي قسموا فيه بلاد العرب كما يلي[1]:

سموا جنوبي شبه الجزيرة بالبلاد العربية السعيدة لما شاهدوا فيها من عمران وحضارة.

أولاً ـ البلاد العربية السعيدة Arabia Felix؛ ومن شعوب هذه المنطقة: المعينيون والسبئيون والقتبانيون والحميريون والثموديون؛

ثانياً ـ البلاد العربية الصخرية أي الحجرية Arabia Petraea، ويدخل فيها مملكة الأنباط التي كانت عاصمتها «بطرا»، وقد دخلت حين ضعفها تحت نفوذ الرومان في عهد «تراجان» عام «١٠٦ ب.م.» وأطلقوا عليها اسم «المقاطعة العربية Provincia Arabia»؛

ثالثاً ـ البلاد العربية الصحراوية Arabia Deserta، وتشمل بقية الأجزاء.

١٥ ـ ويتضح مما سبق بيانه عن الشعوب التي سكنت المهد الأصلي، وكانت الخزان الذي يفيض في القديم بما يزيد عن طاقته من وقت إلى آخر، إلى كلٍّ من مصر وبلاد الشام وبلاد بابل وآشور وغيرها:

نرى من ذلك أن المهد الأصلي للعرب دفع إلى مصر والشام وبابل شعوباً مالكة لناصية الحضارة.

أولاً ـ أنها لم تكن شعوباً بدائية في حياتها،

ثانياً ـ أنها كانت على جانب كبير من الحضارة والعمران،

(١) **تاريخ العرب قبل الإسلام**، جواد علي، الجزء الأول، الصفحة ١١٧، طبع بغداد سنة ١٩٥١.

ثالثاً ـ أنها حين كانت تخرج في موجات متعاقبة مهاجرة إلى مواطنها الجديدة كانت شعوباً مالكة لناصية الحضارة، وحاملة معها أصول المدنية والعمران.

القول بوحدة المهد الحضاري لمصر والشام والعراق يفسّر سنّ التقارب في حضارتها.

١٦ ـ وهذا هو وحده الذي يفسّر لنا سر التقارب في مظاهر الحضارات القديمة في كل من مصر والعراق وبلاد الشام، مما جعل العلماء حينما غفلوا عن وحدة المهد الأَصلي الحضاري لهذه الشعوب:

ـ يتساءلون أولاً ويبحثون عبثاً عن أي من الحضارتين: المصرية والبابلية، هو الأسبق والمؤثر في الأخرى[١]؛

ـ ويجهلون ثانياً الحضارة الأصلية التي قامت في بلاد الشام في نفس الوقت الذي كانت الحضارة مزدهرة في كل من مصر والعراق، ويظنون خطأً أن الحضارة الشامية لم تكن إلا نتيجة التقاء الحضارتين في ربوعها[٢].

الحضارة العربية الأم في مهدها تثبت أصالة الحضارة في كل من مصر والشام والعراق.

١٧ ـ ولكن الكشف عن المهد الأصلي لهذه الحضارات والشعوب، ومشاهدة آثار تلك الحضارة الأم الرائعة المبدعة في مهدها، لا يبقي مجالاً لذلك التساؤل حول الحضارتين المصرية والبابلية، ويقضي على تلك الظنون الخاطئة حول عدم أصالة الحضارة في بلاد الشام.

ضرورة التنويه بتلك الحضارة الأم.

١٨ ـ ونرى من المفيد زيادة على ما تقدم أن نلحّ هنا على التنويه بتلك الحضارة الأم في تلك البلاد العربية السعيدة ليكون في ذلك فصل الخطاب.

---

(١) **العرب**، محمود كامل، الصفحة ١٢، طبع مصر سنة ١٩٥٦.

(٢) نفس المرجع السابق.

١٩ ـ يقول الأستاذ **هانري ماسي**[١] H.Massé : «إن اليمن، وأعني بها جنوبي البلاد، أو ما يسمونه بالبلاد السعيدة (ترجمة لكلمة اليمن)، اشتهرت في كل الأزمان بخصبها وغناها؛ وإن خرائبها تشهد لها بماضٍ سياسي لامع».

اشتهار اليمن بغناها وماضيها السياسي اللامع.

٢٠ ـ ويقول **هانري ماسي** أيضاً عن عُمَان[٢] : «أما عُمَان الواقعة في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة العرب فهي أيضاً بلاد جبلية وخصبة جداً، وإن شاطئها مملوء بالمرافىء، ومن هذه المرافىء خرج البحارة العرب الذين خلدوا آثارهم في تاريخ الملاحة. وإن مسقط قد حلَّت مكان العاصمة القديمة الشَحْر المسماة من قبل بعض الجغرافيين العرب بباب الصين».

خصب عُمَان ومنها خرج البحارة العرب الخالدون، وسُميت مسقط بباب الصين.

٢١ ـ ثم يقول **هانري ماسي**: «وأخيراً فعلى طول الخليج الفارسي تمتدُّ بلاد البحرين، وهي بلاد صيادي الدُّرِ، تلك البلاد التي غدت ثروتها في شجر التمر مضرب الأمثال».

بلاد البحرين وتمرها وصيد الدر.

٢٢ ـ ونقل إلينا **كوستاف لوبون** Gustave le Bon في كتابه «مدنية العرب» فقال[٣] : «حدثنا هيرودوت Hérodote قبل أربعمئة سنة تقريباً من ولادة المسيح عن البلاد العربية السعيدة ـ اليمن ـ كما يحدِّثنا عن أغنى قطر في الكرة الأرضية؛

غنى اليمن وسبأ عند هيرودوت وفي التوراة.

«وقالت التوراة عن مأرب، وهي مدينة سبأ الأثرية: إنه كان يوجد فيها قصور في غاية من العظمة والثراء، عليها

---

(١) انظر كتابه: **الإسلام** L'Islam، الصفحة ٨، طبع باريس سنة ١٩٣٠.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ٩.

(٣) La civilisation des Arabes، الصفحة ٦٧، طبع باريس سنة ١٨٨٤.

أبواب مذهبة، ومملوءة بأوعية من الذهب والفضة، وبالأَسِرَّة المعدَّة للراحة المصنوعة من المعادن النفيسة».

رخاء اليمن وتجارتها مع جميع العالم القديم.

٢٣ ـ وقال **گوستاف لوبون** أيضاً[١]: «إن زُهاها[٢] المدن الكبرى في اليمن كان نتيجة لقدم صلاتها التجارية وانتشارها».

«ولقد امتدت صلات العرب حتى بلغت حدود العالم المعروف، وابتدأت منذ عهود متأصلة جداً في القدم، وتحدثت عنها التوراة».

فتح اليمانيين لأفريقيا والأندلس وبلوغهم الجزر البريطانية وبحر الظلمات وإنشاء المنارات فيها،

٢٤ ـ بل جاء في كتاب «التيجان في معرفة الزمان» للإمام وهب بن منبه اليماني: أن الملك الصعب ذا القرنين بن الحارث من ملوك حمير بعد أن توغل في الفتح في أفريقيا حتى بلغ أقصاها، جاز منها إلى جزيرة الأندلس فغلب عليها إلى أقصاها، ثم ركب البحر المحيط يريد جزائر الأرض خلف جزيرة الأندلس، وبنى فيها المنارات في بحر الظلمات[٣].

عروبة شمالي أفريقيا فيما قبل الإسلام.

وفي ذلك دليل على قدم العرب في شمالي أفريقيا، ولقد كان للإسلام الفضل الأوحد في إعادتهم إلى العروبة من جديد.

المصادر الغربية تؤيد ذلك

٢٥ ـ وأيَّد ذلك الأب أنستاس الكرملي في مقالة نشرها

---

(١) المرجع السابق، الصفحة ٦٨ـ٦٩.

(٢) أي زينتها وزخرفها، وهي أقرب كلمة وجدتها لترجمة كلمة: لوكس Luxe.

(٣) كتاب: **ذو القرنين وسد الصين**، محمد راغب الطباخ، الصفحات ٢٨ـ٣٢. طبع حلب سورية.

في مجلة المقتطف المصرية في العدد الثاني من المجلد السادس بعد المئة، وهي محاضرة ألقاها في بغداد في كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٤٤ تحت عنوان «عرف العرب أميركا قبل أن يعرفها أبناء الغرب»، وأثبت فيها عن مصادر غربية: أن العرب منذ أقدم الأزمنة وقبل السيد المسيح بكثير كانوا يختلفون إلى جزيرة واقعة غربي بريطانيا العظمى: تلكم الجزر التي كان يسميها اليونان يومئذ بجزر القصدير Kasseterides، وأنهم قد سبقوا سائر الأمم إلى معرفة «تيار الخليج» الدافىء الذي يصل إلى المكسيك، وأنهم نزلوا في المكسيك، ويعرف نزولهم فيها من أسماء الحيوانات التي تحمل حتى اليوم أسماء عربية تعود إلى لغة العرب في تلك العهود القديمة(١).

وتثبت اكتشاف العرب للتيار الدافىء ووصولهم منه إلى المكسيك بدليل الأسماء العربية للحيوانات فيها.

٣٦ ـ وإن وصول العرب في تلك العهود الموغلة في القدم إلى أميركا يدل دلالة واضحة على أنهم:

وصول العرب إلى أمريكا قديماً دَلَّ على مهارتهم في الملاحة وبناء السفن وهندسة البناء.

ـ كانوا يتقنون فن الملاحة اتقاناً عجيباً بدليل ما ذهبوا إليه من البلدان النائية،

ـ وكانوا يبرعون في بناية السفن بإحكام عظيم لتتمكن من مصارعة أهوال البحار المحيطة،

ـ وكانوا مبدعين في الهندسة حتى تمكَّنوا من بناء الجواري المنشآت كالأعلام.

٣٧ ـ ولا يجوز أن ننسى في هذا المقام ما قد أثبتناه فيما تقدم:

ويجب أن لا ننسى هنا

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحات ٣٣-٤٢.

وصول العرب إلى اليونان وإيطاليا وأنهم كانوا منشأ الحضارتين.

ـ من وصول العرب إلى شبه جزيرة اليونان وأنهم كما حدَّثنا عنهم هيرودوت كانوا المنشئين للحضارة اليونانية: في صناعاتها وفي كتابتها (الصفحة ١١٠ـ١١٣)؛

ـ ومن وصول الإيتروسكيين إلى شمالي إيطاليا قبل الرومانيين، وأنهم كانوا أول مَنْ أنشأ الحضارة فيها (الصفحة ١٦٢ـ١٦٣)، وأن هؤلاء الإيتروسكيين كانوا هجرة عربية ومن أبناء عمومة القرطاجيين العرب في تونس كما نقله إلينا أريستو (الصفحات ١٧٢ـ١٧٧)[1]؛

ـ وكذلك ما أعلنه العلماء من أن عرب بلاد الشام القدماء: هم الذين كشفوا جزيرة كريت (أقريطش) وأنشأوا فيها الموانىء والمراكز التجارية، وهم الذين كشفوا صقلية وأنشأوا موانيها، وأول مَنْ وصل إلى شواطىء شبه جزيرة إيبيريا (إسبانيا والبرتغال اليوم) وانشأوا فيها الموانىء والأسواق، بل أول مَنْ وصل إلى بريطانيا وإيرلندا وبلاد الشمال[2].

مدن اليمن الكبرى ظلّت

٢٨ ـ ونختم هذا المبحث عن حضارة سكان جنوبي شبه الجزيرة العربية بكلمة أخرى وليست الأخيرة لكوستاف

---

(١) ولقد تجمعت لديَّ الوثائق الآن التي تثبت أيضاً أن مدينة طروادة التاريخية على مدخل الدردنيل هي مدينة عربية، وأن أهلها هم أول مَنْ اكتشف معدن الرصاص والنحاس والذهب في أوروبا الوسطى، وأنهم أول مَنْ علَّم المجاورين للمناجم هناك الصناعات المعدنية. وقد وضعت في ذلك محاضرة، وهي قيد الطبع.

(٢) من مقالة «**البحر الأبيض المتوسط قبل الإسلام**» للدكتور حسين مؤنس في مجلة العربي، العدد ٦٠ سنة ١٩٦٣، تشرين الثاني، الصفحة ٥١، طبع الكويت.

لوبون حيث قال[1]: «ولقد ظلت المدن الكبرى في اليمن مدة تزيد عن ألفي سنة هي المستودعات التجارية الحقة للعالم أجمع، ولعبت نفس الدور الذي لعبته البندقية في عهدها الزاهر».

ألفي سنة مستودعات للعالم أجمع.

(١) كتاب: مدنية العرب السابق، الصفحة ٦٨-٦٩.

و ـ الاسم الأصلي لهذه الشعوب ولمنشاهم والمعنى الحقيقي لهذا الاسم

تقدم معنا أن الشعوب التي أنشأت أول حضارة في مصر والشام والعراق إنما هي من جزيرة العرب، فما اسمهم الأصلي؟

١ ـ تقدم معنا في المباحث السابقة أن **جميع الشعوب**:

ـ التي انتشرت فيما قبل التاريخ وبعده، من جنوبي شبه الجزيرة العربية إلى أقصى الشمال في بلاد الشام، ومن وادي النيل في مصر إلى أراضي الرافدين في العراق،

ـ والتي أَنشأت أول حضارة إنسانية في تاريخ البشرية،

إنما هي شعوب ترجع في أصلها وفي مهدها إلى سكان شبه الجزيرة العربية وخاصة إلى جنوبيها، **فما هو اسمها الأصلي؟**

هناك مصادر قديمة وحديثة للجواب على ذلك:

٢ ـ للجواب على ذلك سوف نستعرض:

أولاً ـ المصادر القديمة: العربية والإسرائيلية واليونانية والرومانية،

ثانياً ـ المصادر الحديثة المعتمدة على جدول الأنساب الواردة في التوراة.

المصادر العربية القديمة:

المصادر العربية القديمة تسميهم عرباً باسم بلدهم العرَبَات.

٣ ـ أما المصادر العربية فقد ذهبت إلى أن سكان شبه الجزيرة العربية: «**سموا عرباً باسم بلدهم العَرَبات**. وقال إسحاق بن الفرج: عَرَبَةُ باحة العرب، وباحةُ دار أبي الفصاحة إسماعيل

بن إبراهيم عليهما السلام»[١].

والعَرَبة في اللغة العربية النهر الشديد الجري، وسُمي منزل القوم عَرَبة لوجود المياه فيه.

٤ ـ و «العَرَبة» في اللغة العربية «النهر الشديد الجري»، وجمعها «عَربَات». وما كان المكان ليصلح منزلاً للقوم إلا إذا كان فيه ماء، ولذلك كثرت الأمكنة التي حملت في جزيرة العرب اسم «عَرَبة»:

ـ فباحة إسماعيل في مكة سُميت «عربة» كما تقدم لوجود مياه زمزم فيها، وغدت «عربة» لذلك اسماً من أسماء مكة،

ـ وفي تهامة «عربة»،

ـ وفي المدينة ناحية تسمى «عربة».

وعربات جمع وهو عَلَمٌ على مهد العرب لكثرة مياهه وأنهاره.

٥ ـ وهكذا لم تلبث صيغة الجمع لكلمة «عَرَبة» أي «عَرَبات» أن أصبحت علماً في اللغات العربية القديمة على مهد العرب في جزيرتهم لكثرة المياه والأنهار فيها، وإلى هذا الاسم نُسِبوا كما نقلناه أعلاه، ومن أجل تلك الصلة بالمياه الكثيرة كما بيناه، لا لمعنى «البداوة والجفاف» كما نُقِل عن العبرانيين[٢].

النقوش القديمة تسمي هؤلاء السكان بالعرب.

٦ ـ ويؤيد تسمية أولئك باسم «العرب» نقوش قديمة وصلت إلينا عن بابل[٣] وآشور[٤] والأنباط[٥]: حيث ذكر

---

(١) **تاريخ العرب**، جواد علي، الجزء الأول، الصفحة ١٧٣ـ١٧٤، طبع بغداد سنة ١٩٥١.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ١٧٢ـ١٧٣.

(٣) المرجع السابق، الصفحة ١٧٠.

(٤) **تاريخ العرب**، مطول، فيليب حتي، الجزء الأول، ترجمة عربية، الصفحة ٤٥، طبع دار الكشاف في بيروت سنة ١٩٥٨.

(٥) جواد علي المرجع الأسبق، الصفحة ١٨٣؛ وكذلك **تاريخ الجنس العربي**، محمد عزة دروزة، الجزء الخامس، الصفحة ٣٨، طبع بيروت سنة ١٩٦١.

فيها صراحة لفظ «العرب» و «أرض العرب» و «ملك العرب»، ويعود أقدمها إلى الملك الآشوري «شلمناصر الثالث» في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد عندما يذكر الملك **جندب العربي**[1].

نصوص القرآن التي لا يأتيها الشك تدعم ذلك.

٧ ـ ويدعم كلَّ ذلك النصوصُ القرآنية التي هي فوق كل تلك النصوص قوة، والتي لا يتسرَّب إليها الشك، والتي استعملت كلمة «العرب» في مواطن مختلفة:

ـ في النص على «**اللسان العربي**» كما جاء في سورة الأحقاف والآية الثانية عشرة منها: ﴿وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً﴾،

ـ وفي النص على «**الحكم العربي**» كما جاء في سورة الرعد والآية التاسعة والثلاثين: ﴿وكذلك أنزلناه حكماً عربياً﴾،

ـ وفي النص على «**القرآن العربي**» كما جاء في سورة يوسف والآية الثانية: ﴿إِنَّا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون﴾.

تلك الآيات القرآنية تدلُّ على أن كلمة العرب يُرَاد بها أصحاب اللسان العربي وأن ذلك كان مستقراً في الاستعمال.

٨ ـ ففي هذه الآيات وأمثالها دلالة لا شك فيها على أن كلمة «العرب» ـ التي استعملت في صيغة النسبة لوصف اللسان العربي والحكم العربي والقرآن العربي ـ قد كانت مستعملة للدلالة على أصحاب هذا اللسان، وأن استعمالها عَلَماً على هؤلاء الناس من سكان جزيرة العرب كان مستقراً في أذهان العرب وغير العرب، وشاملاً لجميع العرب في الجزيرة وخارجها[2]، وإِلاَّ لما صحَّ استعمال كلمة «**العربي**» وصفاً للسانهم وحكمهم وقرآنهم.

---

(١) فيليب حتي السابق.

(٢) جواد علي السابق، الصفحة ١٨٤؛ **تاريخ الجنس العربي** السابق، الجزء الخامس، الصفحة ٤٨.

المصادر الإسرائيلية القديمة:

المصادر الإسرائيلية القديمة تسميهم أيضاً عرباً.

٩ ـ وكذلك أطلقت المصادر الإسرائيلية القديمة على هؤلاء السكان من أهل شبه الجزيرة اسم «العرب» عَلَماً عليهم، وخاصة ما جاء في سفر «أرميا»: الإصحاح الخامس والعشرين والآية الرابعة والعشرين في قوله: «ملوك العرب»، وما جاء في سفر «أخبار الأيام الثاني»: الإصحاح الحادي والعشرين والآية السادسة عشرة حيث ذكر «العرب الذين بجانب الكوشيين» أي الأَحباش، وليس في ذلك من شك في أن التوراة تريد بهذا النص الأَخير «قوماً من العرب المقيمين في الجنوب الغربي من الجزيرة»(١).

المصادر اليونانية والرومانية:

المصادر اليونانية والرومانية تسميهم أيضاً عرباً وتقسم بلادهم إلى ثلاثة أقسام:

١٠ ـ وأما المصادر اليونانية والرومانية فقد نصَّت صراحة على اسم «العرب»، وكان اليونان والرومان قد أحاطوا علماً بأحوال الجزيرة العربية، وكان سكانها العرب مثل الكنعانيين الفينيقيين هم الوسطاء بين بلاد البحار الجنوبية والعالم، وهذا هو الذي هيأَ لليونان والرومان أن يكونوا على صلة كاملة مع الجزيرة العربية وسكانها وأن يقسموها إلى الأقسام الثلاثة التالية كما تقدم (الصفحات ٣٧٤ ـ ٣٨٧):

- بلاد العرب السعيدة (اليمن) Arabia Felix، — السعيدة،
- وبلاد العرب الحجرية Arabia Patraca، — والحجرية،
- وبلاد العرب الصحراوية Arabia Deserta. — والصحراوية.

---

(١) **تاريخ العرب**، مطول، حتي، الجزء الأول، الصفحة ٥٣، طبع دار الكشاف في بيروت سنة ١٩٥٨.

أول مَنْ ذكر العرب مِن اليونان هما أسكيلوس وهيرودوتس.

١١ ـ وأول مَنْ ذكر العرب في آداب اليونان هو «أسكيلوس» Aeschylus (٥٢٥ـ٤٥٦ ق.م.) عند الإشارة إلى ضابط عربي اشتهر في جيش «إحشويرش Xerxes»، ثم تلاه هيرودوتس (٤٨٤ـ٤٢٥ ق.م.)عندما تكلم عن البلاد العربية Arabae وقصد بها شبه جزيرة العرب وجزءاً من الأَرضين المصرية التي هي في شرقي وادي النيل[١].

المصادر الحديثة:

المصادر الحديثة تسميهم لأول مرة بالساميين من غير سند علمي.

١٢ ـ وأما المصادر الحديثة فقد أخذت منذ أواخر القرن الثامن عشر فقط تطلق لأول مرة في التاريخ على **سكان الجزيرة العربية** وعلى مَنْ هاجر منها اسم «**الساميين**» نسبة إلى سام بن نوح الوارد ذكره في التوراة عوضاً عن اسم «**العرب**» المشهور في التاريخ، وسعوا لتعميم استعمال هذه التسمية بين العلماء[٢]، وهي تسمية «لا تستند إلى أسس علمية»[٣]، لما سنرى من الملاحظات.

شلوتسر أول مَنْ أطلق ذلك الاسم وهو يخرج

١٣ ـ وأول مَنْ استعمل هذا الاصطلاح هو العالم النمساوي «شلوتسر Schlozer» في أبحاثه وتحقيقاته في تاريخ الأمم الغابرة سنة ١٧٨١[٤].

---

(١) المرجع السابق، الجزء الأول، الصفحة ٥٧؛ وكذلك **تاريخ العرب** السابق، لجواد علي، الجزء الأول، الصفحة ١٧٦.

(٢) **تاريخ العرب** السابق، جواد علي، الجزء الأول، الصفحة ١٤٩.

(٣) **تاريخ العرب** السابق، الجزء الثاني، الصفحة ٢٨٧، طبع بغداد سنة ١٩٥٢.

(٤) **تاريخ اللغات السامية**، إسرائيل ولفنسون، الصفحة ٢، الطبعة الأولى بمصر سنة ١٩٢٩؛ وكذلك **تاريخ العرب** السابق، الجزء الأول، الصفحة ١٤٩.

منه الكنعانيين رغم وحدة الأصل والمنشأ.

«وقد استخلص هذه التسمية من **الجدول الخاص** بأنساب نوح عليه السلام الواردة في التوراة (تكوين، الإصحاح العاشر)... **وقد تسرب** إلى نفوس بعض الباحثين شيء من الشك في صحة ما جاء في **هذا الجدول** بسبب عدم ذكره الكنعانيين بين أبناء سام في حين أن هناك روابط عنصرية ودموية وثيقة تربط الإسرائيليين بالكنعانيين»[1] في المهد والمنشأ.

تقسيم الأنساب في جدول أنساب نوح لا يستند إلى أسس علمية أو عنصرية.

١٤ ـ لذلك قال الدكتور جواد علي في الجزء الأول من كتابه «تاريخ العرب قبل الإِسلام» نقلاً عن البحّاثين من العلماء[2]: «ولا يستند التقسيم الوارد في التكوين للبشر إلى أسس علمية أو عنصرية صحيحة، بل بُني ذلك على اعتبارات سياسية: فحشر في السامية شعوباً لا يعدها العلم الحديث من جماعة الساميين مثل العيلاميين ولود (Lud أو ليديا)، وأقصى منها جماعة كان من الواجب إدخالها في هذه الزمرة مثل الفينيقيين الكنعانيين؛ ويرى بروكلمان Brockelmann أن العبرانيين كانوا قد تعمَّدوا إقصاء الكنعانيين من جدول أنساب سام لأسباب سياسية ودينية، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من الصلات العنصرية واللغوية المتينة».

لذلك أخذ علماء اليوم

١٥ ـ ولهذا فإن المؤلفين لتاريخ العرب اليوم مثل الدكتور جواد علي في كتابه «تاريخ العرب قبل الإِسلام»، ومثل

---

(١) نفس المرجع السابق: **تاريخ اللغات السامية**.

(٢) الصفحات ١٤٩ـ١٥٠، طبع سنة ١٩٥١؛ وكذلك **تاريخ اللغات السامية** السابق الصفحة ٢ـ٣.

ينبِّهون إلى خطأ التسمية بالساميين لأن فيه تغييراً لاسم العرب الذي استقر منذ القديم.

مؤلفي معالم الحضارات في الشرق والغرب، أخذوا يصححون هذا الخطأ وينكرونه لأنه «تسمية لا مبرر لها»، ولأَن فيه تغييراً لاسم «العرب» الذي قد انتشر واستقرَّ منذ القديم كما قدَّمنا في الآثار البابلية والآشورية والعبرية والفرس واليونان والرومان منذ الألف الأول قبل المسيح[١] على الأَقل، وكان ذلك لسبب لغوي كما سنراه.

لقد حان الوقت لاستبدال مصطلح «سامي» «بعربي».

١٦ ـ ولذلك قال الدكتور جواد علي[٢]: «ولعلي لست مخطئاً أو مبالغاً إذا قلت إِن الوقت قد حان لاستبدال مصطلح سامي وسامية **بعربي وعربية**، فقد رأينا أن تلك التسمية تسمية مصطنعة... وفكرة لا تستند إلى أسس علمية، وإنما قامت على بواعث عاطفية: على أساس حب الإسرائيليين أو بغضهم لمَنْ عرفوا من الشعوب».

معنى كلمة العرب وأحوال الجزيرة قديماً:

بعد أن ثبت أن شبه الجزيرة كانت تُسمَّى بالبلاد العربية، وجب تحديد معنى المادة التي اشتقت منه كلمة «العرب» وتاريخ استعمالها.

١٧ ـ بعد أن ثبت لدينا فيما تقدم:

ـ **أن شبه الجزيرة** العربية إنما كانت تُسمَّى قديماً عند العرب وغيرهم **بالبلاد العربية**،

ـ وأن **شعوبها** إنما كانوا يُسمون قديماً **بالعرب** لا بالساميين،

وجب علينا أن نحدد **معنى المادة** التي اشتُقَّت منها كلمة «العرب»، إِذْ على تحديد معنى هذه الكلمة:

ـ يتوقف الكثير من فهم تاريخ هذه الشعوب فيما أَرى،

---

(١) **تاريخ الجنس العربي**، عزة دروزة، الجزء الأول، الصفحة ١٨،١٧، طبع بيروت، الأولى.

(٢) **تاريخ العرب**، الجزء الثاني، الصفحة ٢٨٧.

ـ كما يتوقف عليه أيضاً معرفة تاريخ استعمال هذه الكلمة وجميع مشتقاتها فيما ظهر لي.

يرى المستشرقون أن أقدم نص لذكر العرب هو في التاسع ق.م. وأن معنى المادة في اللغات السامية المحل والأرض القفراء.

١٨ ـ لقد تتبع المستشرقون **تاريخ الكلمة**، كما تتبعوا **معناها** في اللغات السامية وقرروا:

ـ أن أقدم نص وصل إلينا وفيه اسم «عرب» هو نص آشوري يعود إلى عهد الملك الآشوري «شلمناصر الثالث» في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد(١)؛

ـ وأن معنى المادة في اللغة العبرانية القديمة يعني في الأَصل «الجفاف والصحراء والبدو»(٢)، وأن كلمة «عرب» مأخوذة من مادة «عرب» بمعنى «أمحل أو أجدب» في كثير من اللغات السامية، وأن صيغة «عرابه أو عربة» العبرانية استعملت اسماً للأرض القفراء(٣).

ملاحظاتنا عن ذلك:

١٩ ـ ولنا على ما وصل إِليه المستشرقون أَربع ملاحظات أساسية:

أولاً: تاريخ النص المذكور لا دليل فيه على تاريخ ظهور كلمة «عرب».

أولاً ـ إن عدم عثورنا حتى الآن على نص أقدم في التاريخ من النص الذي يعود إلى عهد الملك «شلمناصر الثالث» في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد لا يمكن أن يُستَدَل منه على تاريخ ظهور كلمة «عرب» لا من قريب ولا من بعيد؛

---

(١) **تاريخ العرب، مطول**، فيليب حتي، الجزء الأول، الصفحة ٤٥، طبع بيروت سنة ١٩٥٨؛ وكذلك **تاريخ العرب قبل الإسلام**، جواد علي، الجزء الأول، الصفحة ١٦٩، طبع بغداد سنة ١٩٥١.

(٢) جواد علي السابق، الجزء الأول، الصفحة ١٧٣؛ وكذلك **تاريخ العرب** السابق لفيليب حتي، الصفحة ٥٣.

(٣) **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**، طه باقر، الجزء الثاني، الصفحة ١٨٩، طبع بغداد سنة ١٩٥٦.

ثانياً: لا يجوز الاعتماد على المعنى الذي نقله المستشرقون لأنه معنى طارىء.

ثانياً ـ إن المعنى لهذه المادة كما نقله المستشرقون عن اللغات السامية وخاصة العبرانية لا يجوز الاعتماد عليه، لأنه إنْ دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على **معنى طارىء** على تلك الكلمة يعود عهده إلى عهود الجفاف التي طرأت على شبه الجزيرة العربية: حين أخذت تلك الموجات بالهجرة من الجزيرة كما سنتكلم عنه فيما بعد؛

ثالثاً: أنهم أهملوا معنى الكلمة في اللغة العربية.

ثالثاً ـ إهمال الباحثين لما جاء في **اللغة العربية** من معنى لهذه المادة مخالف تمام المخالفة لما جاء في اللغة العبرانية؛

رابعاً: أهملوا النصوص القديمة التي أخبرت عن وجود أنهار وأشجار في شبه الجزيرة.

رابعاً ـ إهمال الأَخبار التي وَرَدَت في كتب اليونان والرومان[١]، وغيرها من النصوص القديمة[٢]، وكذلك ما نقل عن المصريين القدماء[٣]، وكلها كانت تقول بوجود أنهار طويلة في بلاد العرب، وبوجود أخشاب ضخمة فيها، وبأنها «أرض الله» كما سمَّاها المصريون ووصفوها بنتاج أشجارها من البهار والتوابل.

معنى المادة في العربية: المياه الكثيرة الصافية، والأنس والصفاء الملازمان للمياه الصافية.

٢٠ ـ أما معنى هذه المادة في اللغة العربية فإن جميع مشتقاتها لا تدلُّ على شيء من تلك المعاني الموحشة من «جفاف» أو «صحراء»، كما جاء في اللغة العبرانية، بل جميعها تدل:

ـ على المياه الكثيرة، الصافية، الشديدة الجريان،

ـ أو على الأُنس أو على الصفاء الملازمين للمياه الكثيرة الصافية.

---

(١) **تاريخ العرب** السابق، لجواد علي، الجزء الأول، الصفحة ٩٨.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ١٠٢.

(٣) **مقدمة في تاريخ الحضارات**، الجزء الثاني السابق، الصفحة ١٨٩.

•

٢١ ـ وهكذا نورد فيما يلي موجزاً عن هذه المعاني في معاجم اللغة العربية:

موجز هذه المعاني للمادة كما وردت في معاجم اللغة العربية.

ـ «العَرَبة» النهر الشديد الجري كما مر معنا (الفقرة ٤) وتُجمَع على «عَرَبات» وهو الاسم العربي الأَصيل للبلاد العربية كما سبق معنا (في الفقرة ٣)؛

ـ و «العَرَبات» سفن رواكد كانت على دجلة؛

ـ و «العَرَب» الماء الكثير الصافي؛

ـ و «العَرِب» أيضاً الماء الكثير الصافي؛

ـ و «الأَعراب» الذين يرتادون الكلأ ويتتبعون مساقط الغيث ومظان المياه لا مناطق الجفاف والصحراء؛

ـ و «التعريب» الإكثار من شرب الماء الصافي؛

ـ و «عَرُب البئر» كثر ماؤها؛

ـ و «عَرُب النهر» غمُر أي كثر ماؤه؛

ـ «أَغرَب بحجته» إذا أفصح بها حتى عبَّرت عما يريد، وكأنها أصبحت كالماء الصافي الذي لا يخفي ما فيه؛

ـ و «امرأة عَروب» أي متحببة إلى زوجها، وذلك لصفاء مزاجها كما هو شأن الماء الصافي؛

ـ و «عَرَبت المعدة» أي فسدت وسالت كالماء.

٢٢ ـ وإن معاني هذه المفردات تدلُّ بأجمعها على أن لكلمة «العرب» ومشتقاتها ومسمياتها صلة بالماء الكثير، وليس من المعقول أن يطلق العرب على هذه المعاني كلها كلمة لا تدل مادتها إِلا على «الجفاف أو الصحراء»!.

معاني هذه المفردات جميعها لها صلة بالماء الكثير لا بالجفاف.

فهل كانت البلاد العربية قبل جفافها كثيرة المياه والأمطار والأنهار والأشجار؟

الروايات اليونانية والرومانية القديمة تقول صراحة بوجود أنهار في بلاد العرب.

٢٣ ـ أما الروايات اليونانية والرومانية القديمة فكانت تقول صراحة بوجود أنهار طويلة في بلاد العرب[1]:

ـ فقد ذكر هيرودوت خبر نهر في بلاد العرب دعاه «كورس»، وقال عنه إنه من الأنهر العظيمة، وأنه كان يصبُّ في البحر الأحمر، وأن ملك العرب قد كان عمل على جلب المياه من هذا النهر العظيم بثلاثة أنابيب من جلود الثيران وغيرها من الحيوانات، تمتد إلى الصحراء على مسيرة اثني عشر يوماً من النهر، فتصبُّ في مواضع منقورة تُستعمل لخزن المياه؛

ـ وكذلك ذكر «بطليموس» اسم نهر عظيم سماه «لار Lar»، وقال إنه ينبع من منطقة «نجران» ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية مخترقاً بلاد العرب حيث يصبُّ في الخليج الفارسي.

النصوص القديمة تثبت وجود أخشاب وغابات في المناطق الصحراوية اليوم.

٢٤ ـ وكذلك جاء في النصوص القديمة ما يثبت وجود أخشاب ضخمة في شبه جزيرة العرب[2]، وأن المنطقة الواقعة بين العلا و «معون» أو «معان» من المناطق الصحراوية في الوقت الحاضر قد كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار[3]، ولعل ذلك كله هو الذي حمل المصريين القدماء على أن لا يسموا بلاد العرب باسم خاص

---

(١) **تاريخ العرب**، لجواد علي، الجزء الأول السابق، الصفحة ٩٨.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٠٢.

(٣) المرجع السابق، الصفحة ١٠٥.

بها، وإنما سموها في كتاباتهم «بأرض الله» ووصفوها بنتاج أشجارها من البهار والتوابل[1].

الدراسات العلمية الحديثة دلَّت على أن الجفاف في هذه البلاد طارىء.

٢٥ ـ وقد دلَّت البحوث والدراسات الحديثة التي قام بها السياح والعلماء عن بلاد العرب على أن تغيراً كبيراً طرأ على جوها، وأن هذا الجفاف الذي يكتنف هذه البلاد في أزماننا لم يكن على النحو الذي نعرفه في العصور التي سبقت الإسلام كثيراً[2].

كيتاني يقول بظهور الجفاف فيها منذ أواخر الدور الجليدي الرابع، وأن الجو أخذ يفقد رطوبته منذ أكثر من أربع عشرة ألف سنة مما دفع إلى الهجرات.

٢٦ ـ ولقد لفت «كيتاني Caetani» أنظار العلماء إلى هذه الظاهرة المهمة: ظاهرة التغير الذي طرأ على جو بلاد العرب، والجفاف الذي حلَّ بها في أواخر الدورة الجليدية الرابعة الأَخيرة. ففي الوقت الذي كانت فيه معظم النواحي الأوروبية وشمالي آسيا تغطي أرضها الثلوج، كانت جزيرة العرب ذات جو معتدل، وأمطار غزيرة، وأشجار وزروع... ثم أخذ الجو يتغير في بلاد العرب ففقد الجو رطوبته، وسارت بصورة مستمرة وبطيئة نحو الجفاف منذ أكثر من أربع عشرة ألف سنة، فأثر ذلك بالطبع في حياة سكانها وفي حياة حيواناتها ونباتاتها، فانقرض ما لم يتمكَّن من تكييف نفسه مع المحيط، وظهرت الحاجة إلى الهجرات، فكانت الهجرات التي نتحدث عنها الآن، وخاصة بعد أن جفَّت أنهار الجزيرة وتركت لنا آثارها وهي الأودية، وقد كان بعضها أنهاراً عظيمة في وقت من الأوقات[3].

---

(١) **مقدمة في تاريخ الحضارات**، الجزء الثاني السابق، الصفحة ١٨٩.

(٢) نفس المرجع الأسبق، لجواد علي، الجزء الأول، الصفحة ٩٧.

(٣) **تاريخ العرب السابق**، لجواد علي، الجزء الأول، الصفحة ١٥٨-١٥٩.

بلاد العرب في الدورة الجليدية الرابعة كانت هي جنة عدن المذكورة في التوراة.

٢٧ ـ وقد تصور «كيتاني» بلاد العرب في الدورة الجليدية الأخيرة جنة بقيت محافظة على بهجتها ونضارتها مدة طويلة، وكانت سبباً في رسم تلك الصورة البديعة في مخيلة كتَّاب التوراة عن «جنة عدن»؛ وأن جنة عدن المذكورة في العهد القديم هي هذه الجنة التي كانت في نظر كيتاني في داخل بلاد العرب(١).

النصوص القديمة والدراسات الحديثة تدل على غزارة أمطار البلاد العربية قديماً، وأن كلمة «العرب» أقدم من القرن التاسع ق.م. وأنها ترجع إلى العهد الجليدي الرابع حين كثرة المياه لا إلى عهد الجدب والجفاف.

٢٨ ـ ويتضح مما سبق نقله من النصوص القديمة، ثم مما قالت به الدراسات الحديثة عن جو بلاد العرب القديم في اعتدالها وغزارة أمطارها وعظم أنهارها: أن كلمة «العرَب» في مادتها الأَصلية وجميع مشتقاتها ذات الصلة بالماء الكثير كما تقدم **إنما هي قديمة جداً**، وتعود إلى ما قبل عهد «شلمناصر الثالث» بكثير، وإلى ما قبل عهد الهجرات العربية وعهد الجفاف: حين كانت جزيرة العرب في عهدها البهيج وفي أواخر الدورة الجليدية الرابعة الأَخيرة؛ وأن تلك الكلمات ذات الصلة بالماء الكثير كانت تدلُّ في حينها على وقائع ثابتة وعلمية، وأنها كانت مستعملة منذ عهد الاعتدال والأمطار، لا منذ عهد الجدب والجفاف، أو منذ أطلق العبرانيون ذلك على العرب في عهود متأخرة قبل الميلاد(٢).

نصوص القرآن والسنة والتوراة تؤيد ذلك خلافاً لما نقل عن العبرانيين.

٢٩ ـ وسوف نجد في المباحث التالية:

ـ عن شبه جزيرة العرب وأقوامها في نصوص القرآن والسنة،

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ١٥٩.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ١٧٢-١٧٣؛ وكذلك **تاريخ العرب مطول** لفيليب حتي، الجزء الأول، الصفحة ٥٣، طبع بيروت سنة ١٩٥٨.

ـ ثم في معنى كلمات «عَرَبة وعَرَبات» في أسفار العهد القديم عند العبرانيين،

ما يؤيد ويجزم بأن تلك الكلمات وما اشتقَّ منها إنما كانت تدلُّ على الماء الكثير، لا على الجفاف والصحراء والبداوة كما نُقِل عن العبرانيين.

شبه جزيرة العرب وأقوامها في نصوص القرآن والسنة:

ثبت فيما تقدم:

٣٠ ـ لقد ثبت فيما تقدم من مباحث هذا الفصل الرابع الحقائق التاريخية التالية:

أولاً: وحدة أصول شعوب الجزيرة العربية ومصر وبلاد الشام والعراق،

أولاً ـ وحدة أُصول هذه الشعوب القديمة كما أثبتته اليوم البحوث الأَثرية وعلماؤها، **تلك الشعوب** التي امتدت قديماً منذ ما قبل التاريخ وفيما بعده: من اليمن في جنوبي شبه جزيرة العرب إلى أعالي بلاد الشام في الشمال، ومن وادي النيل غرباً في مصر إلى حوض الرافدين شرقاً في العراق؛

ثانياً: أنها عربية ومن جزيرة العرب،

ثانياً ـ أن هذه الشعوب في الأَصل وعلى الدوام **شعوب عربية واحدة**، ومن منشأ عربي واحد هو شبه جزيرة العرب؛

ثالثاً: فضل الإسلام في توحيدهم وإحياء اسمهم وتوسيع رقعتهم حتى البحر الأطلسي.

ثالثاً ـ أنه كان للإسلام وحده في موجاته العربية الأَخيرة **الفضل في توحيد ما تقدم وما تأخر** من موجات شبه جزيرة العرب، **وفي إعادة اسمهم العربي** الصريح إليهم بعد أن كانت قد تغلبت عليهم أسماء فرعية أو محلية، **وفي توسيع رقعة أرض العروبة** حتى بلغت البحر الأطلسي، **بل وفي إحياء اسم العروبة الصحيح من جديد** في جميع بقاع شمالي أفريقيا بعد أن تقادم الزمان على موجاتهم الأولى إليها منذ القرطاجيين العرب وما قبلهم.

كما ثبت بنظرية كيتاني

٣١ ـ وكانت خاتمة المطاف فيما تقدم من هذا المبحث

رطوبة جو الجزيرة قبل عهد الجفاف.

الأَخير هي **نظرية البحاثة الأستاذ كيتاني** Caetani عن الأحوال الإقليمية لشبه جزيرة العرب في القديم، وما جاء في تلك النظرية من أن شبه جزيرة العرب كانت قبل حلول **عهد الجفاف** الذي أشرنا إليه فيما تقدم: **تتمتع بجو ممطر، وتجري فيها الأَنهار.**

بعد كتابة ما تقدم من نظرية كيتاني، ودعمها بالأخبار القديمة، وبمعنى مادة كلمة «عرب» الدالَّة على الماء الكثير الصافي،

٣٢ - **وبعد أن أُتممت** كتابة ما تقدم من المباحث، وخاصة حول **نظرية كيتاني** في إقليم شبه جزيرة العرب **الممطر والكثير الأَنهار قديماً.**

وبعد أن استشهدت لذلك بما عثرت عليه من **الأَخبار القديمة** عن المصادر اليونانية والرومانية والعربية،

وبعد أن دعمت ذلك كله باستعراض **مادة كلمة «عرب»** نفسها وما تدل عليه لغةً في جميع اشتقاقاتها ومركباتها: **من ماء صافٍ كثير وشديد الجريان،** لا الجفاف والصحراء،

بدا لي استعراض نصوص القرآن والسنة حول ذلك مما أثبت ما كان لدى هذه الشعوب قديماً من أسباب الحياة والرخاء والعمران.

أقول لقد بدا لي بعد كل ذلك أن ارجع إلى استعراض **نصوص القرآن وأخبار السنة حول ذلك،** وإذا بي أجد في هذه النصوص القديمة منذ نحو أربعة عشر قرناً تقريباً ما يدعم بكل قوة تلك البحوث والاتجاهات الجديدة التي أنتجتها الدراسات العلمية والأخبار التاريخية والآثار العربية الباقية الخالدة التي تدل في أقل ما تدلُّ عليه: على ما كان لدى تلك الشعوب وفي أَراضيهم من أَسباب الحياة والعيش الرغيد، وما قد كانت بَلَغَتْهُ هذه الشعوب العربية القديمة في تلك الأراضي من حضارة وعمران حينذاك.

نحو أربعين آية تذكر بما كان لأقوام عاد وثمود

٣٣ - ولقد قاربت هذه الآيات نحواً من أربعين آية من القرآن الكريم وحده كما سنسردها، وجاءت كلها في معرض التذكير للعرب في عهد الرسول العربي العظيم

محمد عليه الصلاة والسلام، **والدعوة إلى الاتعاظ بمَن تقدمهم من** الأقوام أصحاب المياه والجنان والعمران والقوة والآثار:

وسبأ وغيرهم في اليمن وفي العراق وبلاد الشام وسيناء ومصر من آثار في الأرض ومياه وعمران.

ـ **من قوم عاد وأهل سبأ في اليمن** وما حولها من جنوبي شبه جزيرة العرب، وقد نصت بعض الآيات في قوم عاد على أن هؤلاء كانوا أول الخلفاء لقوم نوح بعد كارثة الطوفان، وأن الله قد زادهم بسطة في الخلق (سورة الأعراف، الآية ٦٩).

ـ **وكذلك قوم ثمود في شمالي شبه جزيرة العرب ومطالع بلاد الشام**، وقد نصَّت بعض الآيات على أن قوم ثمود قد كانوا أول الخلفاء لقوم عاد بعد أن أبادهم الله (سورة الأعراف، الآيات ٧٢ـ٧٧)؛

ـ **ثم أقوام إبراهيم** وإسماعيل ولوط وشعيب **في العراق والحجاز وسيناء وبلاد الشام ومصر**؛

ـ **وأخيراً الفراعنة في مصر**.

٣٤ ـ **وإن القارئ ليندهش** حين يستعرض آيات القرآن الكريم في تذكير العرب والاتعاظ بمَنْ تقدمهم من الأقوام ـ أصحاب المياه والعمران والقوة والآثار في الأرض ـ أن لا يجد ذكراً إلاّ لهؤلاء الأقوام فقط، وفي هذه المنطقة العربية من العالم لا غير، **وهي نفس المنطقة** التي اصطلح عليها اليوم البحّاثون ومؤرخو الحضارات: حيث أطلقوا عليها «مثلث الحضارات» كما تقدم معنا.

إنه لمدهش أن لا يتعرَّض القرآن في التذكير بحضارة أحد ومياهه وعمرانه إلاَّ لهذه الأقوام في مثلث الحضارات العربية.

٣٥ ـ **بل إن القارئ ليزداد** اندهاشاً عندما يستمع إلى القرآن الكريم بمناسبة ما قد كان لبعض الرسل والأنبياء في هذه الأقوام: من إبراهيم وإسماعيل ولوط ومريم والمسيح اللذين جعلهما الله ﴿آية للعالمين﴾ قبل محمد عليه الصلاة

إننا لنزداد اندهاشاً عندما

والسلام، **وأن يرى القرآن** يعلن في ختام هذه الذكريات: ﴿أن هذه أمتكم، أمةً واحدةً وأنا ربكم فاعبدون﴾ (سورة الأنبياء الآية: ٩٢).

يعلن القرآن عن هذه الأقوام أنهم أمة واحدة.

٣٦ ـ أفلا يجد القارىء في ذلك أن القرآن الكريم عندما أخذ يذكِّر العربَ في عهد محمد عليه الصلاة والسلام بمَنْ تقدمهم من الأَقوام الذين حددهم دون أن يتعداهم إلى غيرهم، ثم نادى أخيراً: ﴿إن هذه أمتكم، أمةً واحدةً، وأنا ربكم فاعبدون﴾، أنه أي القرآن الكريم إنما يذكُّرهم فقط بمَنْ تقدمهم من الأجداد والأقرباء ممَّنْ هم متحدون قطعاً في الأصول وفي البقاع ممَّنْ قال فيهم: ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر﴾ (الأنبياء، آية ٤٤)!

القرآن يذكِّر العرب بهؤلاء الأجداد وبأنهم أمة واحدة، وهذه أولى الملاحظات.

هذه هي أولى الملاحظات التي نستوحيها من استعراض تلك الآيات المقدسة.

حول الأجواء الممطرة والأنهار الجارية والجنات والعيون

٣٧ ـ أما ما قد أردنا التأكيد عليه من إشارة القرآن الكريم:

القرآن أكد وجود الأجواء الممطرة والأنهار الكثيرة والحضارة في الجزيرة قديماً.

ـ حول **الأجواء الممطرة** في جزيرة العرب قديماً، وحول كثرة أنهارها حينذاك،

ـ **وحول حضارة أقوام تلك الجزيرة** ومَنْ خرج منها وخاصة إلى مطالع بلاد الشام وإلى بلاد مصر،

فهو الذي من أجله سنستعرض فيما بعد مجمل تلك الآيات والنصوص الشاهدة.

٣٨ ـ وهكذا فإن أولى الآيات التي يجب أن ننقلها في هذا المقام هو ما جاء في القرآن الكريم في «سورة الأنعام» وفي الآية السادسة منها، خطاباً للعرب في عهد ظهور الرسالة الإسلامية، وتذكيراً لهم بمَنْ قبلهم من الأجداد، وذلك إذ يقول: ﴿أَلَم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن، مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم، **وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم**﴾.

الآية السادسة من سورة الأنعام تصرِّح بكثرة الأمطار والأنهار في جزيرة العرب قديماً والتمكين لسكانها في الأرض.

ففي ذلك صراحة ليس بعدها صراحة في وجود **الأجواء الممطرة والأنهار الجارية** لدى سكان شبه جزيرة العرب القدماء مما قد تغير مع هلاك أولئك الأقوام؛ وهو كما يبدو من أعظم أسباب التمكين لأولئك الأقوام في الأَرض العربية مما لم يُمَكَّن للعرب فيما بعد وخاصة في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ولذلك لم يُمكِّن لهؤلاء في الأرض العربية بمثل ما مَكَّن لأولئك.

ويتفق مع روح الآية السابقة من كثرة الأمطار والأنهار ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ[(١)]: «لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، وحتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه، **وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً**». ففي هذا النص «حتى تعود» إشعار

الحديث يتفق مع القرآن بالإشارة إلى ما كان في أرض العرب من مروج وأنهار.

(١) **شرح النووي**، الجزء السابع، الصفحة ٩٧، كتاب الزكاة: باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، مطبعة حجازي بالقاهرة سنة ١٣٤٩؛ **وجامع الأصول** الجزء ١١، الصفحة ٨٧؛ **ومسند الإمام أحمد** الجزء ٢ والصفحة ٣٧٠ طبعة أولى؛ **وكنز العمال** الجزء ٧ والصفحة ١٨٠؛ **ومتن صحيح مسلم** الجزء الثاني صفحة ٧٠١، رقم الحديث ١٠١٢، طبعة محمد فؤاد عبد الباقي.

بما كان في جزيرة العرب قديماً من مروج وأنهار نتيجة لكثرة الأمطار فيها.

ونقل هذا الحديث أيضاً الإِمام أحمد في مسنده مبتدئاً بلفظ «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً، وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق، وحتى يكثر الهرج (القتل)»؛ وكذلك رواه الحاكم في «المستدرك» على الصحيحين؛ وكذلك صاحب «كنز العمال».

أخبار قوم عاد في القرآن وبناؤهم الفخم وأموالهم وجناتهم وعيون الماء لديهم.

٣٩ - ثم يتابع القرآن الكريم وفي مكان آخر من سورة الشعراء ابتداءً من الآية ١٢٨ حتى الآية ١٣٥ **حول أخبار قوم عاد** حيث يقول:

- «أتبنون بكل ريع (أرض) آية (في البناء) تعبثون،
- «وتتخذون مصانع (سدوداً ومخازن لخزن المياه) لعلكم تخلدون،
- «وإذا بطشتم بطشتم جبارين،
- «فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون،
- «أمدكم بأنعام وبنين **وجنات وعيون**».

أخبار ثمود في القرآن وبيوتهم وزروعهم وجناتهم وعيون الماء لديهم.

٤٠ - ثم يتابع القرآن الكريم في نفس السورة السابقة ابتداء من الآية ١٤٦ حتى الآية ١٤٩ **حول أخبار ثمود** وخلفاء عاد في الأرض:

- «أتتركون في ما ههنا آمنين،
- «**في جنات وعيون**،
- «**وزروع ونخل طلعها هضيم**،

ـ «وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين (حاذقين)».

أخبار سبأ في القرآن وجناتهم.

٤١ ـ وأخيراً يقول القرآن الكريم **في أهل سبأ** وفي الآية ١٥ من سورة سبأ:

ـ «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية: جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له **بلدة طيبة** ورب غفور،

ـ فأعرضوا، فأَرسلنا عليهم **سيل العرم**، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ من سِدْرٍ قليل».

حول الحضارة والعمران والقوة والآثار:

أخبار حضارة عاد وثمود في القرآن والتمكين لهم في الأرض وآثارهم فيها.

٤٢ ـ أما ما ورد في القرآن الكريم **حول حضارة هذه الأقوام** الذين مكَّن الله لهم في الأرض ما لم يمكِّن للعرب قبل ظهور الإسلام **فنبدأ أيضاً** بإعادة تلاوة الآية السادسة من سورة الأنعام إذ يقول: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكَّناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾؛

ونثنِّي عليها بالآية التاسعة من سورة الروم حيث يقول: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم: كانوا أشد منهم قوة. وهم عاد وثمود. وأثاروا الأرض وعَمَروها﴾؛

ومثل ذلك أيضاً ما جاء في الآية ٤٤ من سورة فاطر حيث يقول: ﴿أَوَلَمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، وكانوا أشد منهم قوة﴾، **وكذلك ما جاء في** الآية ٩ من سورة الروم حيث يقول: ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم: كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأَرض﴾، **وأيضاً ما جاء في** سورة

غافر الآية ٨٢ حيث يقول: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم: كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض﴾.

بيوتهم وسدودهم وقوتهم في الأرض.

٤٣ ـ **وكذلك نعيد** تلاوة ما جاء في سورة الشعراء حول أخبار عاد حيث يقول: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾؛ **ثم ما جاء** في سورة فُصّلت والآية ١٥ منها: ﴿فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق: **وقالوا مَنْ أشد منا قوة**﴾،

وكذلك ما جاء في سورة الشعراء عن أخبار ثمود وخلفاء عاد حيث يقول القرآن الكريم: ﴿أتُتْركون في ما ههنا آمنين، في جنات وعيون، وزروع ونخل طَلْعُها هضيم، **وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين**﴾.

أيضاً حول قوة عاد وثمود في الأرض الذين لم يخلق مثلهم في البلاد، ومثلهم الفراعنة في مصر.

٤٤ ـ وكذلك ما جاء في سورة الفجر حول **أخبار عاد وثمود وفرعون** في الآيات ٦ـ١٤ حيث يقول: ﴿ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد: إِرَمَ ذاتِ العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمودَ الذين جابوا (قطعوا) الصخر بالواد، وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب﴾.

قصور ثمود وبيوتهم واستعمارهم الأرض.

٤٥ ـ ومثل ذلك أيضاً ما جاء في سورة الأعراف والآية ٧٤ من أخبار ثمود حيث يقول: ﴿واذكروا ـ الخطاب لثمود من قبل نبيهم ـ إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد، وبوأكم في الأرض: **تتخذون من سهولها قصوراً، وتنحتون الجبال بيوتاً**﴾،

وكذلك ما جاء في سورة هود والآية ٦١ من أخبار ثمود: ﴿وإلى ثمود ـ أرسلنا ـ أخاهم صالحاً، قال يا قوم

اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ أي جعلكم معمرين لها.

٤٦ ـ وأخيراً يعلن القرآن الكريم عمّا كان من عمران متواصل غير منقطع من بلاد سبأ في اليمن إلى بلاد الشام بصورة ظاهرة، إذ كان المسافر يخرج من اليمن إلى بلاد الشام ولا يترك بلدة في طريقه إلى أخرى إلا وهو يرى الثانية منذ خروجه من الأولى، ويسير آمناً فيما بين البلدين لاتصالهما ببعضهما تقريباً، فقال في الآية ١٨ من سورة سبأ: ﴿وجعلنا بينهم (الضمير لأَهل سبأ) وبين القرى التي باركنا فيها (يعني بها مطالع بلاد الشام) قُرىً ظاهرة، وقدَّرنا فيها السير: سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين. فقالوا (فرحين بذلك) ربنا باعد بين أسفارنا، وظلموا أنفسهم، فجعلناهم أحاديث، ومزقناهم كل ممزق﴾.

أخبار القرآن عن العمران المتواصل من بلاد سبأ حتى بلاد الشام بصورة ظاهرة.

٤٧ ـ وبتلك الآية الأخيرة نكون قد أعطينا آخر صورة عن حضارة تلك الأقوام في جزيرة العرب كما أشار إليها القرآن الكريم؛ ومن الثابت المعلوم: أن لا حياة ولا عمران ولا قوة ولا آثار في منطقة من العالم بدون ماء وافر وحضارة قائمة، وهذا ما قد أخذت تتوافر عليه الأدلة اليوم من حين إلى آخر حول ما قد كان من حضارات وآثار لدى العرب القدماء في شبه جزيرة العرب.

أخبار العمران المتواصل في بلاد العرب هو آخر شاهد عن حضارة أقوامها القدماء، ولا حضارة بدون ماء وافر.

كلمات «عربة وعربات» في أسفار العهد القديم:

٤٨ ـ لقد سبق لي أنني نقلت عن بعض المصادر: أنْ معنى المادة التي تتألف منها كلمات «عرب» و «عروبة» و «عَرَبة» و «عَرَبات» في اللغة العبرية إنما هو الصحراء والجفاف.

نقلنا من قبل أن مادة «عرب» في العبرية تعني الصحراء والجفاف،

غير أنني رددت عليه بعد ذلك بما في **اللغة العربية** من معنى لهذه المادة يناقض تمام المناقضة ما هو منقول عن **اللغة العبرية**، وقلت إِن للكلمة معنى أساسياً في اللغة العربية هو **الماء الكثير، والصافي، والشديد الجريان**.

وردنا عليه بأن هذه المادة تعني في العربية الماء الكثير.

٤٩ ـ **كما أنني استعرضت** فيما سبق نظرية البحاثة كيتاني Caetani فيما يتعلق بأجواء شبه جزيرة العرب فيما قبل التاريخ، وكذلك بعض النصوص القديمة فيما يتعلق بأنهارها:

ـ وأن شبه جزيرة العرب كانت ذات **أجواء ممطرة**،

ـ وأنها كانت **تجري فيها الأنهار** كما جاء في بعض النصوص القديمة التي خلَّفها لنا اليونان والرومان والعرب،

ـ وأخيراً دعمت كل ذلك بالنصوص القرآنية والنبوية التي أشارت إلى **كثرة الأمطار** أيضاً في عهد عاد وثمود، مع **جريان الأنهار** حينذاك في جزيرة العرب.

واستعرضنا أيضاً نظرية كيتاني في أجواء جزيرة العرب الممطرة وأنهارها وأيدنا ذلك بنصوص قديمة يونانية ورومانية وعربية وقرآنية ونبوية.

٥٠ ـ وبعد كتابة ما تقدم بدا لي أن أرجع إلى **الكتاب المقدس** وخاصة إلى **أسفار العهد القديم** منه أَي «التوراة»، أَملاً بأن أَتعرَّف على ما في نصوص الكتاب المقدس من مؤيدات لما نقل عن اللغة العبرية: من معنى **الصحراء والجفاف** لمادة تلك الكلمات: أَي عربة وعربات ومشتقاتها.

بدا لي بعد ذلك مراجعة التوراة للتعرُّف على ما فيها حول معنى مادة «عرب».

٥١ ـ **غير أَنني** بعد أن أنهيت قراءة أسفار العهد القديم دهشت بما تجمع لديّ في حصاد تلك القراءة من نصوص تلك الكتب حول كلمة «عَرَبة» و «عَرَبات» وذلك لأن جميع الأمكنة والبقاع التي استعملت فيها هذه الكلمات، وقد تجاوزت العشرات، إنما كانت تدل:

قراءتي للتوراة قدَّمت لي نصوصاً بالعشرات مؤيدة أن معنى مادة «عرب» هو الماء الكثير خلافاً لما يُسْنَد إلى العبرية ووفاقاً لما جاء في العربية.

ـ على «الأرض الجيدة، ذات الأمطار والعيون والأنهار»،

ـ وعلى أن كلمتي «عربة» و «عربات» كانتا تطلقان على جميع الأراضي الواقعة على ضفتي نهر الأردن، وعلى جميع تلك البقاع التي وصفتها نصوص العهد القديم بأنها: «أرض جيدة: أرض أنهار من عيون وغمار، أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان، أَرض زيتونِ زيتٍ وعسل، أرض تفيض لبناً وعسلاً، ومن مطر السماء تشرب ماء، أرض يعتني بها الرب من أول السنة لآخرها»،

كما سوف نرى كل ذلك في النصوص التالية مما لا يتفق مع ما نقلناه من قبل عن العلماء: من أن كلمة «عربة» ومشتقاتها في اللغة العبرانية إنما تدل على **الصحراء والجفاف**.

شرح خروج إسرائيل من مصر إلى أرضٍ جيدة تفيض لبناً وعسلاً.

٥٢ ـ من المعلوم أن قصة خروج بني إسرائيل من مصر في عهد النبي موسى وإنقاذهم من العبودية في مصر قد شُرِحت في أسفار العهد القديم وخاصة في سفر الخروج، ووصف هذا الإنقاذ بأنه إخراج لهم «من تلك الأرض إلى **أرض جيدة** وواسعة، إلى أَرض **تفيض لبناً وعسلاً**» ـ خروج، أصحاح ٣، فقرة ٨ـ.

خروج إسرائيل إلى أرض جيدة فيها أنهار وعيون وزروع.

٥٣ ـ وجاء في سفر التثنية وفي الإصحاح الثامن والفقرات ٧ـ٩: «أن الرب إلٰهك آت بك إلى **أرض جيدة**؛

ـ «أرض أنهار من عيون وغمار تنبع في البقاع والجبال؛

ـ «أرض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان، أرض زيتونِ زيتٍ وعسل؛

ـ «أرضٌ ليس بالمسكنة (الذل) تأكل فيها خبزاً، ولا يعوزك فيها شيء».

الخروج إلى الأرض الجيدة أيضاً.

٥٤ ـ وكذلك وصفت هذه الأرض **بالأَرض الجيدة** في الإصحاح التاسع من سفر التثنية والفقرات ٤ـ٧ منه حيث قال خطاباً لشعب إسرائيل، «ولأجل إثم هؤلاء الشعوب. . . ليس لأَجل برك، يعطيك الرب إلٰهك هذه **الأَرض الجيدة** لتمتلكها، لأنك شعب صلب الرقبة. . . اذكر لا تنس كيف أسخطت الرب في البرية؛ من اليوم الذي خرجت فيه من أرض مصر حتى أتيتم إلى هذا المكان كنتم تقاومون الرب».

أرض تسيل لبناً وعسلاً وتسقى من مطر السماء، ويعتني بها الرب من أول السنة لآخرها.

٥٥ ـ وكذلك جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر التثنية والفقرات ٩ـ١٢ في وصف الأرض القادمين إليها في فلسطين أنها:

ـ «أرض تفيض لبناً وعسلاً»،

ـ وأنها: «ليست مثل أرض مصر التي خرجت منها حيث كنت تزرع زرعك وتسقيه برجلك كبستان بقول»،

ـ وأنها أرض «من مطر السماء تشرب ماء»،

ـ وأنها «أرض يعتني بها الرب إلٰهك: عينا الرب إلٰهك عليها دائماً من أول السنة إلى آخرها».

الخروج من مصر إلى أرض قفرٍ أولاً، إلى أن وصلوا إلى أرض بساتين.

٥٦ ـ وأخيراً ننقل للقارىء ما جاء في سفر إرميا والإصحاح الثاني منه حين أخذ إرميا يعظ شعب إسرائيل ويحذّرهم من الاستمرار في ضلالهم وعصيانهم لله، فقال في الفقرات ٦ـ٧ من ذلك الإصحاح: «هو الرب الذي أصعدنا من أرض مصر، الذي سار بنا في البرية في أرض قفر، في أرض يبوسة وظلّ الموت، في أرض لم يعبرها رجل ولم يسكنها إنسان، وأتيت بكم إلى **أرض بساتين لتأكلوا**

ثمرها وخيرها، فأتيتم ونجستم أرضي وجعلتم ميراثي (أي أرض فلسطين) رجساً».

٥٧ ـ ويتضح من هذه النصوص أن الأرض التي خرج إليها شعب إسرائيل بقيادة النبي موسى لينزل فيها بعد مصر قد وصفتها تلك النصوص كما أسلفنا بأنها:

خلاصة النصوص أن أرض الميعاد هي جيدة وفيها أنهار وعيون وأمطار وزروع وبساتين وتفيض لبناً وعسلاً كما وصفها القرآن: «جنات تجري من تحتها الأنهار».

ـ أرض جيدة،

ـ وأنها أرض أنهار وعيون وأمطار وزروع وبساتين وثمار،

ـ وأنها تفيض لبناً وعسلاً.

ومصداق ذلك ما جاء في القرآن الكريم: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل، وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً، وقال الله إني معكم: لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزَّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرنَ عنكم سيآتكم ولأدخلنكم **جنات تجري من تحتها الأنهار**، فمَنْ كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل﴾ (المائدة، آية: ١٢).

٥٨ ـ فأين هي تلك الأرض الجيدة؟.

فأين هي الأرض وما اسمها ومَنْ هم سكانها؟

ـ ومَنْ هم سكانها؟

ـ وبماذا كانت تُسمَّى حينذاك؟

٥٩ ـ للجواب على ذلك نستمع أولاً إلى سفر الخروج إذ يقول في الإصحاح الثالث منه والفقرتين ٧ـ٨: «فقال الرب إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر... فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى **أرض جيدة** وواسعة، إلى أرض **تفيض لبناً وعسلاً**، إلى مكان الكنعانيين والحثيين والأموريين (العاموريين) والفَرِزِّيين والحِوِّيين واليبوسيين».

سفر الخروج يقول إنها أرض فلسطين ومكان الكنعانيين والحثيين والأموريين (العاموريين).

وفي الإصحاح الثالث عشر من هذا السفر وفي الفقرة ١٧ منه سُميت هذه الأرض **بأرض الفلسطينيين**، فقد جاء فيه: «وكان لما أطلق فرعون الشعب أن الله لم يهدهم في طريق الفلسطينيين مع أنها قريبة».

مساكن الكنعانيين في تلك الأراضي هي الأهم في خيراتها وهي المقصودة في الدرجة الأولى من أرض الميعاد.

٦٠ ـ ومن المعلوم أن **مساكن الكنعانيين** في تلك الأَراضي كانت هي الأَهم في خيراتها وجودتها، وهي المقصودة في الدرجة الأولى، ولذلك جاء بعد النص السابق الذي نقلناه عن سفر الخروج نص آخر في **الإصحاح السادس** منه والفقرات ٢ـ٤ وقد قصر الكلام فيها فقط على **أرض كنعان** إذ قال: «ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب، وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء... وأيضاً أقمت معهم عهدي أن أعطيهم **أرض كنعان**».

وكذلك قصر **الإصحاح الثالث عشر** من سفر الخروج وفي الفقرة ١١ الكلام فقط على أرض الكنعانيين فقال: «ويكون متى أدخلك الرب أرض الكنعانيين كما حلف لك ولآبائك وأعطاك إياها أنك تقدم للرب... كل بكر من نتاج البهائم...».

سفر التثنية يقول عن الكنعانيين في غربي الأردن إِنهم الساكنون في «العربة»، مسمياً الأراضي الجيدة بمياهها باسم «العربة» متفقاً مع اللغة العربية في أن هذه الكلمة تعني كثرة المياه لا الجفاف والصحراء.

٦١ ـ وإذا ما رجعنا إلى سفر التثنية والإصحاح الحادي عشر نجده يتكلم عن أراضي الكنعانيين الذين وصفت أراضيهم من قبلُ بجودتها وخيراتها ومياهها وعيونها، ويقول عنهم إِنهم أولئك الساكنون **في العربة**: «وإذا جاء بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها فاجعل البركة على جبل جِرِزِّيم، واللعنة على جبل عيبال، أما هما (أي الجبلان) ففي عبر الأردن وراء طريق غروب الشمس **في أرض الكنعانيين الساكنين في العربة**».

وهكذا يسمي تلك الأراضي الجيدة والكثيرة الخيرات والمياه في غربي نهر الأردن **باسم العربة**، وبذلك يتفق كتَّاب العهد القديم مع اللغة العربية في إطلاق **لكلمة «العَرَبة»** على البلاد الكثيرة المياه كما تقدم معنا، لا على الأرض الصحراء الجافة.

كذلك فعل في إطلاق «العربة» على شرقي الأردن وقد قسمها موسى بين بني إسرائيل وهي من الأراضي الجيدة أيضاً الموعودة.

٦٢ ـ وكذلك فعل أيضاً في إطلاق كلمة «العربة» على جميع الأراضي الواقعة في **الضفة الشرقية** من نهر الأردن، كما أطلقها من قبل على **الضفة الغربية** منه، فقال في سفر يشوع والإصحاح الثالث منه وفي الفقرة ٣٢: «فهذه هي (الأراضي) التي قسمها موسى في عربات موآب في عبر أردن أريحا نحو الشرق»؛

ـ وأن هذه الأراضي هي طبعاً من **الأراضي الجيدة**، الكثيرة الخيرات والمياه كما وصفتها النصوص السابقة عندما تكلمت هذه النصوص عن جودة الأراضي التي سيحتلها شعب إسرائيل ويمتلكها بعد خروجهم من مصر؛

وبناء على ذلك فإن كلمة **عربات** هنا أيضاً لا تدل على **الصحراء والجفاف**، وإنما تدل على **الأراضي الجيدة**: الكثيرة الخيرات والمياه.

وكان سفر التثنية أكثر وضوحاً حين أطلق «العربة» على أراضي بني إسرائيل القائمة على مياه

٦٣ ـ وجاء النص في سفر التثنية أكثر وضوحاً في مفهوم كلمة «العربة» من حيث الدلالة على أنها هي تلك الأراضي **القائمة على المياه**، وذلك حين تكلم السفر عن الأراضي التي تم احتلالها في عهد موسى على الضفة الشرقية من نهر الأردن، وهي أراضي الملكين العاموريين (الأَموريين): سيحون وعُوجِ اللذين كانا يملكان في شرقي الأردن جميع الأراضي

الأردن وبحر الملح إلى الشرق منهما.

الممتدة من وادي أرنون في شرقي بحر الملح حتى جبل حرمون في الغرب الجنوبي من دمشق، فقال في الإصحاح الرابع والفقرات ٤٧-٤٩: «وامتلكوا أرضَه (أرض سيحون) وأرضَ عُوجٍ... ملكي الأَموريين في عبر الأردن نحو **شروق الشمس**؛ من عروعير التي على حافة وادي أرنون إلى جبل سيئون الذي هو جبل حرمون، **وكلّ العربة في عبر الأردن** نحو الشروق إلى بحر العربة (أي بحر الملح كما جاء في الإصحاح الثالث والفقرة ١٧ من سفر التثنية أيضاً).

هذه الأراضي التي ملكتها إسرائيل أولاً شملت بالنص جميع الأراضي القائمة على مياه الأردن وبحر الملح إلى المشرق.

٦٤ - ويلاحظ في النص السابق عندما عدَّد الأراضي التي امتلكها شعب إسرائيل على الضفة الشرقية من نهر الأردن أن تلك الأراضي هي:

أولاً - **أراضي ملكي العامورييين** من وادي أرنون في **شرقي بحر العربة** أي بحر الملح إلى جبل حرمون في الغرب الجنوبي من دمشق،

ثانياً - **أراضي كل العربة فيما وراء نهر الأردن** إلى الشرق حتى «بحر العربة» أي بحر الملح؛

وكل هذه الأراضي هي قائمة بالنص على مياه الأردن وعلى مياه بحر الملح.

ويلاحظ التنصيص على «العربة» في شرقي الأردن تمييزاً عنها في غربيه.

٦٥ - كما يلاحظ من ذلك النص أيضاً إرادةُ التنصيص على **أراضي العربة** التي هي في شرقي نهر الأردن تمييزاً لها عن **أراضي العربة** التي هي في غربي نهر الأردن حيث يسكن الكنعانيون كما مر معنا من قبل.

ويفهم أن هذه الأراضي على ضفتي الأردن

٦٦ - **ويفهم من كل ذلك** أن هذه الأراضي القائمة على ضفتي نهر الأردن الشرقية والغربية إنما سُميت بكلمة «العربة»

لسبب واحد ألا وهو **قيامها على الماء** وهو نهر الأردن، فيكون إذن مفهوم **لكلمتي عربة وعربات** في نصوص التوراة العبرانية إنما هو نفس مفهوم كلمتي عربة وعربات في اللغة العربية، وهو كما مر معنا من قبلُ: **الأراضي القائمة على الماء**، لا الأراضي الصحراء الجافة.

سميت «عربة» بالعبرانية لقيامها على الماء كما هو مفهوم الكلمة في العربية.

٦٧ ـ ويضاف إلى كل ذلك أيضاً أنه سمي بحر الملح **ببحر العربة**، وهو أيضاً دعم لما ذهبنا إليه من أن كل أرض تقوم على المياه تسمى «عربة»، ولذلك نسب هذا البحر في الاسم إلى تلك الأراضي التي تحيط به وبنهر الأردن وسمي **ببحر العربة**، أي بحر الأراضي القائمة على هذا البحر وعلى نهر الأردن.

وكذلك سمي بحر الملح «ببحر عربة» لأن الأراضي المحيطة به قائمة على مياهه.

٦٨ ـ فلو صحَّ أن المفهوم لكلمة عربة هنا هو **الصحراء والجفاف** كما نقل عن اللغة العبرانية لكان **اسم العربة** هنا يدل حينئذ على الأراضي الصحراوية الجافة!! **فكيف نجمع** عندئذ بين نصوص التوراة التي وصفت أرض فلسطين التي دُعي شعب إسرائيل لسكناها بأنها «أرض جيدة: وأرض ذات مياه وعيون وأنهار وزروع، وأنها أَرض تفيض لبناً وعسلاً كما مر معنا»، أقول كيف يمكن الجمع عندئذ ما بين هذا الوصف لأَراضي فلسطين بخيراتها ومياهها مع تسميتها جميعاً «بالعربة» في ضفتيها الشرقية والغربية القائمة على نهر الأردن إذا كان معنى «العربة» هو الصحراء والجفاف!!

فلو أن «عربة» تعني الجفاف والصحراء كما نقل عن العبرانية لما صحَّ وصف أرض فلسطين في التوراة بأنها أرض مياه وعيون وتسميتها مع ذلك بعربة.

٦٩ ـ وبذلك نقضي مرة أخرى **بموجب نصوص التوراة** أيضاً على المزاعم التي تدَّعي بأن البلاد العربية القديمة كانت أراضي صحراوية جافة اعتماداً على تسميتها بكلمة عربة وعربات، لأننا بما نقلنا من نصوص التوراة هنا كما نقلنا من

المزاعم بجفاف جزيرة العرب المعتمدة على تسميتها بعربات قضت

عليها نصوص التوراة ما دامت فلسطين بمياهها سميت عربة.

وهذا يتفق مع نصوص اليونان والرومان والعرب ونظرية كيتاني وشواهد القرآن عن أمطار الجزيرة وأنهارها قديماً.

قبل عن اللغة العربية فإن كلمات عربة وعربات التي استعملت في التوراة للدلالة على أرض فلسطين لا تدل إلا على أرض أو شيء قائم على المياه والأنهار؛ **وهو الذي يتفق** عندئذ مع بعض النصوص التاريخية التي نقلناها من قبل عن اليونان والرومان والعرب قديماً، كما يتفق مع النظرية الحديثة للعالم كيتاني كما نقلناها من قبل، وكما يتفق مع ما نقلناه من قبل أيضاً عن القرآن الكريم: من كثرة أمطار الجزيرة العربية وكثرة أنهارها فيما قبل التاريخ.

إغفال الإسرائيليين كلمات «عربة» الواردة في التوراة عن ذكرها في المخططات الملحقة، كي لا يكون فيها دلالة على أنها مساكن العرب، فخانوا العلم والأمانة.

٧٠ ـ ولا بدَّ لي قبل اختتام هذا المبحث حول كلمتي «عربة وعربات» في نصوص التوراة من أن أسجِّل بكل استنكار صنيع الإسرائيليين اليوم في المخططات الجغرافية الأربعة التي ألحقوها بالتوراة كما هي بين يديّ ساعة كتابة هذه الملاحظات، وذلك في طبعة الكتاب المقدس المطبوع في بيروت سنة ١٩٦١، فقد ألحقوا هذه المخططات الجغرافية «لتخطيط رحلات بني إسرائيل من مصر إلى كنعان» كما قالوا، ووضعوا على المخططات أسماء جميع البقاع والمدن والأراضي والمياه التي ذكرتها نصوص التوراة لبيان طرق سير بني إسرائيل ورحلاتهم إلى فلسطين في تلك العهود واحتلال ما احتلوه، غير أنهم حذفوا من المخططات كل ما جاء في التوراة من كلمات أطلقتها التوراة بلفظ **عربة أو عربات أو بيت عربة أو طريق عربة** حتى لا يثبتوا على الخريطة ما يعلن بأن هذه الأراضي الفلسطينية كانت تحمل منذ القديم اسماً عربياً قبل مجيئهم إليها، وأنها كانت مساكن عربية قديمة، وأنها كانت متممة لشبه جزيرة العرب فيما حملته من اسم **عربة وعربات**، فخانوا بذلك نصوص كتابهم المقدس فضلاً

عن خيانتهم لأمانة العلم: فحذفوا من المخططات الجغرافية ما لا يجوز حذفه!! وإِليك البيان.

حذفوا اسم «طريق عربة» في تخطيط رحلات بني إسرائيل إلى فلسطين وكان ذكره واجباً للإيضاح.

٧١ ـ لقد جاء في الإصحاح الثاني من سفر التثنية والفقرة الثامنة منه في تخطيط رحلات بني إسرائيل من مصر إلى كنعان عندما أصبحوا على مقربة من **العربة**: عربة فلسطين بضفتيها الشرقية والغربية، فقال النص: «فعبرنا عن إخوتنا بني عيسو الساكنين في سعير (ما بين خليج العقبة وبحر الملح) على **طريق العربة**: على أيلة وعلى عصيون جابر (مدينتين على خليج العقبة)»؛ غير أن واضع الخريطة وهو إسرائيلي بلا شك لم يضع على الخريطة اسم «طريق العربة» لإيضاح خط السير، وفي ذلك كما قلنا خيانة لنصوص الكتاب المقدس، وخيانة لأَمانة العلم، وإبهام مقصود على القارىء عوضاً عن واجب الإيضاح الذي ما وضعت المخططات الجغرافية إلا لبيانه وإيضاحه فأغفلوه وحذفوه عمداً!!

وكذلك حذفت في سياق بيان الأماكن كلمة «عربة» في شرقي الأردن واستبدلت اسم «بحر عربة» ببحر الملح.

٧٢ ـ وكذلك فعلوا في «**بحر العربة**» وهو بحر الملح كما نصَّت عليه أسفار التوراة في محلات كثيرة، ومنها الإصحاح الثالث من سفر التثنية في الفقرة السابعة عشرة، حيث تعدد الأراضي التي أعطيت لبعض أسباط إسرائيل بالإضافة إلى جلعاد ووادي أرنون فيقول: «والعربةَ والأردن تخماً (حداً) من كِنَّارة (بحيرة طبرية) إلى بحر العربة بحر الملح»؛ وإذا بالخريطة تذكر جميع الأسامي المعدودة عَلَماً على تلك الأراضي والتخوم **ما عدا العربة** فلا تذكرها! **وما عدا بحر العربة** فتذكر الاسم البياني له وهو بحر الملح وتحذف الاسم العَلَم الأَصلي على هذا البحر وهو «**بحر العربة**»!

٧٣ ـ وكذلك صنع واضعو الخريطة الإسرائيليون في بقية النصوص وقد بلغت العشرات، فحذفوا من الخريطة كلمة عربة وعربات أينما وجدوها رغم ضرورة ذكرها لبيان مواقعها ولمتابعة خط السير في الرحلات الإسرائيلية، وما ذلك إِلا لأَن هذه الأسامي تعلن في هذه الظروف من جديد عروبة هذه الأراضي قبل آلاف من السنين وقبل مجيئهم إليها بقيادة النبي موسى عليه الصلاة والسلام.

إنما حذف واضعو الخريطة كلمات عربة وعربات وهي عشرات كي لا يكون هناك إعلان عن عروبة فلسطين.

٧٤ ـ وها نحن نكتفي بتعداد نصوص أخرى فيما يلي بالإضافة إلى ما سبق:

ومن هذه الكلمات المحذوفة في الخرائط: «عربات موآب» والاكتفاء «بموآب».

ـ ومنها ما جاء في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر العدد في الفقرة الأولى منه حيث قال: «وارتحل بنو إسرائيل ونزلوا في **عربات موآب** من عبر أردن أريحا»، وإذا بالخريطة الثانية تذكر كلمة «موآب» فقط وتحذف كلمة «عربات» رغم أنها هي الكلمة المقصودة من النص؛

ـ ومنها ما جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر التثنية في الفقرة الثلاثين منه حيث قال عن الكنعانيين: «في أرض الكنعانيين **الساكنين في العربة مقابل الجلجال**»، وإذا بالخريطة الثانية أيضاً تذكر كلمة «الجلجال» في شرقي يافا وتحذف كلمة «العربة» رغم أنها هي المقصودة في النص؛

و «العربة» في مقابل «الجلجال» فذكروا الجلجال فقط.

ـ ومنها ما جاء في الإصحاح الخامس عشر من سفر يشوع حيث قال في الفقرة السادسة منه: «وصعد التخم إلى بيت حُجْلة وعبر من شمال **بيت العربة**»، وإذا بالخرائط تغفل اسم مدينة «بيت عربة» رغم الحاجة إلى معرفة مكانها في الخريطة.

ومدينة «بيت عربة» حذفت من الخريطة.

٧٥ ـ وهكذا نسجّل بهذه النصوص الأَخيرة خيانة الإسرائيليين واضعي مخطط رحلات شعب إسرائيل في القديم، تلك الخيانة لكتابهم المقدس أولاً، ولأَمانة العلم ثانياً!!

هذه النصوص تسجل خيانة واضعي مخططات الكتاب المقدس.

ز ـ عوامل استقطاب هذه الشعوب في جنوبي شبه جزيرة العرب ثم هجرتهم منه

حضارة مثلث الحضارة لم تكن صدفة، بل وليداً لظروف طبيعية.

١ ـ لقد ثبت لدينا فيما تقدم(١): أن ظهور الحضارة في مثلث الحضارة العربية القديمة (من مصر إلى بابل، ومن اليمن إلى أقاصي بلاد الشام) لم يكن وليداً لصدفة عابرة، وإنما كان **وليداً لظروف** ولأوضاع طبيعية جعلت من أراضي هذا المثلث أول أرض تهيأت فيها دون غيرها من بقاع العالم: أسباب ظهور الإنسان وعوامل حضارته.

وكذلك فإن منشأ هذه الشعوب في جنوبي شبه الجزيرة ثم هجرتهم منه كان وليداً لظروف طبيعية.

٢ ـ والآن وقد أثبتنا أيضاً فيما تقدم(٢): أن شعوب هذه المنطقة إنما كان منشؤهم في جنوبي شبه جزيرة العرب ثم هاجروا منه، فلا بدّ من أن يكون ذلك أيضاً **وليداً لظروف** وأوضاع طبيعية جعلت هذه الشعوب تنشأ أولاً في جنوبي شبه الجزيرة العربية، ثم تهاجر منه؛ فما هي تلك الظروف والعوامل؟

زحف الجليد في العهود الجليدية نحو الجنوب

٣ ـ للجواب على ذلك لا بد من الاعتماد الجدي على ما قد أثبته علماء طبقات الأرض وتطوراتها كما مر معنا من قبل(٣)، وأنه قد مر على الأرض منذ وجدت **أربعة عهود**

---

(١) في المبحث: «أ» من هذا الباب، الصفحات ٤٠٩ ـ ٤١٨

(٢) في المباحث: «ب، ج، د، هـ» من هذا الباب، الصفحات ٤١٩ ـ ٤٨٧.

(٣) الصفحات ٤١١ ـ ٤١٦.

جليدية، وكان كل عهد منها يغزو الأرض بجليده آلافاً من السنين، ويدفع القطب المتجمد إلى التوسع في الأرض حتى يغطي بجليده الزاحف شماليّ آسيا وأوروبا كثيراً من أراضيهما، وأن الجموديات كانت منتشرة في الصين وفي أوروبا إلى ما بعد جبال الألَب، وفي أعالي جبال أرمينيا من آسيا الصغرى، وأن مناخ الهند كان بارداً، وأن هضبة إيران كانت تغطيها الثلوج التي تحول دون تكوين مواطن صالحة للأحياء، وأن ذلك كان **يهزم الإنسان إلى البقاع الجنوبية** من الأرض.

وانهزام الإنسان أمامه هو الذي كوَّن تلك الظروف.

٤ ـ وهكذا فإن هذه الجموديات قد جعلت من المنطقة المعتدلة اليوم منطقة متجمدة مدى آلاف من السنين، أو مهبطاً لأنهار من الثلوج كانت تحدث طوفاناً يجتاح السهول **ويلجيء الناس إلى الفرار** أمامها، **ويقضي على كل أثر للإنسان فيها**[1].

فالجموديات جعلت من المناطق المعتدلة اليوم مناطق متجمدة أو مهابط لطوفانات كطوفان نوح حملت البشرية على الفرار أمامها.

وإذا كانت الكتب السماوية قد حدّثتنا عن طوفان واحد جرى في عهد نوح فقضى على البشرية إلا ما شاء الله، فإن علماء طبقات الأرض يحدثوننا عن عدد من هذه الطوفانات، ولعل طوفان نوح كان أعظمها وليس بآخرها.

٥ ـ وقد كان هذا فيما أرى هو السبب الأساسي لفرار قسم كبير من البشرية إلى شبه الجزيرة العربية في الجنوب الدافىء **ساميين وغير ساميين**، وإلى الاعتصام في مرتفعاتها ما شاء الله أن يعتصموا فيها، حتى إذا ما انسحبت الجموديات في عصرها الرابع رويداً رويداً، وتغير المناخ الممطر في شبه الجزيرة العربية، وسارع الجفاف إليها، عاد هؤلاء

ذلك هو السبب الأساسي لفرار قسم من البشرية كبير إلى جنوبي الجزيرة، ثم هجرتهم منه في عهد الجفاف.

(١) الصفحة ٤١٤ من هذا الكتاب، الفقرة ١٣.

السكان وقد وحّد فيما بينهم المكان ونُسِبوا جميعاً إليه فانتشروا في الأرض متتبعين مجاري المياه من مصر إلى بابل، ومن جبال اليمن إلى أقاصي بلاد الشام، بل وإلى ما وراء ذلك من أوروبا وشمالي أفريقيا كما مر معنا من قبل[١].

لا يجوز تسمية هذه الموجات المهاجرة بالموجات السامية عوضاً عن العرب:

٦ - وأرى من الواجب أن أنبّه هنا إلى أن هذه الموجات التي عادت فخرجت من جزيرة العرب منسوبة إليها لا يجوز بحال من الأحوال تسميتها بالموجات السامية كما ذهب إليه بعض علماء القرن الثامن عشر[٢] من اليهود فيما أظن، وذلك لأَمرين:

وذلك أولاً لتغيير الاسم العربي وما يدل عليه من كثرة المياه والأمطار،

أولاً - لأن في ذلك تغييراً لمعالم اسم الوطن الذي كانوا فيه وهو «عربات» **وما يدل عليه** حين لجأوا إليه قبل عهد الجفاف من كثرة الأمطار وكثرة المياه والأنهار مما لا يدلُّ عليه اسم «الساميين» عوضاً عن «العرب»؛

وثانياً لأن الكنعانيين وهم من العرب ليسوا بساميين عند اليهود فكيف الجمع؟.

وثانياً - لأَن الكنعانيين وهم من جزيرة العرب بلا شك ليسوا من الساميين في رواية التوراة وعند اليهود أنفسهم، فكيف يتم الجمع بين قولهم هذا وبين الزعم بأن جزيرة العرب هي موطن الساميين فقط؟!

---

(١) الصفحة ١٦٦، الفقرة ٨.

(٢) انظر الصفحة ٤٢٤ - ٤٢٦، والفقرات ١٢-١٦.

خاتمة الكتاب

إعادة نظر في الإملاءات السابقة وإضافات هامة في الصلب وعلى فصول الكتاب حول فكرة الحق لدى الشعوب العربية القديمة.

١ ـ لقد أخذت في مطلع هذه السنة (١٩٦٣) في إعادة النظر فيما أمليته على طلاب السنة الأولى في كلية الحقوق من مادة «التاريخ العام للقانون»؛ وقد كان من ثمار هذه المراجعة إضافات كثيرة هامة:

ـ فمنها ما دخل في صلب الإملاءات السابقة وضمن فصولها،

ـ ومنها ما وجب إضافته على فصول الكتاب في فصل رابع حول «فكرة الحق والقانون لدى أقدم الأمم في القانون والحضارة: من مصر إلى بابل، ومن أقصى جنوبي شبه الجزيرة العربية إلى أقصى بلاد الشام» مما لم يدخل بعد في كتبنا الجامعية الحقوقية رغم أنه من صلب مادتنا التاريخية، **ورغم ضرورته العلمية والقومية في عصر نهضتنا العربية** الحديثة.

بلغت الإضافات نحو النصف واضطرتني

٢ ـ وهكذا فقد أخذت أسابق الزمن، وأتابع طبع هذه الإضافات أسبوعاً فأسبوعاً وفقاً لساعات التدريس؛ ولم يحل مطلع آذار من سنتنا هذه (١٩٦٣) حتى تجاوزت الإضافات بمقدار ثلث ما قد كنت أمليته في السنة السابقة بل قاربت النصف، وكان من المنتظر أن تبلغ الضعف، ولكن

أحداث هذه السنة حالت بيني وبين ما أريد، وكان عليَّ أن أختم هذه الطبعة في الحدود التي وصلت إليها رغم رغبة القارىء وطلبه المزيد.

أحداث السنة للوقوف فيها حيث بلغت في آذار.

٣ - ومع ذلك فقد حاولت في هذه الخاتمة وتتميماً للفائدة أن أوجز جداً جداً فيما يلي ما لم أستطع تفصيله في هذه الطبعة، وعساني إن شاء الله أن أَتمكن في الطبعة الثالثة من تفصيل ما أشير إليه الآن أدناه.

لذلك أوجز في هذه الخاتمة ما لم أستطيع تفصيله الآن.

تتمة مباحث الباب السابق:

٤ - لقد بقي علينا من تتمة مباحث الباب الأول السابق:

الباقي من مباحث الباب السابق:
لغات هذه الشعوب،

أولاً - لغات هذه الشعوب التي اندفعت من شبه جزيرة العرب إلى ضفاف النيل في مصر، وعلى ضفاف الرافدين في العراق، وفي مختلف أنحاء بلاد الشام من شمالي شبه الجزيرة العربية حتى أرمينيا في آسيا الصغرى؛

ثانياً - عقائد هذه الشعوب؛

عقائدهم،

ثالثاً - ثقافة هذه الشعوب وأثرها في اليونان والرومان وفي عالمنا الحديث؛

ثقافتهم وأثرها فيمَن بعدهم،

رابعاً - الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لهذه الشعوب؛

خامساً - النظم السياسية لهذه الشعوب.

أوضاعهم اجتماعياً واقتصادياً، نظمهم السياسية.

٥ - ونكتفي الآن في هذا المقام بالتذكير بما قد كنا أَسلفناه في مطلع هذا الباب من أننا: «إذ نجمع في هذا الفصل دراسة فكرة الحق والقانون **لدى جميع هذه الشعوب** في مثلث الحضارات القديمة فذلك:

التذكير بما أسلفناه من وحدة هذه الشعوب وحضاراتهم وأنهم جميعاً من جزيرة العرب.

- لأَنها شعوب ذات حضارات متعاصرة متماثلة؛

ولأَن علماء الآثار ومحققيهم جزموا اليوم بوحدة أصول هذه الشعوب، وبوحدة أصول لغتهم، وبوحدة أصول تفكيرهم وأوضاعهم، وبأنهم جميعهم هجرات صدرت من جزيرة العرب.

هم إذن متقاربون في أوضاعهم الاجتماعية ولم يعرفوا تفاوتاً في الطبقات وتمايزاً في الحقوق كما كان في أثينا وروما والهند والصين.

٦ - وهم إذن متقاربون في الأوضاع الاجتماعية، ولم يعرفوا في أقطارهم على قدمهم في التاريخ ما عرفته أثينا وروما والهند والصين بعدهم بكثير:

- من تفاوت في الطبقات شرفاً ووضاعة،
- وتمايز في الحقوق بين القوي والضعيف؛

وإذا كان هناك من تفاوت وتمايز فذلك لمصلحة **الجماهير العامة** ضد مصلحة **الفئات الخاصة** الحاكمة: كما تعلنه صراحة أحكام شريعة حمورابي من **تشديد العقوبة** في الجرم الواحد على مَنْ كان من الفئات الخاصة، **وتخفيض العقوبة** على من كان مَنْ الجماهير العامة.

أما فيما يتعلق بأثر حضارتهم فيمَنْ بعدهم حتى الآن فيكفي فيه قول ول ديورانت.

٧ - وأما فيما يتعلق بثقافة هذه الشعوب وعقائدها وأوضاعها الاقتصادية ونظمها السياسية وأثرها في اليونان والرومان وفي عالمنا الحديث فيكفي أن نردد في هذا المقام ما كنا نقلناه من قبل عن «ول ديورانت» في الصفحة «٣٦» حين قال: «فسيدهشنا أن نعلم كم مختَرعاً من أَلزم مخترعاتنا لحياتنا، وكم من نظامنا الاقتصادي والسياسي، ومما لدينا من علوم وآداب، وما لنا من فلسفة ودين، **يرتدُّ إلى مصر والشرق**».

تتمة مباحث الأبواب الأخرى:

الباقي من مباحث الأبواب الأخرى:

٨ - وسنحاول في الفقرات التالية أيضاً الإشارة بإيجاز إلى

ما بقي من مباحث الأبواب الأخرى من الثاني حتى الخامس:

مجمل نظمهم ومبادؤها،

- من مجمل النظم الحقوقية لدى هذه الشعوب، وما قامت عليه نظمها من مبادىء؛

مصادر نظمهم،

- ومصادر النظم الحقوقية لدى هذه الشعوب؛

مكان النظم اليهودية،

- ومكان الشريعة اليهودية من تلك النظم الحقوقية؛

أثر نظمهم الحقوقية فيمَنْ بعدهم.

- وأثر حضارات هذه الشعوب العربية وخاصة نظمهم الحقوقية فيمَنْ بعدهم من يونان ورومان وغيرهم.

نظمهم مستوحاة من طبيعة حياتهم وصورة لحاجاتهم.

٩ - **أما فيما يتعلق** بمجمل «النظم الحقوقية لدى هذه الشعوب، وما قامت عليه نظمها من مبادىء»، فإن هذه النظم كما هي لدى كل الشعوب لا بدَّ أن تكون في آن واحد:

- **مستوحاة** من «طبيعة الحياة» لدى هذه الشعوب حينذاك،
- وصورة «لحاجات تلك الحياة ونوعيتها».

وكذلك الحقوق لدى أمة لا تتقدم طبيعة الحياة لديها بل هي صورة لها:

١٠ - وهكذا فإن الحقوق لدى أمة من الأُمم لا يمكن **أن تتقدم** على «طبيعة الحياة» التي يعيشونها، بل هي لذلك «صورة صادقة» عمَّا عرفوه من «الحاجات» وعمَّا أدركوه منها من «النوعية» في تلك الحاجات من **بدائية أو تقدمية**.

فحقوق روما البدائية لم تعرف العقود وسلطان الإرادة خلافاً لشريعة حمورابي.

فالأمة البدائية، كما كان الشأن لدى سكان روما الذين لم يعرفوا التبادل التجاري إلا نادراً، لا يمكن أن يكون في حقوقهم شيء من قواعد العقود وأحكامها، وهكذا خلت الألواح الإثنا عشر تماماً من قواعد العقود وسلطان الإرادة فيها.

أما الكلدانيون العرب فقد حوت شريعة حمورابي منهم أحكاماً كثيرة في العقود والالتزامات، ولذلك كانت أحكام العقود وسلطان الإرادة منثورة فيها ههنا وهناك: في عقود البيع والشراء، والتجارة والشركات، وأجور العمل على اختلاف الأنواع.

شريعة حمورابي نموذج للشرائع العربية القديمة، جمعت جميع النظم الحقوقية: في الأسرة والعقود والأموال والعقوبات وتحديد الأجور وأصول القضاء.

١١ ـ ولذلك جمعت شريعة حمورابي كنموذج عن شرائع الحضارات العربية القديمة **جميع أنواع النظم الحقوقية** الحديثة:

ـ من حقوق الأسرة والأشخاص،

ـ ومن العقود والالتزامات الموثقة وغير الموثقة،

ـ ومن أحكام الأموال،

ـ ومن أحكام العقوبات حتى للأطباء الجاهلين،

ـ ومن تحديد الأجور للعمل في كثير من المهن مما اعتبر اليوم من خصائص النهضة الحديثة،

ـ ومن أحكام القضاء وتوثيق الأحكام وتسجيلها مما لم يعرفه اليونان ولا الرومان إِلا بعد الحمورابيين والمصريين بكثير، وعند افتتاحهم لمصر واختلاطهم بأَبناء بلاد الشام.

وقامت تلك النظم على مبادىء إنسانية وديموقراطية.

١٢ ـ وفوق كل ذلك فقد كانت **المبادىء** التي قامت عليها كل تلك النظم الحقوقية:

ـ إنسانية في كل مقام،

ـ وديموقراطية في كل حال،

على الرغم من قدمها في التاريخ وسبقها لقوانين اليونان والرومان بدهور كثيرة متطاولة.

دليل ذلك بمقارنة سريعة

١٣ ـ ويكفي للتدليل على ذلك بالمقارنة السريعة التي

في شخصية الرقيق في روما ولدى حمورابي.

أشرنا إليها في مطلع الكتاب[١]: ما بين الفكر القانوني الروماني وبين الفكر القانوني الحمورابي السابق بنحو ألفين من السنين على الفكر القانوني الروماني، وذلك بضرب مثل واحد في شخصية الرقيق في كل من القانونين.

ففي القانون الروماني ظلَّ الرقيق شيئاً رغم شخصه الإنساني.

١٤ ـ ففي القانون الروماني **ظلَّ الرقيق** رغم شخصه الإنساني **شيئاً من الأشياء** لا يُعترَف له بشيء من الشخصية الحقوقية في الألواح الإثني عشر وفيما قبلها من الأعراف الرومانية السائدة منذ منتصف القرن الثامن قبل الميلاد.

واستمر الأمر كذلك في أَلصق شيء بإنسانيته وبشريته حتى دخل تشريع جوستينيان في منتصف القرن السادس بعد الميلاد، وذلك فيما يتعلق بحرمان الرقيق من الزواج بالمرأة الحرة.

بل كانت عقوبة الرق تُفرَض أحياناً على الروماني في وطنه ويُفسَخ بموجبها زواجه حتى مجيء جوستينيان.

١٥ ـ بل كان **الوطني الروماني** الحر إذا وقع في الرقِّ بسبب عقوبة قُضي بها عليه فُسِخَ زواجه!! وظلَّ الأمر كذلك إلى أن جاء جوستينيان في منتصف القرن السادس بعد الميلاد وأصدر مرسومه الجديد ذا الرقم «٢٢» فقال فيه: «إِن الحكم بالشغل في المعادن كان يستتبع وقوع المحكوم عليه في الرق؛ ويترتَّب على هذا فسخ زواجه ما دام هو أصبح عبد العقوبة! **ولكن هذه صرامة** بدا لنا أن نخفف منها، فنحن نأمر بأن هذا المحكوم عليه يحتفظ بحريته حتى لا يسري أثر حكم القضاء إلى زواجه فيفسخه»[٢].

---

(١) الصفحات ١٧ ـ ١٩.

(٢) **مدونة جوستينيان في الفقه الروماني**، ترجمة عبد العزيز فهمي، الصفحة ٢٩، الحاشية ١، طبع دار الكتاب المصري سنة ١٩٤٦، القاهرة،

١٦ ـ وإذا رجعنا في هذا المقام إلى شريعة حمورابي لنتعرَّف على شخصية الرقيق فيها قبل نحو من ثلاثة آلاف سنة من جوستينيان لرأينا للرقيق **شخصية حقوقية** تليق بإنسانيته مما لم يستطع التشريع الروماني أن يتفهمه حتى في أرقى مراحله في عهد جوستينيان.

أما الرقيق عند حمورابي فله شخصية حقوقية ويتزوج الحرة من البيوت العظيمة ويملك ويتزوج.

فلقد جاء في المادة «١٧٦» من شريعة حمورابي: «إذا تزوج عبد مملوك **لبيت عظيم**، أو عبد لأَحد من **عامة الشعب**، من ابنة رجل حر، وأتت إلى بيت الرجل العظيم، أو إلى بيت الرجل من العامة ببائنتها dot من بيت أبيها، ثم أن الزوجين سكنا في بيت تملكاه من مالهما: فإذا مات الرجل المملوك، سواء أكان مملوكاً للبيت العظيم أم لرجل من عامة الشعب، فلزوجته أن تأخذ بائنتها ونصف البيت الذي تملكاه حصة لأَولادها، والنصف الثاني يعود إلى صاحب العبد»(١).

١٧ ـ وهكذا نجد البون الشاسع في شخصية الرقيق ما بين الشريعتين الحمورابية والرومانية:

وهكذا فالرقيق عند حمورابي شخصية حقوقية وفي الرومانية معدومة.

ـ فهي في الأولى **شخصية حقوقية** تملك وتتزوج حتى من الأحرار ومن بيوت العظماء وتورث،

ـ بينما هي في الثانية **شخصية معدومة** وشيء فقط من الأشياء.

١٨ ـ ولذلك حقَّ لحمورابي بأن يفتخر بأن الإلٰه رضي

حمورابي حامي الضعيف

---

(١) **شريعة حمورابي**، ترجمة الدكتور عبد الرحمن الكيالي، الصفحة ٧٨، مطبعة الضاد، حلب، سنة ١٩٥٨.

وموزع الغنى والثروة.

بتسميته «الأَمير الشهير الخائف من الرب حمورابي، لأوطّد العدل على الأرض، وأزيل الشر والفساد من بين البشر، وأحمي الضعيف من الوقوع في يد القوي وظلمه»، إلى أن يقول: «فأنا حمورابي الراعي المفضل... الذي وَزّع الغنى والثروة»[١]، وهذا مما لم تعرف العناية به من قبل الحكام لا من قبل ولا من بعد في العمل على إشاعة الغنى والثروة لدى الجميع!! وهي الاشتراكية الحقة من غير ريب.

وطابع شريعة حمورابي الديموقراطية والعلنية ليعرف كل فرد ما له وعليه ولم يبلغ الرومانيون ذلك إلا بثورة.

١٩ ـ وكذلك كان الطابع الديموقراطي في شريعة حمورابي هو البارز بصورة لا شك فيه:

ـ فمن ناحية يفتخر حمورابي في خاتمة شريعته بأنه «لم يحجب نفسه عن الشعب» وأنه جعله «يتمتع بالسلام» وأنه «أزال الخوف عن نفوسهم» وأن «نصب شريعته سوف لا يهدم» وذلك حتى إذا جاء المظلوم أمام نصب شريعته وجد أن الشريعة قد «شرحت قضيته وسطّرت حقه فيها فيفرح قلبه»[٢]، وهكذا يعلم كل من المواطنين ما له وما عليه، في حين أن الرومانيين بعد ذلك بكثير كانوا يثورون في القرن الخامس قبل الميلاد لتعلن لهم حقوقهم وليعرفوا ما لهم وما عليهم بعد أن ضجّت العامة كثيراً من الاحتكام لأولئك الأشراف والنزول عند أحكامهم الكيفية المستندة في زعم الأشراف والكهان إلى عادات غير مكتوبة ولا معروفة مما لم يعد من الممكن الثقة فيها؛

واشتدت الشريعة في

ـ ومن ناحية ثانية كانت نصوص الشريعة الحمورابية تشتد

(١) نفس المرجع، الصفحات ٥٢ـ٥٣.

(٢) نفس المرجع السابق، الصفحات ٩١ـ٩٢.

في الواجبات وفي العقوبات على الفئات الخاصة والحاكمة، وترحم العامة من الشعب، حتى غدت الشريعة امتيازاً للضعفاء وسلطاناً لهم على الأقوياء: وهكذا جعلت عقوبة السرقة مثلاً على الإنسان إذا كان من «بيت عظيم» ثلاثين ضعفاً، بينما خفضت العقوبة على الرجل من «عامة الشعب» إلى عشرة أضعاف[1].

العقوبات على الخاصة ورحمت العامة.

٢٠ ـ **وأما فيما يتعلق** بمصادر هذه الشرائع في الحضارات العربية القديمة فقد اجتازت منذ زمن بعيد **عهد الأعراف** والعادات لتصبح **عهد القوانين المكتوبة والمعلنة**، بينما ظل اليونان والرومان قروناً كثيرة بعد أولئك لا يعرف الناس مرجعاً للأحكام إلا الأعراف السرية الكيفية من قبل الطبقة الممتازة الحاكمة الطاغية.

ومصادرها القانون المكتوب المعلن لا الأعراف السرية الكيفية.

٢١ ـ **وأما فيما يتعلق** بمكان الشريعة اليهودية من تلك النظم الحقوقية التي سادت في حضارات الشرق العربي، فإن التلمود في قسميه الفلسطيني والبابلي إنما وضعا بعد تلك الشرائع العربية القديمة بكثير:

ـ فالأول إنما بُدىء بوضعه في منتصف القرن الثالث بعد الميلاد،

ـ والثاني إنما بُدىء بوضعه في مطالع القرن الخامس بعد الميلاد، وانتهى في صيغته النهائية في مطالع القرن السادس بعد الميلاد[2].

الشريعة اليهودية بتلموديها أثر من أعراف كنعان وبابل وآشور، ولم تتأثر بالشريعة الرومانية التي هي أيضاً اقتبست من أعراف كنعان الفينيقية.

---

(١) نفس المرجع السابق، الصفحة ٥٦.

(٢) **تاريخ العرب** للدكتور جواد علي، الجزء الأول، الصفحة ٢٣، طبع بغداد سنة ١٩٥١.

وكلا التلمودين، فيما عدا الأحكام الدينية الخاصة، هما أثر من آثار تلك الشرائع والأعراف والتقاليد التي كانت سائدة قبلهم في بلاد كنعان وبابل وآشور، وخاصة شريعة حمورابي: فهناك «مَنْ يدعي بأن شريعة موسى منحدرة بصورة مباشرة من شريعة حمورابي... والعلماء يؤيدونه ويرجحونه»[1] على كل رأي آخر.

هذا وليس بصحيح أن الشريعة اليهودية تأثرت بالشريعة الرومانية، لأن هذه الأخيرة كانت تقتبس أيضاً من تلك الشرائع الشرقية العربية في نفس الوقت الذي كانت تُدوَّن فيه أحكام التلمودين، ولذلك تشابهت فيهما بعض الأحكام.

وأما أثر هذه الحقوق العربية القديمة في الحقوق الرومانية فقد تكلمنا عنه سابقاً.

٢٢ ـ وأما فيما يتعلق بأثر حضارات هذه الشعوب العربية فيمَنْ بعدهم من يونان ورومان وغيرهم، وذلك فيما يتعلق بموضوعنا من ناحية الحقوق، فنكتفي أيضاً الآن بما قد كنا أسلفناه مفصلاً في الناحية الأخيرة حين تكلمنا في الصفحات ٢١٥ـ٢٢٥ عن الطابع الشرقي للحقوق الرومانية اللاحقة التي حلَّت محل الألواح الإثني عشر بعد أن اقتبست الأحكام عن مصر والكلدان وفينيقيا.

الأستاذ ريفيللو يؤكِّد أن الحقوق العامة الراقية لدى الرومان ليست من

٢٣ ـ ومن المختصر المفيد أن نردد هنا ما أعلنه الأستاذ ريفيللو في كتابه عن الالتزامات في الحقوق المصرية والكلدانية[2] حيث قال: «إن هذه الأكداس من الوثائق الصحيحة التي اكتشفت أخيراً ما بين عقود ونصوص

(١) **شريعة حمورابي**، ترجمة الدكتور عبد الرحمن الكيالي، الصفحة ٣٩، طبع حلب سنة ١٩٥٨.

(٢) انظر اسم الكتاب في الصفحة ١٩٩، والحاشية رقم ١.

حقوقية، وصلتنا في آن واحد عن مصر والكلدان، **قد زلزلت بصورة غريبة جداً** ما كنا تقبلناه حتى الآن من الأفكار. وأن هذه الوثائق قد برهنت لدينا على أن هذه **الحقوق العامة** Jus gentium، أي حقوق الأمم والشعوب التي يتكلم لنا عنها فقهاء الرومان من غير انقطاع، لم تكن كما اعتُقِد حتى الآن من بنات أفكارهم، وإنما كانت حقوقاً موجودة قبلهم لا شك فيها».

صنعهم وإنما من صنع مصر والكلدان.

٢٤ ـ ثم يتابع ريفيللو ويقول: «إن هذه الوثائق قد أثبتت لنا أن الشعبين العظيمين ـ **المصري والكلداني** ـ اللذين **اعترف لهما اليونان** بأنهما مصدر وحيهم، وأنهما أنموذجهم في المدينة، هما اللذان أوجدا هذه الحقوق قبل آلاف من السنين، ثم نقلت عنهما إلى كل مكان **بواسطة الفينيقيين واليونان، وأن الرومان** لمَّا وجدوها لدى الشعوب التي أخضعوها لسلطانهم لم يلبثوا أن عرفوا مبلغ سموها على قانون الألواح الإثني عشر، وأخذوا يفكرون في تقليدها».

ويجزم ريفيللو بأن حقوق مصر والكلدان نُقِلت بواسطة الفينيقيين إلى كل مكان وأن هؤلاء هم مصدر وحي اليونان والرومان.

٢٥ ـ ويقول الأستاذ كولّلينه Paul Collinct في هذا المقام أيضاً[1] إنه: «في الشرق أكثر منه في الغرب، وفيما بين القرن الرابع إلى القرن السادس بعد الميلاد، إنما تمَّ تطور الحقوق الرومانية وانتقالها من الحقوق القديمة إلى حقوق القرون الوسطى: هذه الحقوق التي أصبحت **طليعة للحقوق الحديثة ومعدة لها**».

وكذلك يقول كوللينه بتطور الحقوق الرومانية تحت تأثير الحضارة الشرقية القديمة.

٢٦ ـ وأخيراً يعلن الأستاذ كوللينه[2]: «نقدم مرة أخرى

تحية كوللينه للبيزنطيين

---

(١) انظر الصفحة ٢٠٧.

(٢) انظر الصفحة ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

لاهتدائهم بنجمة الشرق.

إجلالنا إلى البيزنطيين، طليعة حقوق القرون الوسطى والحقوق الحديثة، **ذلك لأنهم سمحوا لأنفسهم بأن يكونوا مهديين بنجمة الشرق في رقيهم وتقدمهم»**.

أولئك قومي فجئني بمثلهم

إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ونختم بذلك كلامنا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس الكتاب

الباب الثاني

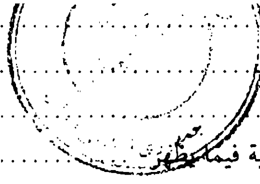
الباب الثالث

الفصل الثالث

فكرة الحق والقانون في أزمنة ما قبل التاريخ

الفصل الرابع

فكرة الحق والقانون في مطلع الأزمنة التاريخية لدى أقدم الأمم في القانون والحضارة: من مصر إلى بابل، ومن أقصى جنوبي الجزيرة العربية إلى أقصى بلاد الشام



دار الشــوّاف للنّشر والتوزيع :
ص.ب: ٤٣٣٠٧ الرياض ١١٥٦١
هاتف: ٤٦٢٢٦٣٠ - ٤٦٢٢٦٦٧
تلكس: ٤٠١٢٤٩ إس. جي / فاكس: ٤٦٢٢٨٦٦
شارع الثلاثين العليا - الرياض
المملكة العربية السعودية